

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَى)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَهَذِهِ -بِحَولِ اللهِ وقوتِهِ- فُصُولٌ مَجْمُوعَةٌ فِي تَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ، وَمَا يُحَصَّلُ بِهِ، وَمَا يَحُثُّ عَلَيْهِ، وَمَا هُوَ مِنْ فَوَائِدِهِ وَثَمَرَاتِهِ ونَتَائِجِهِ.

لَقَدْ أَكْرَمَنَا اللهُ تَعَالَىٰ بِإِنْزَالِ القُرْآنِ الحَكِيمِ؛ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَجَعَلَهُ تَعَالَىٰ مُبَارَكًا، وَمَوعِظَةً، وَهِدَايَةً، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَوَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالكَرِيمِ، وَأَقْسَمَ بِقَسَمٍ عَظِيمٍ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٧٧].

وَأَمَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ نَتَأَمَّلَ آلاءَهُ وَآيَاتِهِ، وَأَنْ نَتَفَكَّرَ فِي مَعَانِيهِ؛ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ الغَايَةِ الكُبْرَىٰ، وَهِيَ التَدَبُّرُ لِكَلَامِ اللهِ ﷻ فِي كِتَابِهِ المَجِيدِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ الغَايَةَ مِنْ إِنْزَالِهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ، مِنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ»[١].

وَالذِّينَ لَمْ يَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الخَيْرَ العَظِيمَ.

---

(١) «**مدارج السالكين**»: ١/ ٤٥٠، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

وَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الكُفَّارِ وَوَبَّخَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءُ: ٨٢].

قَالَ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(١): «وَأَصْلُ التَدبُّرِ: التَّأَمُّلُ فِي أَدْبَارِ الأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَأَمُّلٍ، سَوَاءٌ كَانَ نَظَرًا فِي حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَأَجْزَائِهِ، أَوْ سَوَابِقِهِ وَأَسْبَابِهِ، أَوْ لَوَاحِقِهِ وَأَعْقَابِهِ»(٢).

وأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ علَيْهِمْ أيضًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

لَقَدْ جَاءَ هَذَا التَّقْرِيعُ لأَنَّهُم لَمْ يَتَدَبَّرُوا القُرْآنَ الحَكِيمَ، وَلَمْ يَحْظَوْا بِنَيْلِ شَرَفِ هَذِهِ الغَايَةِ الكُبْرَىٰ؛ فَإِنَّ نُفُوسَهُمْ مُضْطَرِبَةٌ، كَالرِّيشَةِ فِي مَهَابِّ الرِّيَاحِ، يَعْتَرِيهَا النَّكَدُ وَالوَسْوَسَةُ بِسَبَبِ التَشبُّثِ بِمَفَاتِنِ الدُّنْيَا ومَلَذَّاتِهَا التي تَغَشَّتْ عَلَىٰ القُلُوبِ.

وَالقُرْآنُ المَجِيدُ أَعْيَا بِبَلاغتِهِ البُلَغَاءَ، وَحَيَّرَ بِحُسْنِ أُسْلُوبِهِ أَفْئِدَةَ العُقَلَاءِ، لَا يَمَلُّهُ قَارِئُهُ وَسَامِعُهُ، بَلْ كُلَّمَا أَكَبَّ عَلَىٰ تِلاوَتِهِ ازْدَادَ جِدَّةً وَحَلَاوَةً، وَغَيْرُهُ مِنْ

---

(١) هو المفسر الأديب مفتىٰ الْحَنَفِيَّة ببغداد: شهَاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني، أَبُو الثَّنَاء الآلوسي الْبَغْدَادِيّ الشَّافِعِي الحنفي، توفي سنة سبعين ومائتين وألف، وعمره نحو ثلاث وخمسين سنة.

انظر: «**جلاء العينين**» لابنه أبي البركات خير الدين نعمان: ص٥٧-٥٩، (القاهرة: مطبعة المدني، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

(٢) «**روح المعاني**»: ٦/ ١٦٤، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

الكَلَامِ يُعَادَىٰ إِذَا أُعِيدَ، ويُمَلُّ مَعَ التَرْدِيدِ، ولِهَذَا وُصِفَ القُرْآنُ المجيدُ بِأَنَّهُ لَا يَخْلَقُ مَعَ كَثْرَةِ التَرْدِيدِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١- ٤٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٠- ٤٣].

هُوَ الذَّي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢].

﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

ورَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]، **بِإسنادِهِ إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **قَالَ:** «دَخَلَ الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرِ بنِ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَسْأَلُهُ عَنِ القُرْآنَ، فَلَمَّا

---

(١) «**جامع البيان**»: ٢٩/ ١٥٦-١٥٧، وأخرجه أيضا: الحاكم في «**المستدرك**»: ٢/ ٥٠٦-٥٠٧، رقم (٣٨٧٢)، وأبو نعيم في «**دلائل النبوة**»: ١/ ٢٣٣، رقم (١٨٤)، والبيهقي في «**دلائل النبوة**»: ٢/ ١٩٨-٢٠٠، وفي «**شعب الإيمان**»: ١/ ٢٨٧-٢٩٠، رقم (١٣٣ و١٣٤)، والواحدي في «**أسباب النزول**»: ص٤٦٨، رقم (٨٤٢)، من طرق: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «دَخَلَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَلَىٰ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ،...» فذكره، وفي رواية: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ،...».

=

أَخْبَرَهُ خَرَجَ عَلَىٰ قُرَيْشٍ فَقَالَ: يَا عَجَبًا لِمَا يقُولُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ -وكَانَ المشركُونَ يَنْسُبُونَ النَّبِيَّ ﷺ إِلَىٰ أَبِي كَبْشَةَ، وَهْوَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ خَالَفَ قُرَيشًا فِي عِبَادةِ الأَوْثَانِ وعَبَدَ الشِّعْرَ العَبُورَ، فَلَمَّا خَالَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي عِبَادَةِ الأوثَانِ شَبَّهُوهُ بِهِ، وقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ جَدَّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قِبَلِ أُمِّهِ فَأَرَادُوا أَنَّهُ نَزَعَ فِي الشَّبَهِ إليهِ-، فَخَرَجَ الوليدُ بْنُ المُغِيرَةِ مِنْ لَدُنْ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا عَجَبًا لِمَا يَقُولُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، فَوَاللهِ مَا هُو بِشِعْرٍ، وَلَا بِسِحْرٍ، وَلَا بِهَذْيٍ مِنَ الجُنُونِ، وإِنَّ قَولَهُ لَمِنْ كَلَامِ اللهِ!

فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ النَّفَرُ مِنْ قُرَيْشٍ ائْتَمَرُوا وقَالُوا: وَاللهِ لَئِنْ صَبَأَ الوليدُ لَتَصْبَأَنَّ قُرَيْشٌ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ قَالَ: أَنَا وَاللهِ أَكْفِيكُمْ شَأْنَهُ.

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ دَخَلَ عليهِ بيتَهُ، فَقَالَ لِلْوَلِيدِ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ الصَّدَقَةَ؟

قَالَ: أَلَسْتُ أَكْثَرَهُم مَالاً وَوَلَدًا!

فَقَالَ لهُ أَبُو جَهْلٍ: يَتَحَدَّثُونَ أَنَّكَ إِنَّمَا تَدْخُلُ عَلَىٰ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ؛ لِتُصِيبَ مِنْ طَعَامِهِ.

=

والحديث صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ»، وروي عن عكرمة مرسلا بنحوه.

قَالَ الْوَلِيدُ: قَدْ تَحَدَّثَ بِهَذَا عَشِيرَتِي؟! لَا أَقْرَبُ أَبَا بَكْرٍ ولَا عُمَرَ وَلَا ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ، ومَا قَوْلُهُ إلَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ علىٰ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾، إلىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ١١-٢٨]».

قَالَ قَتَادَةُ[١]: «زَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ فَإِذَا هُوَ لَيْسِ بِشِعْرٍ، وإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وإِنَّهُ لَيَعْلُو ومَا يُعْلَىٰ، وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ سِحْرٌ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩]»[٢].

لِهَذَا تَحَدَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الجِنَّ وَالإِنْسَ مُجْتَمِعِينَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الكِتَابِ المُبِينِ، فَقَالَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ فِي كِتَابِهِ العَظِيمِ المُبِينِ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [المدثر: ٨٨].

وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَنْ يَقْوَىٰ الثَّقَلَانِ عَلَىٰ مُعَارَضَةِ هَذَا القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ كَلَامُ الكَرِيمِ المَنَّانِ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ

---

(١) هو الحافظ: قتادة بن دعامة بن قتادة، أبو الخطاب السدوسي البصري، ثقة ثبت، مات سنة بضع عشرة ومائة.

انظر: «**تهذيب الكمال**»: ٢٣/ ٤٩٨، ترجمة (٤٨٤٨)، و«**تهذيب التهذيب**»: ٨/ ٣٥١، ترجمة (٦٣٧)، و«**تقريب التهذيب**»: ص٢٤٣، ترجمة (٥٥١٨).

(٢) أخرجه الطبري في «**تفسيره**»: ٢٩/ ١٥٧، بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: ٦/ ٢٨٢ لعبد بن حميد، وروي عن مجاهد والضحاك وابن زيد نحوه.

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: ١٣- ١٤].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٨- ٣٩].

﴿... وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

● ● ●



الْغَايَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ

وَكُلُّ مَنْ سَمِعَ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ؛ فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ الرَّحْمَنِ: ﴿...وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وَقَالَ ﷺ -كَمَا فِي الحَدِيثِ الذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)]، مِنْ رِوَايَةِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه-: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

وَلَوْ أَنْصَفَ الكُفَّارُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَأَسْلَمُوا، وَلِلْحَقِّ سَلَّمُوا، وَلَكِنَّهَا الغِشَاوَةُ التِي غَطَّتْ أَبْصَارَهُمْ، وَلَكِنَّهَا الأَكِنَّةُ التِي عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٣- ٥].

وَلَقَدْ أَدْرَكَ الكُفَّارُ تَأْثِيرَ كَلَامِ العَزِيزِ الغَفَّارِ عَلَىٰ نُفُوسِ الفُجَّارِ، فَضْلًا عَنِ الأَبْرَارِ؛ فَتَوَاصَوْا بِعَدَمِ سَمَاعِهِ، وَتَوَاصَوْا بِصَرْفِ النَّاسِ عَنْ لَذِيذِ خِطَابِهِ؛ لِئَلَّا

(١) «**صحيح مسلم**»: كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، رقم (١٥٣).

يَنفُذَ إِلَىٰ القُلُوبِ، أَوْ يُؤَثِّرَ فِي النُّفُوسِ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وَلَقَدْ حَدَّثَنَا القُرْآنُ المَجِيدُ عَنْ تَأْثِيرِهِ فِي طَائِفَةٍ مِنَ النَّصَارَىٰ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

لَقَدْ تَجَاوَزَ تَأْثِيرُ القُرْآنِ المَجِيدِ إِلَىٰ غَيْرِ المُسْلِمِينَ حِينَمَا أَصْغَوْا إِلَيْهِ مُسْتَمِعِينَ؛ لِهَذَا قَالَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا-: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٧]، كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ». أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ[(٢)]، **قَالَ:** «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي».

---

(١) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، سُورَةُ وَالطُّورِ، رقم (٤٨٥٤).
والحديث متفق عليه، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِالطُّورِ فِي الْمَغْرِبِ**».

(٢) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ المَغَازِي، باب (١٢)، رقم (٤٠٢٣).

قَالَ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إِنَّمَا كَانَ انْزِعَاجُهُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الآيَةَ لِحُسْنِ تَلَقِّيهِ مَعْنَىٰ الآيَةِ، وَمَعْرِفَتِهِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ بَلِيغِ الحُجَّةِ، فَاسْتَدْرَكَهَا بِلَطِيفِ طَبْعِهِ، وَاسْتَشَفَّ مَعْنَاهَا بِذَكِيِّ فَهْمِهِ»(٢).

وَتَأَمَّلْ هَذَا المَشْهَدَ الجَمَاعِيَّ لِتَأْثِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي النُّفُوسِ، وَالتَّأَثُّرِ بِهِ وَلَوْ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ المُسْلِمُونَ، وَالمُشْرِكُونَ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣).

قَالَ الْآلُوسِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»(٤): «يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا سَجَدُوا لِدَهْشَةٍ أَصَابَتْهُمْ، وَخَوْفٍ اعْتَرَاهُمْ عِنْدَ سَمَاعِ السُّورَةِ، بِمَا فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ**﴾ [النجم: ٥٠- ٥٤] إِلَىٰ آخِرِ الآيَاتِ، فَاسْتَشْعَرُوا نُزُولَ مِثْلِ ذَلِكَ بِهِمْ».

---

(١) هُو: حَمْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيمَ، أَبُو سُلَيْمَانَ البُسْتِيُّ الخَطَّابِيُّ الشافعي، كَانَ إِمَامًا فِي الْفِقْه والْحَدِيث واللغة، تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلاثِ مائَةٍ.
انظر: «**وفيات الأعيان**»: ٢/ ٢١٤، ترجمة (٢٠٧)، و«**سير أعلام النبلاء**»: ١٧/ ٢٣، ترجمة (١٢).

(٢) «**أعلام السنن في شرح صحيح البخاري**»: ٣/ ١٩١٢، رقم (٩٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب سجود القرآن، بَابُ سُجُودِ المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْرِكِينَ، رقم (١٠٧١)، وفي: كتاب التفسير، سُورَةُ وَالنَّجْمِ، بَابُ ﴿**فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩**﴾ [النجم: ٦٢]، رقم (٤٨٦٢).

(٤) «**روح المعاني**»: ٩/ ١٧٤.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ النَّجْمَ بِمَكَّةَ، فَسَجَدَ فِيهَا، وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ، غَيْرُ شَيْخٍ كَبِيرٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًىٰ -أَوْ مِنْ تُرَابٍ-، فَرَفَعَهُ إِلَىٰ جَبْهَتِهِ وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا»، أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١).

وَهَذَا السُّجُودُ الذِي وَقَعَ مِنَ المُشْرِكِينَ، إِنَّمَا وَقَعَ بِسَبَبِ سُلْطَانِ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَدَهْشَتِهِمْ لِرَوْعَةِ بَيَانِهِ وَعَذْبِ خِطَابِهِ.

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «وَكَانَ سَبَبُ سُجُودِهِمْ -فِيمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ- أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ»(٣).

وَقَدْ حَدَثَ مِثْلُ هَذَا لِغَيْرِهِمْ، كَمَا حَدَثَ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ حِينَ سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ فُصِّلَتْ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كتاب سجود القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي سُجُودِ القُرْآنِ، رقم (١٠٦٧)، وفي مواضع، ومسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ سُجُودِ التِّلَاوَةِ، رقم (٥٧٦).

(٢) هو القَاضِي: عِيَاضُ بنُ مُوْسَىٰ بنِ عِيَاضٍ، أَبُو الفَضْلِ اليَحْصَبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ ثُمَّ السَّبْتِيُّ المَالِكِيُّ، إِمَام الحَدِيْث فِي وَقْتِهِ وَأَعرفُ النَّاس بِعُلُوْمِهِ، وَبِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ، وَكَلَامِ العَرَبِ وَأَيَّامهِم وَأَنسَابِهِم، تُوُفِّيَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ.
انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٢٠/ ٢١٢، ترجمة (١٣٦).

(٣) «**إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم**»: ٢/ ٥٢٥، (المنصورة: دار الوفاء، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

(٤) أخرج ابن إسحاق في «**السيرة**»: ص٢٠٦، ومن طريقه: ابن هشام في «**السيرة**»:
=

فَفِي «الْمُسْتَدْرَكِ»[1]: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄، قَالَ: «اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ -يَعْنِي وَالِدَ النَّبِيِّ ﷺ-».

=

١/ ٢٩٣، والبيهقي في «**الدلائل**»: ٢/ ٢٠٤-٢٠٥، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٣٨/ ٢٤٥-٢٤٦، ترجمة (٤٥٤٦)، بإسناد صحيح، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: حُدِّثْتُ: أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ -وَكَانَ سَيِّدًا حَلِيمًا-، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي الْمَسْجِدِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَىٰ هَذَا فَأُكَلِّمَهُ فَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنَّا بَعْضَهَا وَيَكُفَّ عَنَّا؟... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، فِيمَا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ، وَفِيمَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَرَأَيْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**» قَالَ: أَفْعَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**» فَمَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا وَأَلْقَىٰ بِيَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْتَمِعُ مِنْهُ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ السَّجْدَةِ فَسَجَدَ فِيهَا، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**» قَالَ: سَمِعْتُ، قَالَ: «**فَأَنْتَ وَذَاكَ**»...

والحديث إسناده ضعيف، وثبت نحوه عن جابر ﵁ مرفوعا بدون ذكر السجود، وهو الحديث الآتي بعده -إن شاء الله-.

(١) «**المستدرك**»: ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، رقم (٣٠٠٢)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ»، وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة في «**المصنف**»: ٤/ ٣٣٠-٣٣١، رقم (٣٦٥٦٠)، وعبد بن حميد كما في المنتخب من «**مسنده**»: رقم (١١٢٣)، وأبو =

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ فِي «المُصَنَّفِ»، وَعِنْدَ أَبِي يَعْلَىٰ فِي «مُسْنَدِهِ»: «قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيرٌ أَمْ عَبْدُ المُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

وَعِنْدَ البَيْهَقِيِّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ»: «قَالَ لَهُ عُتْبَةُ: أَنْتَ خَيرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟

أَنْتَ خَيرٌ أَمْ عَبْدُ المُطَّلِبِ؟

أَنْتَ خَيرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟

فَلَمْ يُجِبْهُ.

قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَفَرَغْتَ؟»**.

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ...﴾** [فُصِّلَتْ: ١- ٢]، حَتَّىٰ بَلَغَ: **﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾** [فصلت: ١٣]».

=

يعلىٰ في «**مسنده**»: ٣/ ٣٤٩-٣٥١، رقم (١٨١٨)، وأبو نعيم في «**الدلائل**»: ١/ ٢٣٠-٢٣١، رقم (١٨٢)، والبيهقي في «**الدلائل**»: ٢/ ٢٠٢-٢٠٤، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٣٨/ ٢٤٢-٢٤٣، ترجمة (٤٥٤٦)، بإسناد حسن.

فَقَالَ لَهُ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ، حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟

قَالَ: «لَا».

فَرَجَعَ عُتْبَةُ إِلَىٰ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟

فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَىٰ أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ إِلَّا قَدْ كَلَّمْتُهُ.

قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَالذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً -يُرِيدُ الكَعْبَةَ، وَكَانَتْ تُدْعَىٰ بَنِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ بَنَاهَا، وَقَدْ كَثُرَ قَسَمُهُمْ بِرَبِّ هَذِهِ البَنِيَّةِ-.

قَالَ: نَعَمْ، وَالذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.

قَالُوا: وَيْلَكَ، يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالعَرَبِيَّةِ وَلَا تَدْرِي مَا قَالَ؟!

قَالَ: لَا وَاللهِ، مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ».

وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي قِصَّةِ هِجْرَتِهِمْ إِلَىٰ الحَبَشَةِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ بِالنَّجَاشِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِجَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ -يَعْنِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ؛ فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ -يَعْنِي سُورَةَ مَرْيَمَ-، قَالَتْ: فَبَكَىٰ -وَاللهِ- النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ

أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ -أَيْ حَتَّىٰ بَلُّوهَا بِالدُّمُوعِ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ- ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا -وَاللهِ- وَالذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ». أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»(١) بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَالمِشْكَاةُ: الكُوَّةُ غَيْرُ النَّافِذَةِ.

وَقِيلَ: هِيَ الحَدِيدَةُ التِي يُعَلَّقُ عَلَيْهَا القِنْدِيلُ.

أَرَادَ أَنَّ القُرْآنَ وَالإِنْجِيلَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمَا مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ.

وَلِهَذَا فَزِعَ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ حِينَ رَأَوْا تَأْثِيرَ القُرْآنِ فِي النُّفُوسِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»(٢): عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «فَلَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغَمَادِ -وَبَرْكُ الغَمَادِ تُفْتَحُ البَاءُ فِيهِ وَتُكْسَرُ، وَتُضَمُّ الغَيْنُ وَتُكْسَرُ، وَهُوَ اسْمُ مَوْضِعٍ بِاليَمَنِ؛ وَقِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ وَرَاءَ مَكَّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ-، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغَمَادِ، لَقِيَهُ ابْنُ

---

(١) «**مسند الإمام أحمد**»: ١/ ٢٠١-٢٠٢، رقم (١٧٤٠) و٥/ ٢٩٠-٢٩١، رقم (٢٢٤٩٨)، وأخرجه أيضا: ابن إسحاق في «**السيرة**»: ص٢١٣-٢١٦، ومن طريقه: ابن هشام في «**السيرة**»: ١/ ٣٣٤-٣٣٨، وإسحاق بن راهويه في «**مسنده**»: ٤/ ٧١-٧٤، رقم (١٨٣٥)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ١/ ١١٥، ترجمة (١٧)، والبيهقي في «**السنن الكبرىٰ**»: ٩/ ١٤٤، رقم (١٨٤٢٦)، وفي «**الدلائل**»: ٢/ ٣٠١-٣٠٦، بإسناد صحيح.

(٢) «**صحيح البخاري**»: كتاب الكفالة، بَابُ جِوَارِ أَبِي بَكْرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَقْدِهِ، رقم (٢٢٩٧).

الدَّغِنَةِ -وابن الدُغُنّة، بِضَمِّ المُهْمَلَةِ وَالمُعْجَمَةِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ: (الدُغُنَّة)، وَعِنْدَ الرُّوَاةِ، بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَكَسْرِ ثَانِيهِ وَتَخْفِيفِ النُّونِ: (الدَّغِنَة)، وَهِيَ أُمُّهُ، وَقِيلَ: أُمُّ أَبِيهِ، وَقِيلَ: دَابَّتُه.

وَمَعْنَىٰ الدَّغِنَةِ: المُسْتَرْخِيَةُ، وَأَصْلُهَا: الغَمَامَةُ الكَثِيرَةُ المَطَرِ.

وَاخْتُلِفَ فِي اسْمِهِ؛ فَقِيلَ: إِنَّهُ الحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ، وَقِيلَ: اسْمُهُ مَالِكٌ-.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغَمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، -وَالقَارَةُ بِالقَافِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ: قَبِيلَةٌ مِنْ بَنِي الهُولِ بْنِ خُزَيْمَةَ، سُمُّوْا قَارَةً: لِاجْتِمَاعِهِمْ وَالْتِفَافِهِمْ، وَيُوصَفُونَ بِالرَّمْيِ-.

فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي؛ فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي، فَقَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ؛ وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ.

فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ؟!

فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ؛ فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا.

قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلَاةِ، وَلَا القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا فِي فِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ - أَيْ: يَزْدَحِمُونَ عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يَسْقُطَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَكَادُ يَنْكَسِرُ-، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ؛ فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلَاةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ؛ فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ...» الحَدِيثَ. أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ».

هَذَا هُوَ القُرْآنُ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ العَبْدُ بِقَلْبِهِ، وَأَصْغَىٰ إِلَيْهِ بِسَمْعِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

• • •

دَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ بِالْقُرْآنِ

وَلِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْقُرْآنِ الكَرِيمِ، فَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١- ٩٢].

وَأَمَرَهُ -سُبْحَانَهُ- أَنْ يَقُولَ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ...﴾ [الأنعام: ١٩].

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو الخَلْقَ بِالقُرْآنِ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ، الذِي هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَبِذَلِكَ اسْتَجَابَ خَوَاصُّ المُؤْمِنِينَ، كَأَكَابِرِ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَلِهَذَا المَعْنَىٰ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: «فُتِحَتِ المَدِينَةُ بِالقُرْآنِ»، يَعْنِي: أَنَّ أَهْلَهَا إِنَّمَا دَخَلُوا الإِسْلَامَ بِسَمَاعِ القُرْآنِ، كَمَا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ المَدِينَةِ، فَدَعَا أَهْلَ المَدِينَةِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ عَلَيْهِمْ؛ فَأَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ».

---

(١) «**شرح حديث مثل الإسلام**» طبع ضمن مجموع رسائل ابن رجب: ١/ ٢٠٦، (القاهرة: الفاروق الحديثة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

وَلِهَذَا انْطَلَقَ إِخْوَانُنَا مِنْ صَالِحِ الجِنِّ دُعَاةً إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، حِينَمَا خَالَطَ القُرْآنُ بَشَاشَتِهِ قُلُوبَهُمُ الطَّيِّبَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١)، مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ».

الإِكَافُ يَلِي الحِمَارَ، وَالقَطِيفَةُ فَوْقَ الإِكَافِ، وَالرَّاكِبُ فَوْقَ القَطِيفَةِ.

فَالإِكَافُ -بِكَسْرِ الهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ الكَافِ-: مَا يُوضَعُ عَلَىٰ الدَّابَّةِ كَالبَرْدَعَةِ، وَالقَطِيفَةُ كِسَاءٌ.

وَقَوْلُهُ: فَدَكِيَّةٌ -بِفَتْحِ الفَاءِ وَالدَّالِ وَكَسْرِ الكَافِ-، نِسْبَةً إِلَىٰ فَدَكَ، القَرْيَةِ المَشْهُورَةِ، كَأَنَّهَا صُنِعَتْ فِيهِ.

(١) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ الاِسْتِئْذَانِ، بَابُ التَّسْلِيمِ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ، رقم (٦٢٥٤)، وفي مواضع، و«**صحيح مسلم**»: كِتَابُ الْجِهَادِ، بَابٌ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ اللهِ، رقم (١٧٩٨).

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّىٰ مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ، وَاليَهُودِ، فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ -وَعَجَاجَةُ الدَّابَّةِ مَا ارْتَفَعَ مِنْ غُبَارِ حَوَافِرِهَا- خَمَّر -أَيْ غَطَّىٰ- عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ، فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَيُّهَا المَرْءُ، لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَىٰ رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ.

قَالَ: فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ، حَتَّىٰ هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا -أَيْ قَارَبُوا أَنْ يَثِبَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَقْتَتِلُوا- فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ: أَيْ سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَىٰ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ -يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ-، قَالَ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ وَاصْفَحْ، فَوَاللهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَة -وَالبُحَيْرَةُ: مَدِينَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ تَصْغِيرُ البَحْرَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ مُكَبَّرَةً، وَالعَرَبُ تُسَمِّي المُدُنَ وَالقُرَىٰ: البِحَارَ-،

فَوَاللهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةَ أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالعِصَابَةِ -أَيِ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلُوهُ مَلِكَهُمْ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ إِذَا مَلَّكُوا إِنْسَانًا أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ- فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالحَقِّ الذِي أَعْطَاكَهُ، شَرِقَ -أَيْ غَصَّ- بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ؛ فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ. أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لَهُ.

وَقَدْ أَشَارَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ الطُّرُقِ التِي فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، لِدَعْوَةِ الكُفَّارِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ فَقَالَ[1]: «يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ، وَالإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بِمَا يَصِفُهُ مِنْ مَحَاسِنِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ، وَمَا يَذْكُرُهُ مِنْ بَرَاهِينِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِيَهْتَدِيَ مَنْ قَصْدُهُ الحَقُّ وَالإِنْصَافُ، وَلِتَقُومَ الحُجَّةُ عَلَىٰ المُعَانِدِ، وَهَذِهِ أَعْظَمُ طَرِيقٍ يُدْعَىٰ بِهَا جَمِيعُ المُخَالِفِينَ لِدِينِ الإِسْلَامِ.

فَإِنَّ مَحَاسِنَ دِينِ الإِسْلَامِ وَمَحَاسِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَآيَاتِهِ وَبَرَاهِينَهُ، فِيهَا كِفَايَةٌ تَامَّةٌ لِلدَّعْوَةِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ إِبْطَالِ شُبَهِهِمْ وَمَا يَحْتَجُّونَ بِهِ؛ فَإِنَّ الحَقَّ إِذَا اتَّضَحَ، عُلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ ضَلَالٌ.

وَيَدْعُوهُمْ أَيْضًا بِنَحْوِ مَا يَدْعُو بِهِ المُؤْمِنِينَ، بِذِكْرِ آلَائِهِ وَنِعَمِهِ، وَأَنَّ المُنْفَرِدَ بِالخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، هُوَ الذِي يَجِبُ عَلَىٰ العِبَادِ طَاعَتُهُ، وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابُ نَهْيِهِ.

---

(١) «**القواعد الحسان لتفسير القرآن**» طبع ضمن مجموع مؤلفات الشيخ السعدي: ٣/ ٣٥٣-٣٥٤، (الرياض: دار الميمان، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

وَيَدْعُوهُمْ أَيْضًا بِشَرْحِ مَا فِي أَدْيَانِهِمُ البَاطِلَةِ، وَمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ القُبْحِ، وَالمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ دِينِ الإِسْلَامِ؛ لِيَتَبَيَّنَ وَيَتَّضِحَ مَا يَجِبُ إِيثَارُهُ، وَمَا يَتَعَيَّنُ اخْتِيَارُهُ.

وَيَدْعُوهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا وَصَلَتْ بِهِمُ الحَالُ إِلَىٰ العِنَادِ وَالمُكَابَرَةِ الظَّاهِرَةِ، تَوَعَّدَهُمْ بِالعُقُوبَاتِ الصَّوَارِمِ، وَبَيَّنَ لِلنَّاسِ طَرِيقَتَهُم التِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُخَالِفُوا الدِّينَ جَهْلًا وَضَلَالًا، أَوْ لِقِيَامِ شُبْهَةٍ أَوْجَبَتْ لَهُمُ التَّوَقُّفَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ جُحُودٌ وَمُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ.

وَيُبَيِّنُ مَعَ ذَلِكَ الأَسْبَابَ التِي مَنَعَتْهُمْ مِنْ مُتَابَعَةِ الهُدَىٰ، وَأَنَّهَا رِيَاسَاتٌ وَأَغْرَاضٌ نَفْسِيَّةٌ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا آثَرُوا البَاطِلَ عَلَىٰ الحَقِّ؛ طُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَخُتِمَ عَلَيْهَا، وَسُدَّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ الهُدَىٰ؛ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ إِعْرَاضِهِمْ وَتَوَلِّيهِمْ لِلشَّيْطَانِ، وَتَخَلِّيهِمْ مِنْ وَلَايَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَنَّهُ وَلَّاهُمْ مَا تَوَلَّوْا لِأَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ المَعَانِي الجَزِيلَةُ المَبْسُوطَةُ تَجِدُهَا فِي القُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، فَتَأَمَّلْ وَتَدَبَّرِ القُرْآنَ، تَجِدْهَا وَاضِحَةً جَلِيَّةً».

وَكَيْفَ لَا يُدْعَىٰ الخَلْقُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِالقُرْآنِ، وَهُوَ الكِتَابُ الذِي قَالَ فِيهِ مُنَزِّلُهُ وَقَائِلُهُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فَإِنَّ الجَبَلَ -عَلَىٰ غِلْظَتِهِ وَقَسَاوَتِهِ- لَوْ فَهِمَ هَذَا القُرْآنَ المَجِيدَ، فَتَدَبَّرَ مَا فِيهِ؛ لَخَشَعَ.

فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ»[(١)]: «وَالغَرَضُ تَوْبِيخُ الإِنْسَانِ عَلَىٰ قَسْوَةِ قَلْبِهِ، وَقِلَّةِ تَخَشُّعِهِ، عِنْدَ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَتَدَبُّرِ قَوَارِعِهِ وَزَوَاجِرِهِ.

ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ كَيْفَ يُتْرَكُ الخُشُوعُ لِذَاتِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ، مَعَ أَنَّهُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤]».

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ...﴾ [الرعد: ٣١].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَىٰ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ[(٢)]: «لَوْ كَانَ فِي الكُتُبِ المَاضِيَةِ كِتَابٌ تُسَيَّرُ بِهِ الجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الأَرْضُ وَتَنْشَقُّ، أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ المَوْتَىٰ فِي قُبُورِهَا؛ لَكَانَ هَذَا القُرْآنُ هُوَ المُتَّصِفَ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ».

وَكَمَا خَشَعَ البَشَرُ وَالحَجَرُ لِكَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَدْ خَشَعَ الشَّجَرُ.

---

(١) «**محاسن التأويل**» لجمال الدين القاسمي: ٩/ ١٩٦، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ).

(٢) «**تفسير القرآن العظيم**»: ٤/ ٤٦٠، (الرياض: دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

فَفِي «**صَحِيحِ البُخَارِيِّ**»(١): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﵄ قَالَ: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَىٰ جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَىٰ جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، -وَالعِشَارُ: النُّوقُ الحَوَامِلُ، وَاحِدَتُها عُشَرَاءُ، وَهِيَ التِي أَتَىٰ عَلَيْهَا فِي الحَمْلِ عَشْرَةُ أَشْهُرٍ؛ فَتُسَمَّىٰ بِذَلِكَ حَتَّىٰ تَضَعَ وَبَعْدَ أَنْ تَضَعَ-.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَىٰ جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ، حَتَّىٰ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَنَتْ. أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ.

وَفِي رِوَايَةٍ(٢): «فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الذِي يُسَكَّنُ».

قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَىٰ مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا».

قَالَ الوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ -وَهُوَ عَرَبِيٌّ جَاهِلِيٌّ صِنْدِيدٌ عَنِيدٌ- وَهُوَ يَصِفُ القُرْآنَ المَجِيدَ: «وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ آنِفًا كَلَامًا، مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الإِنْسِ، وَلَا مِنْ كَلَامِ الجِنِّ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَىٰ عَلَيْهِ».

---

(١) «**صحيح البخاري**»: كتاب المناقب، بَابُ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ، رقم (٣٥٨٥).
(٢) «**صحيح البخاري**»: الموضع السابق، رقم (٣٥٨٤).

وَقَالَ فَرَنْسِيٌّ فَيْلَسُوفٌ مُلْحِدٌ، هُوَ جُوزِيفْ إِرْنِسْتْ رِينَانْ: «تَضُمُّ مَكْتَبَتِي آلَافَ الكُتُبِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالأَدَبِيَّةِ، وَغَيْرِهَا، التِي لَمْ أَقْرَأْهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا أَكْثَرَ الكُتُبَ التِي لِلزِّينَةِ فَقَطْ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ كِتَابٌ وَاحِدٌ تُؤْنِسُنِي قِرَاءَتُهُ دَائِمًا، هُوَ كِتَابُ المُسْلِمِينَ: القُرْآنُ، فَكُلَّمَا أَحْسَسْتُ بِالإِجْهَادِ، وَأَرَدْتُ أَنْ تَنْفَتِحَ لِي أَبْوَابُ المَعَانِي وَالكَمَالَاتِ؛ طَالَعْتُ القُرْآنَ؛ حَيْثُ إِنَّنِي لَا أُحِسُّ بِالتَّعَبِ أَوِ المَلَلِ بِمُطَالَعَتِهِ بِكَثْرَةٍ.

لَوْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَعْتَقِدَ بِكِتَابٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الكِتَابَ هُوَ القُرْآنُ لَا غَيْرَ؛ إِذْ إِنَّ الكُتُبَ الأُخْرَىٰ لَيْسَتْ لَهَا خَصَائِصُ القُرْآنِ».

أَلَيْسَتْ مَقُولَةُ (رِينَانْ) هِيَ بِنَفْسِهَا مَقُولَةَ الوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَةِ؟

فَمَا الذِي جَعَلَ الوَلِيدَ وَ(رِينَانْ) يَتَّفِقَانِ عَلَىٰ أَنَّ القُرْآنَ يَعْلُو وَلَا يُعْلَىٰ عَلَيْهِ؟ إِنَّهُ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَنْ أَرَادَ العِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ القُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ»(١).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: ٦/ ٢٤٧، رقم (٨١٤)، وأبو عبيد القاسم بن سلام في «**فضائل القرآن**»: ص٩٦، وسعيد بن منصور في التفسير من «**السنن**»: رقم (١)، وابن أبي شيبة في «**المصنف**»: ١٠/ ٤٨٥، رقم (٣٠٠١٨)، وأحمد في «**الزهد**»: ص١٢٩، رقم (٨٥٦)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: ٩/ ١٤٦، رقم (٨٦٦٦)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: ٣/ ٣٤٧، رقم (١٨٠٨)، بإسناد صحيح.

«قَالَ شِمْرٌ: تَثْوِيرُ الْقُرْآنِ: قِرَاءَتُهُ، وَمُفَاتَشَةُ الْعُلَمَاءِ بِهِ فِي تَفْسِيرِهِ وَمَعَانِيهِ»(١).

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وَأَغْنَىٰ غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلَا

وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلَا

وَحَيْثُ الْفَتَىٰ يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ الْقَبْرِ، يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلَا(٢)

●●●

(١) «تهذيب اللغة»: ١٥/ ٨٠، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠١م).

(٢) «حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع» للشاطبي: المقدمة، البيت: ١٠-١٢.

مَعْنَى النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ، وَصُوَرُهَا

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(١) بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي رُقَيَّةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**».

قَالَ المَازِرِيُّ(٢): «النَّصِيحَةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ نَصَحْتُ العَسَلَ إِذَا صَفَّيْتُهُ، وَيُقَالُ: نَصُحَ الشَّيْءُ إِذَا خَلُصَ، وَنَصَحَ لَهُ القَوْلَ إِذَا أَخْلَصَهُ لَهُ.

أَوْ: هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ النُّصْحِ، وَهُوَ الخِيَاطَةُ بِالمِنْصَحَةِ -وَهِيَ الإِبْرَةُ-، وَالمَعْنَىٰ: أَنَّهَ يَلُمُّ شَعَثَ أَخِيهِ بِالنُّصْحِ كَمَا تَلُمُّ المِنْصَحَةُ»، وَمِنْهُ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ، كَأَنَّ الذَّنْبَ يُمَزِّقُ الدِّينَ، وَالتَّوْبَةَ تَخِيطُهُ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ(٣): «النَّصِيحَةُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ، مَعْنَاهَا: حِيَازَةُ الحَظِّ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ، وَيُقَالُ: هُوَ مِنْ وَجِيزِ الأَسْمَاءِ وَمُخْتَصَرِ الكَلَامِ، وَلَيْسَ فِي كَلَامِ العَرَبِ كَلِمَةٌ

(١) «**صحيح مسلم**»: كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، رقم (٥٥).

(٢) «**المعلم بفوائد مسلم**»: ١/ ٢٩٣-٢٩٤، و«**إكمال المعلم**»: ١/ ٣٠٦، و«**فتح الباري**»: ١/ ١٣٨، (المكتبة السلفية، ١٣٧٩هـ).

(٣) «**أعلام السنن**»: ١/ ١٨٩-١٩٠، و«**فتح الباري**»: ١/ ١٣٨.

مُفْرَدَةٌ يُسْتَوْفَىٰ بِهَا العِبَارَةُ عَنْ مَعْنَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ، كَمَا قَالُوا فِي (الفَلَاحِ): لَيْسَ فِي كَلَامِ العَرَبِ أَجْمَعُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْهُ».

وَأَمَّا مَعْنَىٰ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ: فَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(١): «النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ: شِدَّةُ حُبِّه، وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ؛ -إِذْ هُوَ كَلَامُ الخَالِقِ-، وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، ثُمَّ شِدَّةُ العِنَايَةِ فِي تَدَبُّرِه، وَالوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِطَلَبِ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، وَيَقُومَ لَهُ بِهِ بَعْدَ أَنْ يَفْهَمَهُ؛ وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ مِنَ العِبَادِ، يَتَفَهَّمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْهُ عُنِيَ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ لِكِتَابِ اللهِ، يُعْنَىٰ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ للهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ، ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهِمَهُ فِي العِبَادِ، وَيُدِيمُ دِرَاسَتَهُ: بِالمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَنْزِيلُه، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الخَلْقِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ، ثُمَّ تَعْظِيمُهُ وَتِلَاوَتُهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَتَحْسِينُهَا، وَالخُشُوعُ عِنْدَهَا، وَإِقَامَةُ حُرُوفِهِ فِي التِّلَاوَةِ، وَالذَّبُّ عَنْهُ مِنْ تَأْوِيلِ المُحَرِّفِينَ وَتَعَرُّضِ الطَّاعِنِينَ، وَالتَّصْدِيقُ بِمَا فِيهِ، وَالوُقُوفُ مَعَ أَحْكَامِهِ، وَتَفَهُّمُ عُلُومِهِ وَأَمْثَالِهِ، وَالِاعْتِبَارُ بِمَوَاعِظِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَجَائِبِهِ، وَالعَمَلُ بِمُحْكَمِهِ، وَالتَّسْلِيمُ لِمُتَشَابِهِهِ، وَالبَحْثُ

---

(١) «**تعظيم قدر الصلاة**»: ٢/ ٦٩٣، (المدينة: مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٦هـ).

(٢) «**المنهاج شرح صحيح مسلم**»: ٣/ ٣٨، (المطبعة البهية المصرية).

عَنْ عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ، وَنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، وَنَشْرُ عُلُومِهِ، وَالدُّعَاءُ إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ مَا ذَكَرَهُ مِنَ النَّصِيحَةِ».

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ[1]: «النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ: تَعَلُّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ، وَإِقَامَةُ حُرُوفِهِ فِي التِّلَاوَةِ، وَتَحْرِيرُهَا فِي الكِتَابَةِ، وَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ، وَحِفْظُ حُدُودِهِ، وَالعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وَذَبُّ تَحْرِيفِ المُبْطِلِينَ عَنْهُ».

هَذَا مُجْمَلُ مَعْنَىٰ النَّصِيحَةِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَقْوَالِ السَّلَفِ وَأَفْعَالِهِم.



---

(١) «فتح الباري»: ١/ ١٣٨.

تَدَبُّر الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ

مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا تَدَبُّرُهُ، وَالنَّظَرُ فِي مَعَانِيهِ.

وَقَدْ جَاءَ الأَمْرُ بِالتَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ العَظِيمِ فِي آيَاتٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

قَالَ الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «أَلَا تَرَوْنَ -رَحِمَكُمُ اللهُ- أَنَّ مَوْلَاكُمُ الكَرِيمَ، كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلَامَهُ، وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الوَاجِبَ، فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ

---

(١) «**أخلاق أهل القرآن**»: ص٣٦-٣٧، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

الكَرِيمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ، كَانَ القُرْآنُ لَهُ شِفَاءً؛ فَاسْتَغْنَىٰ بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ بِمَا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ تِلَاوَةِ السُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا: مَتَىٰ أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُوهُ؟ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَعْقِلُ مِنَ اللهِ الخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَزْدَجِرُ؟ مَتَىٰ أَعْتَبِرُ؟ لِأَنَّ تِلَاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالعِبَادَةُ لَا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ».

وَالمَقْصُودُ بِالتَّدَبُّرِ: لَيْسَ مُجَرَّدَ العَمَلِيَّةِ العَقْلِيَّةِ، أَوْ مُجَرَّدَ التِّلَاوَةِ، بِدُونِ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِي القَلْبِ بِزِيَادَةِ الإِيمَانِ، وَمَا يُلَازِمُهُ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ فِي الجَوَارِحِ.

عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قَالَ: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ»(١).

وَلِذَلِكَ جَاءَتِ الآيَاتُ فِي القُرْآنِ مُشِيرَةً إِلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: ٦/ ٢٤٢، رقم (٧٩٢)، والقاسم بن سلام في «**فضائل القرآن**»: ص١٣١، وسعيد بن منصور في التفسير من «**السنن**»: ٢/ ٦٠٥، رقم (٢١١)، والمروزي في «**تعظيم قدر الصلاة**»: ١/ ٣٩٦-٣٩٧، والطبري في «**تفسيره**»: ١/ ٥٢٠ و١٢/ ١٧، وعبد الرحمن بن الحسن الهمداني في «**تفسير مجاهد**»: ص٢١٢-٢١٣، بإسناد صحيح.

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

لَقَدْ جَاءَ عَنِ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- ذَمُّ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَتَفَهَّمُهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِيهِ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الأَنْبَارِيِّ، بِسَنَدِهِ(١): عَنْ زِيَادِ بْنِ مِخْرَاقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَسَهُلَ عَلَيْنَا العَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ الْقُرْآنِ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ العَمَلُ بِهِ».

وَبِسَنَدِهِ(٢): عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ الفَضْلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِي صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ، لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرُزِقُوا

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي: ١/ ٤٠، بإسناد حسن.
(٢) المرجع السابق، بإسناد فيه لين.

العَمَلَ بِالقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ، مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالأَعْمَىٰ، وَلَا يُرْزَقُونَ العَمَلَ بِهِ».

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَقَدْ عِشْنَا دَهْرًا طَوِيلًا، وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَىٰ الإِيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ، فَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَنَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ القُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الكِتَابِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ لَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ؛ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ!»(١).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢): عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»، وَتَدَبُّرُ القُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ الفِقْهِ فِي الدِّينِ.

---

(١) أخرجه الطحاوي في «**شرح مشكل الآثار**»: ٤/ ٨٤-٨٥، رقم (١٤٥٣)، وابن منده في «**الإيمان**»: ١/ ٣٦٩-٣٧٠، رقم (٢٠٧)، والحاكم في «**المستدرك**»: ١/ ٣٥، رقم (١٠١)، والبيهقي في «**السنن الكبرىٰ**»: ٣/ ١٢٠، رقم (٥٢٩٠)، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٣١/ ١٦٠، ترجمة (٣٤٢١)، بإسناد صحيح، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَوْفٍ الشَّيْبَانِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحْدَثَنَا يُؤْتَىٰ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ،...» فذكره.

قال ابن منده: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ»، وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً»، وله شواهد من حديث: جندب وحذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، بنحوه.

(٢) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ العِلْمِ، بَاب مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، رقم (٧١) ومواضع، و«**صحيح مسلم**»: كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، رقم (١٠٣٧)، وفي: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي،...**»، من حديث: مُعَاوِيَةَ =

وَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَلَنْ تتحقَّق هَذِهِ الطُّمَأْنينةُ، وَلَا هَذَا التَّثَبُّتُ وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ وَهَذَا الشِّفَاءُ، إِلَّا بالِاسْتِمَاعِ وَالإِنْصَاتِ وَالتَّدَبُّرِ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وَتَدَبُّرُ القُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ الوَسَائِلِ فِي بَيَانِ الفُرْقَانِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وَالنَّبِيُّ ﷺ نَادَىٰ رَبَّهُ وَاشْتَكَىٰ إِلَيْهِ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ، غَيْرَ أَنَّهُ يُعَرِّضُ بِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ العَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ.

=

رضي الله عنه، وهو طرف الحديث، وتمامه: «...، **وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**».

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-[(١)]: «أَنَّ مِنْ هَجْرِ القُرْآنِ هَجْرَ تَدَبُّرِهِ، وَهَجْرَ الِاسْتِشْفَاءِ بِهِ».

وَالمُؤْمِنُ المُحِبُّ لِكِتَابِ رَبِّهِ إِذَا أَرَادَ التَّنَعُّمَ بِالتَّدَبُّرِ، فَلْيَحْذَرْ مِنَ العَجَلَةِ فِي التِّلَاوَةِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «كَيْفَ يَرِقُّ قَلْبُكَ، وَأَنْتَ هِمَّتُكَ فِي آخِرِ السُّورَةِ؟!».

فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَدَبَّرَ القُرْآنَ عِنْدَ قِرَاءَتِكَ لَهُ، وَأَنْ تَتَرَسَّلَ، وَأَنْ تَخْشَعَ وَتَخْضَعَ وَتَذِلَّ، وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، لَا سِيَّمَا حِينَمَا يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ فِي رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ -كَمَا فِي «صَحِيحِ البُخَارِيّ»[(٢)]-.

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ»[(٣)]: «... **وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**».

●●●

---

(١) «**الفوائد**»: ص١١٨، (مكة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٩هـ).

(٢) «**صحيح البخاري**»: كتاب بَدْءِ الوَحْيِ، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ رقم (٦)، وفي مواضع، والحديث متفق عليه، بلفظ: «...، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ القُرْآنَ،...».

(٣) «**صحيح مسلم**»: كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، بَابُ فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، رقم (٢٦٩٩).

الْمَوَاضِعُ الَّتِي حَثَّ فِيهَا الْقُرْآنُ عَلَى التَّعَقُّلِ وَالتَّذَكُّرِ وَالسَّمَاعِ

لَقَدْ دَعَا الْقُرْآنُ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَحَرَّكَ الْقُلُوبَ وَالعُقُولَ إِلَىٰ تَأَمُّلِ المَعَانِي، وَالِاتِّعَاظِ وَالِاسْتِبْصَارِ لِمَا جَاءَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ، وَمَا ذَكَرَ مِنْ مَصِيرِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، حِينَ اسْتَجَابُوا أَوْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ المَوَاضِعَ التِي يَذْكُرُ فِيهَا القُرْآنُ القَصَصَ وَالأَمْثَالَ، وَالتِي يَذْكُرُ فِيهَا الحَثَّ عَلَىٰ التَّعَقُّلِ، وَالتَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَالتَّقْوَىٰ وَالإِيمَانِ، وَالرُّؤْيَةِ وَالإِبْصَارِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، كَثِيرَةٌ جِدًّا.

فَمِنَ المَوَاضِعِ التِي حَثَّ فِيهَا عَلَىٰ التَّعَقُّلِ، وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا مِنَ القُرْآنِ العَظِيمِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

كَمَا وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فِي ثَمَانِيَةِ مَوَاضِعَ.

وَقَدْ وَرَدَ غَيْرُهَا مِنَ الآيَاتِ فِي المَوْضُوعِ نَفْسِهِ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

كَمَا وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَينِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ أَيْضًا.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وَكَذَلِكَ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٧].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱنظُرُواْ ...﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ.

وَكَذَلِكَ المَوَاضِعُ التِي ذُكِرَ فِيهَا السَّمَاعُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص: ٧١].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ.

فَهَذِهِ المَوَاضِعُ وَغَيْرُهَا، إِنَّمَا يَدْعُو جَلَّ وَعَلَا فِيهَا إِلَىٰ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا فِيهِ مِنَ المَوَاعِظِ وَالآيَاتِ، القَائِدِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ وَالإِيمَانِ، وَاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ.

●●●

تَنوُّع الْأَسَالِيبِ الَّتِي دَعَا فِيهَا الْقُرآنُ إِلَى تَدبُّرِ آيَاتِه

لَقَدْ تَنوَّعَتِ الأَسَالِيبُ التِي دَعَا فِيهَا القُرآنُ إِلَىٰ التَّدبُّرِ، وَمِنْ هَذِهِ الأَسَالِيبِ:

الأُسْلُوبُ الأَوَّلُ: وَهُوَ الحَثُّ المُبَاشِرُ عَلَىٰ التَّدبُّرِ العَامِّ لِلْقُرْآنِ.

وَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي عَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ الكَرِيمَاتِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

فَقَدْ دَعَا القُرْآنُ هُنَا إِلَىٰ التَّدبُّرِ دَعْوَةً مُبَاشِرَةً صَرِيحَةً، وَأَبَانَ أَنَّ عِلَّةَ إِنْزَالِ القُرْآنِ التَّدبُّرُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا عِلَّةٌ عَظِيمَةٌ، قَائِدَةٌ إِلَىٰ كُلِّ فَلَاحٍ وَفَوْزٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَأَمَّا الأُسْلُوبُ الثَّانِي الذِي دعَا فِيهِ القُرْآنُ إِلَىٰ التَّدبُّرِ: فَهُوَ تَوْجِيهُ الخِطَابِ لِأَصْحَابِ العُقُولِ وَالنُّهَىٰ.

وَقَدْ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فِي خَمْسَةِ مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ المَجِيدِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ أَيْضًا.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

وَوَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَسِرُّ ذَلِكَ: هُوَ حَثُّ أَصْحَابِ تِلْكَ العُقُولِ وَالأَلْبَابِ، عَلَىٰ اسْتِعْمَالِهَا فِي تَدبُّرِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا فِيهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ...﴾ [يوسف: ١١١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وَخَصَّ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- بِأَنَّ ذَلِكَ آيَاتٌ لِأُولِي النُّهَىٰ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ التَّفَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ، وَأَهْلُ التَّدَبُّرِ وَالِاتِّعَاظِ».

وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤][٢]: «إِنَّ فِيمَا وُصِفَ فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنْ قُدْرَةِ رَبِّكُمْ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: يَعْنِي لَدَلَالَاتٍ وَعَلَامَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ رَبِّكُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ لَكُمْ سِوَاهُ».

الأُسْلُوبُ الثَّالِثُ: ضَرْبُ الأَمْثَالِ بِقَصْدِ التَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ.

فَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَىٰ الأَمْثَالَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَحَثَّ عَلَىٰ تَأَمُّلِهَا وَتَذَكُّرِهَا فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَفِي مَجَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَضَرَبَ اللهُ الأَمْثَالَ لِلْإِيمَانِ وَالكُفْرِ،

---

(١) «**جامع البيان**»: ١٦/ ١٧٥، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

(٢) المرجع السابق.

وَالعِلْمِ النَّافِعِ، وَفَضْحِ النِّفَاقِ، وَالحَثِّ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ، وَالتَّرْغِيبِ فِي الخَيْرِ، وَالتَّنْدِيدِ بِالشَّرِّ، وَتَصْوِيرِ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ، وَالصَّالِحِ وَالطَّالِحِ، وَلِإِقَامَةِ الأَدِلَّةِ وَالبَرَاهِينِ، وَبَيَانِ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ الهَدَفِ مِنْ تِلْكَ الأَمْثَالِ: ﴿... وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿... وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وَأَظْهَرَ القُرْآنُ مَصِيرَ مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِتِلْكَ الأَمْثَالِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥- ٣٩].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يَقُولُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ-: وَكُلُّ هَٰذِهِ الأُمَمِ التِي أَهْلَكْنَاهَا

(١) «جامع البيان»: ١٩/ ١٥.

-التي سَمَّيْناهَا، أَوْ لَمْ نُسمِّهَا-، ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾، يَقُولُ: مَثَّلْنَا لَهَا الأَمْثَالَ، وَنَبَّهْنَاهَا عَلَىٰ حُجَجِنَا عَلَيْهَا، وَأَعْذَرْنَا إِلَيْهَا بِالعِبَرِ وَالمَوَاعِظِ، فَلَمْ نُهْلِكْ مِنْهُمْ أُمَّةً إِلَّا بَعْدَ الإِبْلَاغِ إِلَيْهِمْ فِي المَعْذِرَةِ».

الأُسْلُوبُ الرَّابِعُ: تَعْلِيلُ الآيَاتِ وَخَتْمُهَا بِمَا يَدْعُو إِلَىٰ التَّدَبُّرِ.

فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الآيَاتِ قَدْ خُتِمَتْ بِعِلَلٍ تَدْعُو إِلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧- ٢٨].

وَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]. وَغَيْرِهَا مِنَ الآيَاتِ الكَثِيرَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ المُؤْمِنَ يَسْعَىٰ لِتَحْقِيقِ تِلْكَ الغَايَاتِ التِي أُنْزِلَتْ مِنْ أَجْلِهَا الآيَاتُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَالتَّأَمُّلِ فِيهِ، وَالعَمَلِ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَوَامِرَ وَتَوْجِيهَاتٍ.

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ الغَافِلِينَ وَالكَافِرِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُكَذِّبِينَ، مَصْرُوفُونَ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِهِ وَفَهْمِهَا وَالِانْتِفَاعِ بِهَا، وَمِنْهَا القُرْآنُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ القُرْآنِ، وَأَصْرِفُهُمْ عَنْ.........

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدىٰ وتسعون سنة.

=

آيَاتِهِ»[١].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ[٢]: «وَأَوْلَىٰ الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ -وَآيَاتُهُ هِيَ أَدِلَّتُهُ وَأَعْلَامُهُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَا أَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ، فِي تَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِهِ؛ وَالسَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ مِنْ خَلْقِهِ فَمِنَ آيَاتِهِ، وَالقُرْآنُ أَيْضًا مِنْ آيَاتِهِ-، وَقَدْ عَمَّ بِالخَبَرِ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ المُتَكَبِّرِينَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، وَهُمُ الذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَهُمْ عَنْ فَهْمِ جَمِيعِ آيَاتِهِ، وَالِاعْتِبَارِ وَالادِّكَارِ بِهَا مَصْرُوفُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ وُفِّقُوا لِفَهْمِ بَعْضِ ذَلِكَ فَهُدُوا لِلِاعْتِبَارِ بِهِ، لَاتَّعَظُوا وَأَنَابُوا إِلَىٰ الحَقِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ كَائِنٍ مِنْهُمْ».

الأُسْلُوبُ الخَامِسُ: مِمَّا تَنَوَّعَتْ عَلَيْهِ أَسَالِيبُ القُرْآنِ المَجِيدِ، فِي الدَّعْوَةِ وَالحَثِّ عَلَىٰ تَدَبُّرِ آيَاتِ القُرْآنِ العَظِيمِ - ذِكْرُ القَصَصِ القُرْآنِيِّ لِلتَّفَكُّرِ وَالعِبْرَةِ.

=

انظر: «**تهذيب الكمال**»: ١٣/ ١٧٧، ترجمة (٢٤١٣)، و«**تهذيب التهذيب**»: ٤/ ١١٧، ترجمة (٢٠٦)، و«**تقريب التهذيب**»: ص٢٤٥، ترجمة (٢٤٥١).

(١) أخرجه الطبري في «**جامع البيان**»: ٩/ ٦٠، وابن أبي حاتم في «**تفسيره**»: ٥/ ١٥٦٧، وأبو الشيخ في «**العظمة**»: ١/ ٣١٥، رقم (٥٨)، بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: ٣/ ١٢٧ لابن المنذر.

(٢) «**جامع البيان**»: ٩/ ٦٠.

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦ - ١٧٧].

وَقَالَ تعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فَصرَّحَ القُرْآنُ بِأَنَّ فِي تِلْكَ القَصَصِ عِبرَةٌ، وَطَرِيقُ الِاعْتِبَارِ بِتِلْكَ القَصَصِ هُوَ تَدبُّرُ القُرْآنِ.

وَقَدْ أَحْسَنَ الإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ آيَةِ الأَعْرَافِ التِي مَرَّتْ، حَيْثُ كَانَ عَمَلُهُ مِثَالًا يُحْتَذَىٰ فِي التَّدَبُّرِ، فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ...﴾، يَقُولُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: فَاقْصُصْ يَا مُحَمَّدُ هَذَا القَصَصَ الذِي اقْتَصَصْتُهُ عَلَيْكَ، مِنْ نَبأِ الذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، وَأَخْبَارَ الأُمَمِ التِي أَخْبَرْتُكَ أَخْبارَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَاقْتَصَصْتُ عَلَيْكَ نَبأَهُمْ وَنبأَ أَشْبَاهِهِمْ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عُقُوبَتِنَا، وَنَزَلَ بِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَنَا مِنْ نِقْمَتِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَمَنْ قِبَلَكَ مِنْ يَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِيَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ، فَيَعْتَبِرُوا وَيُنِيبُوا إِلَىٰ طَاعَتِنَا؛ لِئَلَّا يَحِلَّ بِهِمْ مِثْلُ الذِي حَلَّ بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ النِّقَمِ وَالمَثُلَاتِ، وَيَتَدَبَّرُهُ اليَهُودُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَيَعْلَمُوا حَقِيقَةَ أَمْرِكَ وَصِحَّةَ نُبُوَّتِكَ؛ إِذْ كَانَ نَبأُ الذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا مِنْ خَفِيِّ عُلُومِهِمْ،

---

(١) «جامع البيان»: ٩/ ١٣٠.

وَمَكْنُونِ أَخْبَارِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَحْبَارُهُمْ، وَمَنْ قَرَأَ الكُتُبَ وَدَرَسَهَا مِنْهُمْ؛ وَفِي عِلْمِكَ بِذَلِكَ وَأَنْتَ أُمِّيٌّ لَا تَكْتُبُ، وَلَا تَقْرَأُ، وَلَا تَدْرُسُ الكُتُبَ، وَلَمْ تُجَالِسْ أَهْلَ العِلْمِ - الحُجَّةُ البَيِّنَةُ لَكَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكَ للهِ رَسُولٌ، وَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ مَا عَلِمتَ مِنْ ذَلِكَ -وَحَالُكَ الحَالُ التِي أَنْتَ بِهَا- إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ».

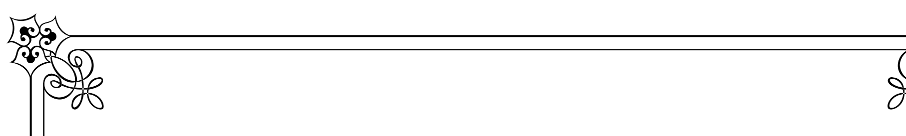
فَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَثَرُ القَصَصِ القُرْآنِيِّ فِي الهِدَايَةِ وَالإِيمَانِ وَاليَقِينِ، عِنْدَ التَّدَبُّرِ الصَّحِيحِ، وَالتَّأَمُّلِ بِقَصْدِ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ.

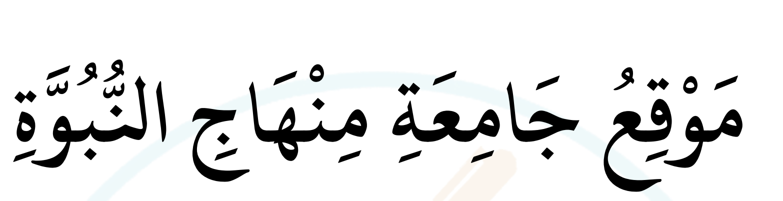
فَهَذَا الأَصْلُ الكَبِيرُ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ مُرَاعَاةً تَامَّةً، وَأَنْ يُتَأَمَّلَ فِي الطُّرُقِ التِي يُحَصَّلُ بِهَا -أَعْنِي بِهَذَا الأَصْلِ: تَدَبُّرَ القُرْآنِ العَظِيمِ-؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صَرَّحَ -كَمَا مَرَّ- فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ القُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفَادَ مِنْهُ الفَائِدَةَ المَرْجُوَّةَ إِلَّا بِتَدَبُّرِهِ وَمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَّعَظَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُنْزَجَرَ بِهِ، إِلَّا إِذَا عُلِمَتْ مَعَانِي آيَاتِهِ التِي فِيهَا المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ، وَفِيهَا الزَّجْرُ عَنْ مُوَاقَعَةِ السَّيِّئَاتِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ضَمَّهُ القُرْآنُ العَظِيمُ مِنَ الكُنُوزِ وَالآيَاتِ البَيِّنَاتِ، التِي يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا بِالنَّظَرِ المُتَدَبِّرِ المُتَأَمِّلِ المُتَأَنِّي؛ حَتَّىٰ يَسْتَطِيعَ المَرْءُ أَنْ يُفِيدَ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِ الفَائِدَةَ المَرْجُوَّةَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.




جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَعْرِيفُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الأُصُولِ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ العَظِيمِ، وَتَعْرِيفُ تَدَبُّرِ القُرْآنِ هُوَ:

جَاءَ التَّدَبُّرُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرًا مُشْتَقًّا مِنَ الفِعْلِ المَاضِي: تَدَبَّرَ، وَقَدْ ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ لِهَذَا الفِعْلِ وَمُشْتَقَّاتِهِ اسْتِعْمَالَاتٍ عَدِيدَةً، وَهِي عَلَىٰ النَّحْوِ الآتِي:

التَّدَبُّرُ: مَصْدَرٌ، فِعْلُهُ المَاضِي: تَدَبَّرَ، وَهُوَ فِعْلٌ مَزِيدٌ اشْتُقَّ مِنَ الفِعْلِ المُجَرَّدِ المَاضِي: دَبَّرَ، وَمُضَارِعُهُ: يُدَبِّر، وَالمَصْدَرُ دَبْرًا وَدُبُورًا، وَدَبُرَ النَّهَارُ أَوِ الصَّيْفُ: انْصَرَمَ وَمَضَىٰ وَانْقَضَىٰ، وَدَبُرَ الشَّيْءُ: جَاءَ بَعْدَهُ وَخَلْفَهُ، وَتَدَبَّرَ الأَمْرَ تَدَبُّرًا: نَظَرَ فِي أَدْبَارِهِ -أَيْ فِي عَوَاقِبِهِ- وَتَفَكَّرَ فِيهِ.

وَالتَّدَبُّرُ: النَّظَرُ فِي أَدْبَارِ الأَمْرِ، وَهُوَ يَعْنِي: التَّأَمُّلَ فِي عَوَاقِبِهِ أَوْ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ، وَتَدَبَّرَ الأَمْرَ: رَأَىٰ فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ**﴾ [المؤمنون: ٦٨]، أَيْ: أَلَمْ يَتَفَهَّمُوا مَا خُوطِبُوا بِهِ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ.

* **فَخُلَاصَةُ التَّدَبُّرِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ هُوَ**: النَّظَرُ فِي عَاقِبَةِ الأَمْرِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ، بِحَيْثُ يَشْمَلُ أَوَاخِرَ دَلَالَاتِ الكَلِمِ وَمَرَامِيَهُ البَعِيدَةَ.

وَالتَّدْبِيرُ، وَالتَّدَبُّرُ فِي الأَمْرِ: النَّظَرُ فِي عَاقِبَتِهِ، أَيْ أَنْ تَنْظُرَ فِيمَا تَؤُولُ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ.

وَالتَّدَبُّرُ: التَّفَكُّرُ فِيهِ؛ أَيْ: تَحْصِيلُ المَعْرِفَتَيْنِ؛ لِتَحْصِيلِ مَعْرِفَةٍ ثَالِثَةٍ، فَالتَّدَبُّرُ هُوَ: التَّفَكُّرُ وَالتَّفَهُّمُ.

وَالتَّدَبُّرُ، وَالِاعْتِبَارُ: العِبْرَة، وَالِاعْتِبَارُ بِمَا مَضَىٰ.

وَالِاعْتِبَارُ: هُوَ التَدَبُّرُ وَالنَّظَرُ.

فَالِاعْتِبَارُ: هُوَ الحَالَةُ وَالهَيْئَةُ النَّفْسَانِيَّةُ، التِي يُتَوَصَّلُ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ المُشَاهَدِ، إِلَىٰ مَا لَيْسَ بِمُشَاهَد.

* **وَأَمَّا التَّدَبُّرُ فِي الِاصْطِلَاحِ**: فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ التَّفَكُّرِ إِلَّا أَنَّ التَّفَكُّرَ: تَصَرُّفُ القَلْبِ بِالنَّظَرِ فِي الدَّلِيل؛ وَالتَّدَبُّرُ: تَصَرُّفُهُ بِالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ.

* **وَالتَّدَبُّرُ فِي الشَّرْعِ**: هُوَ النَّظَرُ، وَالتَّفَهُّمُ، وَالتَّفَكُّرُ فِي عَاقِبَةِ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الأُمُورُ التِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي القُرْآنِ المَجِيدِ، وَالِاسْتِفَادَةُ مِنْ ذَلِكَ فِي إِيمَانِ العَبْدِ، وَظُهُورِ أَثَرِهِ فِي جَوَارِحِهِ.

فَالتَدَبُّرُ: مَصْدَرُ تَدَبَّرَ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ (د ب ر) التِي قَالَ عَنْهَا ابْنُ فَارِسٍ[١]: «أَصْلُ هَذَا الْبَابِ أَنَّ جُلَّهُ فِي قِيَاسٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ آخِرُ الشَّيْءِ وَخَلْفُهُ،

---

(١) هو الإِمَامُ اللُّغَوِيُّ: أَحْمَدُ بنُ فَارسِ بنِ زَكَرِيَّا، أَبُو الحُسَيْنِ القَزْوِيْنِيُّ، المَعْرُوفُ بِالرَّازِيِّ
=

خِلَافُ قُبُلِهِ. فَمُعْظَمُ الْبَابِ أَنَّ الدُّبُرَ خِلَافُ الْقُبُلِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا تَدَابَرُوا...»، وَهُوَ مِنَ الْبَابِ، وَذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْإِقْبَالَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ بِوَجْهِهِ»(١).

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ(٢): «دَبَّرَ الأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ، واسْتَدْبَرَه: رأَىٰ فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَ فِي صَدْرِهِ؛ وعَرَفَ الأَمْرَ تَدبُّرًا، أَيْ: بِأَخَرَةٍ؛ قَالَ جَرِيرٌ(٣):

=

المَالِكِيُّ، كَانَ رَأْسًا فِي الأَدب، بَصِيْرًا بفقهِ مَالِك، مُنَاظِرًا مُتَكَلِمًا عَلَىٰ طريقَةِ أَهْلِ الحَقّ، وَمَذْهَبُهُ فِي النَّحْوِ عَلَىٰ طريقَةِ الكُوْفِيِّين، وَكَانَ مِنْ رُؤُوْس أَهْلِ السُّنَّة المُجرَّدين عَلَىٰ مَذْهَبِ أَهْلِ الحَدِيْثِ، مَاتَ بِالرَّيِّ سَنَة خَمْسٍ وَتِسْعِيْنَ وَثَلَاثِ مائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ١٧/ ١٠٣، ترجمة (٦٥).

(١) «**مقاييس اللغة**»: ٢/ ٣٢٤، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

(٢) هو اللغوي القاضي: محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور، أبو الفضل الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب «لسان العرب»، الَّذِي جمع فِيهِ بَين التَّهْذِيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة وَالنِّهَايَة، ولد سنة ثَلَاثِينَ وسِتمِائَة، وَمَاتَ سنة إِحْدَىٰ عشرَة وَسَبْعمائة.

انظر: «**شذرات الذهب**»: ٨/ ٤٩، (بيروت: دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م).

(٣) هو شَاعِرُ زَمَانِهِ: جَرِيْرُ بنُ عَطِيَّةَ بنِ الخَطَفَىٰ، أَبُو حَزْرَةَ التَّمِيْمِيُّ البَصْرِيُّ، مَاتَ فِي سَنَةِ عَشْرٍ وَمائَةٍ بَعْدَ الفَرَزْدَقِ بِشَهْرٍ سَنَةَ عَشْرٍ وَمائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٤/ ٥٩٠، ترجمة (٢٢٧)، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

وَلَا تَتَّقُونَ الشَّرَّ حَتَّىٰ يُصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الأَمْرَ إِلَّا تَدَبُّرَا(١)

وَالتَّدْبِيرُ فِي الأَمْرِ: أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ مَا تَئُولُ إِلَيْهِ عَاقِبَتُهُ؛ وَالتَّدَبُّرُ: التَّفَكُّرُ فِيهِ.

وَفُلَانٌ مَا يَدْرِي قِبَالَ الأَمْرِ مِنْ دِبَارِهِ، أَيْ: أَوَّلَهُ مِنْ آخِرِهِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ فُلَانًا لَوِ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهُدِيَ لِوِجْهَةِ أَمْرِهِ؛ أَيْ: لَوْ عَلِمَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ مَا عَلِمَهُ فِي آخِرِهِ، لَاسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ.

وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ(٢) **لِبَنِيهِ**: «يَا بَنِيَّ، لَا تَتَدَبَّرُوا أَعْجَازَ أُمُورٍ قَدْ وَلَّتْ صُدُورُها»(٣).

---

(١) «**ديوان جرير**»: ص١٨٩، (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، وانظر: «**شرح نقائض جرير والفرزدق**»: ٣/ ١٠٧٨، (الإمارات: المجمع الثقافي، ط٢، ١٩٩٨م).

(٢) هو أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ بن رياح، أَبُو حَيْدة التميمي الأسيدي، حكيم العرب في الجاهلية، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ واختلف في إسلامه، وهو أحد المعمرين؛ قيل إنه عاش مائة وتسعين سنة. انظر: «**الإصابة في تمييز الصحابة**»: ١/ ٣٥٠-٣٥٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

(٣) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «**معرفة الصحابة**»: ١/ ٣٤٢-٣٤٣، رقم (١٠٦٥)، وابن عبد البر في «**الاستيعاب**»: ١/ ١٤٦، وابن الجوزي في «**المنتظم**»: ٢/ ٣٧٠، بإسناد لا بأس به، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، مرسلا، قَالَ: بَلَغَ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرَادَ أَنْ يَأْتِيَهُ فَأَبَىٰ قَوْمُهُ أَنْ يَدَعُوهُ،... فذكر حديثه، وفيه وصيته: «...، كُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤَسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ،...».

فَهَذَا مَعْنَىٰ التَّدَبُّرِ فِي اللُّغَةِ.

وَأَمَّا فِي الِاصْطِلَاحِ، فَالتَّدَبُّرُ: هُو النَّظَرُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ التَّفكُّرِ، إِلَّا أَنَّ التَّفَكُّرَ: تَصرُّفُ القَلْبِ بِالنَّظَرِ فِي الدَّلِيلِ؛ وَالتَّدَبُّرُ: تَصرُّفُهُ بِالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ.

وَأَمَّا تَدَبُّرُ القُرْآنِ: فَهُوَ التَّأَمُّلُ فِي مَعَانِيهِ، وَتَحْدِيقُ الفِكْرِ فِيهِ، وَفِي مَبَادِئِهِ وَعَوَاقِبِهِ، وَلَوَازِمُ ذَلِكَ.

تَدَبُّرُ القُرْآنِ: هُوَ تَحْدِيقُ نَاظِرِ القَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الفِكْرِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ المَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ.



أَنْوَاعُ النَّاسِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ عِنْدَ سَمَاعِ القُرْآنِ أَنْوَاعٌ:

قَالَ تَعَالَىٰ فِي آيَاتِهِ المَشْهُودَةِ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦- ٣٧].

قَالَ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ، فَذَلِكَ الذِي لَا قَلْبَ لَهُ؛ فَهَذَا لَيْسَتْ هَذِهِ الآيَةُ ذِكْرَىٰ فِي حَقِّهِ.

الثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ مُسْتَعِدٌّ؛ لَكِنَّهُ غَيْرُ مُسْتَمِعٍ لِلْآيَاتِ المَتْلُوَّةِ، التِي يُخْبِرُ بِهَا اللهُ عَنِ الآيَاتِ المَشْهُودَةِ: إِمَّا لِعَدَمِ وُرُودِهَا، أَوْ لِوُصُولِهَا إِلَيْهِ وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَهُوَ غَائِبُ القَلْبِ لَيْسَ حَاضِرًا؛ فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ، مَعَ اسْتِعْدَادِهِ وَوُجُودِ قَلْبِهِ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ القَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ، فَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَىٰ السَّمْعَ وَأَحْضَرَ قَلْبَهُ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُهُ، فَهُوَ شَاهِدُ القَلْبِ مُلْقِي السَّمْعِ؛ فَهَذَا القِسْمُ هُوَ الذِي يَنْتَفِعُ بِالآيَاتِ المَتْلُوَّةِ وَالمَشْهُودَةِ.

---

(١) «مدارج السالكين»: ١/ ٤٤١-٤٤٢.

فَالأَوَّلُ: بِمَنْزِلَةِ الأَعْمَىٰ الذِي لَا يُبْصِرُ.

وَالثَّانِي: بِمَنْزِلَةِ البَصِيرِ الطَّامِحِ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ غَيْرِ جِهَةِ المَنْظُورِ إِلَيْهِ؛ فَكِلَاهُمَا لَا يَرَاهُ.

وَالثَّالِثُ: بِمَنْزِلَةِ البَصِيرِ الذِي قَدْ حَدَّقَ إِلَىٰ جِهَةِ المَنْظُورِ، وَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ، وَقَابَلَهُ عَلَىٰ تَوَسُّطٍ مِنَ البُعْدِ وَالقُرْبِ؛ فَهَذَا هُوَ الذِي يَرَاهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ!

فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ لَهُ قَلْبٌ وَقَّادٌ، مَلِيءٌ بِاسْتِخْرَاجِ العِبَرِ وَاسْتِنْبَاطِ الحِكَمِ، فَهَذَا قَلْبُهُ يُوقِعُهُ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ؛ فَإِذَا سَمِعَ الآيَاتِ كَانَتْ لَهُ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ.

وَهَؤُلَاءِ أَكْمَلُ خَلْقِ اللهِ، وَأَعْظَمُهُمْ إِيمَانًا وَبَصِيرَةً، حَتَّىٰ كَأَنَّ الذِي أَخْبَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ مُشَاهَدٌ لَهُمْ، لَكِنْ لَمْ يَشْعُرُوا بِتَفَاصِيلِهِ وَأَنْوَاعِهِ، حَتَّىٰ قِيلَ: إِنَّ مَثَل حَالِ الصِّدِّيقِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ دَخَلَا دَارًا، فَرَأَىٰ أَحَدُهُمَا تَفَاصِيلَ مَا فِيهَا وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَالآخَرُ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَىٰ مَا فِي الدَّارِ وَلَمْ يَرَ تَفَاصِيلَهُ وَلَا جُزْئِيَّاتِهِ، لَكِنْ عَلِمَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عَظِيمَةً لَمْ يُدْرِكْ بَصَرُهُ تَفَاصِيلَهَا، ثُمَّ خَرَجَا، فَسَأَلَهُ عَمَّا رَأَىٰ فِي الدَّارِ، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخْبَرَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ؛ لِمَا عِنْدَهُ مِنْ شَوَاهِدَ، وَهَذِهِ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الصِّدِّيقِيَّةِ، وَلَا تَسْتَبْعِدْ أَنْ يَمُنَّ اللهُ المَنَّانُ عَلَىٰ عَبْدٍ بِمِثْلِ هَذَا الإِيمَانِ، فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ وَلَا حُسْبَانٍ.

فَصَاحِبُ هَذَا القَلْبِ إِذَا سَمِعَ الآيَاتِ وَفِي قَلْبِهِ نُورٌ مِنَ البَصِيرَةِ، ازْدَادَ بِهَا نُورًا عَلَىٰ نُورِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلعَبْدِ مِثْلُ هَذَا القَلْبِ، فَأَلْقَىٰ السَّمْعَ، وَشَهِدَ قَلْبُهُ وَلَمْ يَغِبْ، حَصَلَ لَهُ التَّذَكُّرُ أَيْضًا: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ...﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وَالوَابِلُ وَالطَّلُّ فِي جَمِيعِ الأَعْمَالِ وَآثَارِهَا وَمُوجِبَاتِهَا، وَأَهْلُ الجَنَّةِ سَابِقُونَ مُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، وَبَيْنَهُمَا فِي دَرَجَاتِ التَّفْضِيلِ مَا بَيْنَهُمَا».

فَتَدَبُّرُ القُرْآنِ يَعْنِي: تَأَمُّلَ القُرْآنِ بِقَصْدِ الِاتِّعَاظِ وَالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ.

كَلِمَةُ (تَأَمُّل): اتَّفَقَ عَلَيْهَا أَغْلَبُ المُعَرِّفِينَ لِلتَّدَبُّرِ.

وَالقُرْآنُ، كَلِمَتُهُ هَذِهِ هِيَ الوَارِدَةُ فِي نَصِّ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ...﴾ [النساء: ٨٢]، وَهُوَ المَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ...﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَجُمْلَةُ: (بِقَصْدِ الِاتِّعَاظِ وَالِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ): هَذِهِ نَتِيجَةُ التَّدَبُّرِ وَثَمَرَتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ كَوْنِ هَذَا هُوَ المَقْصُودُ مِنَ التَّدَبُّرِ؛ تَوْجِيهُ الخِطَابِ فِي الآيَاتِ الآمِرَةِ بِهِ لِلْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، وَالمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ: اتِّعَاظُهُمْ بِمَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ، وَاعْتِبَارُهُمُ الهَادِي إِلَىٰ الإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الشَّرْعِ.

وَهَكَذَا يَكُونُ المَقْصُودُ عِنْدَ تَعْمِيمِ الأَمْرِ لِيَشْمَلَ المُسْلِمِينَ؛ فَالتَّدَبُّرُ مُتَوَجِّهٌ إِلَىٰ اتِّعَاظِ القَلْبِ وَاعْتِبَارِهِ، مِمَّا يُثْمِرُ بَعْدَ ذَلِكَ آثَارًا دَالَّةً عَلَىٰ الخُشُوعِ: كَوَجَلِ

القَلْبِ، وَالبُكَاءِ، وَالخَشْيَةِ، وَزِيَادَةِ الإِيمَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ؛ نَتِيجَةً لِلتَّأَثُّرِ بِالقُرْآنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَكَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

تَدبُّرُ القُرْآنِ: هُوَ تَفهُّمُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ، وَالتَّفكُّرُ فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ مُطَابَقَةً، وَمَا دَخَلَ فِي ضِمْنِهَا، وَمَا لَا تَتِمُّ تِلْكَ المَعَانِي إِلَّا بِهِ، مِمَّا لَمْ يُعَرِّجِ اللَّفْظُ عَلَىٰ ذِكْرِهِ مِنَ الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ؛ وَانْتِفَاعُ القَلْبِ بِذَلِكَ، بِخُشُوعِهِ عِنْدَ مَوَاعِظِهِ، وَخُضُوعِهِ لِأَوَامِرِهِ، وَأَخْذِ العِبْرَةِ مِنْهُ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، قَالَ[1]: «لِيَتَدبَّرُوا حُجَجَ اللهِ الَّتِي فِيهِ، وَمَا شَرَعَ فِيهِ مِنَ الشرَائِعِ، فَيَتَّعِظُوا وَيَعْمَلُوا بِهِ».

---

(١) «جامع البيان»: ٢٣/ ١٥٣.

وَقَالَ **أَبُو بَكْرِ بْنُ طَاهِرٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «تَدَبَّرْ فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالْقِيَامِ بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ»(٢).

وَقَالَ **الهَرَوِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «أَبْنِيَةُ التَّذَكُّرِ ثَلَاثَةٌ: الِانْتِفَاعُ بِالعِظَةِ، وَالِاسْتِبْصَارُ بِالعِبْرَةِ، وَالظَّفَرُ بِثَمَرَةِ الفِكْرَةِ»(٤).

---

(١) هو محمد بْن أحمد بْن طاهر، أبو بَكْر الإشبيليّ القَيْسيّ، أخذ عن أبي علي الغساني كثيرًا واختص به، وكان مشهورا بالحديث ومعرفته معتنيا به، ولد سنة تسع أربعين وأربع مائة، ومات سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة.

انظر: «**الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**»: ص٥٥٧-٥٥٨، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

(٢) «**الجامع لأحكام القرآن**»: ١٩/ ٣٨، (القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م).

(٣) هو شَيخُ الإِسْلامِ الحافظ الثقة المأمون: عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِيُّ الهَرَوِيُّ، صاحب كتاب «ذم الكلام وأهله» وغيره، وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ جِذْعًا في أعين المتكلّمين، وسيفًا مسلولًا على المخالفين، وطودًا في السّنة لا تزعزعه الرّياح، وجرى له بسبب ذلك محنٌ عظيمة، مات سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة، عَنْ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ سَنَةً وَأَشهرٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ١٨/ ٥٠٣، ترجمة (٢٦٠).

(٤) «**منازل السائرين**» مع شرحه لابن القيم: ١/ ٤٤٢.

*** تَدَبُّرُ القُرْآنِ يَشْمَلُ أُمُورًا، وَبَيَانُهَا:**

وَيُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِ العُلَمَاءِ -فِي مَعْنَىٰ التَّدَبُّرِ- أَنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ يَشْمَلُ الأُمُورَ الآتِيَةَ:

أَوَّلًا: مَعْرِفَةَ مَعَانِي الأَلْفَاظِ، وَمَا يُرَادُ بِهَا.

ثَانِيًا: تَأَمُّلَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ أَوِ الآيَاتُ، مِمَّا يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ أَوْ تَرْكِيبِ الجُمَلِ.

ثَالِثًا: اعْتِبَارَ العَقْلِ بِحُجَجِهِ، وَتَحَرُّكَ القَلْبِ بِبَشَائِرِهِ وَزَوَاجِرِهِ.

رَابِعًا: الخُضُوعَ لِأَوَامِرِهِ، وَاليَقِينَ بِأَخْبَارِهِ.

*** مُفْرَدَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِالتَّدَبُّرِ:**

وَأَمَّا المُفْرَدَاتُ التِي تَتَعَلَّقُ بِالتَّدَبُّرِ، فَمَعَانِيهَا مُتَقَارِبَةٌ، تَجْتَمِعُ فِي شَيْءٍ، وَتَفْتَرِقُ فِي آخَرَ؛ وَمِنْهَا هَذِهِ المُفْرَدَاتُ:

الفَهْمُ: وَهُوَ العِلْمُ بِمَعْنَىٰ الكَلَامِ.

الفِقْهُ: وَهُوَ العِلْمُ بِمُقْتَضَىٰ الكَلَامِ عَلَىٰ تَأَمُّلِهِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: تَفَقَّهْ مَا أَقُولُ، أَيْ: تَأَمَّلْهُ؛ لِتَعْرِفْهُ.

البَصِيرَةُ: وَهِيَ تَكَامُلُ العِلْمِ.

الفِكْرُ: وَهُوَ إِحْضَارُ مَعْرِفَتَيْنِ فِي القَلْبِ؛ لِيَسْتَثْمِرَ مِنْهُمَا مَعْرِفَةً ثَالِثَةً.

التَّفَكُّرُ: اسْتِعْمَالُ الفِكْرَةِ فِي ذَلِكَ، وَإِحْضَارُهَا عِنْدَهُ.

وَأَمَّا التَّذَكُّرُ: فَمِنَ الذِّكْرِ، وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ، وَهُوَ حُضُورُ صُورَةِ المَذْكُورِ العِلْمِيَّةِ فِي القَلْبِ، وَاخْتِيرَ لَهُ بِنَاءُ (التَّفَعُّلِ)؛ لِحُصُولِهِ بَعْدَ مُهْلَةٍ وَتَدَرُّجٍ، كَالتَّبَصُّرِ، وَالتَّفَهُّمِ، وَالتَّعَلُّمِ.

فَالتَّذَكُّرُ: هُوَ إِحْضَارُ العِلْمِ الذِي يَجِبُ مُرَاعَاتُهُ، بَعْدَ ذُهُولِهِ وَغَيْبَتِهِ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فَالتَّذَكُّرُ يُفِيدُ تَكْرَارَ القَلْبِ عَلَىٰ مَا عَلِمَهُ وَعَرَفَهُ؛ لِيَرْسَخَ فِيهِ وَيَثْبُتَ، وَلَا يَمَّحِيَ فَيَذْهَبَ أَثَرُهُ مِنَ القَلْبِ.

وَالتَّفَكُّرُ يُفِيدُ تَكْثِيرَ العِلْمِ، وَاسْتِجْلَابَ مَا لَيْسَ حَاصِلًا عِنْدَ القَلْبِ؛ فَالتَّفَكُّرُ يُحَصِّلُهُ، وَالتَّذَكُّرُ يَحْفَظُهُ، وَكُلٌّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لَهُ فَائِدَةٌ غَيْرُ فَائِدَةِ الآخَرِ.

وَأَمَّا التَّأَمُّلُ: فَهُوَ مُرَاجَعَةٌ لِلنَّظَرِ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ؛ حَتَّىٰ يَتَجَلَّىٰ لَهُ وَيَنْكَشِفَ لِقَلْبِهِ، وَتَحْدِيقُ نَاظِرِ القَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الفِكْرِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ.

وَالِاعْتِبَارُ: مِنَ العُبُورِ؛ لِأَنَّهُ يُعْبَرُ مِنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَيَعْبُرُ مِنْ ذَلِكَ الذِي قَدْ فَكَّرَ فِيهِ إِلَىٰ مَعْرِفَةٍ ثَالِثَةٍ، وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ (عِبْرَةً) -وَهِيَ عَلَىٰ بِنَاءِ الحَالَاتِ: كَالجِلْسَةِ وَالقِتْلَةِ-، إِيذَانًا بِأَنَّ هَذَا العَمَلَ قَدْ صَارَ حَالًا لِصَاحِبِهِ يَعْبُرُ مِنْهُ إِلَىٰ المَقْصُودِ بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وَأَمَّا الِاسْتِبْصَارُ: فَهُوَ اسْتِفْعَالٌ مِنَ التَبَصُّرِ، وَهُوَ تَبَيُّنُ الأَمْرِ وَانْكِشَافُهُ وَتَجَلِّيهِ لِلْبَصِيرَةِ.

*** تَعْرِيفُ الْمُعَاصِرِينَ لِلتَّدَبُّرِ:**

لَقَدْ عَرَّفَ بَعْضُ المُعَاصِرِينَ التَّدَبُّرَ بِأَنَّهُ: «التَّفَكُّرُ بِاسْتِخْدَامِ وَسَائِلِ التَّفْكِيرِ وَالتَّسَاؤُلِ المَنْطِقِيِّ؛ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ، يَحْتَمِلُهَا النَّصُّ القُرْآنِيُّ، وَفْقَ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ، مَعَ رَبْطِ الجُمَلِ القُرْآنِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَرَبْطِ السُّوَرِ القُرْآنِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَإِضْفَاءِ تَسَاؤُلَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ حَوْلَ هَذَا الرَّبْطِ».

وَمِنْ تَعْرِيفَاتِ التَّدَبُّرِ: الفَهْمُ لِمَا يُتْلَىٰ مِنَ القُرْآنِ، مَعَ حُضُورِ القَلْبِ، وَخُشُوعِ الجَوَارِحِ؛ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ.

*** مَفْهُومُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ يَشْمَلُ أُمُورًا:**

وَمُصْطَلَحُ التَّدَبُّرِ لَيْسَ المَقْصُودُ بِهِ مُجَرَّدَ قِرَاءَةِ آيَاتِ القُرْآنِ، وَتِلَاوَةِ حُرُوفِهِ، وَحِفْظِ كَلِمَاتِهِ؛ بَلِ الأَمْرُ يَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وَتَدَبُّرُ آيَاتِهِ: اتِّبَاعُهُ وَالعَمَلُ بِعِلْمِهِ، أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ

(١) هُوَ شَيْخُ أَهْلِ البَصْرَةِ وَسَيِّدُ أَهْلِ زَمَانِهِ عِلْمًا وَعَمَلًا: الحَسَنُ بنُ أَبِي الحَسَنِ: يَسَارٍ، أَبُو سَعِيْدٍ البصري، ثقة فقيه فاضل مشهور، مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين.
=

الْقُرْآنَ كُلَّهُ، فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَىٰ لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ»(١).

=

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٤/ ٥٦٣، ترجمة (٢٢٣).

(١) «**أخلاق أهل القرآن**»: ص١٠١.

أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: ٦/ ٢٤٢ و٢٤٣، رقم (٧٩٣)، والقاسم بن سلام في «**فضائل القرآن**»: ص٢١٣، وسعيد بن منصور في التفسير من «**السنن**»: ٢/ ٤٢٢، رقم (١٣٥)، والفريابي في «**فضائل القرآن**»: ص٢٤٦ و٢٤٧، رقم (١٧٧ و١٧٨)، والآجري في «**أخلاق أهل القرآن**»: ص١٠٠ و١٠١، رقم (٣٤)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: ٤/ ٢٠٩، رقم (٢٤٠٨)، والخطيب في «**اقتضاء العلم العمل**»: ص٧٠، رقم (١٠٨)، بإسناد صحيح، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا لَقُرْآنٌ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ قِبَلِ أَوَّلِهِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وَمَا يَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ بِعِلْمِهِ، وَاللهُ يَعْلَمُهُ، أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَىٰ لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقٍ، وَلَا عَمَلٍ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفَسٍ، وَاللهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ، وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَّاءُ مِثْلَ هَذَا؟ لَا كَثَّرَ اللهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ».

وفي رواية: «تَعَلَّمَ هَذَا الْقُرْآنَ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَمْ يَأْتُوهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، لَا يَدْرُونَ مَا تَأْوِيلُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وَمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ بِعِلْمِهِ، وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْرَؤُهُ، ثُمَّ يَقُولُ أَحَدُكُمْ: تَعَالَ يَا فُلَانُ أُقَارِئُكَ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَّاءُ تَفْعَلُ هَذَا؟! مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ وَلَا الْحُكَمَاءِ وَلَا الْحُلَمَاءِ، لَا أَكْثَرَ اللهُ فِي النَّاسِ أَمْثَالَهُمْ».

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَزَلَ القُرْآنُ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا»(١).

أَيْ أَنَّهُمُ اكْتَفَوْا بِالقِرَاءَةِ وَالتِّلَاوَةِ، وَمَعَ أَنَّ قِرَاءَةَ القُرْآنِ خَيْرٌ، لِكَنْ لَيْسَ المَقْصُودُ مِنَ القُرْآنِ أَنْ يَقْرَأَهُ الإِنْسَانُ كَمَا يَقْرَأُ الكِتَابَ العَادِيَّ، وَإِنَّمَا الهَدَفُ أَنْ يُقْرَأَ، وَيَظْهَرَ أَثَرُ القِرَاءَةِ فِي شَخْصِيَّةِ الفَرْدِ، وَسُلُوكِهِ، وَعَلَاقَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَعِبَادَاتِهِ القَلْبِيَّةِ وَالجَوَارِحِيَّةِ؛ وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَدَىٰ المُتَدَبِّرِ الِاسْتِعْدَادُ الكُلِّيُّ؛ لِتَطْبِيقِ تَعَالِيمِ القُرْآنِ، وَالتَّسْلِيمُ بِكُلِّ أَفْكَارِهِ وَمَعَانِيهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ إِلَىٰ المَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ أَوِ التَّقَالِيدِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا إِذَا خَالَفَتِ القُرْآنَ، وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ؛ فَسَيَعِيشُ فِي جَنَّةِ الدُّنْيَا قَبْلَ جَنَّةِ الآخِرَةِ.

وَمِنَ التَّدَبُّرِ لِلْآيَاتِ: أَنْ يَعْمَلَ المُتَعَلِّمُ بِمَا يَقْرَأُ أَوْ يَسْتَمِعُ، فَلَا يَكُونُ هَمُّهُ الحِفْظَ فَقَطْ، فَمَنْ حَفِظَ القُرْآنَ عَلَىٰ ظَهْرِ قَلْبٍ فَقَدْ حَازَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَبْلُغَ مَرْتَبَةَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ، إِذَا لَمْ تَتَوَفَّرْ لَدَيْهِ الدَّوَاعِي لِيَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ كُلِّ مَا حَفِظَ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ»(٢).

---

(١) «**تأويل مشكل القرآن**» لابن قتيبة: ص١٤٨، و«**مدارج السالكين**»: ١/ ٤٤٩ و٤٥٠.

(٢) «**مجموع الفتاوىٰ**»: ٢٣/ ٥٥.

وَمَعَ أَنَّ الوَاجِبَ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَدَبَّرَ القُرْآنَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ هُنَا مِنَ الإِشَارَةِ إِلَىٰ مَوْضُوعِ الفُرُوقِ الفَرْدِيَّةِ بَيْنَ المُتَعَلِّمِينَ، فِي التَّعَامُلِ مَعَ القُرْآنِ المَجِيدِ:

فَمِنَ المُتَعَلِّمِينَ مَنْ يُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَةِ الآيَاتِ وَإِنْهَاءِ الخَتْمَاتِ بِلَا تَأَمُّلٍ، وَلَكِنِ ابْتِغَاءِ الأُجُورِ الوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِدُ هِمَّتَهُ فِي حِفْظِ الآيَاتِ وَاسْتِظْهَارِهَا عَلَىٰ ظَهْرِ قَلْبٍ، أَكْثَرَ مِمَّا يَجِدُهُ فِي الوُقُوفِ عِنْدَ الآيَاتِ وَتَأَمُّلِهَا.

وَمِنَ المُتَعَلِّمِينَ مَنْ لَا تُسَاعِدُهُ خَلْفِيَّتُهُ الثَّقَافِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ، عَلَىٰ بُلُوغِ المَرَاتِبِ العُلْيَا فِي التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ؛ بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَشْغَلُ وَقْتَهُ بِدُرُوسِ العِلْمِ وَالفِقْهِ وَالحَدِيثِ، وَيَقْضِي مَعَهَا السَّاعَاتِ الطِّوَالَ، لَيْسَ جَهْلًا بِأَهَمِّيَّةِ التَّدَبُّرِ، وَلَكِنْ لِشُعُورِهِ أَنَّ تِلْكَ الدُّرُوسَ هِيَ مِنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تِلْكَ الدُّرُوسَ العِلْمِيَّةَ تُؤَدِّي إِلَىٰ فَهْمٍ عَمِيقٍ لِكَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفَهْمٍ وَاسِعٍ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَبَيْنَ قِرَاءَةِ كُتُبِ الفِقْهِ، وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ الأَفْضَلِيَّةِ وَالأَجْرِ، وَهَذَا الأَمْرُ يَخْتَلِفُ مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ، وَيُفَصِّلُ شَيْخُ الإِسْلَامِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ(١): «كَلَامُ اللهِ لَا يُقَاسُ بِهِ كَلَامُ الْخَلْقِ، وَأَمَّا الْأَفْضَلُ فِي حَقِّ الشَّخْصِ: فَهُوَ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ، فَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ»: ٢٣/ ٥٥ و٦٥.

وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تعَلُّمِ غَيْرِهِ، فَتَعَلُّمُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ تكْرَارِ التِّلَاوَةِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تكْرَارِهَا، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ حَفِظَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيهِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ عِلْمٍ آخَرَ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ، وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، فَتعَلُّمُهُ لِمَا يَفْهَمُهُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تِلَاوَةِ مَا لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا مَنْ تَعَبَّدَ بِتِلَاوَةِ الْفِقْهِ، فَتَعَبُّدُهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ، وَتَدَبُّرُهُ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مَنْ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامٍ لَا يَحْتَاجُ لِتَدَبُّرِهِ».

وَمِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ مَنْ يَكُونُ هَمُّهُ فَقَطْ الذِّكْرَ وَالتَّسْبِيحَ، وَلَيْسَتْ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ لِفَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَعِنْدَمَا سُئِلَ شَيْخُ الإِسْلَامِ عَمَّنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لَهُ: تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ مَعَ أَمْنِ النِّسْيَانِ، أَوِ التَّسْبِيحُ وَمَا عَدَاهُ؟

فَأَجَابَ[1]: «الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَجِدُ فِي الذِّكْرِ مِنَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَانْدِفَاعِ الْوَسَاوِسِ عَنْهُ، وَمَزِيدِ السَّكِينَةِ، وَالنُّورِ وَالْهُدَىٰ، مَا لَا يَجِدُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ لَا يَحْضُرُ قَلْبُهُ وَفَهْمُهُ».

مِنَ الْقَضَايَا الْمُهِمَّةِ، أَنْ يَعْرِفَ الْمُتَرَبِّي أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ يَكُونُ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا يُدْرَكُ بِالعَقْلِ، وَمَا يَقَعُ فِي حُدُودِ إِمْكَانِيَّاتِ العَقْلِ البَشَرِيِّ، أَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الغَيْبِيَّاتِ فَهُوَ خَارِجُ نِطَاقِ العَقْلِ، وَالوَاجِبُ التَّسْلِيمُ بِهَا.

---

(١) المصدر السابق: ٢٣/ ٥٩.

فَخُلَاصَةُ الأَمْرِ: أَنَّ التَّدَبُّرَ يَقَعُ فِي المَعْلُومِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ التَّفْسِيرِ، وَالِاسْتِنْبَاطُ مِنَ القُرْآنِ؛ أَمَّا مَا لَا يُدْرِكُهُ العَقْلُ مِنَ الأُمُورِ الغَيْبِيَّةِ التِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهَا، فَالوَاجِبُ الإِيمَانُ بِهَا دُونَ الدُّخُولِ فِي اجْتِهَادَاتٍ لِبَيَانِهَا، وَهِيَ مِمَّا لَا يَحْصُلُ بَيَانُهُ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ، وَمَتَىٰ وَقَعَ طَلَبُهَا مِنْ جِهَتِهِ، حَصَلَ الِانْحِرَافُ وَالزَّيْغُ فِي شَرْعِ اللهِ ﷻ.

وَمَنِ امْتَلَأَ فِكْرُهُ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ، وَأَصْبَحَ هَمُّهُ فَهْمَ المَعَانِي؛ فَسَيَجِدُ نَفْسَهُ يَبْحَثُ عَنِ التَّطْبِيقَاتِ الخَارِجِيَّةِ الحَيَّةِ لِمَوَاضِيعِ القُرْآنِ، وَيَسْعَىٰ لِجَعْلِهَا مُؤَثِّرَةً فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ، وَسَيُقَارِنُ بَيْنَ الأَشْخَاصِ لِمَعْرِفَةِ الذِي تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ أَوْصَافُ القُرْآنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ خَيْرَ مَنْ يُمَثِّلُ تَطْبِيقَ تَعَالِيمِ القُرْآنِ هُمْ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لِذَا لَا بُدَّ أَنْ تُعَرَّفَ الأَجْيَالُ بِكَيْفِيَّةِ قِرَاءَةِ الصَّحَابَةِ ﵃ وَتَنْفِيذِهِمْ لِمُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ...﴾ [البقرة: ١٢١]، حَيْثُ كَانَتْ قِرَاءَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، مِنَ الصَّحَابَةِ، القُرْآنَ، قِرَاءَةً طَبِيعِيَّةً، مُنْتِجَةً، مُفْرِزَةً السُّلُوكَ الإِيجَابِيَّ الفَعَّالَ، شَاحِنَةً الوِجْدَانَ، دَافِعَةً السُّلُوكَ إِلَىٰ جَلَائِلِ الأَعْمَالِ، تَجْلُو البَصَائِرَ؛ فَتُدْرِكُ وَظِيفَةَ القِرَاءَةِ فِي تَكْوِينِ عَادَاتِ التَّفْكِيرِ النَّاضِجِ، وَتُدْرِكُ العَلَاقَةَ اللَّازِمَةَ بَيْنَ النِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَيْنَ التَّعْلِيمِ وَالِاسْتِثْمَارِ، وَلِذَلِكَ رَبَطَتْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالعَمَلِ، وَأَدْرَكَتِ المَعَانِيَ الأَوَّلِيَّةَ وَالثَّانَوِيَّةَ.

❁ ❁ ❁

أَصْنَافُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ تَفَاوُتًا كَبِيرًا تِجَاهَ الْقُرْآنِ الكَرِيمِ، وَقَدْ قَسَّمَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ النَّاسَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ القُرْآنِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ، كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ(١):

«صِنْفٌ مُعْرِضٌ مُمْتَنِعٌ عَنْ سَمَاعِهِ، كَالَّذِينَ قَالَ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وَصِنْفٌ سَمِعَ الصَّوْتَ وَلَمْ يَفْقَهِ الْمَعْنَىٰ، كَالَّذِينَ قَالَ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢): عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». وَالْآيَةُ التِي مَرَّتْ، وَالْحَدِيثُ، يَدُلَّانِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ

(١) «مجموع الفتاوىٰ»: ١٦/ ٨-١٤.

(٢) «صحيح البخاري»: كِتَابُ العِلْمِ، بَاب مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، رقم (٧١) =

السَّمَاعُ الَّذِي يَفْقَهُ مَعَهُ الْقَوْلَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا، وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا أَوْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يُسْمِعَهُ وَيُفَقِّهَهُ، وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَ وَفَقِهَ يَكُونُ فِيهِ خَيْرٌ.

وَصِنْفٌ سَمِعَ الْكَلَامَ وَفَقِهَهُ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يُطِعْهُ -أَيْ: لَمْ يُطِعْ أَمْرَهُ-، كَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ...﴾ [البقرة: ٧٥- ٧٨]، أَيْ تِلَاوَةً.

وَصِنْفٌ سَمِعُوا سَمَاعَ فِقْهٍ وَقَبُولٍ، فَهَذَا هُوَ السَّمَاعُ الْمَأْمُورُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٢].

=

ومواضع، و «صحيح مسلم»: كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ، رقم (١٠٣٧)، وفي: كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي،...»، من حديث: مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو طرف الحديث، وتمامه: «...، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]»، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَقَدْ مَثَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَالَ النَّاسِ مَعَ القُرْآنِ أَرْوَعَ تَمْثِيلٍ، فَقَالَ ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»**. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١).

قَالَ اللهُ العَظِيمُ: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ -فِي مَعْرِضِ ذِكْرِهِ لِمَنَافِعِ الأُتْرُجَّةِ-(٢): «وَحَقِيقٌ بِشَيْءٍ هَذِهِ مَنَافِعُهُ، أَنْ يُشَبَّهَ بِهِ خُلَاصَةُ الْوُجُودِ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُحِبُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ؛ لِمَا فِي مَنْظَرِهِ مِنَ التَّفْرِيحِ».

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَابُ فَضْلِ القُرْآنِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَلَامِ، رقم (٥٠٢٠) ومواضع، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب صلاة المسافرين، بَابُ فَضِيلَةِ حَافِظِ الْقُرْآنِ، رقم (٧٩٧)، من حديث: أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

(٢) «**زاد المعاد**»: ٤/ ٢٦٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

وَشَبَّهَ الرَّسُولُ ﷺ مَا بَعَثَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ بِالغَيْثِ، وَشَبَّهَ القُلُوبَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ صِفَاتِهَا بِالأَرْضِ، فَأَرْضٌ طَيِّبَةٌ وَأَرْضٌ خَبِيثَةٌ؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عز وجل مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(١).

تَأَمَّلْ فِي هَذَا المَثَلِ العَظِيمِ، الذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ الكَرِيمُ ﷺ، مُشَبِّهًا هَذَا الوَحْيَ النَازِلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ قَلْبِهِ ﷺ، بِالمَاءِ النَّازِلِ عَلَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ، فَالمَاءُ النَّازِلُ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ الأَرْضَ مُتَبَايِنَةٌ تَبَايُنًا كَبِيرًا؛ فَبِحَسَبِ طِيبِهَا وَلِينِهَا تَنْتَفِعُ بِالمَاءِ، فَإِنْ كَانَتْ طَيِّبَةً، قَبِلَتِ المَاءَ وَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً، وَنَزَلَ عَلَيْهَا المَاءُ، فَلَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهَا لَا تُنْبِتُ الكَلأَ وَلَا تُمْسِكُ المَاءَ.

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَابُ العِلْمِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ، رقم (٧٩)، ومسلم في «**الصحيح**»: كتاب الْفَضَائِلِ، بَابُ بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ، رقم (٢٢٨٢).

كَذَلِكَ القُرْآنُ المَجِيدُ مَعَ القُلُوبِ، فمَنْ كَانَتْ أَرْضُ قَلْبِهِ طَيِّبَةً انْتَفَعَ بِالقُرْآنِ، وَمَنْ كَانَتْ أَرْضُ قَلْبِهِ خَبِيثَةً لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ، بَلْ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿... وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ: فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاظِرِ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَىٰ تَدبُّرِهِ وَتَعقُّلِهِ -وَهُوَ المَقْصُودُ بِإِنْزَالِهِ-، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدبُّرٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ...﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

(١) «مدارج السالكين»: ١/ ٤٤٩-٤٥١.

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ، مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا، وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ -أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ: تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ مُقَابِلَ ذَلِكَ ثَلَاثَةً أُخْرَىٰ: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ، ضَرُورِيٌّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتُهَا، وَمُشَاهَدَتُهَا، وَمُطَالَعَتُهَا؛ فَتُشْهِدُهُ الْآخِرَةَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ فِيهَا، وَتُغَيِّبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ

وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ؛ فَتُرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ فُرْقَانًا وَنُورًا، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا، وَبَهْجَةً وَسُرُورًا؛ فَيَصِيرُ فِي شَأْنٍ وَالنَّاسُ فِي شَأْنٍ آخَرَ.

فَإِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذِكْرِ بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسِلِهِمْ، وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينِ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ، إِلَىٰ يَوْمِ يُوَافِي رَبَّهُ وَيَقْدُمُ عَلَيْهِ؛ وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ، الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِأَلَمٍ وَلَا نَكَدٍ وَلَا تَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ، الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ، وَلَا رَخَاءٌ، وَلَا رَاحَةٌ، وَلَا فَرَحٌ، وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنَهُ، وَعَلَىٰ تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَبَادِئِ وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهِضُ الْعَبْدَ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ

الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ، وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللِّحَاقَ اللِّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ! وَتَحْدُو بِهِ، وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَاعْتَصِمْ بِاللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَتَفَهُّمِهِ، أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ».

◉ ◉ ◉



حُكْمُ التَّدبُّرِ

وَأَمَّا حُكْمُ التَّدَبُّرِ: فَتَدبُّرُ القُرْآنِ الكَرِيمِ مِنْ أَجَلِّ الطَّاعَاتِ، وَأَفْضَلِ القُرُبَاتِ، وَأَسْمَىٰ العِبَادَاتِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ خِلَالِهِ يَفْهَمُ الإِنْسَانُ مُرَادَ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ لِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أَيْ: هَذِهِ الحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِهِ، لِيَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ؛ فَيَسْتَخْرِجُوا عِلْمَهَا، وَيَتَأَمَّلُوا أَسْرَارَهَا وَحِكَمَهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ الحَثِّ عَلَىٰ تدبُّرِ القُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ، وَأَنَّ القِرَاءَةَ المُشْتَمِلَةَ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ أَفْضَلُ مِنْ سُرْعَةِ [القِرَاءَةِ التِي لَا تُحَصِّلُ هَذَا المَطْلُوبَ](٢)».

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَدَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ التَّرْتِيلَ أَفْضَلُ مِنَ الْهَذِّ -وَهُوَ سُرْعَةُ القِرَاءَةِ بِلَا تَأَمُّلٍ-، إِذْ لَا يَصِحُّ التَّدَبُّرُ مَعَ الْهَذِّ. وَقَالَ الْحَسَنُ: «تَدَبُّرُ آيَاتِ اللهِ اتِّبَاعُهَا»(٤)».

---

(١) «**تيسير الكريم الرحمن**»: ص٧١٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

(٢) في الأصل: [التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود].

(٣) «**الجامع لأحكام القرآن**»: ١٥/ ١٩٢.

(٤) تقدم تخريجه.

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ(١): «فَصْلٌ فِي كَرَاهَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ: تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ، وَعَلَيْهِ حُمِلَ حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»(٢)، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ -لِمَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَقُومُ بِالْمُفَصَّلِ فِي رَكْعَةٍ-: «أَهَذًّا(٣) كَهَذِّ الشِّعْرِ؟!»(٤)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي

(١) «**البرهان في علوم القرآن**»: ١/ ٤٥٥، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م).

(٢) أخرجه أبو داود في «**السنن**»: كتاب الصلاة، بَابٌ فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرْآنُ، رقم (١٣٩٠)، وأيضا في: بَابُ تَحْزِيبِ الْقُرْآنِ، رقم (١٣٩٤)، والترمذي في «**الجامع**»: كتاب الْقِرَاءَاتِ، باب ١٣، رقم (٢٩٤٩)، وابن ماجه في «**السنن**»: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، بَابٌ فِي كَمْ يُسْتَحَبُّ يُخْتَمُ الْقُرْآنُ، رقم (١٣٤٧).
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، والحديث صحح إسناده الألباني في «**صحيح أبي داود**»: ٥/ ١٣٥ و١٣٨، رقم (١٢٥٧ و١٢٦٠).

(٣) قال ابن حجر في «**فتح الباري**»: ٢/ ٢٥٩: «قَوْلُهُ «**هَذًّا**»، بِفَتْحِ الْهَاءِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ: سَرْدًا وَإِفْرَاطًا فِي السُّرْعَةِ».

(٤) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَابُ التَّرْتِيلِ فِي الْقِرَاءَةِ، رقم (٥٠٤٣) ومواضع، ومسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَابُ تَرْتِيلِ الْقِرَاءَةِ وَاجْتِنَابِ الْهَذِّ، رقم (٨٢٢)، وتمامه: «...، إِنَّا لَقَدْ سَمِعْنَا الْقَرَائِنَ، وَإِنِّي لَأَحْفَظُ الْقَرَائِنَ الَّتِي كَانَ يَقْرَؤُهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنَ الْمُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم».
وزاد مسلم في رواية، أن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «...، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ =

صِفَةِ الْخَوَارِجِ: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَلَا حَنَاجِرَهُمْ**»[(١)]، فَذَمَّهُمْ بِإِحْكَامِ لفظِهِ، وَتَرْكِ التَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ».

وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَارِئُ القُرْآنِ الجَاهِلُ بِمَعَانِيهِ مَأْجُورٌ؛ وَقَدْ وُجِّهَ هَذَا السُّؤَالُ لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أُدَاوِمُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، لَكِنَّنِي لَا أَفْهَمُ مَعَانِيهِ؛ فَهَلْ أُثَابُ مِنَ اللهِ عَلَىٰ ذَلِكَ؟».

فَأَجَابَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «القُرْآنُ الكَرِيمُ مُبَارَكٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فَالإِنْسَانُ مَأْجُورٌ عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، سَوَاءٌ أَفَهِمَ مَعْنَاهُ أَمْ لَمْ يَفْهَمْ، لَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْرَأَ قُرْآنًا مُكَلَّفًا بِالعَمَلِ بِهِ، دُونَ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَاهُ، فَالإِنْسَانُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ الطِّبَّ مَثَلًا، وَدَرَسَ كُتُبَ الطِّبِّ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا حَتَّىٰ يَفْهَمَ مَعْنَاهَا وَتُشْرَحَ لَهُ؛ بَلْ هُوَ يَحْرِصُ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَاهَا مِنْ

=

وَالسُّجُودُ،...»، ووقع فيها أيضا تسمية الرجل بنَهِيك بْن سِنَانٍ.

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَابُ المَنَاقِبِ، بَابُ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ، رقم (٣٦١٠) ومواضع، ومسلم في «**الصحيح**»: كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ ذِكْرِ الْخَوَارِجِ وَصِفَاتِهِمْ، رقم (١٠٦٤)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إذاعة القرآن الكريم: برنامج نور على الدرب، الشريط (٨٥): الوجه الأول، ١٣.٣٥ دقيقة.

أَجْلِ أَنْ يُطَبِّقَهَا، فَمَا بَالُكَ بِكِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذِي هُوَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَمَوْعِظَةٌ لِلنَّاسِ، أَنْ يَقْرَأَهُ الإِنْسَانُ بِدُونِ تَدَبُّرٍ وَبِدُونِ تَفَهُّمٍ لِمَعْنَاهُ؟

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَا يَتَجَاوَزُونَ عَشْرَ آيَاتٍ حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوهَا وَمَا فِيهَا مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ(١). فَالإِنْسَانُ مُثَابٌ وَمَأْجُورٌ عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، سَوَاءٌ أَفَهِمَ مَعْنَاهُ أَمْ لَمْ يَفْهَمْ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْرِصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ فَهْمِ مَعْنَاهُ، وَأَنْ يَتَلَقَّىٰ هَذَا المَعْنَىٰ مِنَ العُلَمَاءِ المَوْثُوقِينَ، مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَغَيْرِهِمَا».

فَتَدَبُّرُ القُرْآنِ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ أَطْبَقَ جُمْهُورُ المُفَسِّرِينَ، وَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَتَدَبَّرَهُ، وَصَلَ بِذَلِكَ التَّدَبُّرِ إِلَىٰ دَرَجَةِ اليَقِينِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا يَتَنَاقَضُ وَلَا يَخْتَلِفُ أَبَدًا، فَلَا يُمْكِنُ بِحَالٍ أَنْ تَجِدَ آيَةً تُخَالِفُ الأُخْرَىٰ أَوْ تُنَاقِضُهَا، وَبِهَذَا يَزْدَادُ المُؤْمِنُ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِ، حَتَّىٰ يَرَىٰ القُرْآنَ بِهَذِهِ المَثَابَةِ؛ تُكَرَّرُ القِصَّةُ مَثَلًا بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ، طُولًا وَقِصَرًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا أَدْنَىٰ شَيْءٍ مِنَ التَّنَاقُضِ أَوْ الِاخْتِلَافِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(١) زاد في الأصل: [فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ حَقٌّ، وَنَزَلَ بِالحَقِّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

◉ ◉ ◉



مَعْنَى النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ مَنْزِلَةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، أَنَّهُ مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ، الَّتِي هِيَ الدِّينُ -كَمَا مَرَّ-، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

قُلْنَا: لِمَنْ؟

قَالَ: «**لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَقَدْ بَيَّنَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ مَعْنَىٰ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ، فَقَالَ(٢): «وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ، فَشِدَّةُ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ -إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ-، وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِتَدَبُّرِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ؛ لِطَلَبِ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، أَوْ يَقُومَ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ [مِنَ الْعِبَادِ](٣)، يَتَفَهَّمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْهُ، عُنِيَ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، رقم (٥٥)، من حديث: تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) «**تعظيم قدر الصلاة**»: ٢/ ٦٩٣.

وَهُوَ مِنْ كَلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيِّ، وقد نقله ابن رجب في «جامع العلوم».

(٣) كذا في «**جامع العلوم والحكم**» لابن رجب: ١/ ٢٢١، وفي الأصل: [مِنَ الْقَلْبِ].

عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ [لِكِتَابِ رَبِّهِ، يُعْنَىٰ: بِفَهْمِهِ](١)؛ لِيَقُومَ لِلَّهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ، ثُمَّ يَنْشُرَ مَا فَهِمَ فِي الْعِبَادِ، وَيُدِيمَ دِرَاسَتَهُ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ».

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَ لِأَصْحَابِهِ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ، كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَهُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، يَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، وَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: كَعُثْمَانَ بْنِ عفانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»(٣)؛ وَلِهَذَا كَانُوا يَبْقَوْنَ مُدَّةً فِي حِفْظِ السُّورَةِ. وَقَالَ أَنَسٌ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، جَلَّ فِي أَعْيُنِنَا»(٤)، وَأَقَامَ ابْنُ

---

(١) كذا في «**الجامع**»، وفي الأصل: [لِكِتَابِ اللهِ، يَعْنِي: يَفْهَمُهُ].

(٢) «**مجموع الفتاوىٰ**»: ١٣/ ٣٣١ و٣٣٢.

(٣) أخرجه ابن سعد في «**الطبقات الكبرىٰ**»: ٦/ ١٧٢، وابن أبي شيبة في «**المصنف**»: ١٠/ ٤٦٠ و٤٦١، رقم (٢٩٩٢٩)، وأحمد في «**المسند**»: ٥/ ٤١٠، رقم (٢٩٩٢٩)، والفسوي في «**المعرفة والتاريخ**»: ٢/ ٥٩٠، وابن وضاح في «**البدع**»: ٢/ ١٧٠، رقم (٢٥٥)، والفريابي في «**فضائل القرآن**»: ص٢٤١، رقم (١٦٩)، والطبري في «**جامع البيان**»: ١/ ٣٦، بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في «**المسند**»: ٣/ ١٢٠ و١٢١، وابن حبان في «**صحيحه**» بترتيب ابن بلبان: ٣/ ١٩، رقم (٧٤٤)، بإسناد صحيح، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ =

عُمَرَ عَلَىٰ حِفْظِ الْبَقَرَةِ عِدَّةَ سِنِينَ[١]، قِيلَ: ثَمَانِ سِنِينَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ[٢]. وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ، وَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ، كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرِحُوهُ -أَيْ: يَطْلُبُوا شَرْحَهُ- فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟».

لِهَذَا كَرِهَ أَهْلُ العِلْمِ قِرَاءَةَ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِلَا تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَهُّمٍ؛ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ، وَعَلَيْهِ حُمِلَ حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»[٣]، وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ لِمَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ

=

الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ عُدَّ فِينَا ذُو شَأْنٍ»، وفي رواية: «يُعَدُّ فِينَا عَظِيمًا».

والحديث أصله في «الصحيحين».

(١) أخرجه ابن سعد في «**الطبقات الكبرىٰ**»: ٤/ ١٦٤، بإسناد صحيح، عَنْ مَيْمُونٍ، هو ابن مهران: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ تَعَلَّمَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ».

(٢) أخرجه مالك في «**الموطأ**» رواية يحيىٰ: ١/ ٢٠٥، رقم (١١)، بلاغا: «أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ مَكَثَ عَلَىٰ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا»، ومن طريق مالك، أخرجه أيضا: أحمد في «**العلل**» رواية ابنه عبد الله: ٢/ ٧٢، رقم (١٥٨٧)، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»: ٣/ ٣٤٥، رقم (١٨٠٣ و١٨٠٤)، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٣١/ ١٦٠، ترجمة (٣٤٢١).

(٣) تقدم تخريجه.

يَقُومُ بِالْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ: «أَهَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟!»(١)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي صِفَةِ الْخَوَارِجِ: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَلَا حَنَاجِرَهُمْ**»(٢)، فَذَمَّهُمْ بِإِحْكَامِ أَلفاظِهِ وَتَرْكِ التَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ».

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «الْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ».

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمينَ بِهِ، وَالْعَامِلِينَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ؛ وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ».

وَمَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ**».

الظُّلَّةُ -بِضَمِّ الظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ-: أَيْ سَحَابَةٌ لَهَا ظِلٌّ، وَكُلُّ مَا أَظَلَّ مِنْ سَقِيفَةٍ وَنَحْوِهَا يُسَمَّىٰ ظُلَّةً.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «**مجموع الفتاوىٰ**»: ٢٣/ ٥٥.

(٤) «**زاد المعاد**»: ١/ ٣٢٧.

وَشَرْقٌ -بِفَتْحِ الرَّاءِ وَإِسْكَانِهَا-، أَيْ: ضِيَاءٌ وَنُورٌ(١).

إِذَنْ: يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَفِي تَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، «**يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ**(٢) **مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

إِذَنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِمَّةُ حَافِظِ الْقُرْآنِ فَهْمَ الْمَعْنَىٰ، وَمِنْ ثَمَّ الْعَمَلَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ! مَا نَصِيبُكَ مِنْ تَدَبُّرِ مَا تَتْلُو مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ؟

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) شرح النووي علىٰ «**صحيح مسلم**»: ٦/ ٩١.

(٢) الحِزْقُ والحَزِيقَة: الْجَمَاعَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، انظر: «**النهاية في غريب الحديث**» لابن الأثير: حرف الحاء، بَابُ الْحَاءِ مَعَ الزَّايِ، ١/ ٣٧٨.

(٣) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، رقم (٨٠٥)، من حديث: النَّوَّاس بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: «يَسْتَبْطِئُهُمْ، وَهُمْ أَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ»(٢).

وَالمَقْصُودُ مِنَ (**الَّذِينَ ءَامَنُواْ**): إِمَّا بَعْضٌ مِنْهُمْ، رُبَّمَا كَانُوا مُقَصِّرِينَ عَنْ جُمْهُورِ المُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ؛ فَأَرَادَ اللهُ إِيقَاظَ قُلُوبِهِمْ بِهَذَا الكَلَامِ المُجْمَلِ، عَلَىٰ عَادَةِ القُرْآنِ وَأَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ فِي التَّعْرِيضِ، كَقَوْلِهِ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا**»، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ وَلَيْسَ مَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُقْتَضِيًا أَنَّ مِثْلَهُ مِنْ أُولَئِكَ الذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الآيَةِ، لَكِنَّهُ يَخْشَىٰ مِنْهُمْ حَذَرًا وَحَيْطَةً، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَحْرِيضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ ذَلِكَ وَالحَذَرِ مِنَ التَّقْصِيرِ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ خِيَارَ الخَلْقِ مُخَاطَبُونَ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الإِخْلَالِ بِحَقِّ القُرْآنِ مِنَ الخُشُوعِ وَالتَّدَبُّرِ.

فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَىٰ قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُ مِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: «**أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ**

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب التَّفْسِيرِ، بَابٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، رقم (٣٠٢٧).

(٢) ذكره الماوردي في «**تفسيره**»: ٥/ ٤٧٧، والشوكاني في «**فتح القدير**»: ٥/ ٢٠٧.

وَقُرَّاؤُهُمْ، فَاتْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ فَتَقْسُوا قُلُوبُكُمْ، كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،...» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ؛ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا»(٢).

لَقَدْ عَرَّضَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالَّذِينَ لَمْ يَتَذَكَّرُوا بِالقُرْآنِ وَلَمْ يَتَدَبَّرُوهُ، بِوَصْفِهِمْ بِضَعْفِ عُقُولِهِمْ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَتَذَكَّرُوا بِالْقُرْآنِ لَيْسُوا مَنْ أَهْلِ الْعُقُولِ، وَأَنَّ التَّذَكُّرَ مِنْ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، فَهُمْ مِمَّنْ تَدَبَّرُوا آيَاتِهِ فَاسْتَنْبَطُوا مِنَ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَمَنْ قَرَأَهُ فَتَذَكَّرَ بِهِ مَا كَانَ عَلِمَهُ، وَتَذَكَّرَ بِهِ حَقًّا، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْعَاهُ، وَالْكَافِرُونَ أَعْرَضُوا عَنِ التَّدَبُّرِ، فَلَا جَرَمَ فَاتَهُمُ التَّذَكُّرُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩- ١٠١].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ...﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَاب الزَّكَاةِ، بَابُ لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ لَابْتَغَىٰ ثَالِثًا، رقم (١٠٥٠).

(٢) تقدم تخريجه.

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «وَهَذَا أَعْظَمُ العُقُوبَاتِ عَلَىٰ العَبْدِ، أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ الذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ، الذِي فِيهِ حَيَاةُ القَلْبِ وَالرُّوحِ، وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَفَلَاحُ الدَّارَيْنِ، الذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَّةٍ امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ، تُوجِبُ عَلَيْهِمُ المُبَادَرَةَ إِلَىٰ قَبُولِهَا، وَالِاسْتِسْلَامَ للهِ بِهَا، وَشُكْرًا للهِ عَلَيْهَا، أَنْ تَكُونَ لِمِثْلِ هَذَا زِيَادَةَ غَيٍّ إِلَىٰ غَيِّهِ، وَطُغْيَانٍ إِلَىٰ طُغْيَانِهِ، وَكُفْرٍ إِلَىٰ كُفْرِهِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِ عَنْهَا، وَرَدِّهِ لَهَا، وَمُعَانَدَتِهِ إِيَّاهَا، وَمُعَارَضَتِهِ لَهَا بِالشُّبَهِ البَاطِلَةِ».

فَالحَاصِلُ: أَنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ ضَرُورَةٌ، وَهُوَ يَلْزَمُ كُلَّ مُسْلِمٍ -مَتَىٰ بَلَغَ الحُلُمَ إِلَىٰ أَنْ يَمُوتَ- أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَحُوزَ كِتَابَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَدَاءً وَلُطْفًا.

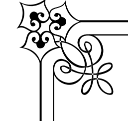
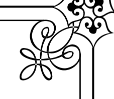
فَالحَاصِلُ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الأَمْرِ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ قَدْرِهِ وَعَظَمَتِهِ وَأَهَمِّيَّتِهِ فِي الدِّينِ، مَعَ ذِكْرِ الطُّرُقِ التِي يُحَصَّلُ بِهَا التَّدَبُّرُ فِي كِتَابِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا المَوْضُوعِ الكَبِيرِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



(١) «تيسير الكريم الرحمن»: ص٢٣٧.


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة)

مِنْ مَادَّةِ
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

وُجُوبُ تَدَبُّرِ المُسْلِمِ لِلقُرْآنِ

فَإِنَّ ظَوَاهِرَ النُّصُوصِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَقْضِي بِوُجُوبِ تَدَبُّرِ المُسْلِمِ القُرْآنَ، وَقَدْ سَهَّلَ اللهُ تَعَالَىٰ أَلْفَاظَ القُرْآنِ لِلْحِفْظِ وَالتِّلَاوَةِ، حَتَّىٰ اسْتَظْهَرَهُ صِغَارُ الوِلْدَانِ، وَسَهَّلَ مَعَانِيَهُ أَيْضًا لِلْفَهْمِ وَالعِلْمِ، فَهُوَ أَحْسَنُ الكَلَامِ لَفْظًا، وَأَصْدَقُهُ مَعْنًىٰ، فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ مَطْلُوبَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «وَلِهَذَا كَانَ عِلْمُ القُرْآنِ -حِفْظًا وَتَفْسِيرًا- أَسْهَلَ العُلُومِ، وَأَجَلَّهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، وَهُوَ العِلْمُ النَّافِعُ الذِي إِذَا طَلَبَهُ العَبْدُ أُعِينَ عَلَيْهِ؛ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ -وَهُوَ مَطَرٌ الوَرَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]، كَمَا فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»-، عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ: «هَلْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ فَيُعَانُ عَلَيْهِ؟»[٣]».

---

(١) «**تيسير الكريم الرحمن**»: ص٨٢٦.

(٢) هو الإِمَامُ الزَّاهِدُ: مَطَرُ بنُ طَهْمَانَ، أَبُو رَجَاءٍ الوَرَّاقُ الخُرَاسَانِيُّ، كَانَ مِنَ العُلَمَاءِ العَامِلِيْنَ، وَكَانَ يَكْتُبُ المَصَاحِفَ وَيُتقِنُ ذَلِكَ، احْتَجَّ بِهِ مُسْلِمٌ وَلَا يَنحطُّ حَدِيْثُه عَنْ رُتبَةِ الحَسَنِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ خمس وَعِشْرِيْنَ وَمائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٥/ ٤٥٢، ترجمة (٢٠٢).

(٣) ذكره البخاري معلقا مجزوما به في «**الصحيح**»: كِتَاب التَّوْحِيدِ، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

=

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ تَذْكِرَةٌ لِعُمُومِ العَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٥- ٢٧]، أَيْ: مَا الْقُرْآنُ إِلَّا تَذْكِيرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي صَلَاحِ اعْتِقَادِهِمْ، وَطَاعَةِ اللهِ رَبِّهِمْ، وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ، وَآدَابِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ حُقُوقِهِمْ، وَدَوَامِ انْتِظَامِ جَمَاعَتِهِمْ، وَكَيْفَ يُعَامِلُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ.

فَلَفْظُ «الْعَالَمِينَ»: يَعُمُّ كُلَّ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُمْ مَدْعُوُّونَ لِلِاهْتِدَاءِ بِالقُرْآنِ، وَمُسْتَفِيدُونَ مِمَّا جَاءَ فِيهِ.

وَبِهَذَا، يُرَدُّ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ الحَيْلُولَةَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ فَهْمِ كَلَامِ رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا، فَيَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، بِدَعْوَىٰ أَنَّ القُرْآنَ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا العُلَمَاءُ الأَفْذَاذُ الرَّاسِخُونَ!

نَعَمْ؛ القُرْآنُ فِيهِ آيَاتٌ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا العُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ»(١).

=

وأخرجه موصولا: الدارمي في «**المسند**»: ١/ ٣٦٤، رقم (٣٥٨)، والْفِرْيَابِيّ فِي تَفْسِيره كما في «**تغليق التعليق**»: ٥/ ٣٧٩، والطبري في «**جامع البيان**»: ٢٧/ ٩٧، وابن أبي حاتم في «**تفسيره**»: ١٠/ ٣٣٢٠، رقم (١٨٧٠٧)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ٣/ ٧٦، ترجمة (٢١١)، وابن عبد البر في «**جامع بيان العلم**»: ٢/ ١٠٢٠، رقم (١٩٤٥)، بإسناد صحيح.

(١) أخرجه عبد الرزاق في «**تفسيره**»: ١/ ٢٥٣، رقم (٤)، والفريابي في «**القدر**»: ص٢٦٤، =

فَالقُرْآنُ فِي مُجْمَلِهِ مُيَسَّرٌ -كَمَا أَخْبَرَ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَنْهُ-، وَلَعَلَّ أَغْلَبَ القُرْآنِ مِنَ النَّوْعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذَا، فَإِنَّ عَوَامَّ المُسْلِمِينَ مُطَالَبُونَ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وَمِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيرُهُ عِبَادَ اللهِ عَنْ تَدَبُّرِ القُرْآنِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الهُدَىٰ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدَبُّرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ فِي القُرْآنِ؛ تَوَرُّعًا»[2].

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا، أَنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ مُتَاحٌ لِكُلِّ قَارِئٍ، وَكُلٌّ بِحَسَبِهِ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

=

رقم (٤١٤)، والطبري في مقدمة «**جامع البيان**»: ١/ ٣٣، وابن المنذر في «**تفسيره**»: ١/ ١٣١، رقم (٢٥٥)، والطبراني في «**مسند الشاميين**»: ٢/ ٣٠٢، رقم (١٣٨٥)، من طرق لا بأس بها، وانظر: هامش مقدمة ابن كثير في «**تفسيره**»: ١/ ١٤.

(١) هو الإِمَامُ العَالِمُ يَمِينُ الخِلَافَةِ: يَحْيَىٰ بنُ مُحَمَّدِ بنِ هُبَيْرَةَ، عَوْنُ الدِّينِ أَبُو المُظَفَّرِ الشَّيْبَانِيُّ الدُّورِيُّ البغدادي الحَنْبَلِيُّ، وَزِير الخَلِيْفَةِ العَبَّاسِيّ المُقْتَفِي لأَمْرِ اللهِ وابنه الخَلِيْفَةِ المُسْتَنْجِدِ بِاللهِ، ولد بِقَرْيَة بَنِي أَوْقَر مِنَ الدُّورِ -أَحَدِ أَعْمَالِ العِرَاقِ- فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ، سَمِعَ القَاضِي أَبَا الحسين بن الفراء وأَبا الحسين بن الزاغوني وَخَلْقًا، وسمع منه أبو الفرج بن الجوزي، وكان يحضر مجلسه الأَئِمَّةُ والفُقَهاء، وَكَانَ سَلَفِيًّا أَثرِيًّا بارًّا بِالعُلَمَاءِ، مات بِبَغْدَاد مسموما سَنَةَ سِتِّيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ.
انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٢٠/ ٤٢٦، ترجمة: (٢٨٢).

(٢) أخرجه ابن رجب في «**ذيل طبقات الحنابلة**»: ٢/ ١٥٦، ترجمة (١٤١)، بإسناد صحيح.

وَكَيْفَ لَا يُتَدَبَّرُ القُرْآنُ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ لِهِدَايَةِ البَشَرِ وَسَعَادَتِهِمْ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

فَالقُرْآنُ الكَرِيمُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فِي جَمِيعِ المَجَالَاتِ: فِي الِاعْتِقَادِ، وَالعِبَادَاتِ، وَالسُّلُوكِ، وَالمُعَامَلَاتِ، وَالسِّيَاسَةِ، وَالِاقْتِصَادِ، وَالِاجْتِمَاعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ هُوَ الكَفِيلُ بِجَمِيعِ المَصَالِحِ، وَحَلِّ جَمِيعِ المَشَاكِلِ، قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[١]: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي عَرَفَاتٍ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ: «.. **وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللهِ**»؛ فَأَخَذَ المُوَفَّقُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ دَرْبِهِمْ بِهَذِهِ الوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَأَضْحَوْا مَصَاحِفَ تَمْشِي عَلَىٰ الأَرْضِ، حِينَ تَرْجَمُوا القُرْآنَ الكَرِيمَ تَرْجَمَةً عَمَلِيَّةً، فِي وَاقِعِهِمْ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِمْ، وَإِمَامُهُمْ وَقُدْوَتُهُمْ كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-[٢].

---

(١) «**صحيح مسلم**»: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ٢/ ٨٩٠، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرج مسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَابُ جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ...، =

فَكَانَ القُرْآنُ بِمَثَابَةِ الرُّوحِ التِي تَسْرِي فِي أَعْمَاقِهِمْ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ حَالِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَلَحَاقِهِ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ، وَانْقِطَاعِ خَبَرِ السَّمَاءِ؟!

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ.

فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَلَّا أَكُونَ أَعْلَمَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءِ؛ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

فَلَوْ عَادَتِ الأُمَّةُ إِلَىٰ الكِتَابِ الكَرِيمِ، فِي هَذَا الزَّمَنِ الذِي عَجَزَتْ فِيهِ الأُطْرُوحَاتُ، وَالفَلْسَفَاتُ، وَالِاجْتِمَاعَاتُ، وَالمُؤْتَمَرَاتُ، عَنْ حَلِّ قَضَايَا الأُمَّةِ؛ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَائِدَةً إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا لَخَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ سَالِمَةً مُعَافَاةً.

=

١/ ٥١٢ و٥١٣، رقم (٧٤٦)، من حديث: عَائِشَةَ، قَالَتْ: «**كَانَ خُلُق نَبِيِّ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ**».

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أُمِّ أَيْمَنَ، ٤/ ١٩٠٧ و١٩٠٨، رقم (٢٤٥٤).

وَاسْتَمِعْ إِلَىٰ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

هَكَذَا كَانُوا فِي صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ، لَا يُعَوِّلُونَ فِي حَلِّ مُشْكِلَاتِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِ كِتَابِ اللهِ؛ فَيَجِدُونَ الحَلَّ الكَافِيَ، وَالبَلْسَمَ الشَّافِيَ، ثُمَّ طَالَ بِالنَّاسِ الأَمَدُ، وَخَلَفَ خُلُوفٌ، تَشَاغَلُوا عَنْ مَصْدَرِ قُوَّتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ، حَتَّىٰ آلَ الأَمْرُ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ اليَوْمَ.

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ تَشْقَىٰ أُمَّةٌ كِتَابُهَا القُرْآنُ؟!

وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١-٣].

وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلَا أَيْضًا: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤]، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ ... قُرْبُ الشِّفَاءِ وَمَا إِلَيْهِ وُصُولُ

كَالْعِيسِ[١] فِي الْبَيْدَاءِ[٢] يَقْتُلُهَا الظَّمَا ... وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ[٣]

فَهُوَ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ اللهُ لِنَقْرَأَهُ تَدبُّرًا، وَنَسْعَدَ بِهِ تَذَكُّرًا، فَهُوَ نُورُ الْبَصَائِرِ مِنْ عَمَاهَا، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ مِنْ أَدْوَائِهَا وَجوَاهَا، وَحَادِي الْأَرْوَاحِ إِلَىٰ بِلَادِ الْأَفْرَاحِ، ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

أَسْمَعَ -وَاللهِ- لَوْ صَادَفَ آذَانًا وَاعِيَةً، وَبَصَّرَ لَوْ صَادَفَ قُلُوبًا مِنَ الْفَسَادِ خَالِيَةً؛ وَلِهَذَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِالوَحْيِ المُبِينِ، وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ؛ لِأَنَّ فِيهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣- ٤٤].

---

(١) (**الْعِيْسُ**): بكسر العين، هِيَ: الإِبِلُ البِيضُ مَعَ شُقْرةٍ يَسِيرة، واحِدُها: أَعْيَسُ وعَيْسَاء، انظر: «**الصحاح**» للجوهري: باب السين، فصل العين مع الياء، ٣/ ٩٥٤.

(٢) (**البَيداءُ**): مَفازَةٌ (صحراء) لا شيءَ فيها، انظر: «**الصحاح**»: باب الدال، فصل الباء مع الياء، ٢/ ٤٥٠.

(٣) البيتان مع شهرتهما لا يعرف قائلهما، فقد ذكرهما ابن القيم في «**زاد المعاد**»: ٤/ ٩٣، بدون نسبة، وكذا في مصادر كثيرة، ونسبهما صاحب: «**مجمع الحكم والأمثال**»: باب الهاء: الهوىٰ والميل!! ص٥٣٤، إلىٰ الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد (المتوفي نحو سنة ٦٠ ق.هـ/ ٥٦٤م)، بلفظ:

«وأَمَرُّ ما لقيتُ من ألمِ الهوىٰ... قربُ الحَبيبِ وما إِليه وصولُ»

وطرفة قد جمع شعره في ديوان، ونشر في بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، وهاتان البيتان ليسا في ديوانه، والله أعلم.

«﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، أَيْ: فخرٌ لَكُمْ، وَمَنْقَبَةٌ جَلِيلَةٌ، وَنِعْمَةٌ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُعْرَفُ وَصْفُهَا؛ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَّةٍ وَأَجَلُّ مِنْحَةٍ.

﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾، يَعْنِي: عَنْ هَذَا القُرْآنِ العَظِيمِ، هَلْ قُمْتُمْ بِهِ؛ فَارْتَفَعْتُمْ وَانْتَفَعْتُمْ، أَمْ لَمْ تَقُومُوا بِهِ؛ فَيَكُونُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ؟»[١]، كَمَا قَالَ ﷺ: «... **وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢]، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ هُوَ القِسْطُ الذِي تُعْرَفُ بِهِ مَقَامَاتُ الخَلْقِ وَدَرَجَاتُهُمْ، فَفِي «صَحِيحُ مُسْلِمٍ»[٣]: عَنْ نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ لَقِيَ عُمَرَ رضي الله عنه بِعُسْفَانَ[٤]، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَىٰ مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَىٰ أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَىٰ، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَىٰ؟ قَالَ: مَوْلًىٰ مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ

---

(١) «**تيسير الكريم الرحمن**»: ص٧٦٦.

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَاب الطَّهَارَةِ، بَابُ فَضْلِ الْوُضُوءِ، ١/ ٢٠٣، رقم (٢٢٣).

(٣) «**صحيح مسلم**»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَابُ فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ...، ١/ ٥٥٩، رقم (٨١٧).

(٤) (**عُسْفَانُ**) بضم العين المهملة وسكون السين المهملة، علىٰ وزن فُعْلان، وهي: بلدة تاريخية عامرة، تقع شمال مكة علىٰ ثمانين كيلًا في الطريق إلىٰ المدينة المنورة، وتفترق منها ثلاث طرق: طَرِيقٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَقَبِيلُهُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَآخَرُ إِلَىٰ جُدَّةَ.

انظر: «**معجم البلدان**»: ٤/ ١٢١، و«**معالم مكة التأريخية والأثرية**»: ص١٨٨.

مَوْلًىٰ؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».

قَالَ الإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ(١): «اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَمْحُ مَوْقِعِ النِّعَمِ عَلَىٰ مَنْ عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَوْ بَعْضَهُ، بِكَوْنِهِ أَعْظَمَ الْمُعْجِزَاتِ؛ لِبَقَائِهِ بِبَقَاءِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَلِكَوْنِهِ ﷺ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَالْحُجَّةُ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ قَائِمَةٌ عَلَىٰ كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْرَفُ كُتُبِهِ جَلَّ وَعَلَا، فَلْيَرَ مَنْ عِنْدَهُ الْقُرْآنُ أَنَّ اللهَ أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً عَظِيمَةً، وَلْيَسْتَحْضِرْ مِنْ أَفْعَالِهِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ حُجَّةً لَهُ لَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ طَلَبِ أُمُورٍ، وَالْكَفِّ عَنْ أُمُورٍ، وَذِكْرِ أَخْبَارِ قَوْمٍ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَصَارُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، حِينَ زَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ، وَأُهْلِكُوا لَمَّا عَصَوْا، وَلْيَحْذَرْ مَنْ

---

(١) هو الفقيه المحدث الأصولي المحرر: مُحَمَّد بن بهادر بن عبد الله، بدر الدَّين أَبُو عبدالله الْمصْرِيّ الزَّرْكَشِيّ الشافعيّ، ولد بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة، أخذ عَن الشَّيْخ جمال الدّين الإسنوي وَالشَّيْخ سراج الدّين الْبُلْقِينِيّ ولازمه ومغلطاي، وتخرج به في الحديث ورحل لدمشق وسمع من الحافظ عماد الدين بن كثير، وكان منقطعا للعلم لا يشتغل عنه بشيء وله أقارب يكفونه أمر دنياه، توفّي بالقاهرة سنة أَربع وَتِسْعين وَسَبْعمائة.

انظر: «**طبقات الشافعية**» لابن قاضي شهبة: ٣/ ١٦٧، ترجمة (٧٠٠)، و«**الدرر الكامنة**» لابن حجر: ٥/ ١٣٣، ترجمة (١٠٥٩).

عَلِمَ حَالَهُمْ أَنْ يَعْصِيَ؛ فَيَصِيرَ مَآلُهُ مَآلَهُمْ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ عُلُوَّ شَأْنِهِ، بِكَوْنِهِ طَرِيقًا لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَصَارَ صَدْرُهُ مُصْحَفًا لَهُ، انْكَفَتَتْ نَفْسُهُ عِنْدَ التَّوْفِيقِ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَأَقْبَلَتْ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْهَائِلِ، وَأَكْبَرُ مُعِينٍ عَلَىٰ ذَلِكَ: حُسْنُ تَرْتِيلِهِ وَتِلَاوَتِهِ»[١].

***

(١) «البرهان في علوم القرآن»: ١/ ٤٤٩.

أَمْثِلَةٌ عَمَلِيَّةٌ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآن

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ مَثَلًا عَمَلِيًّا فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، قَعَدَ، فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ، فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ -أَيْ: تَسَوَّكَ-، فَصَلَّىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّىٰ الصُّبْحَ».

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا صَلَاةً، فَأَطَالَ فِيهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا -أَوْ قَالُوا-: يَا رَسُولَ اللهِ، أَطَلْتَ الْيَوْمَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «**إِنِّي صَلَّيْتُ صَلَاةَ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمَّتِي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَرَدَّ عَلَيَّ وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا**

---

(١) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ التَفْسِيرِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ٨/ ٢٣٥، رقم (٤٥٦٩)، و«**صحيح مسلم**»: كتاب صلاة المسافرين، بَابُ الدُّعَاءِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَقِيَامِهِ، ١/ ٥٣٠، رقم (٧٦٣).

يُهْلِكَهُمْ غَرَقًا، فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَرَدَّهَا عَلَيَّ»(١)، وَالحَدِيثُ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**». قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: «**أَمْسِكْ**»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: كِتَاب الْفِتَنِ، بَاب مَا يَكُونُ مِنَ الْفِتَنِ، ٢/ ١٣٠٣، رقم (٣٩٥١).

والحديث حسنه بشواهده الألباني في «**الصحيحة**»: ٤/ ٣٠٢، رقم (١٧٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَاب صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، بَاب اسْتِحْبَابِ تَطْوِيلِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، ١/ ٥٣٦ و٥٣٧، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَابُ التَفْسِيرِ، بَابُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، ٨/ ٢٥٠، رقم (٤٥٨٢)، ومسلم في «**الصحيح**»: كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ، =

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ» الحَدِيثَ، وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[١].

فَهَذِهِ بَعْضُ الأَمْثِلَةِ العَمَلِيَّةِ مِنْ تَدَبُّرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَكَانَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، عَلَىٰ الأَثَرِ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ:** «رَكْعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ، خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ بِلَا قَلْبٍ»[٢].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، قَالَ: «بَلَىٰ يَا رَبِّ، بَلَىٰ يَا رَبِّ»[٣].

=

بَابُ فَضْلِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ...، ١/ ٥٥١، رقم (٨٠٠).

(١) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ التَفْسِيرِ، سُورَةُ اقْرَأْ، ٨/ ٧١٥، رقم (٤٩٥٣)، و«**صحيح مسلم**»: كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ١/ ١٣٩ و١٤٠، رقم (١٦٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: ٢/ ١١٨ و٩/ ٣٢٩، رقم (٢٨٨ و١١٤٧)، وأبو الشيخ الأصبهاني في «**العظمة**»: ١/ ٢٩٧ و٣٠١، رقم (٤٢ و٤٤)، وهو حسن بمجموع طرقه.

وقال أبو الدرداء وأبو هريرة والحسن البصري نحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «**المصنف**»: ١٣/ ٣٢٦، رقم (٣٤٦٤٧)، وابن أبي الدنيا في =

وَعَنْ قَرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: «بَعَثَنَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ إِلَىٰ الكُوفَةِ، وَشَيَّعَنَا، فَمَشَىٰ مَعَنَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ صِرَار[١]، فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ مَشَيْتُ مَعَكُمْ؟». قُلْنَا: لِحَقِّ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِحَقِّ الأَنْصَارِ. قَالَ: «لَكِنِّي مَشَيْتُ مَعَكُمْ لِحَدِيثٍ أَرَدْتُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ تَحْفَظُوهُ لِمَمْشَايَ مَعَكُمْ؛ إِنَّكُمْ تَقْدُمُونَ عَلَىٰ قَوْمٍ لِلْقُرْآنِ فِي صُدُورِهِمْ هَزِيزٌ[٢] كَهَزِيزِ المِرْجَلِ[٣]، فَإِذَا رَأَوْكُمْ، مَدُّوا إِلَيْكُمْ أَعْنَاقَهُمْ[٤]، وَقَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ! فَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ أَنَا شَرِيكُكُمْ»[٥].

=

«**الرقة والبكاء**» ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا الحديثية: ٣/ ١٢٠ و١٢١، رقم (٧٦)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ١/ ٣٠٥، ترجمة (٤٤)، وابن عساكر في «**تاريخ دمشق**»: ٣١/ ١٢٧، ترجمة (٣٤٢١)، بإسناد حسن.

(١) **(صرار)**: موضع قرب المدينة.

(٢) **(هزيز)**: صوت.

(٣) **(المرجل)**: إناء يغلىٰ فيه الماء، سواء كان من نحاس وغيره، وله صوت عند غليان الماء فيه.

(٤) **(مدوا إليكم أعناقهم)**، أي: للأخذ عنكم وتسليما للأمر إليكم وتحكيما لكم فألقوا الرواية.

(٥) أخرجه ابن ماجه في «**السنن**»: المقدمة، بَابُ التَّوَقِّي فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ١/ ١٢، رقم (٢٨).

والأثر صححه الألباني في «**صحيح ابن ماجه**»: ١/ ٢٧ و٢٨، رقم (٢٦).

أَرَادَ ﵁ أَنْ يَتَوَفَّرُوا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ حَتَّىٰ يُتْقِنُوهُ، وَأَلَّا يُشْغَلُوا عَنْهُ مَعَ تَدَبُّرِهِ، وَمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، وَالإِحَاطَةِ بِبَعْضِ مَقَاصِدِهِ.

وَعَنْ طَاوُسَ(١)، **قَالَ**: قَالَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ: يَا كَلِمَةَ اللهِ، هَلْ عَلَىٰ الأَرْضِ اليَوْمَ مِثْلُكَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، مَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ ذِكْرًا، وَصَمْتُهُ فِكْرًا، وَنَظَرُهُ عِبْرَةً؛ فَإِنَّهُ مِثْلِي»(٢).

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ ﵀(٣): «مَرَّ رَجُلٌ بِرَاهِبٍ عِنْدَ مَقْبَرَةٍ وَمَزْبَلَةٍ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا رَاهِبُ، إِنَّ عِنْدَكَ كَنْزَيْنِ مِنْ كُنُوزِ الدُّنْيَا لَكَ فِيهِمَا مُعْتَبَرٌ: كَنْزُ الرِّجَالِ،

---

(١) هو الفَقِيْهُ القُدْوَةُ عَالِمُ اليَمَنِ: طَاوُوْسُ بنُ كَيْسَانَ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الفَارِسِيُّ الْخَوْلَانِيّ الْهَمدَانِي، ثقة فقيه فاضل، من الوسطىٰ من التابعين، سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَلَازَمَ ابْنَ عَبَّاسٍ مُدَّةً، وَهُوَ مَعْدُوْدٌ فِي كُبَرَاءِ أَصْحَابِهِ، رَوَىٰ عَنْهُ عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَقْرَانِهِ، مَاتَ بِمَكَّةَ سَنَةَ خَمْسٍ وَمائَةٍ.
انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٥/ ٣٨، رقم (١٣).

(٢) «**إحياء علوم الدين**»: ٤/ ٤٢٤، و«**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير: ٢/ ١٨٤.
وروي نحوه عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ؛ فأخرج عبد الله بن أحمد في زوائده علىٰ «**الزهد**»: ص٢٧٠، رقم (١٩٥٣)، والبَلَاذُري في «**أنساب الأشراف**»: ١١/ ٣٠٩، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ٢/ ١٠٦، ترجمة (١٦٦)، عَنْ يَاسِينَ الزَّيَّاتِ، قَالَ: جَاءَ ابْنُ الْكَوَّاءِ إِلَىٰ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَىٰ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ كَانَ مَنْطِقُهُ ذِكْرًا، وَصَمْتُهُ تَفَكُّرًا، وَمَسِيرُهُ تَدَبُّرًا، فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي»، وروي عن الحسن البصري نحوه أيضا.

(٣) هو الحَافِظُ الإِمَامُ المجاهد: عَبْدُ اللهِ بنُ المُبَارَكِ بنِ وَاضِحٍ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحَنْظَلِيُّ =

وَكَنْزُ الأَمْوَالِ»[١].

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ[٢]، **قَالَ**: «لَأَنْ أَقْرَأَ فِي لَيْلَتِي حَتَّىٰ أُصْبِحَ بِإِذَا زُلْزِلَتْ وَالقَارِعَةِ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِمَا، وَأَتَرَدَّدُ فِيهِمَا، وَأَتَفَكَّرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهُذَّ القُرْآنَ لَيْلَتِي هَذًّا -أَوْ قَالَ-: أَنْثُرُهُ نَثْرًا»[٣].

=

المَرْوَزِيُّ، ولد فِي سَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمائَةٍ، وكان ثقة ثبتا فقيها، جمعت فيه خصال الخير، سَمِعَ مِنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ وَهِشَامِ بنِ عُرْوَةَ، وَحَدَّثَ عَنْهُ ابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ مَهْدِيٍّ، وَطَائِفَةٌ مِنْ أَقرَانِهِ، مات بِهِيْت (وهي بلدة علىٰ الفرات من نواحي بغداد) منصرفا من الغزو سَنَةَ إِحْدَىٰ وَثَمَانِيْنَ وَمائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٨/ ٣٧٨، ترجمة (١١٢).

(١) «**سير أعلام النبلاء**»: ٨/ ٤٠٩، و«**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير: ٢/ ١٨٥.

(٢) هو الإِمَامُ: مُحَمَّدُ بنُ كَعْبِ بنِ سُلَيْمٍ، أَبُو حَمْزَةَ القُرَظِيُّ المَدَنِيُّ، وَكَانَ ثقة يرسل مِنْ أَئِمَّةِ التَّفْسِيْرِ، وهو من الوسطىٰ من التابعين، ولد في آخر خلافة عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سنة أربعين، حَدَّثَ عَنْ أَبِي أَيُّوْبَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَرَوَىٰ عَنْهُ أَخُوْهُ؛ عُثْمَانُ، وَيَزِيْدُ بنُ الهَادِ وَالحَكَمُ بنُ عُتَيْبَةَ وَخَلْقٌ كَثِيْرٌ، تُوُفِّيَ بالمدينة سَنَةَ ثَمَانٍ وَمائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٥/ ٦٥، ترجمة (٢٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»: ٢/ ١١٨، رقم (٢٨٧)، ووكيع في «**الزهد**»: ص٤٧٩، رقم (٢٢٧)، وابن أبي شيبة في «**المصنف**»: ٢/ ٥٢١ و١٠/ ٥٢٦، رقم (٨٧٣٢ و٣٠١٦٠)، والفريابي في «**فضائل القرآن**»: ص٢٢٢، رقم (١٣٧)، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ٣/ ٢١٤، ترجمة (٢٣٨)، بإسناد صحيح.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ الكَلَامِ بِالصَّمْتِ، وَعَلَىٰ الِاسْتِنْبَاطِ بِالفِكْرِ»(١).

وَقَالَ أَيْضًا: «صِحَّةُ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ نَجَاةٌ مِنَ الغُرُورِ، وَالعَزْمُ فِي الرَّأْيِ سَلَامَةٌ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالنَّدَمِ، وَالرُّؤْيَةُ وَالفِكْرُ يَكْشِفَانِ عَنِ الحَزْمِ وَالفِطْنَةِ، وَمُشَاوَرَةُ الحُكَمَاءِ ثَبَاتٌ فِي النَّفْسِ وَقُوَّةٌ فِي البَصِيرَةِ، فَفَكِّرْ قَبْلَ أَنْ تَعْزِمَ، وَتَدَبَّرْ قَبْلَ أَنْ تَهْجُمَ، وَشَاوِرْ قَبْلَ أَنْ تُقْدِمَ»(٢).

قَالَ الفُضَيْلُ(٣): «إِنَّمَا نَزَلَ القُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ قِرَاءَتَهُ عَمَلًا»؛ قِيلَ: كَيْفَ العَمَلُ بِهِ؟

قَالَ: «لِيُحِلُّوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَيَأْتَمِرُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهُوا عَنْ نَوَاهِيهِ، وَيَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ»(٤).

---

(١) أخرجه الْحَسَن بن الْحُسَيْن بنِ حَمْكَانَ في «**مناقب الشافعي**»: ص١٣٩، رقم (٢٧)، بإسناد صحيح.

(٢) «**إحياء علوم الدين**»: ٤/ ٤٢٥.

(٣) الإِمَامُ الزاهد الثَّبْتُ: الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضِ بنِ مَسْعُوْدٍ، أَبُو عَلِيٍّ التَّمِيْمِيُّ، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة عابد، حَدَّثَ عَنْ مَنْصُوْرٍ وَالأَعْمَشِ وَخَلْقٍ، وحَدَّثَ عَنْهُ ابْنُ المُبَارَكِ وَيَحْيَىٰ القَطَّانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ، مات بمكة سنة سبع وثمانين ومائة.
انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ٨/ ٤٢١، ترجمة (١١٤).

(٤) أخرجه الآجري في «**أخلاق أهل القرآن**»: ص١٠٣، رقم (٣٧)، والخطيب البغدادي =

إِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الإِقْبَالِ عَلَىٰ القُرْآنِ تَدبُّرًا وَتَفَهُّمًا، فَإِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ التَّدَبُّرِ أَمْرٌ شَنِيعٌ، وَصُدُودٌ قَبِيحٌ.

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «عَابَ الْمُنَافِقِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَفِي مَعَانِيهِ».

◉◉◉



=

في «**اقتضاء العلم العمل**»: ص٧٥ و٧٦، رقم (١١٦)، بإسناد صحيح.

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**»: ٥/ ٢٩٠.

مِنْ آثَارِ التَّمَادِي فِي هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآن

ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ عَنْهُ مُرَادَهُ بِالكُلِّيَّةِ، أَوْ فَهِمَهُ فَهْمًا ضَعِيفًا، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨]، وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِ طَائِفَةٍ مِنَ المُنَافِقِينَ فِي بَلَادَتِهِمْ، وَقِلَّةِ فَهْمِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا يُجَالِسُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ فَلَا يَفْهَمُونَهُ، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، قَالُوا لِأَهْلِ العِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦]، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٦].

لَقَدْ تَرْجَمَ الإِمَامُ المُجَدِّدُ -رَحِمه اللهُ تَعَالَىٰ- عَلَىٰ هَذِهِ الآيَةِ فِي «فَضَائِلِ القُرْآنِ»[1]**، بِقَوْلِهِ:** «بَابٌ: الخَوْفُ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَفْهَمِ القُرْآنَ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُنَافِقِينَ».

فَهُمْ حَالَ سَمَاعِهِمُ القُرْآنَ، لَا يُصْغُونَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا يُحْضِرُونَ قُلُوبَهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَتَشَاغَلُونَ عَنْ ذَلِكَ قَصْدًا، كَمَا هُوَ دَيْدَنُ إِخْوَانِهِمْ مِنَ الكَافِرِينَ،

---

(١) «**فضائل القرآن**» ضمن «**الدرر السنية في الأجوبة النجدية**» جمع ابن القاسم: ١٣/ ٩، (د.م، د.ن، ط٦، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. فَهَؤُلَاءِ لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعًا يَنْفَعُهُمْ؛ وَإِنَّمَا يَسْمَعُونَ بِآذَانِهِمْ مَا تَقُومُ بِهِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، أَمَّا قُلُوبُهُمْ: فَالقُرْآنُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا -عِيَاذًا بِاللهِ-، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالطَّبْعِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ؛ جَزَاءً وِفَاقًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ(١): «أَغْطِيَةً؛ لِئَلَّا يَفْقَهُوا القُرْآنَ».

وَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ(٢): «... وَالمَعْنَىٰ: جَعَلْنَا بَيْنَ القُرْآنِ -إِذَا قَرَأْتَهُ- وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فَهْمِهِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَالإِيمَانِ بِهِ؛ وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ الثَّلَاثَةُ المَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، فَأَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّ ذَلِكَ بِجَعْلِهِ: فَالحِجَابُ يَمْنَعُ رُؤْيَةَ الحَقِّ، وَالأَكِنَّةُ تَمْنَعُ مِنْ فَهْمِهِ، وَالوَقْرُ يَمْنَعُ مِنْ سَمَاعِهِ».

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

---

(١) «**تفسير القرآن العظيم**»: ٣/ ٢٤٧.

(٢) «**شفاء العليل**»: الباب الخامس عشر: في الطبع والغل، ص٩٤، (القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ١٣٢٣هـ).

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنْزَعُ عَنْهُمْ فَهْمَ القُرْآنِ، وَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي»(١).

قَالَ العَلَّامَةُ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «... وَقَدْ ذَمَّ جَلَّ وَعَلَا الْمُعْرِضَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

وَمَعْلُومٌ، أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ المَجِيدِ أَيْ: تَصَفُّحِهَا، وَتَفَهُّمِهَا، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا فَإِنَّهُ مُعْرِضٌ عَنْهَا، غَيْرُ مُتَدَبِّرٍ لَهَا؛ فَيَسْتَحِقُّ الْإِنْكَارَ وَالتَّوْبِيخَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَاتِ، إِنْ كَانَ اللهُ أَعْطَاهُ فَهْمًا يَقْدِرُ بِهِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، وَقَدْ شَكَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْ هَجْرِ قَوْمِهِ هَذَا الْقُرْآنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَتَفَهُّمَهُ، وَتَعَلُّمَهُ، وَالْعَمَلَ بِهِ؛ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ.

---

(١) أخرجه الطبري في «**جامع البيان**»: ٩/ ٦٠، وابن أبي حاتم في «**تفسيره**»: ٥/ ١٥٦٧، وأبو الشيخ في «**العظمة**»: ١/ ٣١٥، رقم (٥٨)، بإسناد صحيح، وعزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: ٣/ ١٢٧ لابن المنذر، وقد تقدم في المحاضرة الأولىٰ.

(٢) «**أضواء البيان**»: ٧/ ٤٥٧ و٤٥٨، (مكة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٦هـ).

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِذَلِكَ هُمْ خَيْرُ النَّاسِ، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي «الصَّحِيحِ»(١)، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

فَإِعْرَاضُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ، عَنِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَتَفَهُّمِهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وَبِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ؛ -إِعْرَاضُهُمْ هَذَا- مِنْ أَعْظَمِ الْمُنَاكِرِ وَأَشْنَعِهَا، وَإِنْ ظَنَّ فَاعِلُوهُ أَنَّهُمْ عَلَىٰ هُدًىٰ».

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ، الَّذِي هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ التَّرْدِيدِ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ».

---

(١) «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، بَاب خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، ٩/ ٧٤، رقم (٥٠٢٧)، وفي رواية له: رقم (٥٠٢٨)، بلفظ: «**إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

(٢) «**مقدمة في أصول التفسير**» ضمن «**مجموع الفتاوىٰ**» جمع ابن القاسم: ١٣/ ٣٣٠.

وَقَدْ أَشَارَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ التَّمَادِي فِي هَجْرِ التَّدَبُّرِ، مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ وَعَدَمِ الخُشُوعِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ، أَنَّ ضَلَالَ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ، مَرَدُّهُ إِلَىٰ تَرْكِ تَدَبُّرِ القُرْآنِ وَالإِعْرَاضِ عَنْهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٦- ٦٨].

وَلِهَذَا كَانَ تَرْكُ تَدَبُّرِ القُرْآنِ نَوْعًا مِنْ هِجْرَانِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ[١]: «وَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ وَتَرْكُ امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ. وَالْعُدُولُ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ: مِنْ شِعْرٍ، أَوْ قَوْلٍ، أَوْ غِنَاءٍ، أَوْ لَهْوٍ، أَوْ كَلَامٍ، أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ غَيْرِهِ؛ كُلُّ هَذَا مِنْ هِجْرَانِهِ، فَنَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ المَنَّانَ، القَادِرَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، أَنْ يُخَلِّصَنَا مِمَّا يُسْخِطُهُ، وَيَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرْضِيهِ، مِنْ حِفْظِ كِتَابِهِ وَفَهْمِهِ، وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، عَلَىٰ الوَجْهِ الذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ».

---

(١) «**تفسير القرآن العظيم**»: ٦/ ١٠٨ و١٠٩.

وَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْيَهُودِ مَثَلًا مَعَ التَّوْرَاةِ، يَحْمِلُ عَلَىٰ التَّنْفِيرِ مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فَضَرَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْيَهُودِ هَذَا المَثَلَ؛ لِأَنَّهُ حَمَّلَهُمُ التَّوْرَاةَ فَلَمْ يَحْمِلُوهَا -أَيْ: لَمْ يَفْهَمُوهَا، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا فِيهَا-، وَبِالتَّالِي لَمْ يَعْمَلُوا بِتَعَالِيمِهَا.

قَالَ الطُّرْطُوشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ[(١)]: «فَدَخَلَ فِي عُمُومِ هَذَا مَنْ يَحْفَظُ القُرْآنَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا، ثُمَّ لَا يَفْهَمُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِمَا فِيهِ»[(٢)].

وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، فَإِنَّ هَذَا ذَمٌّ لِأَهْلِ الكِتَابِ، وَهُوَ تَحْذِيرٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ.

---

(١) هو الإِمَامُ الحافظ الزَّاهِدُ الفَقِيه شَيْخُ المَالِكِيَّة: مُحَمَّدُ بنُ الوَلِيْدِ بنِ خَلَفٍ، أَبُو بَكْرٍ الأَنْدَلُسِيّ الطُّرْطُوشِي، نزيل الإِسْكَنْدَرِيَّة، (وَطُرْطُوشَة: هِيَ آخِرُ حَدِّ المُسْلِمِين مِنْ شِمَالِي الأَنْدَلُس)، لَازَمَ القَاضِي أَبَا الوَلِيْدِ البَاجِي وَأَخَذَ عَنْهُ الفقه وَتَفَقَّهَ أَيْضًا عِنْد أَبِي بَكْرٍ الشَّاشِيّ وَسَمِعَ بِالبَصْرَةِ (سُنَن أَبِي دَاوُد) مِنْ أَبِي عَلِيٍّ التُّسْتَرِيّ، وحَدَّثَ عَنْهُ أَبُو طَاهِرٍ السِّلَفِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ ابنُ العربي وَآخَرُوْنَ، قَالَ ابْنُ بَشْكُوَال: «كَانَ إِمَامًا عَالِمًا زَاهِدًا وَرِعًا دينًا مُتَوَاضِعًا متقشِّفًا متقلِّلًا مِنَ الدُّنْيَا»، وكان شديد الإنكار للبدع والمبتدعين؛ وله رسالة في الرد علىٰ كتاب «الإحياء»، وقَالَ: «وَهُوَ لَعَمْرُو الله، أَشْبَهُ بِإِمَاتَةِ عُلُوْم الدِّين»، تُوُفِّيَ بِالإِسْكَنْدَرِيَّة سَنَةَ عِشْرِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ.

انظر: «**سير أعلام النبلاء**»: ١٩/ ٤٩٠، رقم (٢٨٥).

(٢) «**الحوادث والبدع**»: ص١٠١، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»[(١)]: «وَالْأَمَانِيُّ: جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ، وَهِيَ التِّلَاوَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، أَيْ: إِذَا تَلَا، أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ.

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَاقَىٰ حِمَامَ[(٢)] الْمَقَادِرِ[(٣)]».

فَكَمْ هُمُ الذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ العَزِيزَ اليَوْمَ، وَلَا يَعُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ، بَلْ يَكْتَفُونَ بِمُجَرَّدِ تِلَاوَةِ اللِّسَانِ؟!

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ! مَاذَا حُرِمَ المُعْرِضُونَ عَنِ القُرْآنِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ؟!

***

(١) «**الجامع لأحكام القرآن**»: ٢/ ٦.

(٢) (الحِمام): الموت، و(المقادير): جمع القدر.

(٣) البيت في ديوان كعب بن مالك رضي الله عنه: ص٥٣، رقم (٣٣)، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٧م)، قاله في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد ذُكر في «**العين**»: ٨/ ٣٩٠، وفي «**معاني القرآن**» للزجاج: ٣/ ٤٣٥، وفي «**مقاييس اللغة**»: ٥/ ٢٧٧، وفي «**لسان العرب**»: ١٥/ ٢٩٤، بلا نسبة، وقد نسب البيت أيضا لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وليس في ديوانه، والله أعلم.

ذَمُّ الْمُعْرِضِينَ عَنْ كِتَابِ اللهِ

لَقَدْ ذَمَّ اللهُ جَلَّوَعَلَا المُعْرِضِينَ عَنِ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩- ٥١].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧- ٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ القُرْآنِ المَجِيدِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَيفْسُدَ عَلَيْهِ حَالُهُ، قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، يَعْنِي: مُخْتَلِطٍ عَلَيْهِمْ، مُلْتَبِسٍ[1].

---

(١) أخرج عبد الرزاق في «**تفسيره**»: ٣/ ٢٢٨، رقم (٢٩٤٨)، والطبري في «**جامع البيان**»: ٢٦/ ١٤٩ و١٥٠، بإسناد صحيح، عَنْ قَتَادَةَ، في قوله: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾، يَقُولُ: «فَهُمْ فِي أَمْرٍ مُخْتَلِطٍ عَلَيْهِمْ مُلْتَبِسٍ، لَا يَعْرِفُونَ حَقَّهُ مِنْ بَاطِلِهِ، من قولهم: قَدْ مَرَجَ أَمْرُ النَّاسِ: إِذَا اخْتَلَطَ وَأُهْمِلَ»، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد نحوه.

وَفِي الإِعْرَاضِ عَنِ القُرْآنِ اتِّبَاعٌ لِلْهَوَىٰ، وَإِعْرَاضٌ عَنِ الهُدَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وَالإِعْرَاضُ عَنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا عُنْوَانُ الشَّقَاءِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]، فَكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ القُرْآنِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ هَذَا يَوْمَ القِيَامَةِ.

فَلَمَّا أَعْرَضَ عَنِ الذِّكْرِ وَعَمِيَتْ عَنْهُ بَصِيرَتُهُ، أَعْمَىٰ اللهُ بَصَرَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فَلَيْسَ فِي الإِعْرَاضِ عَنِ القُرْآنِ إِلَّا الفَسَادُ وَالدَّمَارُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٤].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ[1]: «... وَكَأَنَّ القَلْبَ بِمَنْزِلَةِ البَابِ المُرْتَجِ، الذِي قَدْ ضُرِبَ عَلَيْهِ قُفْلٌ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُفْتَحِ القُفْلُ، لَا يُمْكِنُ فَتْحُ البَابِ

---

(١) «**شفاء العليل**»: ص٩٥.

وَالوُصُولُ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهُ، وَكَذَلِكَ مَا لَمْ يُرْفَعِ الخَتْمُ وَالقُفْلُ عَنِ القَلْبِ لَمْ يَدْخُلْهُ الإِيمَانُ وَالقُرْآنُ».

وَفِي إِضَافَةِ الأَقْفَالِ إِلَىٰ ضَمِيرِهَا لَطِيفَةٌ، أَشَارَ إِلَيْهَا الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ[1]: «... وَفِي قَوْلِهِ: ﴿**أَقْفَالُهَآ**﴾ -بِالتَّعْرِيفِ-، نَوْعُ تَأْكِيدٍ؛ فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: أَقْفَالٌ، لَذَهَبَ الوَهَمُ إِلَىٰ مَا يُعْرَفُ بِهَذَا الاِسْمِ، فَلَمَّا أَضَافَهَا إِلَىٰ القُلُوبِ عُلِمَ أَنَّ المُرَادَ بِهَا، مَا هُوَ لِلْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ القُفْلِ لِلْبَابِ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَقْفَالَهَا المُخْتَصَّةَ بِهَا، التِي لَا تَكُونُ لِغَيْرِهَا»، لِذَا قَالَ: ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**﴾.

وَإِضَافَةُ (أَقْفَال) إِلَىٰ ضَمِيرِ (قُلُوب)، نَظْمٌ بَدِيعٌ، أَشَارَ إِلَىٰ اخْتِصَاصِ الأَقْفَالِ بِتِلْكَ القُلُوبِ -أَيْ: مُلَازَمَتِهَا لَهَا-، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهَا قَاسِيَةٌ.

وَتَأَمَّلْ، كَيْفَ جَاءَتْ ﴿**عَلَىٰ قُلُوبٍ**﴾ مُنَكَّرَةً؟! فَلَمْ يَقُلْ: عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»[2]: «... لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ؛ لَمْ يَدْخُلْ قَلْبُ غَيْرِهِمْ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ. وَالْمُرَادُ: أَمْ عَلَىٰ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ، وَقُلُوبِ مَنْ كَانُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَقْفَالُهَا؟».

وَإِذَا كَانَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ ذَمَّ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ، لِعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ لِكَلَامِهِ، فَمَا الحَالُ إِذًا فِيمَنْ قَرَأَهُ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَقَدْ نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ؟!

---

(١) المصدر السابق: ص٩٦.

(٢) **«الجامع لأحكام القرآن»**: ١٦/ ٢٤٧.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَنْ يَنْتَفِعَ أَحَدٌ بِالكِتَابِ العَزِيزِ، وَلَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الحِكْمَةِ التِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، إِلَّا إِذَا تَدبَّرَ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ كَلَامُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وَتَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ؛ حِينَهَا يَنْتَفِعُ بِالقُرْآنِ، وَتَظْهَرُ عَلَيْهِ آثَارُهُ، وَتُشْرِقُ فِي قَلْبِهِ أَنْوَارُهُ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

وَقَدْ كَانَ نَبِيُّنَا ﷺ فِي الذِّرْوَةِ العُلْيَا -كَمَا مَرَّ- لِلتَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ...﴾ [إبراهيم: ٣٦] الْآيَةَ.

وَقَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَىٰ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ-، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟».

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ-، فَقَالَ اللهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**».

---

(١) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كِتَاب الإِيمَانِ، بَاب دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ،...، ١/ ١٩١، رقم (٢٠٢).

قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ. قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟!

قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا،** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيَةَ [آل عمران: ١٩٠]. رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ(١).

---

(١) أخرجه ابن حبان في «**الصحيح**» بترتيب ابن بلبان: ٢/ ٣٨٦ و٣٨٧، رقم (٦٢٠)، وأخرجه أيضا عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «**التفكر والاعتبار**» كما في «**تفسير ابن كثير**»: ٢/ ١٨٩، وابن المنذر في «**تفسيره**»: ٢/ ٥٣٢ و٥٣٣، رقم (١٢٦١)، والطحاوي في «**شرح مشكل الآثار**»: ١٢/ ٣٣ و٣٤، رقم (٤٦١٨)، والخرائطي في «**اعتلال القلوب**»: ٢/ ٣٠٥، رقم (٦١٠)، وأبو الشيخ في «**أخلاق النبي ﷺ**»: ٣/ ١٢٠ و١٦٧، رقم (٥٤٤ و٥٦٨)، وابْنُ مَرْدويه كما في «**تفسير ابن كثير**»: ٢/ ١٨٩، والأصبهاني في «**الترغيب والترهيب**»: ١/ ٣٨٧، رقم (٦٦٦)، و٢/ ٤٤١، رقم (١٩٥١).

والحديث حسنه الألباني في «**الصحيحة**»: ١/ ١٤٧، رقم (٦٨)، و«**صحيح الترغيب والترهيب**»: ٢/ ١٨٥ و١٨٦، رقم (١٤٦٨).

وأصله في «الصحيحين»: «**صحيح البخاري**»: كِتَابُ تَفْسِيرِ، سُورَةُ الْفَتْحِ، بَابُ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾...، ٨/ ٥٨٤، رقم (٤٨٣٧)، و«**صحيح مسلم**»: =

فَهَذِهِ الآيَاتُ، لَعَلَّهَا مِنْ أَكْثَرِ مَا سَمِعْنَا مِنْ أَئِمَّتِنَا فِي صَلَوَاتِنَا، فَأَيْنَ التَّفَكُّرُ وَأَيْنَ التَّدَبُّرُ؟!

فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١): عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي! وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟!».

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ هَدْيِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم الدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَدَبُّرِ القُرْآنِ، حِكَمِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَقَصَصِهِ وَأَخْبَارِهِ، وَمَوَاعِظِهِ وَأَمْثَالِهِ، وَتَشْرِيعَاتِهِ وَإِعْجَازِهِ؛ فَهَذَا عُمَرُ رضي الله عنه يَسْأَلُ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم عَنْ مَثَلٍ ضَرَبَهُ اللهُ فِي القُرْآنِ، لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا مَنْ نَوَّرَ اللهُ بَصِيرَتَهُ، وَقَرَأَ القُرْآنَ وَتَدَبَّرَهُ حَقَّ تَدَبُّرِهِ، كَمَا هُوَ حَالُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ -ﷺ، وَرضي الله عنهم-.

فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»(٢): أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟

=

كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، بَابُ إِكْثَارِ الْأَعْمَالِ...، ٤/ ٢١٧٢، رقم (٢٨٢٠)، من حديث: عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ قَامَ حَتَّىٰ تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**».

(١) «**صحيح مسلم**»: كِتَابُ الزُّهْدِ، ٤/ ٢٢٧٣، رقم (٢٩٥٨).

(٢) «**صحيح البخاري**»: كتاب التفسير، سورة البقرة، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ

=

قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ.

فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: «قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ».

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

قَالَ عُمَرُ: «يَا ابْنَ أَخِي، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ.

قَالَ عُمَرُ: «أَيُّ عَمَلٍ؟».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ!

قَالَ عُمَرُ: «لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّىٰ أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ».

لِهَذَا كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا مَرَّ بِمَثَلٍ لَا يَفْهَمُهُ بَكَىٰ، يَقُولُ: «لَسْتُ مِنَ العَالِمِينَ»؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣][1].

=

لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، ٨/ ٢٠١ و٢٠٢، رقم (٤٥٣٨).

(١) «**مفتاح دار السعادة**»: ص١٣٨، (مكة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٣٢هـ).

وأخرج القاسم بن سلام في «**فضائل القرآن**»: ص٩٧، وابن أبي حاتم في «**تفسيره**»: ٣/ ٣٠٦٤، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»: ٥/ ٩٥، ترجمة (٢٩٨)، والمُسْتَغْفِرِيُّ في «**فضائل القرآن**»: ١/ ٢٧٦، رقم (٢٧٤)، بإسناد صحيح، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: «مَا

=

قَالَ ابْنُ قَاسِمٍ رَحِمَهُ اللهُ(١): «أَمْثَالُ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ عِلْمِهِ(٢)، وَعَدَّهُ الشَّافِعِيُّ مِمَّا يَجِبُ عَلَىٰ الْمُجْتَهِدِ مَعْرِفَتُهُ(٣)، ضَرَبَهَا اللهُ تَذْكِيرًا وَوَعْظًا(٤)، ....

=

مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾».

وفي رواية: «إِنِّي لَأَمُرُّ بِالْمَثَلِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا أَعْرِفُهُ فَأَغْتَمُّ بِهِ»، وفي أخرىٰ: «أَكْرَهُ أَنْ أَمُرَّ، بِمَثَلٍ فِي الْقُرْآنِ فَلَا أَعْرِفُهُ».

(١) هو الفقيه الحنبلي: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، أبو عبد الله العاصمي النجدي القحطاني، جمع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية في ٣٠ مجلدا، سافر من أجل البحث عنها إلىٰ بلاد كثيرة، وله «الدرر السنية»: فتاوىٰ ورسائل لعلماء نجد، وكان من أوعية العلم، جلدًا في سبيل الطلب فقيهًا نسابة مؤرخًا، توفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف.

انظر: «**الأعلام**» للزركلي: ٣/ ٣٣٦.

(٢) أي: من أعظم علم القرآن، قال الماوردي: «والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، «حاشية ابن القاسم علىٰ المقدمة».

(٣) وقال: «ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال، الدوال علىٰ طاعته المبينة لاجتناب نواهيه»، «حاشية ابن القاسم».

(٤) مما اشتمل منها علىٰ تفاوت في ثواب أو علىٰ مدح أو ذم ونحوه، وقال غير واحد: «ضرب الله الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة، منها: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس»، «حاشية ابن القاسم».

وَهِيَ تُصَوِّرُ المَعَانِيَ بِصُورَةِ الأَشْخَاصِ[(١)]»[(٢)].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَىٰ مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟

فَقَالَ: «إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ»، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا أُرِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ

---

(١) لأنها أثبت في الأذهان؛ لاستعانة الذهن فيها بالحواس، قال إبراهيم: «هي تشبيه شيء بشيء، في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر»، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] فامتن تعالىٰ علينا بذلك، لما تضمنه من الفوائد، فإنها تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وتؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

والأمثال كثيرة في كتاب الله، وهي أقسام، منها: ما هو مصرح به: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧] الآية، ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. والكامنة: كما نقل الماوردي: «أنها تخرج منها أمثال العرب»، نحو: ليس الخبر كالعيان، في نحو: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والجارية مجرىٰ المثل: نحو: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ [آل عمران: ٩٢] الآية، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨] وغير ذلك، «حاشية ابن القاسم».

(٢) «**مقدمة التفسير**»: ص٩٧، (د.م، د.ن، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)

ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١- ٢]، حَتَّىٰ ختَمَ السُّورَةَ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ، وَالفَتْحُ، فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١).

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو أَصْحَابَهُ الكِرَامَ -رَضوان اللهُ عَلَيْهِمْ- إِلَىٰ تَدبُّرِ القُرْآنِ.

فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ...﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**وَاللهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

فَالسَّعِيدُ كُلُّ السَّعَادَةِ، مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِقْبَالِ عَلَىٰ القُرْآنِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَالعَمَلِ بِهِ؛ فَإِنَّ عُلُومَ القُرْآنِ أَفْضَلُ العُلُومِ، وَشَرَفَ أَهْلِهِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ؛ قَالَ تَعَالَىٰ:

---

(١) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: كِتَاب المَغَازِي، باب (٥١)، ٨/ ٢٠، رقم (٤٢٩٤).

(٢) أخرجه مسلم في «**الصحيح**»: كتاب صلاة المسافرين، بَاب فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، ١/ ٥٥٦، رقم (٨١٠).

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩].

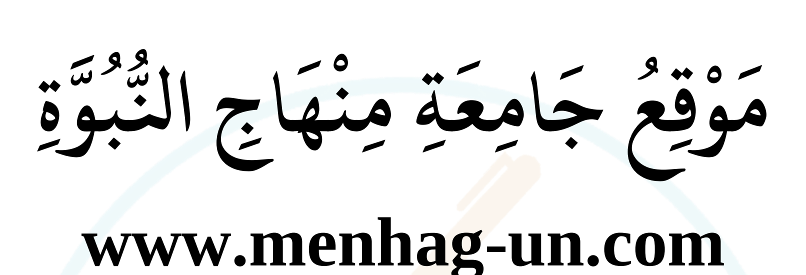
وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فَإِنَّهُ أَعْظَمُ وَاعِظٍ وَأَكْبَرُ زَاجِرٍ، فَمَا أَنْزَلَ اللهُ وَاعِظًا مِثْلَ هَذَا الكِتَابِ العَزِيزِ، قال تَعَالَىٰ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

فَنَخْلُصُ مِنْ هَذَا: بِأَنَّ تَدَبُّرَ القُرْآنِ وَاجِبٌ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ حِيَالَ كِتَابِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ مِنَ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالسَّعِيدُ هُوَ الذِي يَمْتَاحُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ يَحُوزَ النَّصِيبَ الأَوْفَىٰ؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِكِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَّا إِذَا تَدَبَّرَ آيَاتِهِ، وَرَبَطَ الآيَةَ بِالآيَةِ، فَمَا يَرْبِطُ الكَلِمَةَ بِالكَلِمَةِ؛ فَإِنَّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَنْ كِتَابِهِ، فَعَلَىٰ المُسْلِمِ إِذَا كَانَ مُنْتَسِبًا لِصَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ الصَّالِحِ، أَنْ يَكُونَ آخِذًا بِبَعْضِ هَدْيِهِمْ حِيَالَ كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْكُفُونَ عَلَىٰ تَدَبُّرِ آيَاتِ الكِتَابِ العَزِيزِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرَىٰ مَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الذِي يُوَفِّقُ وَهُوَ الذِي يُعِينُ، وَهُوَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com



بَيَانُ أَصْلِ التَّدَبُّرِ

فَأَصْلُ التَّدَبُّرِ: التَّأَمُّلُ فِي أَدْبَارِ الْأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَأَمُّلٍ؛ سَوَاءٌ كَانَ نَظَرًا فِي حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَأَجْزَائِهِ، أَوْ سَوَابِقِهِ وَأَسْبَابِهِ، أَوْ لَوَاحِقِهِ وَأَعْقَابِهِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: «هُوَ التَّأَمُّلُ فِي مَعَانِيهِ، وَتَحْدِيقُ الْفِكْرِ فِيهِ، وَفِي مَبَادِئِهِ، وَعَوَاقِبِهِ، وَلَوَازِمِ ذَلِكَ».

الْخُلَاصَةُ فِي مَعْنَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:

وَالْخُلَاصَةُ فِي مَعْنَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: أَنَّهُ تَفَهُّمُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُهُ؛ مُطَابَقَةً أَوْ ضِمْنًا، وَمَا لَا تَتِمُّ تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَّا بِهِ مِنَ الْإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ، وَانْتِفَاعُ الْقَلْبِ بِذَلِكَ؛ بِخُشُوعِهِ عِنْدَ مَوَاعِظِهِ، وَخُضُوعِهِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَأَخْذِ الْعِبْرَةِ مِنْهُ.

بَيَانُ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:

وَتَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، فِي مُقَدِّمَتِهَا: أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَتَفَهُّمَ عُلُومِهِ مِنَ النُّصْحِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَمِنْهُمُ ابْنُ رَجَب رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِكِتَاب اللهِ؛ فَشِدَّةُ حُبِّهِ، وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ -إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ-، وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِتَدَبُّرِهِ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ؛ لِطَلَب مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، وَيَقُومَ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ مِنَ الْعِبَادِ يَتَفَهَّمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْهُ؛ عُنِيَ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ لِكِتَاب رَبِّهِ، يُعْنَىٰ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ للهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ، ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهِمَ فِي الْعِبَادِ، وَيُدِيمُ دِرَاسَتَهُ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهِ».

●●●



المَقْصُودُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرآنِ المَجِيدِ

لَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمَقْصُودَ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ بِهِ، وَالِالْتِزَامُ بِتَوْجِيهَاتِهِ وَإِرْشَادَاتِهِ.

وَهَذِهِ الْأَوَامِرُ لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهَا بِدُونِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ قِرَاءَةَ خَتْمَةٍ بِتَدَبُّرٍ وَتَفَكُّرٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ عِدَّةٍ مِنَ الْخَتَمَاتِ بِدُونِ هَذَا التَّدَبُّرِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لِيَتَدَبَّرُوا حُجَجَ اللهِ الَّتِي فِيهِ، وَمَا شَرَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَائِعِ، فَيَتَّعِظُوا وَيَعْمَلُوا بِهِ».

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «وَالْمَعْنَىٰ: كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ».

﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أَيْ: كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ.

مِنْ بَرَكَاتِ الْقُرْآنِ

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقُرْآنَ تَكْمُنُ بَرَكَتُهُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: كَثْرَةُ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَتَنَوُّعُ مَوَاعِظِهِ وَزَوَاجِرِهِ، وَتَعَدُّدُ تَرْغِيبَاتِهِ وَتَرْهِيبَاتِهِ.

وَمِنْ بَرَكَاتِ الْقُرْآنِ: زِيَادَةُ حَسَنَاتِ الْعَبْدِ، وَكَذَلِكَ فِي رِفْعَةِ مَقَامِهِ، وَفِي جَلْبِ السَّعَادَةِ لَهُ فِي الدَّارَيْنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ؛ يَحْصُلُ لَهُ تِلْكَ الْبَرَكَاتُ وَزِيَادَةٌ.

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ: «تُسَنُّ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ؛ فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَهَمُّ».

فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ التِّلَاوَةِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْهَاجًا لِلْعَمَلِ، وَهَادِيًا لِلسُّلُوكِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَ اللهِ؛ كَانَ ذَلِكَ دَافِعًا لَهُ لِلْعَمَلِ.

وَمِنْ أَحْسَنِ الْعَمَلِ: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُتَوَفِّرًا عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِفَهْمِ الْمُرَادِ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

فَمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ؛ نَالَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَفِي الدُّنْيَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُحِبُّهُ النَّاسُ، وَتَرْتَفِعُ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُمْ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي الْآخِرَةِ لَهُ الدَّرَجَاتُ العُلَىٰ.

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ فِيهِمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

بِدُونِ الْعَمَلِ يُصْبِحُ الْعِلْمُ وَبَالًا عَلَىٰ صَاحِبِهِ، فَمَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَمَا اسْتَوْعَبَهُ الذِّهْنُ يَزْدَادُ رُسُوخًا وَمَضَاءً إِذَا صَدَّقَتْهُ الْأَفْعَالُ السُّلُوكِيَّةُ.

وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْعَمَلَ بِالْعِلْمِ يُقَرِّرُهُ فِي النَّفْسِ أَبْلَغَ تَقْرِيرٍ، وَيَنْقُشُهُ فِي صَحِيفَةِ الْفِكْرِ أَثْبَتَ نَقْشٍ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي فَنِّ التَّرْبِيَةِ وَعِلْمِ النَّفْسِ؛ مِنْ أَنَّ التَّطْبِيقَ يُؤَيِّدُ الْمَعَارِفَ، وَالْأَمْثِلَةَ تُقَيِّدُ الْقَوَاعِدَ، وَلَا تَطْبِيقَ أَبْلَغُ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَا مِثَالَ أَمْثَلُ مِنَ الِاتِّبَاعِ؛ خُصُوصًا الْمَعَارِفَ الدِّينِيَّةَ، فَإِنَّهَا تَزْكُوا بِتَنْفِيذِهَا، وَتَزِيدُ بِاتِّبَاعِهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيْ: هِدَايَةً وَنُورًا تَفْرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الرُّشْدِ وَالْغَيِّ؛ لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِلْمُ التَّدَبُّرِ دَافِعًا لِلْعَمَلِ الْمُثْمِرِ، الَّذِي يَجْلِبُ لِصَاحِبِهِ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ التَّأَمُّلِ فِي جَمَالِ الْخَطِّ وَوُضُوحِهِ، وَإِنَّمَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ نِبْرَاسًا لِلْعَمَلِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَقَدْ ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ مَا يُؤَكِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ إِنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ الْمُبَارَكِ: أَنْ يَتَدَبَّرَ النَّاسُ آيَاتِهِ، وَيَتَّعِظُوا بِمَا فِيهَا».

وَالتَّدَبُّرُ: هُوَ التَّأَمُّلُ فِي الْأَلْفَاظِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ؛ فَاتَتِ الْحِكْمَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَصَارَ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ لَا تَأْثِيرَ لَهَا، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الِاتِّعَاظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ.

وَمِنْ عَجَبٍ: أَنَّكَ تَجِدُ الصُّنَّاعَ -حَتَّىٰ مِنَ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ لَا أَثَارَةَ مِنَ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ!!- يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ؛ فَتَجِدُ النَّجَّارَ إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ النِّجَارَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصْنَعَ الْأَثَاثَ وَمَا أَشْبَهَ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ تَرَفًا عَقْلِيًّا، وَمَتَاعًا ذِهْنِيًّا.

وَكَذَلِكَ الْحَدَّادُ، إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ الْحِدَادَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَثْمِرَهَا لِلْعَمَلِ بِهَا، وَتَحْصِيلِ الرِّزْقِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ.

فَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْعِلْم وَلَا مُشَارَكَةَ؛ إِنَّمَا يَعْلَمُونَ بِفِطْرَتِهِمُ السَّوِيَّةِ أَنَّ الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّمُونَ مَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْ أُصُولِ حِرَفِهِمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَوِّلُوهُ إِلَىٰ عَمَلٍ مُثْمِرٍ مُنْتِجٍ مُفِيدٍ.

وَلَكِنَّكَ تَجِدُ طُلَّابَ الْعِلْم فِي الْمُقَابِلِ لَا يُرَتِّبُونَ الْعَمَلَ عَلَىٰ الْعِلْم، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّمُونَ، وَيَسْتَكْثِرُونَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْحِفْظِ، ثُمَّ لَا يُثْمِرُ هَذَا عِنْدَهُمْ شَيْئًا؛ فَيَنْحَطُّونَ فِي الدَّرَجَةِ دُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يُشَارِكُونَ فِي الْعِلْم أَصْلًا، وَلَكِنْ وَقَرَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاسْتَقَرَّ فِي أَعْمَاقِهِمْ أَنَّ الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ، فَهُمْ يَتَعَلَّمُونَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرَتِّبُوا عَلَىٰ هَذَا الْعِلْم عَمَلًا، وَطُلَّابُ الْعِلْم فِي الْمُقَابِلِ مَاذَا أَثْمَرَ الْعِلْمُ عِنْدَهُمْ؟!! اللهُ الْمُسْتَعَانُ.

أَهَمِّيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ تَبْرُزُ وَتَظْهَرُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَكُلُّ أَمْرٍ مِنْهَا كَافٍ لِكَيْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهِ، وَالتَّأَثُّرِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ.

وَمِنْ هَذِهِ -كَمَا مَرَّتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ-: بَرَكَةُ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ بِأَوْصَافٍ عَظِيمَةٍ، مِنْهَا: أَنَّهُ كِتَابٌ عَزِيزٌ مُبَارَكٌ، وَأَنَّهُ نُورٌ وَفُرْقَانٌ، وَرَحْمَةٌ وَبُرْهَانٌ، وَبَصَائِرُ وَشِفَاءٌ، وَهُدًىٰ وَبُشْرَىٰ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْأَوْصَافَ بِالْحَثِّ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، وَالِاعْتِبَارِ، وَالتَّذَكُّرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَالْمَعْنَىٰ: كِتَابٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ.

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وَقَدْ بَيَّنَ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ بَرَكَةَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْعَبْدِ الَّذِي أَقْبَلَ عَلَىٰ كِتَابِ رَبِّهِ بِأَدَبٍ وَاعْتِبَارٍ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ تَلَا الْقُرْآنَ، وَأَرَادَ بِهِ مُتَاجَرَةَ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّهُ يُرْبِحُهُ الرِّبْحَ الَّذِي لَا بَعْدَهُ رِبْحٌ، وَيُعَرِّفُهُ بَرَكَةَ الْمُتَاجَرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]».

وَبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَثَرَ بَرَكَةِ الْقُرْآنِ، وَقُوَّةَ تَأْثِيرِهِ، وَتَمَيُّزِهِ عَنْ بَاقِي مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنَ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ بَرَكَةَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَتَأَثَّرُ بِهِ، فَقَالَ ﷺ: «**الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالْأُتْرُجَّةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلَا رِيحَ لَهَا**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِهَذَا اللَّفْظِ، وَمُسْلِمٌ، وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنْ بَرَكَاتِ الْقُرْآنِ: أَنْوَاعُ هِدَايَتِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «(أَقْوَمُ) أَيْ: أَكْرَمُ، وَأَنْفَسُ، وَأَصْلَحُ، وَأَكْمَلُ اسْتِقَامَةً، وَأَعْظَمُ قِيَامًا وَصَلَاحًا لِلْأُمُورِ».

أَمَامَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ قَالَ ابْنُ مُفْلِح رَحِمَهُ اللهُ مُوَجِّهًا حَامِلَ الْقُرْآنِ لِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَارَكَةِ عَلَيْهِ: «أَنْ يَعْتَقِدَ -يَعْنِي: حَامِلَ الْقُرْآنِ- جَزِيلَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ أَهَّلَهُ لِحِفْظِ كِتَابِهِ، وَيَسْتَصْغِرَ عَرَضَ الدُّنْيَا أَجْمَعَ فِي جَنْبِ مَا خَوَّلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَيَجْتَهِدَ فِي شُكْرِهِ».

فَهَذَا كُلُّهُ كَافٍ فِي أَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَىٰ تَدبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ مَا فِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ الَّتِي لَا تُحَصَّلُ إِلَّا بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالتَّوَفُّرِ عَلَىٰ فَهْم مَعَانِي أَلْفَاظِهِ وَمَرَامِيهِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَالْمَوَاعِظِ وَالزَّوَاجِرِ، وَمَا قَصَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَعَنِ الْمُكَذِّبِينَ، وَالطَّائِعِينَ الْمُؤْمِنِينَ.

◉ ◉ ◉



الْقَلْبُ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَالْقَلْبُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ فَفِي الْقَلْب حَاجَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ، وَالتَّلَذُّذُ بِكَرِيم خِطَابِهِ، وَإِنَّ فِيهِ وَحْشَةً لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِكِتَابِهِ، وَإِنَّ فِي الْقَلْب قَلَقًا وَخَوْفًا لَا يُؤَمِّنُهُ إِلَّا السُّكُونُ إِلَىٰ مَا بَشَّرَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ، وَإِنَّ فِيهِ فَاقَةً لَا يُغْنِيهَا إِلَّا التَّزَوُّدُ مِنْ حِكَم الْقُرْآنِ وَأَحْكَامِهِ، وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ حَيْرَةٍ وَاضْطِرَاب لَا يُنَجِّيهِ مِنْهَا وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِلَّا الِاهْتِدَاءُ بِنُورِ رَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَبُرْهَانِ كِتَابِهِ الْعَزِيز.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعِلْم مَكَانَةً، وَمِنَ التَّقْوَىٰ مَنْزِلًا؛ لَا يَسْتَغْنِي عَن الْقُرْآنِ مُثَبِّتًا، وَهَادِيًا، وَمُعِينًا، وَكَيْفَ يَسْتَغْنِي وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ وَصَفِيِّهِ ﷺ: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]؟!!

لِذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام رَحِمَهُ اللهُ: «وَحَاجَةُ الْأُمَّةِ مَاسَّةٌ إِلَىٰ فَهْم الْقُرْآنِ...»، يُرِيدُ: لِصَلَاحِ قُلُوبِهَا، وَثَبَاتِهَا عَلَىٰ الْهُدَىٰ وَالدِّينِ وَالْحَقِّ.

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حِينَمَا عَاتَبَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فِي خُشُوعِ قُلُوبِهِمْ، وَالتَّأَثُّرِ بِكَلَامِهِ؛ حَذَّرَهُمْ مَغَبَّةَ التَّمَادِي فِي هَجْرِ تَدَبُّرِ كِتَابِهِ، وَهِيَ قَسْوَةُ الْقُلُوبِ.

فَقَالَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَسِتِّيرُ الْعُيُوبِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ الصَّحَابَةُ بِمَكَّةَ مُجْدِبِينَ، فَلَمَّا هَاجَرُوا؛ أَصَابُوا الرِّيفَ وَالنِّعْمَةَ، فَفَتَرُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَوَعَظَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَأَفَاقُوا».

وَالْعِتَابُ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْرَىٰ وَأَوْلَىٰ.

وَقَدْ أَخْبَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ الْحَالِ الَّتِي يَنْتَفِعُ فِيهَا الْقَلْبُ بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ؛ نَفَعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَبِنَحْوِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فَالتَّدَبُّرُ حَالَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ يَزِيدُ الْقَلْبَ نُورًا وَإِيمَانًا.

قَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ؛ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا».

وَرُسُوخُ الْقُرْآنِ الْكَرِيم فِي الْقَلْب، الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الِانْتِفَاعُ؛ لَا يَكُونُ تَرْدِيدًا بَارِدًا لِآيَاتِهِ باللِّسَانِ؛ بحَيْثُ لَا يُحَرِّكُ هَذَا التَّرْدِيدُ قَلْبًا، وَلَا يُغَيِّرُ وَاقِعًا، بَلْ رُسُوخُهُ بِأُمُورٍ بَيَّنَهَا الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بقَوْلِهِ: «فَالْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ؛ اسْتَعْرَضَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ كَالْمِرْآةِ، يَرَىٰ بِهَا مَا حَسُنَ مِنْ فِعْلِهِ، وَمَا قَبُحَ فِيهِ، فَمَا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ حَذِرَهُ، وَمَا خَوَّفَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ خَافَهُ، وَمَا رَغَّبَ فِيهِ مَوْلَاهُ رَغِبَ فِيهِ وَرَجَاهُ.

فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ، أَوْ مَا قَارَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ؛ فَقَدْ تَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَكَانَ لَهُ القرآنُ شَاهِدًا، وَشَفِيعًا، وَأَنِيسًا، وَحِرْزًا، وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُ؛ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَنَفَعَ أَهْلَهُ، وَعَادَ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ وَعَلَىٰ وَلَدِهِ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً؛ فَاسْتَغْنَىٰ بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ مِمَّا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ لِلسُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا؛ مَتَىٰ أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُوهُ؟ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَزْدَجِرُ؟ مَتَىٰ أَعْتَبِرُ؟ لِأَنَّ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ، وَالتَّدَبُّرَ، وَالْخُضُوعَ، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ».

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ قُلُوب الْخَاشِعِينَ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: (تَلِينُ) أَيْ: تَرِقُّ قُلُوبُهُمْ، وَتَطْمَئِنُّ، وَتَسْكُنُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْقَلْب مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بالتَّدَبُّر وَالتَّفَكُّرِ؛ فَإِنَّهُ جامِعٌ لِجَمِيع مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَأَحْوَالِ الْعَامِلِينَ، وَمقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، وَهُوَ الَّذِي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ وَالشَّوْقَ، وَالْخَوْفَ وَالرَّجاءَ، وَالْإِنَابَةَ وَالتَّوَكُّل، وَالرِّضَا وَالتَّفْوِيض، وَالشُّكْرَ وَالصَّبْرَ، وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بها حَيَاةُ الْقَلْب وَكَمَالُهُ، وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيع الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي بهَا فَسَادُ الْقَلْب وَهَلَاكُهُ.

فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بالتَّدَبُّرِ؛ لَاشْتَغَلُوا بهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا».

يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بالتَّدبُّرِ؛ لَاشْتَغَلُوا بهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بتَفَكُّرٍ؛ حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بآيَةٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ؛ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ وَلَوْ لَيْلَةً، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بتَفَكُّرٍ وَتَفَهُّم خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بغَيْر تَدبُّر وَتفهُّم، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْب، وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُصُولِ الْإِيمَانِ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بالتَّفَكُّرِ هِيَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْب».

فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ هِيَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَيْسَ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا، وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنٍ، وَالنَّاسُ فِي شَأْنٍ آخَرَ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَنْهَضُ بِالْعَبْدِ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ، وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ، وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ!

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ».

وَيُبَيِّنُ حَاجَةَ الْقَلْبِ لِلْقُرْآنِ الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ، الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا**».

قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟

فَقَالَ: «بَلَىٰ؛ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا».

الْحَدِيثُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو يَعْلَىٰ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَابْنُ حِبَّانَ، وَغَيْرُهُمْ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْقَيِّم كَمَا فِي «شِفَاءِ الْعَلِيل»، وَالْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ»، وَكَذَا فِي «صَحِيح الْكَلِم الطَّيِّب».

فَتَأَمَّلْ فِي هَذَا الدُّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَهُ الرَّسُولُ ﷺ الْأُمَّةَ: «**أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**».

لِذَلِكَ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَازَرَعَ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِكُمْ يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ؟!!».

إِنَّ الْقُرْآنَ رَبِيعُ الْمُؤْمِن، كَمَا أَنَّ الْغَيْثَ رَبِيعُ الْأَرْض؛ لِذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ: «دَوَاءُ الْقُلُوب فِي خَمْسَةٍ...»، وَذَكَرَ أَوَّلَهَا: «قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ».

فَإِذَا عُلِمَ هَذَا عِلْمَ افْتِقَارٍ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُكَلَّفٍ يَعْلَمُ يَجْتَهِدُ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا، وَيَكُونُ حَقِيقًا حِينَئِذٍ بِهِ أَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ، وَيَسْتَفْرِغَ وُسْعَهُ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ بِأَقْرَبِ الطُّرُقِ الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ.

●●●

مِنَ الْآيَاتِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى مَنْ تَأَثَّرَ بِكَلَامِ اللهِ ﷻ

وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ التَّدَبُّرِ، وَعَظِيمِ قَدْرِهِ، أَثْنَىٰ عَلَىٰ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَتَأَثَّرَ بِهِ؛ فَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي الثَّنَاءِ عَلَىٰ مَنْ تَأَثَّرَ بِكَلَامِ اللهِ ﷻ، تَحْمِلُ تِلْكَ الْآيَاتُ فِي طَيَّاتِهَا أَحْوَالًا لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالتَّأَثُّرِ بِهِ.

مِنْهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فَيَبْكُونَ بِتَأَثُّرٍ مِنْ تَأْثِيرِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا؛ حَيْثُ يَزِيدُهُمْ سَمَاعُ الْقُرْآنِ خُشُوعًا، أَيْ: لِينَ قُلُوبٍ، وَرُطُوبَةَ أَعْيُنٍ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وَمَعْنَىٰ (بُكِيًّا): أَيْ: بُكَاءً وَحُزْنًا بِلَا صَوْتٍ.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَكَانَتْ حَالُهُمْ -يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَصْحَابَهُ رضي الله عنهم- عِنْدَ الْمَوَاعِظِ؛ كَانَتْ حَالُهُمُ الْفَهْمَ عَنِ اللهِ، وَالْبُكَاءَ خَوْفًا مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ، وَحِكَايَةُ مَقَالِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِهِمْ».





حَالُ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هُنَالِكَ مَنْ يُعْرِضُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ؛ لِذَلِكَ وَرَدَ الذَّمُّ لِمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَمَّنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ، وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر: ٢١]: «حَثَّ عَلَى تَأَمُّلِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ التَّدَبُّرِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا؛ لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَى صَلَابَتِهَا وَرَزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُتَصَدِّعَةً مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَقْهُورُونَ بِإِعْجَازِهِ لَا تَرْغَبُونَ فِي وَعْدِهِ، وَلَا تَرْهَبُونَ مِنْ وَعِيدِهِ».

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ حَالَ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَفْقَهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَدَّبَّرِ الْقَوْلَ؛ فِي صِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٦-١٧].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ مِنَ التَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ كِتَابِ اللهِ؛ جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ -أَيْ: يَتَصَفَّحُهَا، وَيَتَفَهَّمُهَا، وَيُدْرِكُ مَعَانِيَهَا، وَيَعْمَلُ بِهَا-؛ فَإِنَّهُ مُعْرِضٌ عَنْهَا، غَيْرُ مُتَدَبِّرٌ لَهَا، فَيَسْتَحِقُّ الْإِنْكَارَ وَالتَّوْبِيخَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَاتِ إِنْ كَانَ اللهُ أَعْطَاهُ فَهْمًا يَقْدِرُ بِهِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَتَفَهُّمَهُ، وَتَعَلُّمَهُ، وَالْعَمَلَ بِهِ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِعْرَاضُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ عَنِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ، وَتَفَهُّمِهِ، وَالعَمْلِ بِهِ، وَبِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ؛ مِنْ أَعْظَمِ الْمَنَاكِرِ وَأَشْنَعِهَا».

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِير قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢]: «عَابَ الْمُنَافِقِينَ بِالْإِعْرَاض عَن التَّدَبُّر فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّر فِيهِ وَفِي مَعَانِيهِ».

وَفِي وَصْفِ الْخَوَارِج، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**».

أَيْ: أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَإِقْرَائِهِ، وَهُمْ لَا يَتَفَقَّهُونَ فِيهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَقَاصِدَهُ.

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذَمَّهُمْ بِإِحْكَام أَلْفَاظِهِ، وَتَرْكِ التَّفَهُّم لِمَعَانِيهِ».

قَالَ ابْنُ حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُرَادُ: أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ حَظٌّ؛ إِلَّا مَا يَكُونُ مِنْ مُرُورِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِمْ، لَا يَصِلُ إِلَىٰ حُلُوقِهِمْ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ تَعَقُّلُهُ، وَتَدَبُّرُهُ؛ بِوُقُوعِهِ فِي الْقَلْب».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، لَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ، وَلَا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَل -وَهُوَ رَدِيءُ التَّمْر-!!».

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْر، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَل، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَمَثَّلَ اللهُ تَعَالَىٰ حَالَ الْيَهُودِ مَعَ التَّوْرَاةِ أَقْبَحَ تَمْثِيل وَأَشْنَعَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

قَالَ الطُّرْطُوشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَدَخَلَ فِي عُمُوم هَذَا مَنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ مِنْ أَهْل مِلَّتِنَا، ثُمَّ لَا يَفْهَمُهُ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ».

بَلْ عَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مِنْ بدَع الْقُرَّاءِ: الْقِرَاءَةَ بالْهَذْرَمَةِ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ سَرِيعَةٌ لَا تَدَبُّرَ مَعَهَا، وَلَا فِقْهَ لِلْمَعَانِي، وَلَا تَأَثُّرَ بِالْمَوَاعِظِ.

قَالَ الطُّرْطُوشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِمَّا ابْتَدَعَهُ النَّاسُ فِي الْقُرْآنِ: الِاقْتِصَارُ عَلَىٰ حِفْظِ حُرُوفِه دُونَ التَّفَقُّهِ فِيهِ».

فَجَعَلَ هَذَا مِنَ الْبدَع.

يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِمَّا ابْتَدَعَهُ النَّاسُ فِي الْقُرْآنِ: الِاقْتِصَارُ عَلَىٰ حِفْظِ حُرُوفِهِ دُونَ التَّفَقُّهِ فِيهِ».





مِنْ صُوَرِ النَّصِيحَةِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى

لَقَدْ عَدَّ الْعُلَمَاءُ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمَ عُلُومِهِ مِنَ النُّصْحِ لِكِتَاب اللهِ تَعَالَىٰ -كَمَا مَرَّ-؛ لِحَدِيثِ تَمِيم بْنِ أَوْس الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**».

قُلْنَا: لِمَنْ؟

قَالَ: «**للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ**».

وَقَدْ عَدَّ الْعُلَمَاءُ التَّدَبُّرَ لِلْقُرْآنِ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ أَحْكَامِهِ، وَالِاعْتِبَارَ بِأَمْثَالِهِ مِنَ النُّصْحِ لَهُ، وَتَنَوَّعَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا مَرَّ مِنْ كَلَام ابْنِ رَجَب رَحِمَهُ اللهُ، وَهُنَا كَلَامُ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «النَّصِيحَةُ لِكِتَاب اللهِ تَعَالَىٰ هِيَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ».

وَهَذَا مِنْ أَعْظَم مَا يَدْعُو إِلَىٰ تَدَبُّر وَفَهْم كَلَام اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ عَلَىٰ يَقِين، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ هَذَا الْيَقِين؛ لِأَنَّهُ لَا تَصِحُّ عَقِيدَتُهُ إِلَّا بِهِ، أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ يَقِين عِنْدَمَا يَقْرَأُ وَيَتْلُو كَلَامَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ يَقْرَأُ كَلَامَ اللهِ، تَكَلَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَيُعَامِلُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ هَذَا الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَكَلَامُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ؛ فَالْإِنْسَانُ يُعَظِّمُ كَلَامَ اللهِ، وَيَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيُحَسِّنُهُ، وَيَخْشَعُ عِنْدَهُ، وَيُقِيمُ حُرُوفَهُ فِي التِّلَاوَةِ، وَيَقِفُ مَعَ أَحْكَامِهِ، وَيَتَفَهَّمُ عُلُومَهُ وَأَمْثَالَهُ، وَيَعْتَبِرُ بِمَوَاعِظِهِ، وَيَتَفَكَّرُ فِي عَجَائِبِهِ، وَيَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ، وَيُسَلِّمُ لِمُتَشَابِهِهِ، وَيَبْحَثُ عَنْ عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ، وَنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، وَيَنْشُرُ عُلُومَهُ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ؛ فَهَذَا هُوَ النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

* * *



فَضِيلَةُ تَدَبُّرِ الْقُرآنِ وَتَدَارُسِه

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ فَضِيلَةَ تَدَبُّر الْقُرْآنِ، وَفَضِيلَةَ تَدَارُس الْقُرْآنِ وَالِاجْتِمَاع عَلَيْهِ: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».

«**مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ**»: لَعَلَّهَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَرْكِ الِاجْتِمَاع عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهَجْر تَدَارُسِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَذْمُوم، وَصَاحِبُهُ مَحْرُومٌ، أَيْ: مِنْ هَذِهِ الْفَضَائِل، بِتَفْرِيطِهِ فِي هَذَا الْعَمَل الْجَلِيل، وَلَنْ يُسْرِعَ بِهِ نَسَبُهُ، أَوْ مَا مَلَكَ مِنْ مَفَاخِرِ الدُّنْيَا لِيُدْرِكَ مَا فَاتَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الِاجْتِمَاعَ عَلَىٰ كِتَاب اللهِ، وَالْمُدَارَسَةَ لَهُ؛ بَيَّنَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ النَّتَائِج وَالآثَار: «**إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»، ثُمَّ بَيَّنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أَلَّا شَيْءَ يُغْنِي عَنْ مِثْل هَذِهِ الْمَآثِر وَالْمَفَاخِرِ وَالْعَطَايَا؛ مَهْمَا كَانَ الْإِنْسَانُ.

لِذَلِكَ يَقُولُ: «**وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ...**» يَعْنِي: فَرَّطَ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُور الْعَظِيمَةِ مِنَ الِاجْتِمَاع عَلَىٰ التِّلَاوَةِ، وَتَعَلُّم تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَمُدَارَسَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

«**مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»؛ وَلَوْ مَلَكَ مَا مَلَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَبَلَغَ مَا بَلَغَ مِنَ النَّسَبِ وَصِحَّتِهِ.

أَهَمِّيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ تَكْمُنُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ، وَأَيْضًا فِي التَّفَاعُلِ الْوِجْدَانِيِّ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ.

***



الْهَدَفُ مِنَ التَّدَبُّرِ

الْهَدَفُ الْأَسَاسُ مِنَ التَّدَبُّرِ: هُوَ تَحْقِيقُ مَقْصُودِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِهِ، وَالْمُبَادَرَةُ لِتَنْفِيذِ مَا يَأْمُرُ بِهِ اللهُ جَلَّوَعَلَا، مَعَ الِانْتِهَاءِ عَمَّا يَنْهَىٰ عَنْهُ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ: الْكَشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ، وَتَعَلُّمُ ذَلِكَ، وَتَعْلِيمُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فَذَمَّ تَعَالَىٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَعَلَيْنَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذَمَّهُمُ اللهُ عَنْهُ».

لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إِنَّمَا يَذُمُّهُمْ عَنِ الشَّيْءِ لِيُحَذِّرَنَا مِنْهُ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْإِلَهِيَّةِ؛ وَلَكِنْ لَا يَذْكُرُ ذَلِكَ مَعَ الذَّمِّ لَهُ إِلَّا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَذِّرَنَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِهِ.

«فَذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللهِ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذَمَّهُمُ اللهُ بِهِ، وَأَنْ نَأْتَمِرَ بِمَا أَمَرَنَا اللهُ بِهِ؛ مِنْ تَعَلُّمِ كِتَابِ اللهِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْنَا وَتَعْلِيمِهِ، وَتَفَهُّمِهِ وَتَفْهِيمِهِ».

مَنْ عَرَفَ الْقُرْآنَ وَفَهِمَ مَعَانِيَهُ؛ تَيَقَّنَ أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ؛ فَحِينَئِذٍ يُؤْمِنُ وَيَسْتَجِيبُ لِأَحْكَامِهِ، وَيَأْتَمِرُ بِأَوَامِرِهِ، وَيَنْتَهِي عَنْ زَوَاجِرِهِ، وَيَكُونُ حَالُهُ كَحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يُغَيِّرُوا وَلَمْ يُبَدِّلُوا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

● ● ●



مِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ يُثْمِرُ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ؛ فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَمُدَاوَمَةُ الِاتِّصَالِ مَعَهُ، مَعَ التَّجَاوُبِ مَعَ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا يُؤَثِّرُ فِي الْمُسْتَوَىٰ الْإِيمَانِيِّ لِلْقَارِئِ الْمُتَدَبِّرِ، وَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً أَوْ سُورَةً؛ أَثَّرَتْ فِي عِبَادَتِهِ وَإِيمَانِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ وَاصِفًا حَالَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، فَالْقَلْبُ يَزْدَادُ إِذْعَانًا وَإِخْبَاتًا بِالتَّدَبُّرِ، وَالْإِيمَانُ يَزِيدُ رُسُوخًا بِالتَّدَبُّرِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَيُحْضِرُونَ قُلُوبَهُمْ لِتَدَبُّرِهِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَزِيدُ إِيمَانُهُمْ؛ لِأَنَّ التَّدَبُّرَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَلِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَعْنَىٰ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَهُ، أَوْ يَتَذَكَّرُونَ مَا كَانُوا نَسُوهُ، أَوْ يُحْدِثُ فِي قُلُوبِهِمْ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ، أَوِ اشْتِيَاقًا إِلَىٰ كَرَامَةِ رَبِّهِمْ، أَوْ وَجَلًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَازْدِجَارًا عَنِ الْمَعَاصِي، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَزْدَادُ بِهِ الْإِيمَانُ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَزْدَادُ

بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَذِهِ الْمَذْكُورَاتُ كُلُّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ بَلْ مِنْ أَرْكَانِهَا وَأُصُولِهَا».

إِذًا؛ التَّدَبُّرُ فِي كَلَام اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يَزِيدُ إِيمَانَ الْعَبْدِ، وَيُكْسِبُهُ الْخُشُوعَ، فَالْخُشُوعُ مَرْتَبَةٌ يُحَصِّلُهَا الْخَاشِعُ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ وَحِينَئِذٍ يَشْعُرُ بِالطُّمَأْنِينَةِ وَالسَّكِينَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فَالَّذِينَ اكْتَسَبُوا الْخُشُوعَ نَالُوا فِي الدُّنْيَا رَاحَةَ الْقُلُوب، وَفَازُوا فِي الْآخِرَةِ بِالْمَطْلُوب.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ، وَالتَّدَبُّرَ، وَالْخُضُوعَ، فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ».

قَالَ تَعَالَىٰ وَاصِفًا الَّذِينَ يَتَجَاوَبُونَ مَعَ آيَاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

قَالَ ابْنُ حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْخُشُوعُ هُوَ مَقْصُودُ التِّلَاوَةِ».

هُنَاكَ أُمُورٌ أُخْرَىٰ تُبرزُ لَنا أَهَمِّيَّةَ تَدبُّر الْقُرْآنِ الْكَرِيم، مِنْهَا: حَاجَةُ الْقَلْب إِلَىٰ تَدَبُّر الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

كَمَا مَرَّ: فِي الْقَلْب وَحْشَةٌ لَا تَزَالُ إِلَّا بالْأُنْس بكِتَاب اللهِ تَعَالَىٰ، وَالتَّأَمُّل فِي آيَاتِهِ، وَفِي الْقَلْب قَلَقٌ وَخَوْفٌ لَا يُؤَمِّنُهُ إِلَّا السُّكُونُ إِلَىٰ مَا بَشَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عِبَادَهُ، وَفِي الْقَلْب فَاقَةٌ لَا يُغْنِيهَا إِلَّا التَّزَوُّدُ مِنْ حِكَم الْقُرْآنِ وَمَوَاعِظِهِ وَعِبَرِهِ، وَفِيهِ حَيْرَةٌ وَاضْطِرَابٌ لَا يُنَجِّيهِ مِنْهَا إِلَّا الِاعْتِصَامُ بكِتَاب اللهِ تَعَالَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

لَقَدْ حَذَّرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَغَبَّةِ التَّمَادِي فِي هَجْر الْقُرْآنِ الْعَظِيم، وَكَانَتِ النَّتِيجَةُ هِيَ قَسْوَةَ الْقُلُوب، كَمَا بَيَّنَ عَلَّامُ الْغُيُوب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

الْأَصْلُ أَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَجُلُودَهُمْ تَخْشَعُ، وَتَخْضَعُ، وَتَرِقُّ، وَتَسْكُنُ، وَتَطْمَئِنُّ عِنْدَ ذِكْر اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْشَعَ قَلْبُهُ، وَيَنْشَرِحَ صَدْرُهُ؛ فَلَا غِنَىٰ لَهُ عَن التَّفَكُّر وَالتَّمَعُّن فِي آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَالْمُؤْمِنُ العَاقِلُ -كَمَا قَالَ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ-: «إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ؛ اسْتَعْرَضَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ كَالْمِرْآةِ، يَرَىٰ بهَا مَا حَسُنَ مِنْ فِعْلِهِ، وَمَا قَبُحَ فِيهِ، فَمَا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ حَذِرَهُ، وَمَا خَوَّفَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ خَافَهُ، وَمَا رَغَّبَ فِيهِ مَوْلَاهُ؛ رَغِبَ فِيهِ وَرَجَاهُ.

فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ، أَوْ مَا قَارَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ؛ فَقَدْ تَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَكَانَ لَهُ الْقُرْآنُ شَاهِدًا وَشَفِيعًا، وَأَنِيسًا وَحِرْزًا، وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُ؛ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَنَفَعَ أَهْلَهُ، وَعَادَ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ وَعَلَىٰ وَلَدِهِ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتِهِ، وَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَأَقْرَبُ إِلَىٰ نَجَاتِهِ فِي مَعَادِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ إِنَّ مَنْ يَجْتَهِدُ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ؛ يَدْخُلُ فِيمَنْ أَثْنَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَثْنَىٰ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ مَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ، وَتَأَثَّرَ بِهِ، وَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ صِفَةُ عِبَادِ اللهِ الْخَاشِعِينَ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وَجْهُ زِيَادَةِ إِيمَانِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ: هُوَ أَنَّهُمْ أَلْقَوُا السَّمْعَ لِلْقُرْآنِ، وَأَحْضَرُوا قُلُوبَهُمْ لِتَدَبُّرِهِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ ازْدَادَ إِيمَانُهُمْ وَيَقِينُهُمْ.

فَالتَّدَبُّرُ يُحْدِثُ رَغْبَةَ الْخَيْرِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَىٰ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَوَجَلًا مِنْ عُقُوبَاتِهِ، وَزَجْرًا عَنْ مَعَاصِيهِ، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَزْدَادُ بِهِ الْإِيمَانُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

تُبَيِّنُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ أَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هُمُ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ عِنْدَ سَمَاعِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ؛ بِسَبَبِ تَدَبُّرِهِمْ لِآيَاتِهِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ جَاهِلٌ لَا يَسْتَحِقُّ وَصْفَ الْعِلْمِ، وَكَرَّرَ ذِكْرَ الْخُرُورِ لِلْأَذْقَانِ؛ لِاخْتِلَافِ السَّبَبِ:

فَالْأَوَّلُ: لِتَعْظِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَنْزِيهُهُ.

وَالثَّانِي: لِلْبُكَاءِ بِتَأْثِيرِ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَزِيَادَةِ خُشُوعِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَكَانَتْ حَالُهُمْ -يُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَأَصْحَابَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- عِنْدَ الْمَوَاعِظِ؛ كَانَتْ حَالُهُمُ الْفَهْمَ عَنِ اللهِ، وَالْبُكَاءَ خَوْفًا مِنَ اللهِ؛ لِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ، وَحِكَايَةُ مَقَالِهِمْ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ وَلَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمِ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِهِمْ».

● ● ●

ذَمُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

إِذَا أَقْبَلَ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُجْتَهِدًا فِي أَلَّا يَتَعَرَّضَ إِلَىٰ الذَّمِّ لِتَرْكِ التَّدَبُّرِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَمَّ حَالَ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَفْقَهِ الْآيَاتِ، وَلَمْ يَدَّبَّرِ الْقَوْلَ فِي صِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَحْوَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، عَابَ الْمُنَافِقِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَفِي مَعَانِيهِ.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، أَنْكَرَ عَلَىٰ الْكُفَّارِ عَدَمَ تَفَكُّرِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَتَأَمُّلِهِمْ فِي مَوَاعِظِهِ وَعِبَرِهِ، وَتَدَبُّرِهِمْ لِآيَاتِهِ، فَإِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ؛ لَأَوْجَبَ لَهُمُ الْإِيمَانَ، وَلَمَنَعَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ: هِيَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ يَدْعُو إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَعْصِمُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ»، يَعْنِي: إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَالِيًا وَمُرَدِّدًا، حَالًّا وَمُرْتَحِلًا، وَلَكِنْ تَرَكْتَ تَدَبُّرَهُ وَتَفَهُّمَهُ؛ فَأَنْتَ قَدْ هَجَرْتَ كِتَابَ رَبِّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

تَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ.

● ● ●

هَجْرُ الْقُرْآنِ أَنْوَاعٌ

قَالَ ابْنُ الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَجْرُ الْقُرْآنِ أَنْوَاعٌ...» ثُمَّ ذَكَرَ مِنْهَا: «هَجر تَدبُّرِهِ وَتفَهُّمِهِ، وَمَعْرِفَةَ مَا أَرَادَ الْمُتكَلِّمُ بِهِ».

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَثَّلَ حَالَ الْيَهُودِ مَعَ التَّوْرَاةِ أَقْبَحَ تَمْثِيل، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قَالَ أَبُو بَكْرِ الطُّرْطُوشِيُّ: «فَدَخَلَ فِي عُمُوم هَذَا: مَنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ مِنْ أَهْل مِلَّتِنَا، ثُمَّ لَا يَفْهَمُهُ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ».

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ: ذَكَرَ حَالَ الْخَوَارِج، وَبَيَّنَ أَنَّ مِنْ حَالِهِمْ -بَلْ مِنْ أَعْظَم مَا يُعْرَفُونَ بِهِ، وَيُوصَفُونَ بِهِ-: أَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزَ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ، لَيْسَ حَظُّهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ سِوَىٰ مُرُورِهِ عَلَىٰ اللِّسَانِ؛ فَلَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ لِيَصِلَ قُلُوبَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ الْمَطْلُوبَ، بَل الْمَطْلُوبُ تَعَقُّلُهُ وَتَدَبُّرُهُ بِوُقُوعِهِ فِي الْقَلْب.

وَالتَّعَقُّلُ وَالتَّدَبُّرُ يَقُودُ إِلَىٰ الْعَمَل، وَهَذَا مِنْ أَعْظَم الْأَسْبَاب الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ ضَلَالِهِمْ؛ فَهُمْ يُكْثِرُونَ الْعِبَادَةَ بِلَا فِقْهٍ، وَيُقْبِلُونَ عَلَيْهَا إِقْبَالًا عَظِيمًا بِلَا فَهْمٍ، فَهُمْ

يَحْقِرُ الصَّحَابَةُ تِلَاوَتَهُمْ مَعَ تِلَاوَتِهِمْ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَتِلَاوَةُ الْخَوَارِجِ لَا تَنْفَعُهُمْ «**يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزَ حَنَاجِرَهُمْ، أَوْ قَالَ: تَرَاقِيَهُمْ، أَوْ قَالَ: حُلُوقَهُمْ**»، يَعْنِي: إِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْئًا؛ لِذَلِكَ أَخَذُوا آيَاتٍ نُزِّلَتْ فِي الْكُفَّارِ، فَجَعَلُوهَا فِي الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ اسْتَبَاحُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَآسِيهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ يَدَّبَّرُوا الْقُرْآنَ، وَلَمْ يَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ:** «لَا تَهُذُّوهُ -يَعْنِي الْقُرْآنَ- هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ:** قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، وَإِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ».

فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيْلَةٍ، فَأَدَّبَّرَهَا وَأُرَتِّلَهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ».

لَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الْمَجِيدَ يُرْشِدُ أَصْحَابَهُ إِلَىٰ أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

قَالَ السَّعْدِيُّ: «(أَقْوَمُ) أَيْ: أَكْرَمُ، وَأَنْفَسُ، وَأَصْلَحُ، وَأَكْمَلُ اسْتِقَامَةً، وَأَعْظَمُ قِيَامًا وَصَلَاحًا لِلْأُمُورِ».

وَالْهِدَايَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، فَيَتَدَبَّرُهُ وَيَعْمَلُ بِهِ؛ لِأَنَّ الْهَدَفَ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ: هُوَ أَنْ نَتَدَبَّرَ آيَاتِهِ، بِمَعْنَىٰ: أَنْ نَتَفَكَّرَ فِي مَعَانِيهَا، وَمَدْلُولَاتِهَا، وَأَسْرَارِهَا، وَأَخْبَارِهَا؛ حَتَّىٰ نَسْتَفِيدَ مِنْهَا الْهِدَايَةَ، وَنَسْتَفِيدَ مِنْهَا خَشْيَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَعْرِفَ مَا نَأْتِي وَمَا نَتْرُكُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالْمُعَامَلَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا وَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

فَفِي التَّدَبُّرِ: الْهِدَايَةُ الشَّامِلَةُ، وَتَرْقِيَةُ الْهِمَّةِ لِلْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّوْفِيقُ لِلدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، وَصَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا، وَبَهْجَةً وَسُرُورًا؛ فَيَصِيرُ فِي شَأْنٍ، وَالنَّاسُ فِي شَأْنٍ آخَرَ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَنْهَضُ بِالْعَبْدِ إِلَىٰ رَبِّهِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ، وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ، وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ!

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ».

إِنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُتَدَبِّرًا؛ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التَّلَذُّذِ بِالتِّلَاوَةِ، مَا يَجِدُ طَعْمَهُ فِي قَلْبِهِ بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ، أَوْ بِرَاحَةٍ فِي الْقَلْبِ يَجِدُهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَذَّةٌ فِي تِلَاوَتِهِ، وَلَذَّةٌ فِي الِاسْتِمَاعِ إِلَىٰ آيَاتِهِ، وَلَذَّةٌ فِي تَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَلَذَّةٌ فِي فَهْمِ مَرَامِيهِ لَا يَسْتَشْعِرُهَا إِلَّا مَنْ حَقَّقَ مَطَالِبَهَا، وَإِنَّهَا لَلَذَّةٌ لَا تُعَادِلُهَا لَذَّةٌ مِنْ لَذَائِذِ الدُّنْيَا.

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ وَفَهْمٌ، وَتَقْوَىٰ وَتَدَبُّرٌ؛ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ الْقُرْآنِ شَيْئًا».

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ وَفَهْمٌ، وَتَقْوَىٰ وَتَدَبُّرٌ؛ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ الْقُرْآنِ شَيْئًا.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنِّي لَأَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ؛ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!».

وَلَا يَتَعَارَضُ قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ مَعَ حَقِيقَةِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ الِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَاهِمًا لِلْمَعَانِي، أَوْ عَارِفًا لِلْمَقَاصِدِ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَهُ -أَيْ: مَقْصُودَ ابْنِ جَرِيرٍ- التَّلَذُّذُ الْأَكْمَلُ، الَّذِي يَكُونُ بِمَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَالتَّأَثُّرِ بِجَرْسِهِ، وَمَقَاطِعِهِ، وَأُسْلُوبِهِ، وَتَنَاسُبِ آيَاتِهِ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلامَ اللهِ؛ تبيَّنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَام الْفِقْهِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بالْحَيَاةِ، وَتَعَوَّدَ عَلَىٰ الْأَسَالِيب الْقُرْآنِيَّةِ فِي تَوْضِيح الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، الَّتِي بهَا سَعَادَةُ النَّاس، وَصَلَاحُ مَعَاشِهِمْ؛ فَيُعِينُهُ ذَلِكَ عَلَىٰ الِالْتِزَام بشُعَب الدِّين ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، كَمَا أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

إنَّ فِي الْقُرْآنِ شِفَاءً، شِفَاءً حِسِّيًّا، وَشِفَاءً مَعْنَوِيًّا، وَالتَّدَبُّرُ يَدْفَعُ الْعَقَائِدَ الْفَاسِدَةَ وَالشُّكُوكَ الْمُحَيِّرَةَ، فَإِذَا تَدبَّرَ الْمُؤْمِنُ الْقُرْآنَ؛ زَالَتْ عَنْهُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ؛ فَتَصْرِفُهُ عَن الطَّاعَاتِ، أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي بِحَارِ الْمَعَاصِي وَالظُّلُمَاتِ، فِي الْقُرْآنِ الشِّفَاءُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَقَدْ بَيَّنَهُ فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَبِالتَّسْهِيل فِي الْهَمْزَةِ أَيْضًا ﴿ءَاْعۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ آيَةِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: «قَالَ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ يُسْتَشْفَىٰ بِهِ مِنَ الْجَهْلِ وَمِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبَصَّرُ بِهِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَهُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، يُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ؛ فَيُدْخِلُهُمْ بِذَلِكَ الجَنَّةَ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ، فَهُوَ لَهُمْ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ مِنَ اللهِ أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ».

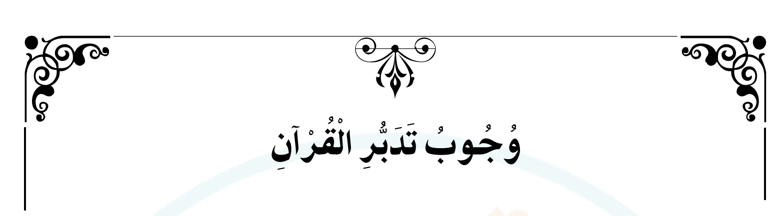
وَالرُّقْيَةُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي يُسْتَشْفَىٰ بِهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ الْحِسِّيَّةِ تَسْتَلْزِمُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بِتَدَبُّرٍ وَتَأَمُّلٍ؛ حَتَّىٰ تَكُونَ نَافِعَةً بِإِذْنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، لَيْسَتِ الْقِرَاءَةَ الهَذْرَمِيَّةَ الَّتِي لَا خُشُوعَ فِيهَا وَلَا إِخْبَاتَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُؤَهَّلُ وَلَا يُوَفَّقُ لِلِاسْتِشْفَاءِ بِالْقُرْآنِ، وَإِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ التَّدَاوِيَ بِالْقُرْآنِ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءِ شُرُوطِهِ؛ لَمْ يُقَاوِمْهُ الدَّاءُ أَبَدًا، وَكَيْفَ تُقَاوِمُ الْأَدْوَاءُ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَىٰ الْجِبَالِ لَصَدَعَهَا، وَعَلَىٰ الْأَرْضِ لَقَطَعَهَا.

فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ دَوَائِهِ، وَسَبَبُهُ، وَالْحِمْيَةُ مِنْهُ لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ فَهْمًا فِي كِتَابِهِ، وَأَمَّا الْأَدْوِيَةُ الْقَلْبِيَّةُ؛ فَإِنَّهُ يَذْكُرُهَا مُفَصَّلَةً، وَيَذْكُرُ أَسْبَابَ أَدْوَائِهَا، وَيَذْكُرُ عِلَاجَهَا».

فَهَذِهِ بَعْضُ الْأُمُورِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ، وَهُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

●●●



وُجُوبُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التَّدَبُّرَ، وَالتَّفَكُّرَ، وَإِمْعَانَ النَّظَرِ؛ لِفَهْمِ مَعَانِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

أَوْجَبَ اللهُ ذَلِكَ، وَعَابَ عَلَىٰ الْمُنَافِقِينَ إِعْرَاضَهُمْ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَفِي مَعَانِيهِ فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهَا، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وَقَدْ أَطْبَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَىٰ وُجُوبِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا عَلَىٰ وُجُوبِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَطْبَقَ عَلَىٰ ذَلِكَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ.

فَالَّذِي تَأْتِي بِهِ مِنَ التَّدَبُّرِ لَيْسَ نَفْلًا تَتَطَوَّعُ بِهِ، إِنَّمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، أَوْجَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْكَ؛ أَنْ تَتَدَبَّرَ فِي كِتَابِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ، وَلِتُفْهَمَ

مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدُهُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعْمَلَ بِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ذَلِكَ، فَعِنْدَمَا تَأْتِي بِهِ؛ إِنَّمَا تُحْمَدُ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِالْوَاجِبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَا عَلَىٰ أَنَّكَ تَتَطَوَّعُ بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ، بَلْ هَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكَ، وَفِي الْمُقَابِلِ إِنْ لَمْ تَقُمْ بِهِ؛ كُنْتَ مَأْثُومًا مَأْزُورًا.

◉◉◉

مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ فِي الْحَثِّ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

هَذِهِ بَعْضُ النُّقُولِ الْوَارِدَةِ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِينَ فِي هَذَا الشَّأْنِ:

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي حَثِّ اللهِ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ عَلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْبَيِّنَاتِ: مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ تَأْوِيل مَا لَمْ يُحْجَبْ عَنْهُمْ تَأْوِيلُهُ مِنْ آيِهِ؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَا يَفْهَمُ مَا يُقَالُ، وَلَا يَعْقِلُ تَأْوِيلَهُ: اعْتَبِرْ بِمَا لَا فَهْمَ لَكَ بِهِ؛ إِلَّا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْأَمْرِ بِأَنْ يَفْهَمَهُ، وَيَفْقَهَهُ، ثُمَّ يَتَدَبَّرَهُ وَيَعْتَبِرَ بِهِ».

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ كِتَابِهِ الْعَظِيم، وَلَمْ يُفَرِّقْ، لَمْ يَقُلْ: إِنَّمَا آمُرُ الْعُلَمَاءَ، وَلَا أَعْنِي سِوَاهُمْ؛ وَإِنَّمَا الْأَمْرُ لِلْجَمِيعِ.

اسْتَنْبَطَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وُجُوبَ مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْقُرْآنِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ عَلَىٰ وُجُوبِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِيُعْرَفَ مَعْنَاهُ».

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: «وَهَذَا أَمْرٌ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ».

قَالَ أَبُو السُّعُودِ: «إِنْكَارٌ وَاسْتِقْبَاحٌ؛ لِعَدَمِ تَدَبُّرِهِمُ الْقُرْآنَ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ التَّأَمُّلِ فِيمَا فِيهِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِيمَانِ».

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾** [محمد: ٢٤] عَلَىٰ وُجُوبِ التَّدَبُّرِ لِلْقُرْآنِ؛ لِيُعْرَفَ مَعْنَاهُ.

وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ حَقَّ تَدَبُّرِهِ؛ لَوَجَدُوهُ مُؤْتَلِفًا غَيْرَ مُخْتَلِفٍ، صَحِيحَ الْمَعَانِي، قَوِيَّ الْمَبَانِي، بَالِغًا فِي الْبَلَاغَةِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِهَا».

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ بِدُونِ فَهْمِ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ.

وَأَيْضًا؛ فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنَ الْعِلْمِ -كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ- وَلَا يَسْتَشْرِحُونَهُ - أَيْ: يَطْلُبُونَ شَرْحَهُ-؛ فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللهِ الَّذِي هُوَ عِصْمَتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ؟!!».

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ لَمْ يُنْزِلْهُ تَعَالَىٰ إِلَّا لِيُفْهِمَهُ، وَيُعْلَمَ وَيُفْهَمَ؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَ بِهِ أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَعْقِلُونَ، وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ، وَالَّذِينَ يَفْقَهُونَ، وَالَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ».

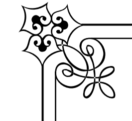
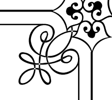
وَمَعَ هَذِهِ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ مِنَ النُّصُوصِ الآمِرَةِ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَإِمْعَانِ النَّظَرِ فِيهِ، وَالنَّاهِيَةِ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ النُّقُولُ الْوَارِدَةُ عَنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ فِي وُجُوبِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، مَعَ هَذَا كُلِّهِ؛ تَجِدُ غَالِبَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ قَدْ اكْتَفَوْا بِأَلْفَاظٍ يُرَدِّدُونَهَا، وَأَنْغَامٍ يُلَحِّنُونَهَا فِي الْمَآتِمِ وَالْمَقَابِرِ وَالدُّورِ، وَبِمَصَاحِفَ يَحْمِلُونَهَا، أَوْ يُودِعُونَهَا تَرِكَةً فِي الْبُيُوتِ، وَنَسَوْا أَوْ تَنَاسَوْا أَنَّ بَرَكَةَ الْقُرْآنِ الْعُظْمَىٰ إِنَّمَا هِيَ فِي تَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَتَفَهُّمِهَا، وَالتَّأَدُّبِ بِهَا، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَوَامِرِهَا، وَالْبُعْدِ عَنْ نَوَاهِيهَا وَمَسَاخِطِهَا.

نَسَأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ فَتْحًا مُبَارَكًا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا كَمَالَ وَجَمَالَ وَتَمَامَ وَدَوَامَ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِهِ، وَالْفِقْهَ لِمَعَانِيهِ، إِنَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.




جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ

فَقَدْ مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- بَيَانُ طَرَفٍ مِنْ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَالْحَقُّ: أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ، فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ هُوَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَفَلَاحِهِ وَثَبَاتِهِ، وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ فِي تَثْبِيتِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَإِرْسَاءِ دَعَائِمِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِتَدَبُّرِ كِتَابِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ الْقَائِمِينَ بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ، وَوَعَدَهُمْ أَسْنَىٰ الْمَوَاهِبِ.

فَلَوْ أَنْفَقَ الْعَبْدُ جَوَاهِرَ عُمُرِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ مَا هُوَ أَفْضَلُ الْمَطَالِبِ، وَأَعْظَمُ الْمَقَاصِدِ، وَأَصْلُ الْأُصُولِ كُلِّهَا، وَقَاعِدَةُ أَسَاسَاتِ الدِّينِ، وَصَلَاحِ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَتْ حَيَاةُ الْعَبْدِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ زَاهِرَةً بِالْهُدَىٰ، وَالْخَيْرِ، وَالرَّحْمَةِ، وَطِيبِ الْحَيَاةِ، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا، وَأَسْبَابِهِمَا، وَغَايَاتِهِمَا، وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ

أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ -تَقُولُ: تَلَّ الشَّيْءَ فِي يَدِ فُلَانٍ: وَضَعَهُ فِيهَا، أَوْ دَفَعَهُ إِلَيْهِ-، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَصُورَةَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ، وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَتُبَيِّنُ لَهُ قَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ، وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ، وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ: أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، وَطِلَّسْمُهُ: الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَىٰ قَرَارِ مَعَانِيهِ.

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَىٰ فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ؛ فَإِنَّهُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَأَحْوَالِ الْعَامِلِينَ، وَمَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، وَهُوَ

الَّذي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ، وَالشَّوْقَ، وَالْخَوْفَ، وَالرَّجَاءَ، وَالْإِنَابَةَ، وَالتَّوَكُّلَ، وَالرِّضَا، وَالتَّفْوِيضَ، وَالشُّكْرَ، وَالصَّبْرَ، وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَكَمَالُهُ، وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي بِهَا فَسَادُ الْقَلْبِ وَهَلَاكُهُ.

فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ؛ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ؛ حَتَّىٰ مَرَّ بِآيَةٍ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ؛ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ وَلَوْ لَيْلَةً، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُّمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُصُولِ الْإِيمَانِ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةَ السَّلَفِ، يُرَدِّدُ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ إِلَىٰ الصَّبَاحِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ الصَّبَاحِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ هِيَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ».

الدَّقَلُ -مُحَرَّكَةً-: واحِدُهُ دَقَلَةٌ، وَهُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ، وَمَا لَيْسَ لَهُ اسْمٌ خَاصٌّ، فَتَرَاهُ لِيُبْسِهِ وَرَدَاءَتِهِ لَا يَجْتَمِعُ، وَيَكُونُ مَنْثُورًا.

«لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ».

وَرَوَىٰ أَيُّوبُ عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ.

قَالَ: لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَأَتَدَبَّرَهَا وَأُرَتِّلَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَمَا تَقْرَأُ».

● ● ●

التَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ

وَالتَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

١-تَفَكُّرٌ فِيهِ؛ لِيَقَعَ عَلَىٰ مُرَادِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ مِنْهُ.

٢-وَتَفَكُّرٌ فِي مَعَانِي مَا دَعَا عِبَادَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

فَالْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْعِيَانِيِّ.

الْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَسْمُوعَةِ، **وَالثَّانِي**: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ».

وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ أَعْظَمُ مَا يَقُودُ إِلَىٰ تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ مِنَ الْخَلْقِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]، أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، وَأَصْلُ عِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ: مَعْرِفَتُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

لَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْ لَا يَقْدُرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يُعَظِّمُهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، فَقَالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ؛ لِيُثْبِتَ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ، وَلِيُثْبِتَ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَلِيُثْبِتَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، فَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الزُّمَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَقَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

وَفِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ذَمَّ الَّذِينَ مَا قَدَرُوا اللهَ ﷻ حَقَّ قَدْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ

حَقَّ تُقَاتِهِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُ قَدْرًا عَظِيمًا؛ لَاسِيَّمَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -حَبْرٌ (بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا): وَاحِدُ الْأَحْبَارِ، وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الْعَالِمُ، وَمَعْنَاهُ: الْعَالِمُ بِتَحْبِيرِ الْكَلَامِ، وَكَانَ يُقَالُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْحَبْرُ، وَالْبَحْرُ؛ لِعِلْمِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ؛ تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»، وَالْحَدِيثُ -كَمَا مَرَّ- فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**».

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ أَعْظَمَ مَا يُشْعِرُ الْقُلُوبَ بِعَظَمَةِ اللهِ، وَجَلَالِهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَحُبِّهِ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، وَبِهِ يَزْدَادُ الْإِيمَانُ، وَتَصِحُّ الْفُهُومُ؛ قَالَ رَبُّنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وَمِنَ الدُّرَرِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ الْآجُرِّيِّ الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّهُ قَالَ:

«أَلَا تَرَوْنَ -رَحِمَكُمُ اللهُ- إِلَىٰ مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ؛ كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلَامَهُ؟! وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ؛ عَرَفَ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ؛ فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ؛ فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ الْكَرِيْمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ.

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ؛ كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَىٰ بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ بِمَا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ لِلسُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا: مَتَىٰ أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُو؟ وَلَمْ يَكُنْ

مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَّىٰ أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَزْدَجِرُ؟ مَتَىٰ أَعْتَبِرُ؟ لأَنَّ تِلاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ، وَاللهُ تعالىٰ الْمُوَفِّقُ».

فَهَذَا يَلْحَقُ بِمَا مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ذِكْرُهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَحُكْمُهُ -كَمَا مَرَّ-: أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

◉ ◉ ◉



مِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَأَمَّا مَا يُثْمِرُهُ التَّدَبُّرُ لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ فَثَمَرَاتُ ذَلِكَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَهَا ثِمَارٌ حَسَنَةٌ تَعُودُ عَلَىٰ تَالِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لَكِنَّ التَّدَبُّرَ يُضَاعِفُ هَذِهِ الثِّمَارَ، وَيُنَمِّيهَا، وَيُكَثِّرُهَا، وَهِيَ ثِمَارٌ عَدِيدَةٌ لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا، مِنْ أَبْرَزِهَا: تَعْمِيقُ جُذُورِ الْإِيمَانِ.

تَدَبُّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَزْدَادُ يَقِينًا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لَهُ وَالْمُتَأَمِّلَ فِيهِ يَسْتَعْرِضُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَلَا يَجِدُ فِيهِ أَدْنَىٰ اخْتِلَافٍ أَوْ تَنَاقُضٍ، فَلَا يَجِدُ آيَةً تُعَارِضُ أُخْرَىٰ أَوْ تَنْقُضُهَا؛ بَلْ وَلَا يَجِدُ لَفْظَةً يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُهَا بِأُخْرَىٰ، وَإِنَّمَا يَسِيرُ عَلَىٰ نَسَقٍ وَاحِدٍ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَيَشْعُرُ الْمُتَأَمِّلُ الْمُتَدَبِّرُ فِيهِ أَنَّ مَصْدَرَهُ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَتَنَاقُضًا كَبِيرًا.

وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «وَمِنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ بِذَلِكَ يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُوَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَتَرَىٰ الْحُكْمَ وَالْقِصَّةَ وَالْأَخْبَارَ تُعَادُ

فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، وَتَجِدُهُ قَدْ جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَىٰ نَحْوٍ مِنَ التَّوَافُقِ وَالتَّصَادُقِ، لَا يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَبِذَلِكَ يُعْلَمُ كَمَالُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْأُمُورِ».

وَهَذَا الْيَقِينُ يُحَقِّقُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢]، فَبِذَلِكَ تَتَعَمَّقُ جُذُورُ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَتَزْدَادُ رُسُوخًا.

وَالتَّدَبُّرُ الْمُثْمِرُ يَعْمَلُ أَيْضًا عَلَىٰ تَرْكِيزِ الِانْتِبَاهِ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجِهَا؛ مِمَّا يُبْعِدُ وَسْوَسَةَ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَشُعُورِهِ بِالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ جَلَّوَعَلَا، فَيَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ الْخَاشِعِينَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ؛ فَالتَّدَبُّرُ يَدْفَعُهُ إِنْ كَانَ مُنْصِفًا مُوَفَّقًا إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالِاعْتِقَادِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِلْحَادِ وَالشَّكِّ إِلَىٰ رِحَابِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَمِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ إِلَىٰ نُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالْهِدَايَةِ.

وَالْمُتَحَرِّرُ مِنْ قُيُودِ التَّقْلِيدِ وَالْعِنَادِ يُزَحْزِحُهُ التَّدَبُّرُ عَنِ الْعَقِيدَةِ الْفَاسِدَةِ، فَيُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالتَّدَبُّرُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ يَشْفِي الصُّدُورَ مِنْ شُكُوكٍ تَعْتَرِي الْمُرْتَابِينَ، وَيَشْفِي النُّفُوسَ مِنْ أَمْرَاضٍ كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يُعَمِّقُ جُذُورَ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ، وَهُوَ -أَيْضًا- يُفْضِي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ فَإِنَّهُ يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَظِيمِ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ.

وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ: «أَنَّهُ يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ الْمَعْبُودِ، وَمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَيُعَرِّفُ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَيُعَرِّفُ الْعَدُوَّ الَّذِي هُوَ الْعَدُوُّ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَىٰ الْعَذَابِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ وُجُودِ أَسْبَابِ الْعِقَابِ.

وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَأَمُّلًا فِيهِ؛ ازْدَادَ عِلْمًا وَعَمَلًا وَبَصِيرَةً».

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:** أَنَّهُ تَحْقِيقٌ لِلْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

فَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: أَنَّهُ وَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَةِ مَا يُرِيدُ اللهُ مِنَّا، وَكَيْفِيَّةِ عِبَادَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَوَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَةِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْنَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ مَنْهَجُ الْحَيَاةِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ، وَهُوَ أَسَاسُ التَّشْرِيعِ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ، وَيَلْتَزِمُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُ؛ لِيُحَقِّقُوا عِبَادَةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

فِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهِضُ الْعَبْدَ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِّفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ، وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ؛ فَاللَّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ! وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ؛ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ!

فَاعْتَصِمْ بِاللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ: أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ».

تَأَمُّلُ الْقُرْآنِ، وَتَدَبُّرُهُ، وَتَفَهُّمُهُ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ.

* وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: أَنَّهُ غِذَاءٌ لِلرُّوحِ، وَعِلَاجٌ يَشْفِي النُّفُوسَ مِنْ عِلَلِهَا، وَيُكْسِبُهَا الْمَنَاعَةَ الْقَوِيَّةَ إِذَا أَحْسَنَ الْمُؤْمِنُ تَدَبُّرَهُ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

فَهَذَا التَّدَبُّرُ يُخْرِجُ الْمُتَدَبِّرَ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالْقَلَقِ النَّفْسِيِّ؛ لِيُكْسِبَهُ الشُّعُورَ بِالطُّمَأْنِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ، كَمَا يُزَحْزِحُهُ مِنْ حَالِ التَّعَاسَةِ إِلَىٰ السَّعَادَةِ وَرَاحَةِ الْبَالِ، كَمَا أَنَّ التَّدَبُّرَ سِلَاحٌ يَدْفَعُ الْأَخْطَارَ الْمُحْدِقَةَ بِالْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ؛ حَيْثُ يُسْتَعْمَلُ فِي جِهَادِ النَّفْسِ، وَمُقَاوَمَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَجِهَادِ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا أَمَرَ أَنْ يُجَاهَدَ الْكُفَّارُ بِالْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا، وَيَكُونُ هَذَا الْجِهَادُ بِحُجَجِ الْقُرْآنِ، وَأَدِلَّتِهِ، وَبَرَاهِينِهِ، وَهُوَ جِهَادُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَخَاصَّتِهِ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَدَبَّرُوا آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَجَاهَدُوا بِهَا أَعْدَاءَهُ.

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «جَاهِدْهُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا؛ حَتَّىٰ يَنْقَادُوا لِلْإِقْرَارِ بِمَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، وَيَدِينُوا بِهِ، وَيُذْعِنُوا لِلْعَمَلِ بِجَمِيعِهِ طَوْعًا وَكَرْهًا».

وَأَكَّدَ ذَلِكَ أَبُو السُّعُودِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي قَوْلِهِ**: «فَإِنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ جِهَادٌ كَبِيرٌ، لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ كَمًّا وَكَيْفًا».

وَمِفْتَاحُ هَذَا الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ: هُوَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَتَسَلَّطُوا وَيُحْكِمُوا عَلَيْهِمُ الْقَبْضَةَ إِلَّا عِنْدَمَا هَجَرُوا تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ.

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: أَنَّهُ تَرْبِيَةٌ لِلْعُقُولِ.

فَمَعْرِفَةُ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُرَبِّي الْعُقُولَ، وَيَجْعَلُهَا تَفْهَمُ الْحَقَائِقَ النَّافِعَةَ فَتَتَّبِعُهَا، وَالضَّارَّةَ فَتَجْتَنِبُهَا، فَلَا تَمِيلُ بِهَا الْأَهْوَاءُ وَالْأَغْرَاضُ وَالْخَيَالَاتُ وَالْخُرَافَاتُ الضَّارَّةُ الْمُفْسِدَةُ لِلْعُقُولِ.

وَلَيْسَ الْعَقْلُ هُوَ الذَّكَاءَ، وَقُوَّةَ الْفِطْنَةِ، وَالْفَصَاحَةَ اللَّفْظِيَّةَ، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ الصَّحِيحُ: هُوَ أَنْ يَعْقِلَ الْعَبْدُ فِي قَلْبِهِ الْحَقَائِقَ النَّافِعَةَ عَقْلًا يُحِيطُ بِمَعْرِفَتِهَا، وَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ضِدِّهَا، وَيَعْرِفُ الرَّاجِحَ مِنَ الْأُمُورِ فَيُؤْثِرُهُ، وَالْمَرْجُوحَ أَوِ الضَّارَّ فَيَتْرُكَهُ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وسُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا لِأَنَّهُ يَعْقِلُ بِهِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْعَقِلُ بِهِ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَمَنْ أَمَّرَ غَيْرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ قَادَهُ إِلَىٰ الْهَلَاكِ الْمُبِينِ، وَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِالْخَيْرِ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، أَوْ نَهَاهُ عَنِ الشَّرِّ فَلَمْ يَتْرُكْهُ؛ دَلَّ عَلَىٰ عَدَمِ عَقْلِهِ، وَجَهْلِهِ».

* **وَالتَّدَبُّرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ**:

فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُفْسِحُ أَمَامَ الْعَقْلِ آفَاقَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَيَكْتَسِبُ قَارِئُهُ مَعَارِفَ جَدِيدَةً، وَيُلِمُّ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَتَزِيدَ

حَصِيلَتُهُ فَهْمًا وَتَعْبِيرًا، وَيَتَحَدَّثَ وَيَكْتُبَ بِطَلَاقَةٍ وَبِشَكْلٍ صَحِيحٍ مُؤَثِّرٍ عَلَىٰ الْآخَرِينَ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: «وَأَنْزَلَهُ بِهَذَا اللِّسَانِ لِنَعْقِلَهُ وَنَفْهَمَهُ، وَأَمَرَنَا بِتَدَبُّرِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِعُلُومِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَدَبُّرَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ مُحَصِّلٌ لِلْعُلُومِ وَالْأَسْرَارِ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ مِفْتَاحًا لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَبِهِ يُسْتَنْتَجُ كُلُّ خَيْرٍ، وَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ جَمِيعُ الْعُلُومِ».

* **وَالتَّدَبُّرُ فِيهِ صَقْلٌ لِلْمَوَاهِبِ، وَتَنْمِيَةٌ لِلْقُدُرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ**، فَتَنْمُو فِي الْمُتَدَبِّرِ قُوَّةُ الْمُلَاحَظَةِ، وَمَلَكَةُ التَّفْكِيرِ، وَتَرْتَفِعُ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ، وَيُصْبِحُ حَكَمًا عَاقِلًا عِنْدَ اخْتِلَافِ الْآرَاءِ وَالْأَفْكَارِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وَمَنِ اعْتَادَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ؛ تَنْمُو عِنْدَهُ مَلَكَةُ تَأَمُّلِ النُّصُوصِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْكِتَابِيَّةِ؛ لِتُصْبِحَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ مُلَازِمَةً لَهُ، فَيَخْتَارُ الْعِبَارَاتِ الْمُنَاسِبَةَ فِي أَقْوَالِهِ وَكِتَابَتِهِ؛ لِتُفْهَمَ دُونَ الْتِبَاسٍ، أَوِ احْتِمَالِ تَأْوِيلَاتٍ تُخْرِجُهَا عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ، كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْعَادَةَ الْحَمِيدَةَ تَدْفَعُهُ إِلَىٰ التَّدْقِيقِ فِيمَا يَسْمَعُ أَوْ يَكْتُبُ مِنْ نُصُوصٍ، فَيُمَحِّصُ الْأَمْرَ، وَيَجْتَنِبُ مَا يُوقِعُهُ فَرِيسَةً لِكَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَمَكْرِ الْمَاكِرِينَ،

وَطَمَعِ الطَّامِعِينَ، عَلَىٰ الصَّعِيدِ الْفَرْدِيِّ وَالدَّوْلِيِّ، فِي التَّحَدُّثِ أَوْ عِنْدَ صِيَاغَةِ الْعُقُودِ الشَّخْصِيَّةِ، أَوِ الْمُعَاهَدَاتِ، أَوْ الِاتِّفَاقَاتِ وَالْقَرَارَاتِ.

فَهَذِهِ بَعْضُ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ الزَّاكِيَةِ.

فَمَا تَحَصَّنَ عَبْدٌ مِنَ الشَّيْطَانِ بِمِثْلِ مَا تَحَصَّنَ بِهِ مُتَدَبِّرُ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الذِّكْرِ، وَبِالذِّكْرِ يَخْنَسُ الشَّيْطَانُ وَيَهْرَبُ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَدِرْعٍ مَتِينٍ؛ فَلَا غِنَىٰ لَهُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

لِذَلِكَ يَسْأَلُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صِيغَةِ اسْتِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ عَنْ حَالِ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ نُصُوصِ الْوَحْيِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا حُرِمَ الْمُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْوَحْيِ، وَاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ مِنْ مِشْكَاتِهِ مِنْ كُنُوزِ الذَّخَائِرِ؟!

وَمَاذَا فَاتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصَائِرِ؟!

قَنِعُوا بِأَقْوَالٍ اسْتَنْبَطَتْهَا مَعَاوِلُ الْآرَاءِ فِكْرًا، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ لِأَجْلِهَا زُبُرًا، وَأَوْحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا؛ فَاتَّخَذُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَرَتْ مَعَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَوَقَعَتْ أَلْوِيَتُهُ وَأَعْلَامُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَيْسُوا يَرْفَعُونَهَا، وَأَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ النَّيِّرَةُ مِنْ آفَاقِ نُفُوسِهِمْ فَلِذَلِكَ لَا يُحِبُّونَهَا، وَكَسَفَتْ شَمْسُهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَمِ الْآرَاءِ وَعُقَدِهَا فَلَيْسُوا يُبْصِرُونَهَا».

فَهَذِهِ بَعْضُ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَهْجُرُونَ هَذَا الْأَصْلَ الْأَصِيلَ، وَالْوَاجِبَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!

◉ ◉ ◉

مِنْ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرآنِ

فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَجَرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، أَوْ سَمَاعَهُ، أَوْ حِفْظَهُ؛ فَإِنَّ الْأَكْثَرَ مِنْهُمْ قَدْ هَجَرُوا تَدَبُّرَهُ هَجْرًا لَمْ تَعْرِفْهُ الْأُمَّةُ مِنْ قَبْلُ، وَحَتَّىٰ الَّذِينَ يُوَاظِبُونَ عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَوْ حِفْظِهِ؛ مَا هُوَ نَصِيبُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِ الْمَتْلُوِّ وَالْمَحْفُوظِ؟!

وَمَا أَثَرُ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ؟!

لَا رَيْبَ أَنَّ هَجْرَ التَّدَبُّرِ لَهُ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، تَخْتَلِفُ مِنْ هَاجِرٍ لِآخَرَ، وَلَرُبَّمَا اجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ.

* **وَمِنْ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:** الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ.

إِصْرَارُ الْعَبْدِ عَلَىٰ الذَّنْبِ، وَارْتِكَابُهُ إِيَّاهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ لَاسِيَّمَا الَّتِي لَهَا اتِّصَالٌ مُبَاشِرٌ بِأَدَوَاتِ وَوَسَائِلِ التَّدَبُّرِ، وَهِيَ: الْقَلْبُ، وَالسَّمْعُ، وَاللِّسَانُ، وَالْبَصَرُ.

فَانْهِمَاكُ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فِي الْحَرَامِ يُعَطِّلُهَا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٤].

فَالْأَكِنَّةُ: غِطَاءٌ لِلْقَلْبِ تَمْنَعُهُ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَالْوَقْرُ: غِطَاءٌ لِلْأُذُنِ يَمْنَعُ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ.

وَالْحِجَابُ: غِطَاءٌ لِلْعَيْنِ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ.

وَتَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، وَالْقَلْبُ الْمَرِيضُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ عَنِ اتِّعَاظِ الْقُلُوبِ، وَانْشِرَاحِ الصُّدُورِ لِمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَحِكَمِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ».

فَصَرْفُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ -يَعْنِي: الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ- مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ، فَلَا يَفْهَمُونَهُ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُ حَلَاوَةً وَلَا لَذَّةً؛ ذَلِكَ أَنَّ الْفَهْمَ نُورٌ، إِذَا وَرَدَ عَلَىٰ الْقَلْبِ دَنَسُ الْمَعَاصِي ارْتَحَلَ النُّورُ، فَتَحَيَّرَ عَنْ فَهْمِهِ.

وَقَدْ زَادَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَمْرَ وُضُوحًا، فَقَالَ: «وَلْيَتَخَلَّ التَّالِي -يَعْنِي: لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ- عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ مُتَّصِفًا بِكِبْرٍ، أَوْ مُبْتَلَىٰ بِهَوًىٰ مُطَاعٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ ظُلْمَةِ الْقَلْبِ وَصَدَئِهِ، فَالْقَلْبُ مِثْلُ الْمِرْآةِ، وَالشَّهَوَاتُ مِثْلُ الصَّدَأِ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ مِثْلُ الصُّوَرِ الَّتِي تَتَرَاءَىٰ فِي الْمِرْآةِ، وَالرِّيَاضَةُ لِلْقَلْبِ بِإِمَاطَةِ الشَّهَوَاتِ مِثْلُ جِلَاءِ الْمِرْآةِ».

* **وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ الْقَلْبَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:** تَعَلُّقُهُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَتَمَكُّنُ الْبِدَعِ مِنْهُ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ فَهْمُ مَعَانِي الْوَحْيِ حَقِيقَةً وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَسْرَارُه وَفِي قَلْبِهِ بِدْعَةٌ، أو كِبْرٌ، أَوْ هَوًىٰ، أَوْ حُبُّ الدُّنْيَا، أَوْ هُوَ مُصِرٌّ عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بالْإِيمَانِ، أَوْ هُوَ ضَعِيفُ التَّحْقِيقِ، أَوْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مُفَسِّرٍ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، أَوْ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَعْقُولِهِ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ وَمَوَانِعُ بَعْضُهَا آكَدُ مِنْ بَعْضٍ».

فَأَوَّلُ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ، وَمُوَاقَعَتِهَا، وَالِانْغِمَاسِ فِيهَا.

* **وَأَيْضًا يُؤَدِّي إِلَىٰ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:** انْشِغَالُ الْقَلْبِ.

فَالْقَلْبُ الْمَشْغُولُ عَنِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِهِ لَا يَتَأَثَّرُ بِهِ؛ لِتَشَعُّبِهِ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، وَغَفْلَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَيْفَ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ قَلْبٌ غَائِبٌ لَيْسَ بِحَاضِرٍ؟!

◉ ◉ ◉

أَنْوَاعُ الْقُلُوبِ حَالَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ

وَقَدْ بَيَّنَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- أَنْوَاعَ الْقُلُوبِ حَالَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «**النَّاسُ ثَلَاثَةٌ:** رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ.

وَالثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ؛ لَكِنَّهُ مَشْغُولٌ لَيْسَ بِحَاضِرٍ، فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَىٰ السَّمْعَ، وَأَحْضَرَ الْقَلْبَ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ حَاضِرُهُ، فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ».

فَحُضُورُ الْقَلْبِ وَعَدَمُ انْشِغَالِهِ شَرْطٌ فِي الِانْتِفَاعِ وَالتَّذَكُّرِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ، وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ-؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ، وَالتَّذَكُّرُ».

فَهُنَالِكَ صَوَارِفُ تَحُولُ دُونَ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، مِنْهَا وَمِنْ أَعْظَمِهَا: أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ

الْقَارِئَ عَنِ اتِّعَاظِ قَلْبِهِ وَانْشِرَاحِ صَدْرِهِ لِمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَحُكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ -كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ-.

فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَأَنْ يَفْهَمَهُ، وَأَنْ يَفْقَهَ مَعَانِيَهُ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ مُتَّصِفًا بِكِبْرٍ، أَوْ مُبْتَلًىٰ بِهَوًىٰ مُطَاعٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُسَبِّبُ ظُلْمَةَ قَلْبِهِ، وَيُسَبِّبُ صَدَأَهُ، وَالْقَلْبُ كَالْمِرْآةِ، وَالشَّهَوَاتُ مِثْلُ الصَّدَأِ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ مِثْلُ الصُّوَرِ الَّتِي تَتَرَاءَىٰ فِي الْمِرْآةِ، وَالرِّيَاضَةُ لِلْقَلْبِ بِإِمَاطَةِ الشَّهَوَاتِ مِثْلُ جِلَاءِ الْمِرْآةِ.

* **وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَصُدُّ الْقَلْبَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:** تَعَلُّقُهُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمُوَ إِلَىٰ الْمَعَالِي وَعَظِيمِ الْفَضَائِلِ، وَيَشْتَاقَ وَيَطْمَئِنَّ إِلَىٰ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ يَعِيشُ مَعَ الْجِيَفِ، وَالنَّتَنِ، وَسَفَاسِفِ الْهِمَمِ الَّتِي تَحُومُ عَلَيْهَا هِمَمُ الْفُسَّاقِ، وَأَرَاذِلُ النَّاسِ.

وَمِنْ صُوَرِ ذَلِكَ: سَمَاعُ الْأَغَانِي، وَالتَّلَذُّذُ بِكَلِمَاتِهَا.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَنْ أَثَرِ سَمَاعِ الْأَغَانِي عَلَىٰ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ:

«وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ وَالْ إِيمَانِ مِثْلُ السُّمِّ فِي الْأَبْدَانِ

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ حُبًّا وَإِخْلَاصًا مَعَ الْإِحْسَانِ

فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَحَالَهُ عَبْدًا لِكُلِّ فُلَانَةٍ وَفُلَانِ

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ».

وَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ انْشِغَالِ الْقَلْبِ وَشُرُودِ الذِّهْنِ، وَهَذَا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ؛ لِلْغَفْلَةِ الْحَادِثَةِ فِي الْقَلْبِ، وَلَوْ كَانَ الْقَلْبُ حَيًّا وَلَكِنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا عَنْهُ بِغَيْرِهِ؛ فَهُوَ غَائِبُ الْقَلْبِ لَيْسَ حَاضِرَهُ؛ وَلِذَلِكَ لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ مَعَ اسْتِعْدَادِهِ ووُجُودِ قَلْبِهِ.

مِثْلُهُ الْبَصِيرُ الطَّامِحُ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ غَيْرِ الْمَطْلُوبِ، فَهَذَا مَعَ تَمَتُّعِهِ بِبَصَرِهِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَرَىٰ مَطْلُوبَهُ.

* **مِنْ أَكْثَرِ الشَّوَاغِلِ الَّتِي تُذْكَرُ حِينَ التِّلَاوَةِ:** أَنْ يَكُونَ هَمُّ الْقَارِئِ إِتْمَامَ السُّورَةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ الْفَهْمَ وَالِاتِّعَاظَ وَالْعِبْرَةَ الَّتِي تَحْوِيهَا الْآيَاتُ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا بْنَ آدَمَ؛ كَيْفَ يَرِقُّ قَلْبُكَ وَإِنَّمَا هِمَّتُكَ فِي آخِرِ السُّورَةِ؟!».

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «**النَّاسُ ثَلَاثَةٌ:** رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ.

وَالثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ؛ غَيْرَ أَنَّهُ مَشْغُولٌ غَيْرُ حَاضِرٍ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُصْغِي بِسَمْعِهِ، وَيُلْقِي السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، أَحْضَرَ الْقَلْبَ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ».

وَكَمَا مَرَّ فِي كَلَامِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَى الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَى الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ-، إِذَا كَانَ ذَلِكَ؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ، وَالتَّذَكُّرُ».

***

مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ الْأَدَوَاتِ وَحِيَازَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّ الْأَرْبَابِ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنْ يَعْرِفَ الصَّوَارِفَ الَّتِي تَصْرِفُهُ عَنِ التَّدَبُّرِ.

مَرَّ ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَمِنْهَا: الْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

فَالْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ صَارِفٌ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَفَهُّمِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وَسَبَبُ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: هُوَ أَنَّهَا أَفْصَحُ اللُّغَاتِ، وَأَبْيَنُهَا، وَأَوْسَعُهَا، وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ؛ فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ.

وَإِذَا كَانَ الْقَارِئُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا يُدْرِكُ أَسَالِيبَ كَلَامِهِمْ؛ فَأَنَّىٰ لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَأَنْ يَعْقِلَ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْخِطَابَ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]؟!

وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبِهِ لَا يُؤَدَّىٰ إِلَّا بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِهِ، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ؛ فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظُ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَقَدْ جَعَلَ أَهْلُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةَ الْعَرَبِيَّةِ شَرْطًا لِمَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ:

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَقُومُ مَعَانِيهِ الَّتِي هِيَ الشَّرْعُ».

● ● ●

الْغَايَةُ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

وَعَنِ الْغَايَةِ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْعَرَبِيَّةُ إِنَّمَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا لِأَجْلِ خِطَابِ الرَّسُولِ بِهَا، فَإِذَا أُعْرِضَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ؛ كَانَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ حَطَبِ جَهَنَّمَ».

فَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: هُوَ مَعْرِفَةُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَنْ فَاتَهُ تَحْقِيقُ هَذَا الْمَقْصِدِ؛ فَقَدْ أَمْضَىٰ عُمْرَهُ فِي غَيْرِ مَا طَائِلٍ؛ بَلْ رُبَّمَا كَانَ تَعَلُّمُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ؛ كَحَالِ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ لِلطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ وَعُلُومِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَذْنَابِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي حِذْقِهَا، وَالْإِحَاطَةِ بِكَثِيرٍ مِنْ قَوَانِينِهَا وَمَعَانِيهَا؛ حَتَّىٰ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ الْجَامِعَاتِ الشِّرْكِيَّةِ الْكُفْرِيَّةِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودُوا وَمَعَهُمْ شَهَادَاتٌ بِأَنَّهُمْ صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْعَرَبِيَّةِ!!

فَيَذْهَبُونَ لِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ أَيْدِي الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَذْنَابِهِمْ!!

وَهَؤُلَاءِ إِنَّمَا تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ لِيَطْعَنُوا فِي الْقُرْآنِ، وَفِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ.

*** وَمِنَ الْمَفَاسِدِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَىٰ جَهْلِ الْقَارِئِ أَحْيَانًا بِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:** مَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ

الْخَطَّابِ ﵁، فَقَالَ: مَنْ يُقْرِئُنِي مِمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قَالَ: فَأَقْرَأَهُ رَجُلٌ (بَرَاءَة) -يَعْنِي: سُورَةَ التَّوْبَةِ، فَقَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾ قَرَأَهَا بِالْجَرِّ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَوَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْ رَسُولِهِ؟! فَإِنْ يَكُنِ اللهُ بَرِئَ مِنْ رَسُولِهِ فَأَنَا أَبْرَأُ مِنْهُ.

فَبَلَغَ عُمَرَ مَقَالَةُ الْأَعْرَابِيِّ، فَدَعَاهُ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِيُّ؛ أَتَبْرَأُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنِّي قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقُرْآنِ، فَسَأَلْتُ: مَنْ يُقْرِئُنِي؟ فَأَقْرَأَنِي هَذَا سُورَةَ (بَرَاءَة)، فَقَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولِهِۦ﴾، فَقُلْتُ: أَوَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْ رَسُولِهِ؟! إِنْ يَكُنِ اللهُ بَرِئَ مِنْ رَسُولِهِ فَأَنَا أَبْرَأُ مِنْهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هَكَذَا يَا أَعْرَابِيُّ.

قَالَ: فَكَيْفَ هِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

قَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣].

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَأَنَا -وَاللهِ- أَبْرَأُ مِمَّا بَرِئَ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ.

فَأَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁ أَلَّا يُقْرِئَ النَّاسَ إِلَّا عَالِمٌ بِاللُّغَةِ، وَأَمَرَ أَبَا الْأَسْوَدِ فَوَضَعَ النَّحْوَ».

وَالْمَشْهُورُ: أَنَّ الَّذِي أَمَرَ أَبَا الْأَسْوَدِ بِوَضْعِ النَّحْوِ: هُوَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لَعَلَّهُ أُمِرَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَمَنْ جَهِلَ أُصُولَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَوَاعِدَهَا، وَلَمْ يُمَيِّزِ الْفَاعِلَ مِنَ الْمَفْعُولِ -مَثَلًا-، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ، مَنْ جَهِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ كَيْفَ يَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]؟!

فَإِذَا كَانَ جَاهِلًا لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ؛ فَكَيْفَ يَفْهَمُ هَذَا الْقَوْلَ الْإِلَهِيَّ الْكَرِيمَ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾؟!

كَذَلِكَ: كَيْفَ يَفْهَمُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهُ، وَيَفْهَمُ مُرَادَهُ مِنْهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨]؟!

فَالْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الصَّادَّةِ الصَّارِفَةِ عَنْ تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ، وَفِقْهِهِ، وَفَهْمِهِ.

* **وَمِمَّا -أَيْضًا- يَصْرِفُ عَنْ تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ**: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْصُرُ الْخُشُوعَ فِي رَمَضَانَ، أَوْ فِي الْقُنُوتِ، أَوْ عِنْدَ خُشُوعِ الْإِمَامِ، أَوْ عِنْدَ آيَاتِ الْعَذَابِ وَذِكْرِ النَّارِ وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَسْبَابَ الْخُشُوعِ وَدَوَاعِيَهُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَفِعْلُهُ ﷺ عِنْدَ التِّلَاوَةِ فِيهِ خُشُوعٌ وَتَدَبُّرٌ، فَهُوَ يُنَزِّهُ وَيُسَبِّحُ عِنْدَ آيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَيَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَ ذِكْرِ جَنَّتِهِ وَإِنْعَامِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَسْتَعِيذُ عِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ وَالْعَذَابِ.

ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْوَاعًا شَتَّىٰ يَحْصُلُ عِنْدَهَا الْخُشُوعُ وَالتَّأَثُّرُ بِالْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: «الشَّهْقَةُ الَّتِي تَعْرِضُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرِهِ

* **لَهَا أَسْبَابٌ:**

أَحَدُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ عِنْدَ السَّمَاعِ دَرَجَةٌ لَيْسَتْ لَهُ، فَيَرْتَاحَ إِلَيْهَا، فَتَحْدُثَ لَهُ شَهْقَةُ شَوْقٍ.

ثَانِيهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ ذَنْبٌ ارْتَكَبَهُ، فَتَحْدُثَ لَهُ شَهْقَةُ خَوْفٍ وَخَشْيَةٍ.

ثَالِثُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ نَقْصٌ فِيهِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ دَفْعِهِ عَنْهُ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ شَهْقَةَ حُزْنٍ وَنَدَمٍ.

رَابِعُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ كَمَالُ صِفَاتِ خَالِقِهِ، وَيَرَىٰ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ مَسْدُودًا عَنْهُ، فَيُحْدِثَ لَهُ شَهْقَةَ أَسَفٍ وَحَسْرَةٍ.

خَامِسُهَا: أَنْ يَكُونَ قَدِ انْشَغَلَ عَنْ رَبِّهِ، وَاشْتَغَلَ بِغَيْرِ ذِكْرِهِ، فَيُذَكِّرُهُ الْقُرْآنُ رَبَّهُ، فَيَلُوحُ لَهُ جَمَالُهُ، وَيَرَىٰ بَابَهُ مَفْتُوحًا وَالطَّرِيقَ ظَاهِرًا، فَيُحْدِثُ لَهُ شَهْقَةَ فَرَحٍ وَسُرُورٍ.

وَبِكُلِّ حَالٍ فَسَبَبُ الشَّهْقَةِ: قُوَّةُ الْوَارِدَاتِ عَلَىٰ الْقَلْبِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، مَعَ ضَعْفِ الْقَلْبِ عَنْ تَحَمُّلِهَا، وَالْقُصُورِ فِيمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَمَا يَلْزَمُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ.

وَالْخَيْرُ: أَنْ تَعْمَلَ تِلْكَ الْوَارِدَاتُ فِي بَاطِنِهِ دَاخِلًا، وَذَلِكَ أَقْوَىٰ لَهُ وَأَدْوَمُ، فَإِنْ أَظْهَرَهُ؛ ضَعُفَ أَثَرُهُ، وَأَوْشَكَ انْقِطَاعُهُ.

هَذَا حُكْمُ الشَّهْقَةِ مِنَ الصَّادِقِ؛ فَإِنَّ الشَّاهِقَ إِمَّا صَادِقٌ، أَوْ مُوَافِقٌ، أَوْ مُنَافِقٌ».

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ** جَلَّ وَعَلَا: أَنْ يَتْرُكَ النَّاسُ التَّدَبُّرَ تَوَرُّعًا عَنِ الْقَوْلِ فِي كَلَامِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَالِاعْتِقَادُ أَنَّ مُهِمَّةَ الْقَارِئِ تَنْحَصِرُ فِي الْقِرَاءَةِ دُونَ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، مَعَ تَرْكِ التَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِي الْمَعْنَىٰ لِلْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ؛ يَصْرِفُ الْقَارِئُ بِسَبَبِ ذَلِكَ هِمَّتَهُ إِلَىٰ كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ، وَسَلَامَةِ التِّلَاوَةِ مَعَ غَيْرِ مَا تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَهُّمٍ لِمَا يَتْلُوهُ وَيَقْرَؤُهُ.

لِذَلِكَ قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ: «وَمِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيرُهُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْهُدَىٰ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدَبُّرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ تَوَرُّعًا.

لِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنْهُ حَرَجٌ».

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَمِنْ حَيْثُ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا، أَفْحَمَ الْفُصَحَاءَ وَأَعْجَزَ الْبُلَغَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَارِيًا عَلَىٰ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، مُيَسَّرًا لِلْفَهْمِ فِيهِ عَنِ اللهِ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ؛ لَكِنْ بِشَرْطِ الدُّرْبَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ بِالْإِعْجَازِ عَنْ إِدْرَاكِ الْعُقُولِ لِمَعَانِيهِ؛ لَكَانَ خِطَابُهُمْ بِهِ مِنْ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ، وَذَلِكَ مَرْفُوعٌ عَنِ الْأُمَّةِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْوُجُوهِ الْإِعْجَازِيَّةِ فِيهِ؛ إِذْ مِنَ الْعَجَبِ: إِيرَادُ كَلَامٍ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْبَشَرِ فِي اللِّسَانِ وَالْمَعَانِي وَالْأَسَالِيبِ، مَفْهُومٍ مَعْقُولٍ، ثُمَّ لَا يَقْدِرُ الْبَشَرُ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [الْقَمَر: ١٧، ٢٢].

وَعَلَىٰ أَيِّ وَجْهٍ فُرِضَ إِعْجَازُهُ؛ فَذَلِكَ غَيْرُ مَانِعٍ مِنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ فَهْمِهِ، وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فَهَذَا يَسْتَلْزِمُ إِمْكَانَ الْوُصُولِ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ».

وَقَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قَوْلُ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَفَهُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِ خَاصَّةً.

قَالَ: هَذَا قَوْلٌ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ أَصْلًا.

بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَهُّمِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُمَا، وَالْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ مِنْهُمَا.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ الْأَوَّلِينَ بِهِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْكُفَّارُ، ولَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسْتَكْمِلًا لِشُرُوطِ الِاجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةِ، فَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْتَفَعَ بِالْعَمَلِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ إِلَّا للمجتهدين بِالاصْطلَاحِ الْأُصُولِيِّ؛ لَمَا وَبَّخَ اللهُ الْكَفَّارُ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الِاهْتِدَاءِ بِهُدَاهُ، وَلَمَا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِهِ -لِأَنَّهُ نَزَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَإِذَا كَانُوا لَا يَفْهَمُونَهُ، وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهُ؛ فَإِنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ-».

ثُمَّ فَصَّلَ رَحِمَهُ اللهُ الْقَوْلَ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ رَحِمَهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَالْقَوْلُ بِمَنْعِ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّىٰ يُحَصِّلَ رُتْبَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ؛ هُوَ عَيْنُ السَّعْيِ فِي حِرْمَانِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الانْتِفَاعِ بِنُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ».

فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ يَخَافُ الْعَرْضَ عَلَىٰ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِيهِ؛ لِيَرَىٰ لِنَفْسِهِ الْمَخْرَجَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ الْعُظْمَىٰ والطامَّةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي عَمَّتْ جُلَّ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَعْمُورَةِ، وَهِيَ ادِّعَاءُ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْكِتَابِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ اسْتِغْنَاءً تَامًّا فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ -مِنْ عِبَادَاتٍ، وَمُعَامَلَاتٍ، وَحُدُودٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ- بِالْمَذَاهِبِ الْمُدَوَّنَةِ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ الْمُقَدِّمَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ مَعْدُومُونَ.

يَعْنِي: هُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ -بَلْ إِنَّ فَهْمَ وَفِقْهَ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ- لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ، ثُمَّ قَالُوا: سُدَّ بابُ الِاجْتِهَادِ؛ إِذًا فَلَيْسَ هُنَالِكَ مُجْتَهِدٌ!!

فَيَنْتُجُ مِنْ هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ: أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ مُتَدَبِّرٌ وَلَا مُتَفَهِّمٌ لِآيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا لِأَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ!!

إِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ أَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ تَعَلُّمِهِمَا، وَأَنَّهُمَا يُغْنِي عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا؛ فَهَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَمُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٌ.

وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ أَنَّ تَعَلُّمَهُمَا صَعْبٌ لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ؛ فَهَذَا أَيْضًا زَعْمٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ تَعَلُّمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَيْسَرُ مِنْ تَعَلُّمِ مَسَائِلِ الْآرَاءِ وَالِاجْتِهَادِ الْمُنْتَشِرَةِ، مَعَ كَوْنِهَا فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ وَالْكَثْرَةِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧،٢٢،٣٢،٤٠]؛ فَهُوَ كِتَابٌ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِ اللهِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْعَمَلِ بِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ النُّورُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ لِيُسْتَضَاءَ بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَيْسَرُ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فِي الْقُرُونِ الْأُولَىٰ؛ لِسُهُولَةِ مَعْرِفَةِ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ قَدْ عُلِمَ مَا جَاءَ فِيهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَكِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَاجْتَهَدَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ حُجَجٍ يُرَدُّ بِهَا عَلَىٰ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ، وَمُلَخَّصُ مَا قَالَ: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَمَّلَ عُقُولَ الْعِبَادِ، وَرَزَقَهُمْ فَهْمَ كَلَامِهِ، ثُمَّ إِنَّ فَهْمَ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ عِنْدَ قَرْعِهَا الْأَسْمَاعَ لَا يَحْتَاجُ فِي مَعْنَاهَا إِلَىٰ عِلْمِ النَّحْوِ، وَلَا إِلَىٰ عِلْمِ الْأُصُولِ؛ بَلْ فِي الْأَفْهَامِ وَالطِّبَاعِ وَالْعُقُولِ مَا يَجْعَلُهَا تُسَارِعُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْمُرَادِ؛ فَإِنَّ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]؛ يُفْهَمُ مَعْنَاهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ (مَا) كَلِمَةُ شَرْطٍ، وَ (تُقَدِّمُوا) مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ شَرْطُهَا، وَ (تَجِدُوهُ) مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ جَزَاؤُهَا، وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ».

فَأَنْتَ تَفْهَمُ مِنْهَا مَعْنًىٰ مَكْشُوفًا مِنْ غَيْرِ مَا مَعْرِفَةٍ بِهَذَا كُلِّهِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

«ثُمَّ إِنَّكَ تَرَىٰ الْعَامَّةَ يَسْتَفْتُونَ الْعَالِمَ، وَيَفْهَمُونَ كَلَامَهُ وَجَوَابَهُ وَهُوَ كَلَامٌ غَيْرُ مُعْرَبٍ فِي الْأَغْلَبِ؛ بَلْ تَرَاهُمْ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ، فَيَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ، وَيَبْكُونَ لِقَوَارِعِهِ وَمَا حَوَاهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِعْرَابًا وَلَا غَيْرَهُ؛ بَلْ رُبَّمَا كَانَ مَوْقِعُ مَا يَسْمَعُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ مَوْقِعِهِ فِي قُلُوبِ مَنْ حَقَّقَ قَوَاعِدَ الِاجْتِهَادِ، وَبَلَغَ الذَّكَاءَ وَالِانْتِقَادَ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعَامَّةَ يَحْضُرُونَ الْخُطَبَ فِي الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ، وَيَذُوقُونَ الْوَعْظَ، وَيَفْهَمُونَهُ، وَيُفَتِّتُ مِنْهُمُ الْأَكْبَادَ، وَتَدْمَعُ مِنْهُمُ الْعُيُونُ، فَيَكْثُرُ مِنْهُمْ

الْبُكَاءُ وَالنَّحِيبُ، ثُمَّ إِنَّكَ تَرَاهُمْ يَقْرَءُونَ كُتُبًا مُؤَلَّفَةً مِنَ الْفُرُوعِ الْفِقْهِيَّةِ، وَيَفْهَمُونَ مَا فِيهَا، وَيَعْرِفُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا، وَيَرْجِعُونَ فِي الْفَتْوَىٰ وَالْخُصُومَاتِ إِلَيْهَا.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي خَصَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِالْمَنْعِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَفَهْمِ تَرَاكِيبِهَا وَمَبَانِيهَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اسْتِخْرَاجِ مَا فِيهَا؛ حَتَّىٰ جُعِلَتْ مَعَانِيهَا كَالْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَقَدْ ضُرِبَتْ دُونَهَا السُّجُوفُ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَيْهَا إِلَّا تَرْدِيدُ أَلْفَاظِهَا وَالْحُرُوفِ، وَأَنَّ اسْتِنْبَاطَ مَعَانِيهَا قَدْ صَارَ حِجْرًا مَحْجُورًا، وَحَرَمًا مُحَرَّمًا مَحْصُورًا؟!!».

وَلَمْ يَعْلَمْ مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ التَّدَبُّرَ خَوْفًا مِنَ الْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَنَّ تَفْسِيرَ مُرَادِ اللهِ وَاسْتِنْبَاطَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ بِالْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ، وَهُنَاكَ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ مِنَ الْفَهْمِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّذَكُّرِ وَالِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ لَا عُذْرَ لَهُ فِي تَرْكِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُطْلَبْ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَأَنْ يَتَدَبَّرَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَنْبِطَ الْأَحْكَامَ، وَلَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحُلَّ الْمُعْضِلَاتِ، وَإِنَّمَا هُنَالِكَ مَرْتَبَةٌ دُونَ هَذِهِ الَّتِي هِيَ لِلْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ، وَهَذِهِ لَا يُعْذَرُ مَنْ تَرَكَهَا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْأَثِيمِ.

تَرْكُ التَّدَبُّرِ تَوَرُّعًا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهَذَا مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ؛ أَنَّهُ يُنَفِّرُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لَهُ تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْقُرْآنِ حَرَجٌ».

وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ مَا قَالَهُ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَا بَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ الشِّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي رَدِّهِ عَلَىٰ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ التَّدَبُّرِ، وَبَيْنَ تَفْسِيرِ مُرَادِ اللهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَهَذِهِ مُهِمَّةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَهُنَاكَ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ مِنَ الْفَهْمِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّذَكُّرِ وَالِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي تَرْكِهَا.

⦿ ⦿ ⦿



مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

* **مِمَّا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:** هَجْرُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ.

فَمَنْ هَجَرَ كُتُبَ التَّفْسِيرِ وَلَمْ يُطَالِعْهَا، وَلَمْ يَعْرِفْ أَسْبَابَ النُّزُولِ، أَوِ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ؛ فَكَيْفَ يَحْصُلُ لَهُ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ؟! وَمَتَىٰ يُوَفَّقُ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ؟!

لَا غَرْوَ أَنْ تَعَجَّبَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنْ أَرَادَ التَّلَذُّذَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ؛ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!».

صَاحِبُ هَذَا الْمَنْهَجِ لَا يَسْلَمُ غَالِبًا مِنَ الْخَطَأِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا، أَوِ الْخَطَأِ فِي تَطْبِيقِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَالْعَمَلِ بِهَا.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ: مَا وَرَدَ عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، قَالَ: «كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَىٰ أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَىٰ الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ صَفِّ الرُّومِ حَتَّىٰ دَخَلَ فِيهِ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ

الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ: الْإِقَامَةَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ».

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْإِيرَادِ: أَنَّ بَعْضَ التَّابِعِينَ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَىٰ غَيْرِ مُرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُونِ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَصْرِ التَّنْزِيلِ؛ فَكَيْفَ بِزَمَانِنَا نَحْنُ؟! صَارَتِ الْأَلْسُنُ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْأَعْجَمِيَّةِ مِنْهَا إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ!!

فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ؛ لِيَحْصُلَ لَنَا فَهْمُ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ**: التَّشَاغُلُ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي فَضَائِلِ التِّلَاوَةِ تُشَجِّعُ عَلَىٰ الْإِكْثَارِ مِنْهَا، وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ: اقْتِصَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُذَكِّرِينَ وَالْوُعَّاظِ عَلَىٰ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَعَدَدِ الْخَتْمَاتِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ، مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ نَقْلِ نَهْيِ

السَّلَفِ عَنْ سُرْعَةِ الْقِرَاءَةِ، وَإِعْرَاضِهِمْ كَذَلِكَ عَمَّا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ التَّدَبُّرِ وَالْحَضِّ عَلَيْهِ، وَمَا أُثِرَ عَنْهُمْ مِنْ تَفَاعُلِهِمْ وَوُقُوفِهِمْ عِنْدَ مَعَانِي الْآيَاتِ.

فَفِي الْحَثِّ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ وَأَحْوالٌ لِلسَّلَفِ هِيَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنْ مَثِيلَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ الْقِرَاءَةِ؛ بَلْ أَقْوَىٰ حُجَّةً وَأَعْمَقُ أَثَرًا، لَوْ تَأَمَّلها الناس مَا اقْتَصَرُوا عَلَىٰ التِّلَاوَةِ، وَلَمَا هَجَرُوا تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ، وَالتَّدَبُّرَ، وَالْخُضُوعَ.

فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ».

فَاسْتِحْبَابُ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَىٰ تَرْكِ التَّدَبُّرِ؛ لِذَا جَاءَ النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ؛ مِنْ أَجْلِ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَثُّرِ وَالِانْتِفَاعِ بِالْآيَاتِ.

فَكَثْرَةُ التِّلَاوَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ هَجْرِ التَّدَبُّرِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ؛ بَلْ هِيَ مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ عَلَىٰ الْقُرَّاءِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قَوْمٍ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، فَهُمْ يَهُذُّونَهُ هَذًّا مِنْ غَيْرِ تَرْتِيلٍ وَلَا تَثَبُّتٍ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَجْمَعُ النَّاسَ، وَيُقِيمُ شَخْصًا، وَيَقْرَأُ فِي النَّهَارِ الطَّوِيلِ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، فَإِنْ قَصَّرَ عِيبَ، وَإِنْ أَتَمَّ مُدِحَ، وَتَجْتَمِعُ الْعَوَامُّ لِذَلِكَ

وَيُحَسِّنُونَهُ، وَيُرِيهِمْ إِبْلِيسُ أَنَّ فِي كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ ثَوَابًا، وَهَذَا مِنْ تَلْبِيسِهِ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لَا لِلتَّحْسِينِ بِهَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ؛ قَالَ ﷻ: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وَقَالَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]».

فَقَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ فَقَطْ عَمَلًا بِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَحَّتْ فِي فَضْلِهَا؛ وَلَكِنَّهُ هَجْرٌ لِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَرَّحَتْ بِالْحَثِّ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّأَثُّرِ بِالْمَعَانِي وَالْعِظَاتِ؛ كُلُّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ الصَّرْفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

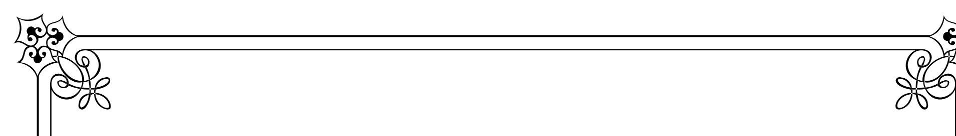
النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْهَمُ الْقُرْآنَ إِذَا قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَجْتَهِدُ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ غَايَةٍ تَغَيَّاهَا -وَهِيَ نِهَايَةُ السُّورَةِ- مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْقَهَ مِمَّا يَقْرَؤُهُ شَيْئًا؛ فَهَذَا يُؤَدِّي بِهِ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْهَذْرَمَةِ، مَعَ هَذِّ الْقُرْآنِ هَذًّا غَيْرَ حَمِيدٍ؛ وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُرَادَهُ.

هُنَاكَ صَوَارِفُ سِوَىٰ هَذِهِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِهَا، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِتَمَامِ وَكَمَالِ وَدَوَامِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، إِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

⊙ ⊙ ⊙


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَةُ السَّادِسَةَ)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَمِنْ هَذِهِ الصَّوَارِفِ أَيْضًا: قَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ فَقَطْ، عَمَلًا بِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَحَّتْ فِي فَضْلِهَا؛ لَكِنَّهُ هَجْرٌ لِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَرِيحَةٍ، حَثَّتْ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ، وَالتَّأَثُّرِ بِالْمَعَانِي وَالْعِظَاتِ.

وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ: اقْتِصَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُذَكِّرِينَ وَالْوُعَّاظِ عَلَىٰ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ، وَعَدَدِ الْخَتَمَاتِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ؛ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ نَقْلِ نَهْيِهِمْ عَنْ سُرْعَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْعَجَلَةِ فِي التِّلَاوَةِ، أَوْ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ فِي تَعْظِيمِهِمْ شَأْنَ التَّدَبُّرِ وَالحَضِّ عَلَيْهِ، أَوْ مَا رُوِيَ مِنْ تَأَثُّرِهِمْ بِالتِّلَاوَةِ وَوُقُوفِهِمْ عِنْدَ الْمَعَانِي، فَرُبَّمَا اقْتَصَرَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ نَقْلِ كَلَامِ ابْنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ: «وَإِنَّمَا وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ عَلَىٰ الْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ أَمَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْمُفَضَّلَةِ -كَشَهْرِ رَمَضَانَ-؛ فَيُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ فِيهَا مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمَا، وَعَلَيْهِ دَلَّ فِعْلُ غَيْرِهِمْ».

وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنْ تَخْصِيصِ النَّهْيِ عَلَىٰ الْمُدَاوَمَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَبَعْضُ السَّلَفِ قَالَ: يُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَوْقَاتُ الْفَضَائِلِ، وَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يَخْتِمَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ -كَمَا ذَكَرُوا هَذَا عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَعَنْ غَيْرِهِ-؛ وَلَكِنَّ ظَاهِرَ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَتَعَجَّلَ، وَأَنْ يَطْمَئِنَّ فِي قِرَاءَتِهِ، وَأَنْ يُرَتِّلَ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**»، هَذَا آخِرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَقَالَ: «**لَا يَفْقَهُ الْقُرْآنَ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»، وَلَمْ يَقُلْ: (إِلَّا فِي رَمَضَانَ)؛ فَحَمْلُ بَعْضِ السَّلَفِ هَذَا عَلَىٰ غَيْرِ رَمَضَانَ مَحَلُّ نَظَرٍ، وَالْأَقْرَبُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمَشْرُوعَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْقُرْآنِ، وَيَجْتَهِدَ فِي إِحْسَانِ قِرَاءَتِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، وَلَا يَعْجَلَ.

وَالْأَفْضَلُ أَلَّا يَخْتِمَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَىٰ حَسَبِ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ؛ وَلَوْ فِي رَمَضَانَ». انْتَهَىٰ كَلَامُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فَاسْتِحْبَابُ الْإِكْثَارِ مِنَ التِّلَاوَةِ فِي الْأَحْوَالِ الْفَاضِلَةِ أَمْرٌ ظَاهِرٌ؛ لَكِنْ لَا يَعْنِي هَذَا الِاسْتِحْبَابُ تَرْكَ التَّدَبُّرِ، وَالْعَجَلَةَ، مَعَ الْهَذْرَمَةِ فِي التِّلَاوَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَجْمَعُ النَّاسَ، وَيُقِيمُ شَخْصًا، وَيَقْرَأُ فِي النَّهَارِ الطَّوِيلِ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، فَإِنْ قَصَّرَ عِيبَ، وإِن أَتَمَّ مُدِحَ، وَهَذَا مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ للهِ تَعَالَىٰ، لَا لِلتَّحْسِينِ بِهَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ...﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وَقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قَوْمٍ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، فَهُمْ يَهُذُّونَهُ هَذًّا مِنْ غَيْرِ تَرْتِيلٍ وَلَا تَثَبُّتٍ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ».

وَقَدْ رَوَىٰ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ: «أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَوْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ». وَهَذَا يَكُونُ نَادِرًا مِنْهُمْ، وَمَنْ دَاوَمَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا؛ إِلَّا أَنَّ التَّرْتِيلَ وَالتَّثَبُّتَ أَحَبُّ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**».

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: أَنْ تَكُونَ الْهِمَّةُ مَقْصُورَةً عَلَىٰ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ فَقَطْ.

وَكَذَلِكَ قَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ تَحْقِيقِ الْقِرَاءَةِ، وَحُسْنِ التِّلَاوَةِ، وَقُوَّةِ الِاسْتِحْضَارِ؛ مَعَ هَجْرِ تَدَبُّرِهِ، وَضَعْفِ الْهِمَّةِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ.

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: «وَلْيَتَخَلَّ التَّالِي لِكِتَابِ اللهِ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، كَأَنْ يُخَيِّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ مَا حَقَّقَ تِلَاوَةَ الْحَرْفِ، وَلَا أَخْرَجَهُ مِنْ مَخْرَجِهِ؛ فَيَصْرِفُ هِمَّتَهُ بِذَلِكَ عَنْ فَهْمِ الْمَعْنَىٰ، أَوْ يَكُونَ حَالُهُ حَالَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِلدُّنْيَا؛ حَيْثُ وَصَفَ حَالَهُ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ: يَفْخَرُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَيَحْتَجُّ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ فِي الْحِفْظِ، لَيْسَ لِلْخُشُوعِ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ، كَثِيرُ الضَّحِكِ وَالْخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، هُوَ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ حَدِيثِ جَلِيسِهِ أَصْغَىٰ مِنْهُ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ مَنْ يَجِبُ

عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ؛ فَهُوَ إِلَىٰ كَلَامِ النَّاسِ أَشْهَىٰ مِنْ كَلَامِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، لَا يَخْشَعُ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَبْكِي، وَلَا يَحْزَنُ، هِمَّتُهُ حِفْظُ الْحُرُوفِ، إِنْ أَخْطَأَ فِي حَرْفٍ سَاءَهُ ذَلِكَ؛ لِئَلَّا يَنْقُصَ جَاهُهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ، فَتَنْقُصَ رُتْبَتُهُ عِنْدَهُمْ، فَتَرَاهُ مَحْزُونًا مَهْمُومًا بِذَلِكَ، وَقَدْ ضَيَّعَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ، وَهُوَ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ بِهِ.

كَثِيرُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَتَزَيَّنُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا؛ لِيُكْرِمُوهُ بِذَلِكَ، قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

تِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ كِبْرٍ فِي نَفْسِهِ، وَتَزَيُّدٍ عِنْدَ السَّامِعِينَ مِنْهُ، لَيْسَ لَهُ خُشُوعٌ، فَيَظْهَرُ عَلَىٰ جَوَارِحِهِ.

إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ أَوْ دَرَسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ؛ فَهِمَّتُهُ مَتَىٰ يَقْطَعُ، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَىٰ يَفْهَمُ.

لَا يَتَفَكَّرُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ بِضُرُوبِ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِرِضَا الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا يُبَالِي بِسَخَطِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

يُحِبُّ أَنْ يُعْرَفَ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ، وَيُظْهِرُ خَتْمَةَ الْقُرْآنِ؛ لِيَحْظَىٰ عِنْدَ النَّاسِ، قَدْ فَتَنَهُ حُسْنُ ثَنَاءِ الْجَهَلَةِ.

أَخْلَاقُهُ أَخْلَاقُ الْجُهَّالِ: إِنْ أَكَلَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ شَرِبَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ لَبِسَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ جَامَعَ أَهْلَهُ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ نَامَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ صَحِبَ أَقْوَامًا أَوْ

زَارَهُمْ أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَغَيْرُهُ مِمَّنْ يَحْفَظُ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ؛ مُطَالِبٌ لِنَفْسِهِ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ؛ مِنْ عِلْمِ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ؛ وإِنْ كَانَ لا يُؤْبَهُ لَهُ، وَلا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ».

وَمِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: تَقْدِيمُ مَا دُونَ التَّدَبُّرِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَالِاشْتِغَالُ بِذَلِكَ عَنِ التَّدَبُّرِ، وَذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ الْإِخْلَالِ بِتَرْتِيبِ أَوْلَوِيَّاتِ الْعِلْمِ وَمَقَاصِدِهِ، وَالْعَمَلِ وَمَنَافِعِهِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **عَنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ**: «حَقٌّ عَلَىٰ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِذْكَارِ مِنْ عِلْمِهِمْ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ للهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا، وَالرَّغْبَةِ إِلَىٰ اللهِ فِي العَوْنِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِعَوْنِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ عِلْمَ أَحْكَامِ اللهِ فِي كِتَابِهِ نَصًّا وَاسْتِدْلَالًا؛ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْقَوْلِ وَالعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ؛ فَفَازَ بِالْفَضِيلَةِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيَبُ، وَنَوَّرَتْ فِي قَلْبِهِ الْحِكْمَةُ، وَاسْتَوْجَبَ فِي الدِّينِ مَوْضِعَ الْإِمَامَةِ».

⁂

أَيُّمَا أَفْضَلُ: طَلَبُ الْقُرْآنِ أَوِ الْعِلْمِ؟

وَقَدْ سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَيُّمَا أَفْضَلُ: طَلَبُ الْقُرْآنِ أَوِ الْعِلْمِ؟».

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ عَيْنًا -كَعِلْمِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَمَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ-؛ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ حِفْظِ مَا لَا يَجِبُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ وَاجِبٌ، وَأما طَلَبُ الثَّانِي فَمُسْتَحَبٌّ، وَالْوَاجِبُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ الْمُسْتَحَبِّ.

وَأَمَّا طَلَبُ حِفْظِ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّا يُسَمِّيهِ النَّاسُ (عِلْمًا)، وَهُوَ إِمَّا بَاطِلٌ، أَوْ قَلِيلُ النَّفْعِ.

وَهُوَ أَيْضًا مُقَدَّمٌ فِي التَّعَلُّمِ فِي حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الدِّينَ؛ مِنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ؛ فَإِنَّ الْمَشْرُوعَ فِي حَقِّ مِثْلِ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ: أَنْ يَبْدَأَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ عُلُومِ الدِّينِ.

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الْقُرْآنِ: هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ صَاحِبِهِ وحافِظِهِ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ».

وَقَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ عَمَّنِ اشْتَغَلَ بِظَاهِرِ العِلْمِ عَنِ الْمُهِمِّ: «فَرُبَّمَا رَأَيْت إِمَامَ مَسْجِدٍ يَتَصَدَّىٰ لِلْإِقْرَاءِ، وَلَا يَعْرِفُ مَا يُفْسِدُ الصَّلَاةَ، وَرُبَّمَا حَمَلَهُ التَّصَدُّرُ -

حَتَّىٰ لَا يَرَىٰ بِعَيْنِ الجَهْلِ- عَلَىٰ أَنْ يَجْلِسَ بَيْنَ يَدَيِ العُلَمَاءِ، وَيَأْخُذَ عَنْهُمُ العِلْمَ.

وَلَوْ تَفَكَّرُوا لَعَلِمُوا أَنَّ المُرَادَ: حِفْظُ القُرْآنِ، وَتَقْوِيمُ أَلْفَاظِهِ، ثُمَّ فَهْمُهُ، ثُمَّ العَمَلُ بِهِ، ثُمَّ الإِقْبَالُ عَلَىٰ مَا يُصْلِحُ النَّفْسَ، وَيُطَهِّرُ أَخْلَاقَهَا، ثُمَّ التَّشَاغُلُ بِالْمُهِمِّ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ.

وَمِنَ الْغَبْنِ الْفَاحِشِ: تَضْيِيعُ الزَّمَانِ فِيمَا غَيْرُهُ الْأَهَمُّ».

وَمِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: قَصْرُ مَعَانِي الْآيَاتِ عَلَىٰ قَوْمٍ مَضَوْا، أَوْ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ قَدِ انْتَهَتْ، أَوْ أَوْضَاعٍ مَضَتْ، وَأَنَّ الْوَاقِعَ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْإِرْشَادِ وَالْبَيَانِ؛ وَلِذَا كَانَ هَذَا صَارِفًا لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْبَحْثِ عَنِ الْهُدَىٰ فِيهِ، وَطَلَبِ الشِّفَاءِ مِنْهُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، ولم يُعَقِّبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَلَعَمْرُ اللهِ إِنْ كَانَ أُولَئِكَ قَدْ خَلَوْا؛ فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ، أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ، أَوْ دُونَهُمْ، وَتَنَاوُلُ الْقُرْآنِ لَهُمْ كَتَنَاوُلِهِ لِأُولَئِكَ».

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّطِيفِ آلُ الشَّيْخِ: «وَرُبَّمَا سَمِعَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: هَذِهِ نَزَلَتْ فِي عُبَّادِ الْأَصْنَامِ، هَذِهِ فِي النَّصَارَىٰ، هَذِهِ فِي الصَّابِئَةِ؛

فَيَظُنُّ الْغُمْرُ أَنَّ ذَلِكَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ، وَأَنَّ الْحُكْمَ لَا يَتَعَدَّاهُمْ! وَهَذَا أَكْبَرُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

وَمَا أَشْبَهَ هَذَا بِمَا فَعَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حِينَمَا حَصَرُوا هَدْيَ الْقُرْآنِ فِي شَعَائِرَ مَحْدُودَةٍ: كَالصَّلَاةِ، وَالطَّهَارَةِ، وَالصَّوْمِ، وَالزَّكَاةِ، وَنَحْوِهَا، وَيَهْجُرُونَ هَدْيَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَىٰ، كَسَائِرِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ.

وَما حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ مَجَالَاتٌ حَدِيثَةٌ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ خِطَابًا مُوَجَّهًا إِلَيْهِ، وَأَنْ يُقَدِّرَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِكُلِّ خِطَابٍ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنْ سَمِعَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا؛ قَدَّرَ أَنَّهُ الْمَنْهِيُّ وَالْمَأْمُورُ، وَإِنْ سَمِعَ وَعِيدًا أَوْ وَعْدًا؛ فَكَذَلِكَ، وَإِنْ سَمِعَ قَصَصَ الْأَوَّلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ السَّمَرَ غَيْرُ مَقْصُودٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ: أَنْ يَعْتَبِرَ بِهَا، وَيَأْخُذَ مِنْ تَضَاعِيفِهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

وَإِذَا قُصِدَ بِالْخِطَابِ جَمِيعُ النَّاسِ؛ فَهَذَا الْقَارِئُ الْوَاحِدُ مَقْصُودٌ، فَمَا لَهُ وَلِسَائِرِ النَّاسِ؟!! فَلْيُقَدِّرْ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ؛ فَكَأَنَّمَا كَلَّمَهُ اللهُ».

وَإِذَا قَدَّرَ ذَلِكَ؛ لَمْ يَتَّخِذْ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَمَلَهُ؛ بَلْ يَقْرَؤُهُ كَمَا يَقْرَأُ الْعَبْدُ كِتَابَ مَوْلَاهُ الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ؛ لِيَتَأَمَّلَهُ، وَيَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.

إِنَّ النَّصَّ عِنْدَمَا يَتوَجَّهُ إِلَىٰ الْأُمَّةِ؛ فَهُوَ شَامِلٌ لَهَا، وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ هُوَ كِتَابُ اللهِ الْخَاتَمُ؛ فَلَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابٌ لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَتَضَمَّنَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ صَلَاحَ الْبَشَرِيَّةِ، إِلَىٰ أَنْ يَرْفَعَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ مُقَدِّرًا لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، مُؤْتَمِرًا بِأَوَامِرِهِ، مُنْزَجِرًا بِزَوَاجِرِهِ، مُتَّعِظًا بِمَوَاعِظِهِ، مُنْتَهِيًا بِنَهْيِهِ: أَنْ يُقَدِّرَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -وَهَذَا كَلَامُهُ- يُكَلِّمُهُ كِفَاحًا مِنْهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَقُولُ لَهُ: يَا عَبْدِي؛ افْعَلْ، وَلَا تَفْعَلْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ وَالْعُلَمَاءُ.

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنْ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:** الِانْشِغَالُ بِالْمُبْهَمَاتِ؛ فَإِنَّ الِاهْتِمَامَ بِتَفَاصِيلِ الْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ تُذْكَرْ صَارِفٌ عَنِ التَّدَبُّرِ، وَعَنْ مَقَاصِدِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، فَكَثِيرًا مَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَعْيَانٌ وَأَمَاكِنُ وَأَعْدَادٌ مُبْهَمَةٌ، وَلَمْ يُبَيِّنْهَا الرَّسُولُ ﷺ، فَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا عَمَلٌ، وَلَا يَحْصُلُ بِهَا عِلْمٌ نَافِعٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ.

وَقَدْ هَوَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شَأْنِ مَعْرِفَةِ النَّاسِ بِعَدَدِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٢]، فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ مَعْرِفَةَ عَدَدِهِمْ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا، فَمِثْلُ تِلْكَ الْأُمُورِ لَا فَائِدَةَ فِيهَا تَعُودُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِينَ فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا دِينِهِمْ، وَالْبَحْثُ عَنْهَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ.

*** وَمِمَّا يَدْعُو إِلَىٰ قُصُورِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَالوُقُوعِ دُونَ فَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ:** النَّظَرُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ خِلَالِ مَفْهُومَاتٍ قَاصِرَةٍ، وَمِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْمَفْهُومَاتِ الْقَاصِرَةِ تُفْهَمُ الآيَاتُ، وَتُفَسَّرُ الْمَقَاصِدُ، وَيُخَصَّصُ الْعَامُّ، وَيُقَيَّدُ الْمُطْلَقُ، وَمِنْ خِلَالِ خَلْفِيَّاتٍ سَابِقَةٍ يُحْكَمُ عَلَىٰ النُّصُوصِ بِهَا؛ فَلَا يَنْتَفِعُ الْقَارِئُ حِينَئِذٍ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ التَّدَبُّرُ الْمَقْصُودُ، فَهُوَ يُرَدِّدُ الْأَلْفَاظَ وَقَدْ زَاغَ قَلْبُهُ عَنِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، أَوْ قَصُرَ نَظَرُهُ، أَوْ ضَلَّ فَهْمُهُ.

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ: تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَهُوَ مَا رَوَاهُ أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ التُّجِيبِيُّ، قَالَ: «كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ صَفِّ الرُّومِ حَتَّىٰ دَخَلَ فِيهِ -أَي: انْغَمَسَ فِي الْعَدُوِّ-، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ: الْإِقَامَةَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ».

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَاللَّفْظُ لَهُ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: «وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ»، وَكَذَا صَحَّحَهُ مُحَقِّقُ «زَادِ الْمَعَادِ».

فَهَذَا مِثَالٌ أُوِّلَتْ فِيهِ الْآيَةُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهَا.

وَمِثَالٌ آخَرُ: فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥].

عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَضَعُونَهَا عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَىٰ يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ**»».

وَكَذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]:

قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَيْسَ يُحِلُّونَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟**».

قَالَ: بَلَىٰ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**».

وَمِثَالٌ آخَرُ: فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون: ٦]: فَكَثِيرًا مَا تَسْمَعُ مَنْ يَسْتَشْهِدُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ سَبِيلَهُ، وَلَا أَحَدَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، وَلِكُلٍّ دِينُهُ وَطَرِيقَتُهُ!!

وَمَا عَلِمَ أَنَّ الْآيَةَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ، لَا لَهُ، وَأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ الْآيَةِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعْلِنَ كُفْرَ مَنْ خَالَفَهُ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَأَلَّا يَلْتَقِيَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ، وَأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ كُفْرٌ وَضَلَالٌ؛ مَهْمَا ظَنُّوهُ دِينًا أَوْ عِبَادَةً، وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي أَصْحَابِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالَفَاتِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي دُونَ الْكُفْرِ.

فَمُقْتَضَىٰ الْآيَةِ: أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ فِي فِعْلِهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ دِينِهِمْ فِي شَيْءٍ.

* **وَمِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ عَدَمِ التَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا**: قَصْرُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ أَحْوَالٍ خَاصَّةٍ؛ كَمَنْ لَا يَسْعَىٰ إِلَىٰ سَمَاعِ الْقُرْآنِ إِلَّا عِنْدَ مَرَضِهِ، أَمَّا فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ وَصَفَاءِ ذِهْنِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَىٰ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ تِلَاوَتِهِ؛ حَيْثُ حَرَمَ نَفْسَهُ السَّبِيلَ إِلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ حَالُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ إِلَّا تِلَاوَةً عِنْدَ الْعَزَاءِ -وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ هَذِهِ مِنَ الْبِدَعِ-، أَوْ عِنْدَ افْتِتَاحِ الْبَرَامِجِ، أَوْ فِي

الْمُنَاسَبَاتِ الْعَامَّةِ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُ وَقْتًا آخَرَ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ قِرَاءَتِهِ؛ فَأَنَّىٰ لِمِثْلِ هَذَا أَنْ يَتَدَبَّرَ، أَوْ يَتَأَمَّلَ، أَوْ يَتَفَكَّرَ، أَوْ يَعْتَبِرَ، أَوْ يَتَأَثَّرَ؟!

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

***

أُصُولُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ

وَأَمَّا أُصُولُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ: مُفْرَدَاتُ اللُّغَةِ، أَوْ غَرِيبُ الْقُرْآنِ.

وَالْمُرَادُ بِهِ: الْعِلْمُ الْمُخْتَصُّ بِتَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ الْغَامِضَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَوْضِيحِ مَعَانِيهَا بِمَا جَاءَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ.

وَإِدْرَاكُ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَبْدَأُ بِهِ الْمُفَسِّرُ، وَكَذَا كَانَ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ السَّلَفِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ: صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالتَّابِعُونَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَا نُقِلَ مِنْ فَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ كُلَّهُ جَارٍ عَلَىٰ مَا تَقْتَضِي وَتَقْضِي بِهِ الْعَرَبِيَّةُ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ».

فَهَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قَدْ بَيَّنَ جُمْلَةً مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَذَلِكَ فِي مَسَائِلِهِ الْمَشْهُورَةِ مَعَ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ؛ وَإِنْ كَانَ فِي ثُبُوتِ ذَلِكَ نَظَرٌ.

وَيُؤَكِّدُ عَلَىٰ أَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ، **فَيَقُولُ:** «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ؛ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «وَذَكَرْتُ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ: الْعُلُومُ اللَّفْظِيَّةُ، وَمِنَ الْعُلُومِ اللَّفْظِيَّةِ: تَحْقِيقُ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ؛ فَتَحْصِيلُ مَعَانِي مُفْرَدَاتِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فِي كَوْنِهِ مِنْ أَوَائِلِ الْمَعَادِنِ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُدْرِكَ مَعَانِيَهِ؛ كَتَحْصِيلِ اللَّبِنِ فِي بِنَاءِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَهِ».

قَالَ الشَّاطِبِيُّ: «فَمَنْ أَرَادَ تَفَهُّمَ الْقُرْآنَ؛ فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يَفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَطَلُّبِ تَفَهُّمِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ؛ وَلِذَا فَإِنَّ تَفْسِيرَ كَلَامِ اللهِ الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْ دَلَالَةِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ؛ هُوَ رَدٌّ عَلَىٰ قَائِلِهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَهَا هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَرَىٰ أَنَّ وَضْعَ كَلَامِ اللهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ مِنَ الْإِلْحَادِ، فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ [فصلت: ٤٠]: الْإِلْحَادُ فِي آيَاتِ اللهِ: أَنْ يُوضَعَ الْكَلَامُ عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهِ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ تَفْسِيرَ ابْنَ عَبَّاسٍ السَّابِقَ: «فَفِيهِ الرَّدُّ عَلَىٰ مَنْ تَعَاطَىٰ التَّفْسِيرَ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوْهَرُ اللَّفْظِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْبَاطِنِيَّةُ، وَالِاتِّحَادِيَّةُ، وَالْمَلَاحِدَةُ، وَغُلَاةُ الصُّوفِيَّةِ».

وَأَقُولُ: إِنَّ أَصْحَابَ الْقِرَاءَاتِ الْجَدِيدَةِ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ يَلْحَقُونَ بِهَذِهِ الطَّوَائِفِ؛ لِأَنَّ تَفْسِيرَهُمْ لِلْقُرْآنِ تَفْسِيرٌ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جَوْهَرُ اللَّفْظِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ يُعَدِّدُ أَسْبَابَ الْخَطَأِ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ جِهَةِ الِاسْتِدْلَالِ: «وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ مُسْتَنَدَيِ الِاخْتِلَافِ -وَهُوَ مَا يُعْلَمُ

بِالِاسْتِدْلَالِ لَا بِالنَّقْلِ- فَهُوَ أَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهِ الْخَطَأُ مِنْ جِهَتَيْنِ حَدَثَتَا بَعْدَ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الأَوَّلُ.

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي: فَكُلِّيَّاتُ الْقُرْآنِ.

الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِغَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا فِي عَصْرٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا فِي عُصُورٍ خَلَتْ، وَإِنَّمَا اسْتَعْجَمَتِ الْأَلْسُنُ، وَضَعُفَتِ الْمَلَكَةُ اللُّغَوِيَّةُ؛ فَصَارَ النَّاسُ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُونَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي كَانَتْ مَعْرُوفَةً لِأَسْلَافِهِمْ.

فَالْأَصْلُ الْأَوَّلُ مُتَعَلِّقٌ بِغَرِيبِ الْقُرْآنِ.

الْأَصْلُ الثَّانِي مُتَعَلِّقٌ بِكُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ.

وَالْمَقْصُودُ بِكُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ: وُرُودُ لَفْظٍ أَوْ أُسْلُوبٍ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَعْنًىٰ أَوْ طَرِيقَةٍ مُطَّرِدَةٍ أَوْ أَغْلَبِيَّةٍ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ وَكُلِّيَّاتِ الْأَسَالِيبِ:

أَنَّ الْأَلْفَاظَ: مَا كَانَ مَدَارُ الْكُلِّيَّةِ فِيهَا عَلَىٰ لَفْظَةٍ أَوْ جُمْلَةٍ أَوْ تَرْكِيبٍ مُعَيَّنٍ؛ سَوَاءٌ أَفَادَ هَذَا مَعْنًىٰ وَتَأْوِيلًا، أَوْ طَرِيقَةً وَنَهْجًا لِمَا سَارَتْ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ أَوِ الْأَلْفَاظُ فِي الْقُرْآنِ، وَاسْتُخْدِمَتْ فِيهِ مِنْ مَجَالٍ، وَسِيقَتْ لَهُ مِنْ مَقَالٍ.

بَيْنَمَا الْأَسَالِيبُ لَا تُحَدُّ، وَلَا تُقَيَّدُ بِلَفْظٍ خَاصٍّ أَوْ أَلْفَاظٍ بِعَيْنِهَا، بَلْ هِيَ تَتَّجِهُ إِلَىٰ نَهْجِ الْقُرْآنِ وَطَرِيقَتِهِ فِي نَظْمِهِ، أَوْ عَرْضِهِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَضَايَا وَالْمَوْضُوعَاتِ؛ كَمَوْضُوعِ الْقَسَمِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَحِكَايَةِ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُجَاوَبَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَلِلْكُلِّيَّاتِ صِيَغٌ، أَشْهَرُهَا: (كُلّ)، وَ(حِينَمَا)، وَ(أَيْنَمَا)، وَ(حَيْثُمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، أَوْ (حَيْثُ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(جَمِيعُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(عَامَّةُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ)، وَ(عَادَةُ الْقُرْآنِ).

وَالْعِلْمُ بِهَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ -سَوَاءٌ فِي الْأَلْفَاظِ أَوِ الْأَسَالِيبِ- مِنَ الْأُصُولِ الْهَامَّةِ جِدًّا فِي فَهْمِ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِذَا عُنِيَ بِهَا سَلَفُ الْأُمَّةِ مِنْ مُفَسِّرِيهَا؛ وَخَاصَّةً فِي الْأَلْفَاظِ؛ لِذَا حَوَتْ كُتُبُ التَّفَاسِيرِ كَمًا وَفِيرًا مِنَ هَذِهِ الْكُلِّيَّاتِ، وَعَلَىٰ رَأْسِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرُوا ذَلِكَ -وَهُوَ أَكْثَرُهُمْ-: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ كُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ:

قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ: «وَالتَّزَكِّي فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ: الْإِسْلَامُ»، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]، قَالَ: «مَنْ أَسْلَمَ».

وَقَرَأَ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]، قَالَ: «يُسْلِمُ».

وَقَرَأَ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، قَالَ: «يُسْلِمُ».

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ صَلَاةٌ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «الْخَيْرُ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ: الْمَالُ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «الْخَيْرُ حَيْثُ وَقَعَ فِي كِتَابِ اللهِ: الْمَالُ».

وَهَذَا الْأَصْلُ اعْتَمَدَهُ السَّلَفُ فِي تَرْجِيحِ أَقْوَالِهِمْ وَتَأْيِيدِهَا، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي نِقَاشِهِ لِنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ فِي مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «الْوُرُودِ» اسْتَدَلَّ عَلَىٰ مَا يَذْكُرُهُ بِالْغَالِبِ فِي اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ؛ فَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «إِنَّ مَعْنَىٰ الْوُرُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]: الدُّخُولُ.

فَقَالَ نَافِعٌ: لَا.

فَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، أَوُرُودٌ هُوَ أَمْ لَا؟!

وَقَالَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] أَوُرُودٌ هُوَ أَمْ لَا؟! أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ؛ فَسَنَدْخُلُهَا، فَانْظُرْ هَلْ نَخْرُجُ مِنْهَا أَمْ لَا؟».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّانِي، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِكُلِّيَّاتِ الْأَلْفَاظِ، أَوْ كُلِّيَّاتِ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَسَالِيبِ.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: دَلَالَاتُ الْأَلْفَاظِ.

وَمِنَ الْمُهِمَّاتِ لِكُلِّ نَاظِرٍ وَمُتَدَبِّرٍ: أَنْ يُحِيطَ بِدَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنْ حَيْثُ العُمُومُ وَالْخُصُوصُ، وَالْمُطْلَقُ وَالْمُقَيَّدُ، وَالْمَنْطُوقُ وَالْمَفْهُومُ؛ لِأَنَّهَا أَدَوَاتٌ لِفَهْمِ النَّصِّ.

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كَمَا أَنَّ الْمُفَسِّرَ لِلْقُرْآنِ يُرَاعِي مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَلْفَاظُ مُطَابَقَةً، وَمَا دَخَلَ فِي ضِمْنِهَا؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ لَوَازِمَ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَمَا تَسْتَدْعِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَمْ يُعَرِّجِ اللَّفْظُ عَلَىٰ ذِكْرِهَا».

ثُمَّ بَيَّنَ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَ لِهَذَا، فَقَالَ: «وَالطَّرِيقُ إِلَىٰ سُلُوكِ هَذَا الْأَصْلِ النَّافِعِ: أَنْ تَفْهَمَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ مِنَ الْمَعَانِي، فَإِذَا فَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا؛ فَفَكِّرْ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا وَلَا تَحْصُلُ بِدُونِهَا، وَمَا يُشْتَرَطُ لَهَا، وَكَذَلِكَ فَكِّرْ فِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا، وَأَكْثِرْ مِنْ هَذَا التَّفْكِيرِ وَدَاوِمْ عَلَيْهِ؛ حَتَّىٰ يَصِيرَ لَكَ مَلَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي الْغَوْصِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأُسْلُوبُ قَدْ صَارَ مَلَكَةً لَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَصِيرَ لَكَ بِالْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ هَذَا الْأُسْلُوبِ مَلَكَةٌ جَيِّدَةٌ فِي الْغَوْصِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ الْحَقِّ حَقٌّ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنِ الْحَقِّ حَقٌّ، ذَلِكَ كُلُّهُ حَقٌّ وَلَا بُدَّ».

ذَلِكَ أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي نُرِيدُ فَهْمَهُ لَا يَخْلُو مِنْ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ:

إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ عَامًّا أَوْ خَاصًّا، وَأَحْيَانًا يَكُونُ اللَّفْظُ عَامًّا وَيُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ، وَالْعَكْسُ أَيْضًا: قَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ خَاصًّا وَيُرَادُ بِهِ الْعُمُومُ، وَهُنَاكَ

صِيَغٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ وَيُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْخُصُوصَ وَيُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ، وَأَلْفَاظٌ تُفِيدُ الْخُصُوصَ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهَا الْعُمُومُ، وَالْقَرَائِنُ تُوَضِّحُ وَتُزِيلُ اللَّبْسَ، وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْعِلْمِ؛ لِمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ.

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فَلَفْظُ (الْمُطَلَّقَاتِ) هُنَا عَامٌّ، وَلَوْ فَسَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ وَحْدَهَا؛ فَإِنَّهَا تُفِيدُ أَنَّ عِدَّةَ كُلِّ الْمُطَلَّقَاتِ ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ، بَيْنَمَا هَذَا الْحُكْمُ لَا يُمْكِنُ إِطْلَاقُهُ هَكَذَا عَلَىٰ جَمِيعِ الْمُطَلَّقَاتِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ آيَةٌ أُخْرَىٰ فِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ -هِيَ سُورَةُ الطَّلَاقِ- تُخَصِّصُ هَذَا الْحُكْمَ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وَهَا هُوَ قَتَادَةُ -كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ عَنْهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ- يَقِفُ مَعَ هَذَا اللَّفْظِ الْعَامِّ، وَيُخْرِجُ بَعْضَ أَفْرَادِهِ مِنْهُ، وَيُسَمِّي ذَلِكَ (نَسْخًا)، عَلَىٰ اصْطِلَاحِ السَّلَفِ فِي إِطْلَاقِ النَّسْخِ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ؛ فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «فَجَعَلَ عِدَّةَ الطَّلَاقِ ثَلَاثَ حِيَضٍ، ثُمَّ إِنَّهُ نَسَخَ مِنْهَا -أَيْ: خَصَّصَ مِنْهَا- الْمُطَلَّقَةَ الَّتِي طُلِّقَتْ وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا زَوْجُهَا، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، فَهَذِهِ تَزَوَّجُ إِنْ شَاءَتْ مِنْ يَوْمِهَا -أَيْ: الَّذِي طُلِّقَتْ فِيهِ-.

وَقَدْ نَسَخَ مِنَ الثَّلَاثَةِ، فَقَالَ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ [الطلاق: ٤]، فَهَذِهِ الْعَجُوزُ الَّتِي لَا تَحِيضُ، وَالَّتِي لَمْ تَحِضْ؛ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَلَيْسَ الْحَيْضُ مِنْ أَمْرِهَا فِي شَيْءٍ.

وَنَسَخَ مِنَ الثَّلَاثَةِ قُرُوءِ الْحَامِلَ، فَقَالَ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]، فَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرُوءِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا أَجَلُهَا أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا».

وَهَكَذَا الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِدَلَالَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ دَلَالَاتِ اللَّفْظِ، وَهُوَ الْمُطْلَقُ وَالْمُقَيَّدُ؛ فَقَدْ جَاءَتْ بَعْضُ الْأَحْكَامِ فِي الْآيَاتِ مُطْلَقَةً غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ بِوَصْفٍ أَوْ شَرْطٍ، وَجَاءَتْ أَحْكَامٌ أُخَرُ مُقَيَّدَةً بِأَوْصَافٍ أَوْ شُرُوطٍ، وَعِنْدَ تَنَاوُلِ النَّاظِرِ لِلْآيَةِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ ذَلِكَ.

فَمَثَلًا: عِنْدَ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١]؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ، قَيَّدَهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١١]؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَدْ قَيَّدَتْ تَوْزِيعَ الْمِيرَاثِ بِأَنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ إِخْرَاجِ الْوَصِيَّةِ وَالدَّيْنِ.

وَكَذَا الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِدَلَالَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ دَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ، وَهِيَ الْمَنْطُوقُ وَالْمَفْهُومُ؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ الْأَلْفَاظِ عَلَىٰ الْمَعَانِي: إِمَّا أَنْ تُسْتَفَادَ مِنْ جِهَةِ النُّطْقِ

وَالتَّصْرِيحِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّعْرِيضِ وَالتَّلْوِيحِ، وَلَا تَخْلُو دَلَالَةُ اللَّفْظِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ دَلَالَةَ مَنْطُوقٍ صَرِيحٍ كَدَلَالَةِ النَّصِّ، أَوْ غَيْرِ صَرِيحٍ كَدَلَالَةِ الِاقْتِضَاءِ، أَوْ دَلَالَةِ الْإِشَارَةِ، أَوْ دَلَالَةِ مَفْهُومٍ؛ مُوَافِقَةٌ أَوْ مُخَالِفَةٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ اسْتِقْرَاءٍ لِتَفْسِيرِ السَّلَفِ لِلْخُرُوجِ بِأَمْثِلَتِهِ وَتَطْبِيقَاتِهِ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ: هَذَا الْمِثَالُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ أَثَرِ دَلَالَةِ مَفْهُومٍ فِي مَعْنَىٰ آيَةٍ، هَذَا الْمِثَالُ لِمَفْهُومٍ، هُوَ: مَفْهُومُ شَرْطٍ، اعْتَمَدَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي اسْتِخْرَاجِ حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وَهُوَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ مَالًا كَثِيرًا؛ فَلَا وَصِيَّةَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مَفْهُومُ شَرْطٍ، أَيْ: إِنْ تَرَكَ خَيْرًا فَلْيُوصِ.

أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لَهَا رَجُلٌ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُوصِيَ.

قَالَتْ: كَمْ مَالُكَ؟

قَالَ: ثَلَاثَةُ آلَافٍ.

قَالَتْ: كَمْ عِيَالُكَ؟

قَالَ: أَرْبَعَةٌ.

قَالَتْ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وَإِنَّ هَذَا الشَّيْءَ يَسِيرٌ؛ فَاتْرُكْهُ لِعِيَالِكَ، فَهُوَ أَفْضَلُ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ مَوْلًىٰ لَهُمْ فِي الْمَوْتِ، وَلَهُ سَبْعُ مِئَةِ دِرْهَمٍ، أَوْ سِتُّ مِئَةِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ: أَلَا أُوصِي؟ فَقَالَ: لَا، إِنَّمَا قَالَ اللهُ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وَلَيْسَ لَكَ كَثِيرُ مَالٍ.

عِنْدَ تَأْصِيلِ مَنْهَجِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْأُصُولِ وَالضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا لِمَعْرِفَةِ الْمَنْهَجِ الصَّحِيحِ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ حَيْثُ وُجِدَ اخْتِلَاطٌ بَيْنَ بَعْضِ السُّلُوكِيَّاتِ الْمُصَاحِبَةِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَبَيْنَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَظَنَّ كُلُّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مُتَأَثِّرًا بِالْقُرْآنِ؛ أَنَّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ التَّدَبُّرِ، وَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّمَعُّنِ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ وَالضَّوَابِطِ، وَلَا بُدَّ مِنْ قِيَاسِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ عَلَيْهَا؛ حَتَّىٰ يَعْلَمَ مُوَافَقَتَهُ لِلتَّدَبُّرِ الصَّحِيحِ مِنْ عَدَمِهَا.

●●●



مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ التَّدَبُّرَ الصَّحِيحَ يَزِيدُ الْإِيمَانَ

* مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ:

التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ يَزِيدُ الْإِيمَانَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَدِلَّةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

الْآيَةُ الْأُولَىٰ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ، وَتَدَبُّرِهِ، وَفَهْمِ مَا فِيهِ، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَالْفَزَعُ، وَالرَّجَاءُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالْعَمَلُ بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾: فَرِقَتْ، أَيْ: فَزِعَتْ وَخَافَتْ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾: زَادَتْهُمْ خَشْيَةً، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ السَّمَاعِ كَافِيًا فِي حُصُولِ ذَلِكَ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ سَمِعُوا الْقُرْآنَ، وَلَكِنْ كَانَ

عَمَلُهُمُ الْإِعْرَاضَ، وَالْكُفْرَ، وَالتَّكْذِيبَ، وَالِاسْتِهْزَاءَ، وَالتَّوَلِّيَ، وَعَدَمَ العَمَلِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

وَقَالَ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١].

فَتَزِيدُهُمْ لِذَلِكَ الْآيَاتُ رِجْسًا وَكُفْرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ -كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقِّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ، أَيْ: خَافَ مِنْهُ؛ فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ.

وَقَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣]: «أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ، لَاهِينَ

عَنْهَا؛ بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهِمِينَ، بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا؛ فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ، لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ».

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وَوَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يُلْقُونَ لَهُ السَّمْعَ، وَيُحْضِرُونَ قُلُوبَهُمْ لِتَدَبُّرِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَزِيدُ إِيمَانُهُمْ؛ لِأَنَّ التَّدَبُّرَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَلِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَبِينَ لَهُمْ مَعْنَىٰ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَهُ، أَوْ يَتَذَكَّرُونَ مَا كَانُوا نَسَوْهُ، أَوْ يُحْدِثُ فِي قُلُوبِهِمْ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ، وَاشْتِيَاقًا إِلَىٰ كَرَامَةِ رَبِّهِمْ، أَوْ وَجَلًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَازْدِجَارًا عَنِ الْمَعَاصِي، وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَزْدَادُ بِهِ الْإِيمَانُ».

وَالْمُؤْمِنُ يَقِيسُ تَدَبُّرَهُ بِهَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، فَإِنْ أَوْرَثَهُ إِيمَانًا بِاللهِ، وَتَصْدِيقًا بِرَسُولِهِ ﷺ؛ فَهُوَ عَلَىٰ جَادَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَتْ تِلَاوَتُهُ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ يُرَدِّدُهَا أَوْ أَصْوَاتٍ يَسْمَعُهَا؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْحَقِيقِيِّ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.





عَلامَاتُ التَّدبُّرِ

* **الْأَصْلُ الثَّانِي**: عَلامَةُ التَّدبُّرِ: الْخَشْيَةُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجاءُ، وَالدَّمْعُ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ آيَاتٌ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ؛ لِمَا يَفْهَمُونَهُ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ؛ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ؛ لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ».

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِالْخُشُوعِ وَالْبُكَاءِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٨].

فَهَذَانِ أَصْلَانِ يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَهُمَا فِي تَدَبُّرِهِ لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَيْضًا؛ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَسْبَابَ النُّزُولِ، وَأَثَرَ ذَلِكَ فِي فَهْمِ الْمُنَزَّلِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ ظُرُوفِ نُزُولِ النَّصِّ، وَهُوَ يَدُورُ حَوْلَ السِّيَاقِ الزَّمَنِيِّ وَأَثَرِهِ فِي فَهْمِ النَّصِّ.

وَمِنَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: أَهَمِّيَّةُ الْعِلْمِ بِأَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ حَيْثُ تَأْثِيرُهُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ -كَمَا يُشْتَهَرُ- أَنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبِّبِ، وَقَدْ أَكَّدَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ الْوَاحِدِيُّ: «... إِذْ هِيَ أَوْفَىٰ مَا يَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَأَوْلَىٰ مَا تُصْرَفُ الْعِنَايَةُ إِلَيْهِ؛ لِامْتِنَاعِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَقَصْدِ سَبِيلِهَا دُونَ الْوُقُوفِ عَلَىٰ قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا».

وَأَكَّدَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ذَلِكَ الْمَعْنَىٰ بِقَوْلِهِ: بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ كَانَ لِتَوَفُّرِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ النُّزُولِ لِسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ -وَعَلَىٰ رَأْسِهَا صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ- الْأَثَرُ الْكَبِيرُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَإِزَالَةِ الْإِشْكَالَاتِ فِي عَدَمِ فَهْمِهِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الصَّحِيحِ؛ لِذَا عَدَّهُ ابْنُ عَبَّاسٍ سَبَبًا رَئِيسًا فِي اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ حِينَمَا رَأَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ خَلَا بِنَفْسِهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُهَا بِقَوْلِهِ: كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ؟!

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ فَقَرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيمَ نَزَلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَدْرُونَ فِيمَ نَزَلَ!

فَابْنُ عَبَّاسٍ -وَهُوَ حَبْرُ الْأُمَّةِ وَبَحْرُهَا- يَجْعَلُ الْجَهْلَ بِسَبَبِ النُّزُولِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الِانْحِرَافِ فِي فَهْمِ نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِذَا فَإِنَّ النَّظَرَ لِلْقُرْآنِ كَنَصٍّ مُجَرَّدٍ مِنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ مُؤْذِنٌ بِانْحِرَافٍ فِي التَّفْسِيرِ، فَالْقُرْآنُ لَهُ عِدَّةُ مُكَوِّنَاتٍ مُهِمَّةٍ، تُسْهِمُ فِي فَهْمِهِ الْفَهْمَ الصَّحِيحَ، مِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ: مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ، وَأَمْثِلَةُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَصْعُبُ فَهْمُهَا مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ نُزُولِهَا، وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يَفُكُّ الْغُمُوضَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَمَا عَلَاقَةُ دُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا أَوْ مِنْ ظُهُورِهَا بِالتَّقْوَىٰ؟! وَلَكِنَّ سَبَبَ النُّزُولِ يَكْشِفُ لَنَا ذَلِكَ: فَقَدْ رَوَىٰ الْبَرَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْأَنْصَارَ حَجُّوا، فَرَجَعُوا، لَمْ يَدْخُلُوا الْبُيُوتَ إِلَّا مِنْ ظُهُورِهَا، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ بَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

سَبَبُ النُّزُولِ يُصَحِّحُ الْفَهْمَ الْمَغْلُوطَ الَّذِي قَدْ يُفْهَمُ أَحْيَانًا، وَلَا يَعْرِفُ الْمُفَسِّرُ أَوِ النَّاظِرُ فِي الْآيَةِ سَبَبَ نُزُولِهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا حَصَلَ لِقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ حِينَمَا فَهِمَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] أَنَّهُ يُرْفَعُ عَنْهُ الْجَلْدُ لَوْ شَرِبَ الْخَمْرَ.

رَوَىٰ الْعُلَمَاءُ: «أَنَّ الْجَارُود قَدِمَ عَلَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: إِنَّ قُدَامَةَ شَرِبَ فَسَكِرَ.

فَقَالَ عُمَرُ: مَنْ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَا تَقُولُ؟

قَالَ الْجَارُودُ: أَبُو هُرَيْرَةَ يَشْهَدُ عَلَىٰ مَا أَقُولُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا قُدَامَةُ؛ إِنِّي جَالِدُكَ.

قَالَ: وَاللهِ لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ؛ مَا كَانَ لَكَ أَنْ تَجْلِدَنِي.

فَقَالَ عُمَرُ: وَلِمَ؟

قَالَ: لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: ٩٣].

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ أَخْطَأْتَ التَّأْوِيلَ يَا قُدَامَةُ، إِذَا اتَّقَيْتَ اللهَ؛ اجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَ اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لِمَ تَجْلِدُنِي؟! بَيْنِي وَبَيْنَكَ كِتَابُ اللهِ.

فَقَالَ عُمَرُ: وَأَيُّ كِتَابِ اللهِ تَجِدُ أَنِّي لَا أَجْلِدُكَ؟

قَالَ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ الآية، فَأَنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا؛ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا، وَأُحُدًا، وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ.

فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا تَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ أُنْزِلْنَ عُذْرًا لِلْمَاضِينَ، وَحُجَّةً لِلْبَاقِينَ، فَعُذْرُ الْمَاضِينَ بِأَنَّهُمْ لَقُوا اللهَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْخَمْرُ، وَحُجَّةٌ عَلَىٰ الْبَاقِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ثُمَّ قَرَأَ آخِرَ الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ نَهَىٰ أَنْ يُشْرَبَ الْخَمْرُ.

قَالَ عُمَرُ: صَدَقْتَ».

إِذًا؛ لَا يُمْكِنُ عَزْلُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ وَأَسْبَابِهَا، وَمَنْ تَجَرَّأَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ جَهِلَهُ؛ فَسَوْفَ يَقُومُ مَقَامًا خَطِيرًا فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا حَصَلَ لِقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَمَا غَابَ عَنْهُ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَفِي هَذَا الْمِثَالِ يُقَعِّدُ ابْنُ عَبَّاسٍ تَطْبِيقِيًّا لِأَهَمِّيَّةِ الْعِلْمِ بِأَسْبَابِ النُّزُولِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ؛ بَلْ إِنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَىٰ اللُّغَةِ، وَتَجَاهُلَ أَسْبَابِ النُّزُولِ قَدْ يَجْعَلُ الْمُفَسِّرَ يَحْمِلُ الْآيَةَ عَلَىٰ غَيْرِ مَعْنَاهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ: مَا جَاءَ عِنْدَ تَفْسِيرِ تَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: «مَجَازُهُ: لِيُفْرِغَ عَلَيْهِمُ الصَّبْرَ، وَيُنْزِلَهُ عَلَيْهِمْ، فَيَثْبُتُونَ لِعَدُوِّهِمْ».

عِنْدَ التَّأَمُّلِ فِي قِصَّةِ نُزُولِ الْآيَةِ؛ نَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْنَىٰ اللُّغَوِيَّ الَّذِي ذَكَرَهُ غَيْرُ مُرَادٍ، وَقَدْ خَطَّأَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الْمُسْتَنِدِ عَلَىٰ قِصَّةِ نُزُولِ الْآيَةِ، وَأَنَّ الْمَعْنَىٰ الصَّحِيحَ هُوَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قِصَّةُ النُّزُولِ، وَهُوَ: أَنَّ اللهَ يُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ الَّتِي يَمْشُونَ بِهَا عَلَىٰ الرَّمْلِ؛ كَيْ لَا تَسُوخَ فِيهِ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الرِّوَايَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، حَيْثُ يَقُولُ: «وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ لَمَّا خَرَجُوا لِيَنْصُرُوا الْعِيرَ، وَيُقَاتِلُوا عَنْهَا، نَزَلُوا عَلَىٰ الْمَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَغَلَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، فَأَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّمَأُ، فَجَعَلُوا يُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ وَمُحْدِثِينَ؛ حَتَّىٰ تَعَاظَمَ ذَلِكَ فِي صُدُورِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَتَّىٰ سَالَ الْوَادِي، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَمَلَئُوا الْأَسْقِيَةَ، وَسَقَوُا الرِّكَابَ، وَاغْتَسَلُوا مِنَ الْجَنَابَةِ، فَجَعَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ طَهُورًا، وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ رَمْلَةٌ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا مَطَرًا، فَضَرَبَهَا حَتَّىٰ اشْتَدَّتْ، وَثَبَتَتْ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ».

◉◉◉

ضَابِطُ المَكِّيِّ وَالمَدَنِيِّ

* **الْأَصْلُ الثَّانِي**: الْعِلْمُ بِمَكَانِ النُّزُولِ، وَأَثَرُهُ فِي فِهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ.

الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْأَصْلِ: مَعْرِفَةُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ.

وَعِلْمُ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ: عِلْمٌ يَتَتَبَّعُ أَمَاكِنَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَيُحَدِّدُ هُوِيَّةَ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ؛ مِنْ حَيْثُ: هَلْ نَزَلَتْ فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ، أَوِ الْمَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ؟

وَاخْتَلَفَتْ وِجْهَاتُ نَظَرِ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْرِيفِ هَذَا الْعِلْمِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ اعْتِبَارَاتٍ:

فَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ زَمَنَ النُّزُولِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ الْمُخَاطَبَ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَبَرَ مَكَانَ النُّزُولِ.

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَحْصُورٍ وَلَا مُطَّرِدٍ؛ فَلْنَأْخُذِ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ فِي ضَابِطِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ، وَهُوَ اعْتِبَارُ زَمَنِ النُّزُولِ، فَهَذَا حَاصِرٌ، وَضَابِطٌ، وَمُطَّرِدٌ.

وَكُلُّ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ مَدَنِيٌّ؛ سَوَاءٌ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، أَوْ فِي سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ، أَوْ بِمَكَّةَ، وَإِنَّمَا يُوسَمُ بِالْمَكِّيِّ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ.

هَذَا أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الزَّرْكَشِيُّ وَالسُّيُوطِيُّ.

لَقَدْ أَبْدَىٰ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم اهْتِمَامًا بَالِغًا بِتَتَبُّعِ أَمَاكِنِ نُزُولِ الْقُرْآنِ؛ لِمَا لِمَعْرِفَةِ مَرْحَلَةِ نُزُولِ السُّورَةِ أَوِ الْآيَةِ مِنْ أَثَرٍ فِي فَهْمِهَا، وَفِي مَوْضُوعِ التَّعَامُلِ مَعَ الْآيَاتِ

الْوَارِدَةِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ مُخْتَلِفًا عَنْ طَرِيقِ النَّسْخِ عِنْدَ عَدَمِ إِمْكَانِيَّةِ الْجَمْعِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَمَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ؛ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

قَالَ مَكِّيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ الْمَكِّيَّ مِنَ السُّوَرِ، وَالْمَدَنِيَّ؛ فَذَلِكَ مِمَّا يُقَوِّي الْفَهْمَ فِي مَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ».

فَهَذَا أَيْضًا لَهُ أَثَرُهُ فِي فَهْمِ مَعْنَى الْآيَةِ وَمَدْلُولِهَا.

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، يَعْتَمِدُ عَلَى مَوْضُوعِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ فِي تَصْحِيحِ فَهْمِ آيَةٍ، فِي بَيَانِ الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، قَالَ: «قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟

قَالَ: هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ؟!

قَالَ: وَكَانَ يَقْرَؤُهُ: ﴿وَمِنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، يَقُولُ: مِنْ عِنْدِ اللهِ».

وَعِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، رَفَضَ الْقُرْطُبِيُّ تَفْسِيرَهَا بِمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ؛ اعْتِمَادًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ

مَكِّيَّةٌ، فيَقُولُ: قِيلَ: ﴿فَصَّلَ﴾ أَيْ: بَيَّنَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «هَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّ الْأَنْعَامَ مَكِّيَّةٌ، وَأَمَّا الْمَائِدَةُ فَمَدَنِيَّةٌ. فَكَيْفَ يُحِيلُ بِالْبَيَانِ عَلَىٰ مَا لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ؟!».

وَمِنْ هُنَا لَا بُدَّ مِنَ التَّأْكِيدِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ تَجَاهَلَ أَوْ تَعَمَّدَ فَصْلَ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَنْ ظُرُوفِ نُزُولِهِ، وَتَعَامَلَ مَعَهُ كَنَصٍّ مُجَرَّدٍ؛ أَنَّهُ سَوْفَ يَنْقَطِعُ دُونَ فَهْمِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَسَيَقَعُ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ الْخَطِيرَةِ.

وَيُعَدُّ هَذَا السِّيَاقُ الزَّمَنِيُّ التَّارِيخِيُّ مِنَ الْأُصُولِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ يَكْشِفُ اللِّثَامَ عَنْ بَعْضِ الْآيَاتِ.

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، هَذِهِ الْآيَةُ لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا دُونَ مَعْرِفَةِ عَادَةِ الْعَرَبِ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْهَا الْآيَةُ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَقُولُ: «نَحْنُ الْحُمْسُ أَهْلُ الْحَرَمِ، وَلَا نُفِيضُ مِنْ مُزْدَلِفَةَ»، فَأُمِرُوا أَنْ يَبْلُغُوا عَرَفَةَ.

جَاءَ هَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَتَادَةَ، وَالسُّدِّيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ يَحْتَاجُ فَهْمُهَا إِلَىٰ فَهْمِ عَادَاتِ الْعَرَبِ فِي الْحَجِّ، وَجَهْلُ هَذَا لَا يُمْكِنُ مَعَهُ فَهْمُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، مَا الْمَقْصُودُ بِ(النَّاسِ) هُنَا؟ وَمَا الْمَقْصُودُ بِالْحَيْثِيَّةِ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾؟ وَإِنَّمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ عَادَاتِ الْعَرَبِ وَأَحْوَالِهِمْ.

* **مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ**: أَنْ يَكُونَ بِأَدَبٍ، وَبِلَا تَكَلُّفٍ، وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ ﵃، وَكَذَا حَالُ التَّابِعِينَ -رَحِمَهُمُ اللهُ-، كَانَ تَدَبُّرُهُمْ لِلْقُرْآنِ أَعْظَمَ التَّدَبُّرِ وَأَعْلَاهُ، مُوَرِّثًا الْعَمَلَ وَالْإِيمَانَ وَالتَّأَثُّرَ بِلَا تَكَلُّفٍ.

وَقَدْ نَبَّهَ الْعُلَمَاءُ إِلَىٰ حَالِ بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ فَهِمُوا التَّدَبُّرَ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهِ؛ فَكَانَ تَدَبُّرُهُمْ صُرَاخًا وَعَوِيلًا وَتَكَلُّفًا، وَمِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُحَذِّرُ مِنْ ذَلِكَ:

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: «قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ ﷻ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ نَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؛ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ!

فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «سُئِلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ﵄: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَبْكُونَ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُمَحِيِّ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ سَاقِطًا، فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟

قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، أَوْ سَمِعَ ذِكْرَ اللهِ؛ سَقَطَ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَدْخُلُ فِي جَوْفِ أَحَدِهِمْ!! مَا كَانَ هَذَا صَنِيعَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: «جِئْتُ أَبِي، فَقَالَ لِي: أَيْنَ كُنْتَ؟

فَقُلْتُ: وَجَدْتُ قَوْمًا مَا رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْهُمْ قَطُّ، يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ، فَيُرْعَدُ وَاحِدُهُمْ حَتَّىٰ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ.

فَقَالَ: لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

قَالَ: فَرَآنِي وَكَأَنِّي لَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ فِيَّ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتْلُو الْقُرْآنَ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَتْلُوَانِ الْقُرْآنَ، فَلَا يُصِيبُهُمْ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ أَفَتَرَىٰ أَنَّهُمْ أَخْشَىٰ للهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؟!

قَالَ: فَرَأَيْتُ ذَلِكَ كَذَلِكَ».

وَقَالَ قَتَادَةُ -بَعْدَ أَنْ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]-: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ رَبِّهِمْ؛ وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ، وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَذُكِرَ عِنْدَ ابْنِ سِيرِينَ الَّذِينَ يُصْرَعُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، فَقَالَ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ ظَهْرِ بَيْتٍ بَاسِطًا رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَإِنْ رَمَىٰ بِنَفْسِهِ؛ فَهُوَ صَادِقٌ».

وَكَانَ جَوَّابٌ يُرْعَدُ عِنْدَ الذِّكْرِ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: «إِنْ كُنْتَ تَمْلِكُهُ؛ فَمَا أُبَالِي أَلَّا أَعْتَدَّ بِكَ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَمْلِكُهُ؛ فَقَدْ خَالَفْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «الْخَوْفُ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ؛ أَوْجَبَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ، فَلَا يَمْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَهُ، فَتَرَاهُ مُطْرِقًا مُتَأَدِّبًا مُتَذَلِّلًا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِ مَا يَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَأَمَّا الْمَذْمُومُ فَتَكَلُّفُهُ، وَالتَّبَاكِي، وَطَأْطَأَةُ الرَّأْسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ؛ لِيُرَوْا بِعَيْنِ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالِ، وَذَلِكَ مِنْ خُدَعِ الشَّيْطَانِ، وَتَسْوِيلٌ هُوَ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «فَهَذِهِ حَالَةُ الْعَارِفِينَ بِاللهِ، الْخَائِفِينَ مِنْ سَطْوَتِهِ وَعُقُوبَتِهِ، لَا كَمَا يَفْعَلُهُ جُهَّالُ الْعَوَامِّ وَالْمُبْتَدِعَةُ الطَّغَامُ؛ مِنَ الزَّعِيقِ وَالزَّئِيرِ، وَمِنَ النَّهِيقِ الَّذِي يُشْبِهُ نَهِيقَ الْحَمِيرِ!!

فَيُقَالُ لِمَنْ تَعَاطَىٰ ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ وَجْدٌ وَخُشُوعٌ: لَمْ تَبْلُغْ أَنْ تُسَاوِيَ حَالَ الرَّسُولِ، وَلَا حَالَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالتَّعْظِيمِ لِجَلَالِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَتْ حَالُهُمْ عِنْدَ الْمَوَاعِظِ الْفَهْمَ عَنِ اللهِ، وَالْبُكَاءَ خَوْفًا مِنَ اللهِ؛ وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِهِ، وَتِلَاوَةِ

كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ وَحِكَايَةُ مَقَالِهِمْ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ وَلَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ، وَمَنْ تَعَاطَىٰ أَحْوَالَ الْمَجَانِينِ وَالْجُنُونِ؛ فَهُوَ مِنْ أَخَسِّهِمْ حَالًا، وَالْجُنُونُ فُنُونٌ!!».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارَخُونَ، وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ وَالْأَدَبِ وَالْخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذلك؛ لِهَذَا فَازُوا بِالقِدْحِ المُعَلَّىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

هَذَا هُوَ الْمَنْهَجُ الْمَعْرُوفُ عَنْ مُجْمَلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ- فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَهُنَاكَ اسْتِثْنَاءَاتٌ مِنْ بَعْضِ السَّلَفِ نَبَّهَ عَلَيْهَا العُلَمَاءُ:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ مَغْلُوبًا عَلَيْهِ؛ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ؛ لِهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا؛ فقَالَ: «قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ،

فَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَدرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ؛ لَدَفعَهُ يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، فَمَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنْهُ»، وَنَحْوَ هَذَا.

وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ، وَعَلِيُّ بْنُ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ قِصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ؛ لَكِنَّ الْأَحْوَالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ: وَجَلُ الْقُلُوبِ، وَدَمْعُ الْعُيُونِ، وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ.

وَقَدْ يَذُمُّ حَالَ هَؤُلَاءِ مَنْ فِيهِ مِنْ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا، وَالْجَفَاءِ عَنِ الدِّينِ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، وَقَدْ فَعَلُوا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ حَالَهُمْ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ، وَأَتَمُّهَا، وَأَعْلَاهَا.

وَكِلَا طَرَفَيْ هَذِهِ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ، وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَزُلْ عَقْلُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَا حَصَلَ لَهُمْ أَوْ مِثْلُهُ أَوْ أَكْمَلُ مِنْهُ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَهَذِهِ حَالُ الصَّحَابَةِ ﵃، وَهُوَ حَالُ نَبِيِّنَا ﷺ؛ فَإِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَأَرَاهُ اللهُ مَا أَرَاهُ، وَأَصْبَحَ كَبَائِتٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَلَيْهِ.

وَمَنْ خَافَ اللهَ خَوْفًا مُقْتَصِدًا يَدْعُوهُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَتَرْكِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ؛ فَحَالُهُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ، وَهُوَ حَالُ الصَّحَابَةِ ﵃.

وَالصَّوَابُ لِلْمُسْلِمِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ خيرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَيرَ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ، وَأَنَّ أَفْضَلَ الطُّرُقِ وَالسُّبُلِ إِلَىٰ اللهِ: مَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ؛ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِمْ وَوُسْعِهِمْ».

* **وَمِنَ الْأُصُولِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: أَنَّ التَّدَبُّرَ يُورِثُ العَمَلَ؛ فَإِنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ لَا يَقِفُ بِالْمُؤْمِنِ عِنْدَ مُجَرَّدِ السَّمَاعِ وَالتَّأَثُّرِ، بَلْ يَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالِاسْتِجَابَةِ للهِ وَالرَّسُولِ ﷺ.

وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ؛ وَإِلَّا فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ يَقْتَضِي العَمَلَ بِهِ، وَالِانْقِيَادَ لِكُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُنْحَرِفِينَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]».

لَا شَكَّ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَتِيجَةُ الْإِيمَانِ بِهِ، وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ.

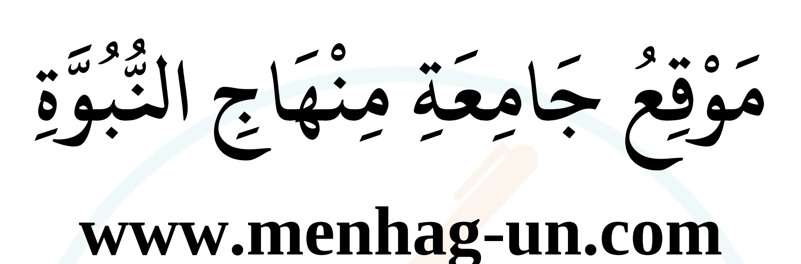
فَاللهَ اللهَ فِي كِتَابِ رَبِّكُمْ عِبَادَ اللهِ، أَقْبِلُوا عَلَيْهِ؛ بِإِقَامَةِ حُرُوفِهِ، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَالْإِحَاطَةِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ مِمَّا نَزَلَ بِهِ، مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَمَنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَىٰ ذُكْرٍ؛ نَفَعَهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِهِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ آخِرَ السُّورَةِ؛ فَقَلَّمَا يَتَدَبَّرُ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

وَاللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ الْمَانُّ وَحْدَهُ بِالْخَيْرِ كُلِّهِ، وَهُوَ الْهَادِي إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ، وَهُوَ رَبُّنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّابِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أَرْكَانُ تَدبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

فَإِنَّ التَّدَبُّرَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُ أَرْكَانٌ، هِيَ:

١- التَّفَكُّرُ وَالتَّفَهُّمُ لِمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ، وَالنَّظَرُ فِي عَاقِبَةِ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأُمُورُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَالِاعْتِبَارُ وَالِاتِّعَاظُ بِذَلِكَ، بِحَيْثُ يُتَوَصَّلُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حُكْمِ الْمُشَاهَدِ مِمَّا لَيْسَ بِمُشَاهَدٍ؛ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ، وَالتَّصْدِيقُ، وَالْمَعْرِفَةُ، وَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

٢- وَمِنْ أَرْكَانِهِ: حُصُولُ أَثَرِ ذَلِكَ الْإِيمَانِ عَلَىٰ الْجَوَارِحِ، وَبِدُونِ ذَلِكَ لَنْ يَحْصُلَ التَّدَبُّرُ الْأَمْثَلُ لِلْقُرْآنِ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ فَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ التَّدَبُّرَ الْأَمْثَلَ الْمَطْلُوبَ مِنَ الْمُسْلِمِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**».

وَرَوَاهُ أَبُو الْفَضْلِ الرَّازِيُّ فِي كِتَابِهِ «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»، وَزَادَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، طَيِّبَةِ الطَّعْمِ**». فَزَادَ لَفْظَةَ: «**وَيَعْمَلُ بِهِ**». وَهِيَ فِي مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، عَنِ الْقَاسِمِ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ رَيْحَانَةٍ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلَا طَعْمَ لَهَا، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالْقُرْآنِ وَلَا يَقْرَؤُهُ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا خَبِيثٌ وَرِيحُهَا خَبِيثٌ».

وَالتَّدَبُّرُ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ النَّظَرُ إِلَىٰ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابُ هِدَايَةٍ وَإِعْجَازٍ، وَقَدْ تَضَمَّنَ مَا فِيهِ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



المَقَاصِدُ الْعُظْمَى لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ يَدُورُ حَوْلَ ثَلَاثِ قَضَايَا أَسَاسٍ فِيهِ، وَهِيَ:

أَوَّلًا: تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ، وَأُمُورُ الْعَقِيدَةِ.

ثَانِيًا: تَقْرِيرُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

ثَالِثًا: ذِكْرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالسَّابِقِينَ، وَأَخْبَارِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَحْوَالِهِمْ مَعَ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﷺ.

وَالْمُسْلِمُ فِي قِرَاءَتِهِ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يَتَفَهَّمُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الْكَبِيرَةَ، وَيَسْتَفِيدُ مِمَّا فِيهَا نَاظِرًا، وَمُتَفَكِّرًا، وَمُتَّعِظًا، وَهَذَا سِرُّ خَتْمِ الْكَثِيرِ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا يُفِيدُ طَلَبَ التَّفَكُّرِ، وَالرُّشْدِ، وَالْعِبْرَةِ، وَالْعِظَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الصَّوَابِ.

❋ **فَمِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ، وَبَيَانِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ:**

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي

ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢١].

* وَفِي أُمُورِ الْعَقِيدَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

* وَفِي قَصَصِ السَّابِقِينَ:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

* وَفِي أَخْبَارِ مَنْ كَانَ وَقْتَ الدَّعْوَةِ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦].

وَعَمَّمَ فِي الْقُرْآنِ جَمِيعِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨].

وَيُلَاحَظُ أَنَّ بَعْضَ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ تَأْتِي مُمْتَزِجَةً، فَقَدْ تَأْتِي الْقِصَّةُ مُتَضَمِّنَةً بَيَانَ أَمْرِ الْعَقِيدَةِ، وَتُشِيرُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ إِلَىٰ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ، كَمَا فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي يُورِدُ الْفُقَهَاءُ فِيهَا مَا يُسَمِّيهِ الْأُصُولِيُّونَ: (شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا)، فَهُوَ شَرْعٌ لَنَا مَا لَمْ يَأْتِ فِي شَرْعِنَا مَا يُخَالِفُهُ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فَبِرِعَايَةِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الثَّلَاثَةِ -وَهِيَ مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ- عِنْدَ تِلَاوَةِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ؛ يَحْدُثُ التَّدَبُّرُ عَلَىٰ النَّحْوِ الْمَنْشُودِ.

◉ ◉ ◉

الْأُصُولُ الْمَنْهَجِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ

وَهُنَالِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أُصُولٌ مَنْهَجِيَّةٌ:

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: الِالْتِزَامُ بِالْحَقِيقَةِ فِي التَّفْسِيرِ؛ فَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُتَبَادَرَةُ إِلَىٰ الذِّهْنِ، وَلِأَنَّهَا مُرَادُ الْمُتَكَلِّمِ بِدَايَةً، وَأَيُّ خُرُوجٍ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُعَدُّ اسْتِثْنَاءً، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَرَائِنَ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ قَسَّمَ الْكَلَامَ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ، مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ هُوَ الْحَقِيقَةُ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَلَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَىٰ الْمَجَازِ، إِلَّا لِمَانِعٍ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَحَمْلُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ وَكَلَامِ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ أَوْلَىٰ بِذَوِي الدِّينِ وَالْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ يَقُصُّ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عُلُوًّا كَبِيرًا-».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ:

عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ عِدَّةَ أَقْوَالٍ فِي مَعْنَىٰ الْهُبُوطِ، وَمِنْهَا: أَنَّ هُبُوطَ مَا هَبَطَ مِنْهَا -أَيْ: مِنَ الْحِجَارَةِ- مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَفَيُّؤُ ظِلَالِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: ذَلِكَ الْجَبَلُ الَّذِي صَارَ دَكًّا إِذْ تَجَلَّىٰ لَهُ رَبُّهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ وَيَكُونُ؛ لِأَنَّ اللهَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَعْطَىٰ بَعْضَ الْحِجَارَةِ الْمَعْرِفَةَ وَالْفَهْمَ؛ فَعَقَلَ طَاعَةَ اللهِ؛ فَأَطَاعَهُ، كَالَّذِي رُوِيَ عَنِ الْجِذْعِ الَّذِي كَانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ، فَلَمَّا تَحَوَّلَ عَنِ الْجِذْعِ حَنَّ إِلَيْهِ.

وَكَالَّذِي رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ حَجَرًا كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**».

ثُمَّ قَالَ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ بَعِيدَاتِ الْمَعْنَىٰ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ مِنَ التَّأْوِيلِ؛ فَإِنَّ تَأْوِيلَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنْ عُلَمَاءِ سَلَفِ الْأُمَّةِ بِخِلَافِهَا؛ فَلِذَلِكَ لَمْ نَسْتَجِزْ صَرْفَ تَأْوِيلِ الْآيَةِ إِلَىٰ مَعْنًىٰ مِنْهَا.

وَمِثَالُ تَأْوِيلِ السَّلَفِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ:

مَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ حَجَرٍ يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْمَاءُ، أَوْ يَشَّقَّقُ عَنْ مَاءٍ، أَوْ يَتَرَدَّىٰ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ؛ فَهُوَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ، نَزَلَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ».

فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: الْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَحَتَّىٰ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ الْكَلَامَ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ؛ قَالُوا: إِنَّهُ لَا يُصْرَفُ الْكَلَامُ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَعَنْ حَقِيقَتِهِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا إِلَىٰ مَجَازِهِ إِلَّا بِقَرِينَةٍ.

فَالْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ: الْحَقِيقَةُ لَا الْمَجَازُ، فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ.

الْأَصْلُ الثَّانِي: الِالْتِزَامُ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ.

وَالْمُرَادُ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ: إِجْرَاءُ نُصُوصِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مِنَ الْمَعَانِي.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي «الْإِبَانَةِ»: «الْقُرْآنُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُزِيلَهُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَّا لِحُجَّةٍ، وَإِلَّا فَهُوَ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ».

وَقَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ: «وَقَدْ كَانَتِ الصَّحَابَةُ يَتَعَلَّقُونَ فِي تَفَاصِيلِ الشَّرْعِ بِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

يُؤَكِّدُ ذَلِكَ الشَّوْكَانِيُّ بِقَوْلِهِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الظَّاهِرَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ بِدَلِيلِ إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِظَوَاهِرِ الْأَلْفَاظِ».

وَقَرَّرَ الشِّنْقِيطِيُّ ذَلِكَ، فَقَالَ: «وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ -وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَامَّةُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ- أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْ ظَاهِرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، حَتَّىٰ يَقُومَ دَلِيلٌ صَحِيحٌ شَرْعِيٌّ صَارِفٌ عَنِ الظَّاهِرِ إِلَىٰ الْمُحْتَمَلِ الْمَرْجُوحِ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وَرَدَتْ أَقْوَالٌ عَنِ السَّلَفِ تُفَسِّرُ الْآيَةَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا:

قَالَ عِكْرِمَةُ: «لَا يَعِيبَنَّ أَحَدُكُمْ دَابَّتَهُ وَلَا ثَوْبَهُ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «الشَّجَرَةُ تُسَبِّحُ، وَالْأُسْطُوَانَةُ تُسَبِّحُ».

وَوَرَدَتْ بَعْضُ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ غَيْرِ ظَاهِرِهَا؛ مِثْلُ: إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ رُوحٌ يُسَبِّحُ، وَمَا لَا رُوحَ فِيهِ فَلَا يُسَبِّحُ.

وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّسْبِيحَ تَجَوُّزٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْدُو فِيهِ صَنْعَةُ الصَّانِعِ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ، فَتَدْعُو رُؤْيَةُ ذَلِكَ إِلَىٰ التَّسْبِيحِ مِنَ الْمُعْتَبِرِ.

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ خَالَفَتْ ظَاهِرَ الْآيَةِ؛ فَظَاهِرُ الْآيَةِ يُثْبِتُ التَّسْبِيحَ حَقِيقَةً لِكُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ: نَاطِقَةٍ أَوْ غَيْرِ نَاطِقَةٍ، مِنْ حَيَوَانَاتٍ أَوْ جَمَادَاتٍ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: «وَنِسْبَةُ التَّسْبِيحِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، مِنْ مَلَكٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ؛ حَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ النُّطْقِ بِالتَّسْبِيحِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ مَا لَا حَيَاةَ فِيهِ وَلَا نُمُوَّ يُحْدِثُ اللهُ لَهُ نُطْقًا، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ».

وَكَذَا قَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّحْقِيقُ: أَنَّ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَسْبِيحٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَجْعَلُ لَهَا إِدْرَاكَاتٍ تُسَبِّحُ بِهَا».

فَحَمْلُ الْكَلَامِ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ؛ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

وَأَمَّا مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ صَرْفِ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، بِحُجَّةِ تَنْزِيهِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ لَمْ يَقُلْ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ؛ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ كَثِيرٍ

مِنَ الْبَلِيَّاتِ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، حَتَّىٰ تَفَرَّقُوا، وَتَمَزَّقُوا، وَصَارُوا شِيَعًا، وَالْأَصْلُ أَنْ يُحْمَلَ الْكَلَامُ عَلَىٰ ظَاهِرِهِ.

الْأَصْلُ الثَّالِثُ: الْعِنَايَةُ بِالسِّيَاقِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَهَذَا الْأَصْلُ مِنَ الْأُصُولِ الْمَنْهَجِيَّةِ الْمُهِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ، وَإِدْخَالَ الْكَلَامِ فِي مَعَانِي مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، مُؤَثِّرٌ كَبِيرٌ فِي فَهْمِ الْآيَةِ، وَإِزَالَةِ اللَّبْسِ عَنْهَا، وَتَفْصِيلِ الْمُجْمَلِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ الدَّلَالَةَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ سِيَاقِهِ، وَمَا يَحُفُّ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ».

وَشَرَحَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- أَثَرَ السِّيَاقِ فِي فَهْمِ الْآيَةِ، فَقَالَ: «السِّيَاقُ يُرْشِدُ إِلَىٰ تَبْيِينِ الْمُجْمَلِ، وَتَعْيِينِ الْمُحْتَمَلِ، وَالْقَطْعِ بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ الْمُرَادِ، وَتَخْصِيصِ الْعَامِّ، وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ، وَتَنَوُّعِ الدَّلَالَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ، فَمَنْ أَهْمَلَهُ؛ غَلَطَ فِي نَظَرِهِ، وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِهِ، فَانْظُرْ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، كَيْفَ تَجِدُ سِيَاقَهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الذَّلِيلُ الْحَقِيرُ».

وَحَتَّىٰ فَهْمُ الْمُفْرَدَةِ اللُّغَوِيَّةِ؛ يَلْزَمُ فَهْمُهَا فِي ضَوْءِ السِّيَاقِ:

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: «وَطَرِيقُ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ فَهْمِهِ: النَّظَرُ إِلَىٰ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ وَمَدْلُولَاتِهَا، وَاسْتِعْمَالِهَا بِحَسَبِ السِّيَاقِ، وَهَذَا يَعْتَنِي بِهِ الرَّاغِبُ

كَثِيرًا فِي كِتَابِه «الْمُفْرَدَاتِ»، فَيَذْكُرُ قَيْدًا زَائِدًا عَلَىٰ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّهُ اقْتَنَصَهُ مِنَ السِّيَاقِ».

وَيُؤَكِّدُ تَمَيُّزَ الرَّاغِبِ فِي «مُفْرَدَاتِهِ» بِسَبَبِ اسْتِعَانَتِهِ بِالسِّيَاقِ فِي فَهْمِ الْغَرِيبِ، فَيَقُول: «وَمِنْ أَحْسَنِهَا: كِتَابُ «الْمُفْرَدَاتِ» لِلرَّاغِبِ، وَهُوَ يَتَصَيَّدُ مِنَ السِّيَاقِ؛ لِأَنَّ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ خَاصَّةٌ».

مِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ: عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنِي بِالنِّعْمَةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهَا، ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ، عَرَفُوا نُبُوَّتَهُ، ثُمَّ جَحَدُوهَا وَكَذَّبُوهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَا عَدَّدَ اللهُ -تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ- فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ النِّعَمِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْعِمُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا: أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: لَوْلَا فُلَانٌ مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلَا فُلَانٌ مَا أَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ رَزَقَكُمْ؟ أَقَرُّوا بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي رَزَقَهُمْ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: رُزِقْنَا ذَلِكَ بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

وَأَوْلَىٰ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، وَأَشْبَهُهَا بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ: قَوْلُ مَنْ قَالَ: عَنَىٰ بِالنِّعْمَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، دَاعِيًا إِلَىٰ مَا بَعَثَهُ بِدُعَائِهِمْ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ آيَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا خَبَرٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَمَّا بُعِثَ بِهِ، فَأَوْلَىٰ بِمَا بَيْنَهُمَا: أَنْ يَكُونَ فِي مَعْنَىٰ مَا قَبْلَهُ، وَفِي مَعْنَىٰ مَا بَعْدَهُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعْنًىٰ يَدُلُّ عَلَىٰ انْصِرَافِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَعَمَّا بَعْدَهُ.

فَالَّذِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٢]، وَمَا بَعْدَهُ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٤]، وَهُوَ رَسُولُهَا.

فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِكَ، ثُمَّ يُنْكِرُونَكَ، وَيَجْحَدُونَ نُبُوَّتَكَ، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يَقُولُ: وَأَكْثَرُ قَوْمِكَ الْجَاحِدُونَ نُبُوَّتَكَ، لَا الْمُقِرُّونَ لَهَا».

فَانْظُرْ كَيْفَ أَدَّىٰ النَّظَرُ فِي السِّيَاقِ إِلَىٰ الْحُصُولِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ الْمَطْلُوبِ، كَمَا اسْتَظْهَرَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ هَذَا عِنْدَ التَّدَبُّرِ وَالنَّظَرِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ لِأَنَّ التَّدَبُّرَ هُوَ: التَّفَكُّرُ الشَّامِلُ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَىٰ أَوَاخِرِ دَلَالَاتِ الْكَلِمِ وَمَرَامِيهِ الْبَعِيدَةِ.

فَمَعْنَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: هُوَ التَّفَكُّرُ وَالتَّأَمُّلُ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ؛ مِنْ أَجْلِ فَهْمِهِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهِ، وَحِكَمِهِ، وَالْمُرَادِ مِنْهُ.

●●●



عَلَامَاتُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَأَمَّا **عَلَامَاتُ التَّدَبُّرِ**: فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ، عَلَامَاتٍ وَصِفَاتٍ تَصِفُ حَقِيقَةَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَتُوَضِّحُهُ بِجَلَاءٍ، مِنْ ذَلِكَ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

*** يَتَحَصَّلُ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ سَبْعُ عَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ وُقُوعِ التَّدَبُّرِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، وَهَذِهِ الْعَلَامَاتُ هِيَ:**

١- اجْتِمَاعُ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ حِينَ الْقِرَاءَةِ، وَدَلِيلُهُ: التَّوَقُّفُ تَعَجُّبًا وَتَعْظِيمًا.

٢- **وَمِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ**: الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.

٣- **وَمِنْهَا**: زِيَادَةُ الْخُشُوعِ.

٤- **وَمِنْهَا**: زِيَادَةُ الْإِيمَانِ، وَدَلِيلُهُ: التَّكْرَارُ الْعَفْوِيُّ لِلْآيَاتِ.

٥- **وَمِنْهَا**: الْفَرَحُ وَالِاسْتِبْشَارُ.

٦- **وَمِنْهَا**: الْقُشْعَرِيرَةُ خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ غَلَبَةُ الرَّجَاءِ وَالسَّكِينَةِ.

٧- **وَآخِرُ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ**: السُّجُودُ تَعْظِيمًا للهِ ﷻ.

فَمَنْ وَجَدَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرَ؛ فَقَدْ وَصَلَ إِلَىٰ حَالَةِ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يُحَصِّلْ أَيًّا مِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ؛ فَهُوَ مَحْرُومٌ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ كُنُوزِهِ وَذَخَائِرِهِ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ؛ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَعتَ الْعُلَمَاءَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فَمَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ؛ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا.

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَتْ**: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ».

وَكُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيْكَ وَلَا يَكُونُ لَكَ نَصِيبٌ وَرِزْقٌ مِنْ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ؛ فَقَدْ فَاتَكَ فِيهِ رِبْحٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ يَوْمٌ حَرِيٌّ أَنْ يُبْكَىٰ عَلَىٰ خَسَارَتِهِ.

●●●

وَهْمُ اعْتِقَادِ الْبَعْضِ صُعُوبَةَ فَهْمِ الْقُرْآنِ!!

وَمِمَّا يَصْرِفُ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَتَذَكُّرِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ: اعْتِقَادُهُمْ صُعُوبَةَ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا خَطَأٌ فِي مَفْهُومِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَانْصِرَافٌ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُنْزِلَ، فَالْقُرْآنُ كِتَابُ تَرْبِيَةٍ وَتَعْلِيمٍ، وَكِتَابُ هِدَايَةٍ وَبَصَائِرَ لِكُلِّ النَّاسِ، كِتَابُ هُدًى وَرَحْمَةٍ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ، كِتَابٌ قَدْ يَسَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيرُهُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْهُدَىٰ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدَبُّرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ تَوَرُّعًا!!».

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَمِنْ حَيْثُ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا، أَفْحَمَ الْفُصَحَاءَ، وَأَعْجَزَ الْبُلَغَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَارِيًا عَلَىٰ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، مُيَسَّرًا لِلْفَهْمِ فِيهِ عَنِ اللهِ؛ مَا أَمَرَ بِهِ، وَنَهَىٰ عَنْهُ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ قَالَ: إِنَّ لِلْقُرْآنِ تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ، وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنْهُ حَرَجٌ».

وَقَالَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ يَفْهَمُ مَعْنَاهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ ﴿مَا﴾: كَلِمَةُ شَرْطٍ، وَ﴿تُقَدِّمُوا۟﴾: مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ شَرْطُهَا، وَ﴿تَجِدُوهُ﴾: مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ جَزَاؤُهَا.

فَهُوَ يَفْهَمُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، مَعْنَىٰ الآيَةِ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾.

قَالَ: فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي خَصَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِالْمَنْعِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَفَهْمِ تَرَاكِيبِهَا وَمَبَانِيهَا؛ حَتَّىٰ جُعِلَتْ كَالْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا تَرْدِيدُ أَلْفَاظِهَا وَحُرُوفِهَا».

الصَّحِيحُ وَالْحَقُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْظَمُهُ وَاضِحٌ، وَبَيِّنٌ، وَظَاهِرٌ لِكُلِّ النَّاسِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

وَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ مِنَ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ؛ فَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ مِنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ.

إِنَّ عَدَدَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ فِي الْقُرْآنِ: خَمْسُ مِئَةِ آيَةٍ، وَعَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ: سِتٌّ وَثَلَاثُونَ وَمِئَتَانِ وَسِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ.

إِنَّ فَهْمَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ لَا يُشْتَرَطُ لَهُ فَهْمُ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّقِيقَةِ؛ مِنْ نَحْوِيَّةٍ، وَبَلَاغِيَّةٍ، وَأُصُولِيَّةٍ، وَفِقْهِيَّةٍ.

فَمُعْظَمُ الْقُرْآنِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، يُدْرِكُ مَعْنَاهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَالِمُ وَالْأُمِّيُّ؛ فَحِينَمَا سَمِعَ الْأَعْرَابِيُّ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]؛ قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ أَقْسَمَ.

وَحِينَمَا أَخْطَأَ إِمَامٌ فِي قِرَاءَةِ آيَةٍ؛ نَحْوَ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، قَرَأَهَا: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ ..﴾ (تَحْتِهِمْ) صَوَّبَ لَهُ خَطَأَهُ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ.

إِنَّ الْقُرْآنَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ؛ وَفَهْمُهُ وَفِقْهُهُ وَتَدَبُّرُهُ لَيْسَ صَعْبًا بِحَيْثُ نُغْلِقُ عُقُولَنَا، وَنُعَلِّقُ فَهْمَهُ كُلَّهَ بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، فَنُعَمِّمُ حُكْمَ الْأَقَلِّ عَلَىٰ الْكُلِّ؛ فَهَذَا مَفْهُومٌ خَاطِئٌ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّسْوِيفِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ.

إِنَّ إِغْلَاقَ عُقُولِنَا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ بِحُجَّةِ عَدَمِ مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِهِ، وَالِاكْتِفَاءَ بِقِرَاءَةِ أَلْفَاظِهِ مَدْخَلٌ مِنْ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ الْعَبْدِ؛ لِيَصْرِفَهُ عَنْ الِاهْتِدَاءِ بِالْقُرْآنِ.

وَإِذَا سَلَّمْنَا بِهَذِهِ الْحُجَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ، وَالْمَنْطِقَ، وَالْحَزْمَ، وَالْحِكْمَةَ: أَنَّكَ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ مَعْنَىٰ آيَةٍ، أَنْ تُبَادِرَ وَتُسَارِعَ لِلْبَحْثِ عَنْ مَعْنَاهَا، وَالْمُرَادِ بِهَا، لَا أَنْ تُغْلِقَ عَقْلَكَ؛ فَتَقْرَأَ دُونَ تَدَبُّرٍ، أَوْ أَنْ تَتْرُكَ الْقِرَاءَةَ.

وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ الْخَاطِئَ صَارَ مُسَيْطِرًا عَلَىٰ مُعْظَمِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْقُرْآنِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا عَلَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُحَصِّلُ عِنْدَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْهِدَايَةِ وَلَا التَّأْثِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ عَدِمُوا الْفَهْمَ فِيهِ.

وَقَدْ تَسَلَّلَ إِلَىٰ نُفُوسِهِمُ اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ خَاطِئٌ: أَنَّ فَهْمَهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُتَخَصِّصِينَ بِالنَّظَرِ فِي عُلُومِ اللُّغَةِ وَعُلُومِ الشَّرِيعَةِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ -كَمَا مَرَّ فِي أَنْحَاءِ التَّفْسِيرِ-، مِنْهُ: مَا يُعْلَمُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، وَمِنْهُ: مَا لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ؛ لِذَلِكَ تَجِدُ الْعَامِّيَّ الْأُمِّيَّ -الَّذِي لَمْ يَثْنِ رُكْبَتَيْهِ فِي مَجَالِسِ التَّعْلِيمِ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالْعِلْمِ، وَلَا بِالْبَحْثِ عَنْهُ، وَإِنَّمَا آتَاهُ اللهُ فِطْرَةً سَوِيَّةً- إِذَا مَا سَمِعَ آيَاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ فَهِمَ كَثِيرًا مِنَ الْمُرَادِ، وَأَحْدَثَ عِنْدَهُ خُشُوعًا وَتَأْثِيرًا وَخَشْيَةً.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ بِفِطْرَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ، يُجْرُونَ ظَوَاهِرَ نُصُوصِ الصِّفَاتِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا؛ فَهُمْ فِي هَذَا أَمْكَنُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَالْمُؤَوِّلَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ، الَّذِينَ حَفِظُوا مَا حَفِظُوهُ مِنَ الْمُتُونِ، وَقَرَءُوا عَلَىٰ تِلْكَ الْمُتُونِ مَا قَرَءُوهُ مِنَ الشُّرُوحِ وَالْحَوَاشِي، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ بِكُلِّ مَرْذُولٍ بَغِيضٍ؛ حَتَّىٰ تَأَوَّلُوا فِي كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَصَرَفُوهُ عَنْ ظَاهِرِهِ؛ فَحَرَّفُوهُ، وَعَطَّلُوا اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ.

فَتَجِدُ الْعَامِّيَّ الَّذِي لَمْ يُحَصِّلْ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي حَصَّلُوهُ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَإِنَّمَا آتَاهُ اللهُ فِطْرَةً سَوِيَّةً نَقِيَّةً؛ إِذَا قُلْتَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟

قَالَ لَكَ: الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ.

إِذَا قُلْتَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٦٤]؟

قَالَ لَكَ: مَعْنَاهُ: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ.

فَيُجْرِي هَذِهِ النُّصُوصَ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَلَا تُحْدِثُ عِنْدَهُ خَلَلًا فِي اعْتِقَادِهِ وَلَا تَصَوُّرِهِ، وَلَا يَقُولُ: إِنَّنَا إِنْ أَثْبَتْنَا ذَلِكَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَفَوَّضْنَا كَيْفِيَّتَهُ إِلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ نَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ شَبَّهْنَا اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بِخَلْقِهِ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نُصْلِحَ هَذَا الْخَطَأَ، وَأَنْ نَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْمَفْهُومِ الْمَغْلُوطِ، وَأَنْ نُنْشِئَ عَلَاقَةً مَعَ كِتَابِ اللهِ (ج).

أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ: فَلَا شَكَّ أَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ مَا هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنَ الدَّقَائِقِ وَالدَّلَائِلِ؛ فَذَلِكَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ عَالِمُهُ، فَنَكِلُهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

وَأَمَّا النَّظَرُ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِلتَّدَبُّرِ وَالتَّبَصُّرِ، وَالتَّعَقُّلِ وَالتَّفَهُّمِ: فَهَذَا -كَمَا مَرَّ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ- وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ.

فَوَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَدَبَّرَ فِي آيَاتِ كِتَابِ رَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، عَسَىٰ اللهُ جَلَّوَعَلَا أَنْ يَجْعَلَ لِذَلِكَ مَرْدُودًا حَسَنًا فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ، وَعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ؛ فَيُهَذِّبُهُ

الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَيُصَفِّي مَا فِيهِ مِنَ الْأَكْدَارِ، وَيُنَقِّي مَا فِيهِ مِنَ الْأَدْرَانِ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ كَمَا أَرَادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْمُسْلِمِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ.

◉ ◉ ◉

كَيْفِيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَعَنْ كَيْفِيَّةِ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِي الْقُرْآنِ؛ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَتَدَبُّرُ الْكَلَامِ: أَنْ يُنْظَرَ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، ثُمَّ يُعِيدَ نَظَرَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ وَلِهَذَا جَاءَ عَلَىٰ بِنَاءِ (التَّفَعُّلِ)، -أَيِ: التَّدَبُّرِ-؛ كَالتَّجَرُّعِ، وَالتَّفَهُّمِ، وَالتَّبَيُّنِ.

وَيُسَمَّىٰ: اسْتِبْصَارًا، وَهُوَ (اسْتِفْعَالٌ) مِنَ التَّبَصُّرِ، وَهُوَ تَبَيُّنُ الْأَمْرِ وَانْكِشَافُهُ، وَتَجَلِّيهِ لِلْبَصِيرَةِ؛ وَكُلٌّ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالتَّفَكُّرِ لَهُ فَائِدَةٌ سِوَىٰ فَائِدَةِ الْآخَرِ:

فَالتَّذَكُّرُ: يُفِيدُ تَكْرَارَ الْقَلْبِ عَلَىٰ مَا عَلِمَهُ وَعَرَفَهُ؛ لِيَرْسَخَ فِيهِ، وَيَثْبُتَ، وَلَا يَمَّحِي، فَيَذْهَبَ أَثَرُهُ مِنَ الْقَلْبِ جُمْلَةً.

وَالتَّفَكُّرُ: يُفِيدُ تَكْثِيرَ الْعِلْمِ، وَاسْتِجْلَابَ مَا لَيْسَ حَاصِلًا عِنْدَ الْقَلْبِ.

فَالتَّفَكُّرُ يُحَصِّلُهُ، وَالتَّذَكُّرُ يَحْفَظُهُ؛ لِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ: «مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ؛ حَتَّىٰ نَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ».

فَالتَّفَكُّرُ وَالتَّذَكُّرُ: بِذَارُ الْعِلْمِ، وَسَقْيُهُ: مُطَارَحَتُهُ، وَمُذَاكَرَتُهُ: تَلْقِيحُهُ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مُلَاقَاةُ الرِّجَالِ تَلْقِيحٌ لِأَلْبَابِهَا»..». انْتَهَىٰ كَلَامُ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ.

وَمَا ذَكَرَهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- هُوَ مُقْتَضَىٰ كَلَامِ أَهْلِ اللُّغَةِ.

قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ رَحِمَهُ اللهُ: «دَبَّرَ الْأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ. وَاسْتَدْبَرَهُ: رَأَىٰ فِي عَاقِبَتِهِ مَا لَمْ يَرَ فِي صَدْرِهِ، وَعَرَفَ الْأَمْرَ تَدَبُّرًا: أَيْ بِأَخَرَةٍ».

وَقَالَ الْفَيُّومِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَدَبَّرْتُ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا: فَعَلْتُهُ عَنْ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ، وَتَدَبَّرْتُهُ تَدَبُّرًا: نَظَرْتُ فِي دُبُرِهِ، وَهُوَ عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ».

إِنَّ طَرِيقَ التَّأَثُّرِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: هُوَ التَّدَبُّرُ لِمَعَانِيهِ، وَإِدْرَاكُ مَرَامِيهِ، وَاسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ؛ فَيَتَأَثَّرُ الْقَلْبُ بِآثَارٍ مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْآيَاتِ، فَيَكُونُ لَهُ بِحَسَبِ كُلِّ فَهْمٍ حَالٌ؛ مِنَ الْحُزْنِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَغَيْرِهِ:

فَعِنْدَ الْوَعِيدِ وَتَقْيِيدِ الْمَغْفِرَةِ بِالشُّرُوطِ: يَتَضَاءَلُ مِنْ خِيفَتِهِ، كَأَنَّهُ يَكَادُ يَمُوتُ.

وَعِنْدَ التَّوَسُّعِ وَوَعْدِ الْمَغْفِرَةِ: يَسْتَبْشِرُ، كَأَنَّهُ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ.

وَعِنْدَ ذِكْرِ اللهِ وَصِفَاتِهِ: يَتَطَأْطَأُ؛ خُضُوعًا لِجَلَالِهِ، وَاسْتِشْعَارًا لِعَظَمَتِهِ.

وَعِنْدَ وَصْفِ الْجَنَّةِ: يَنْبَعِثُ بِبَاطِنِهِ شَوْقًا لَهَا.

وَعِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ: تَرْتَعِدُ فَرَائِصُهُ خَوْفًا مِنْهَا.

قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَاللهِ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَبْدٌ يَتْلُو الْقُرْآنَ يُؤْمِنُ بِهِ؛ إِلَّا كَثُرَ حُزْنُهُ، وَقَلَّ فَرَحُهُ، وَكَثُرَ بُكَاؤُهُ، وَقَلَّ ضَحِكُهُ، وَكَثُرَ نَصِيبُهُ وَشُغْلُهُ، وَقَلَّتْ رَاحَتُهُ وَبَطَالَتُهُ».

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتَحَدِّثًا عَنْ كَيْفِيَّةِ الْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: «أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِالتَّفَكُّرِ فِي مَعْنَىٰ مَا يَلْفِظُ بِهِ وَيَتْلُوهُ؛ فَيَعْرِفَ مَعْنَىٰ كُلِّ آيَةٍ، وَيَتَأَمَّلَ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ، وَيَعْتَقِدَ قَبُولَ ذَلِكَ.

فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ؛ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، أَوْ عَذَابٍ؛ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، أَوْ تَنْزِيهٍ؛ نَزَّهَ وَعَظَّمَ، أَوْ دُعَاءٍ؛ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ».

وَقَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَنْبَغِي أَنْ يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ فِي التَّفْكِيرِ فِي مَعْنَىٰ مَا يَلْفِظُ بِلِسَانِهِ، فَيَعْرِفَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ مَعْنَاهَا، وَلَا يُجَاوِزُهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعْنَاهَا.

فَإِذَا مَرَّ بِهِ آيَةُ رَحْمَةٍ؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَفَرِحَ بِمَا وَعَدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهَا، وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ، وَسَأَلَ اللهَ بِرَحْمَتِهِ الْجَنَّةَ.

وَإِنْ قَرَأَ آيَةَ عَذَابٍ؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَتَأَمَّلَ مَعْنَاهَا، فَإِنْ كَانَتْ فِي الْكَافِرِينَ؛ اعْتَرَفَ بِالْإِيمَانِ، فَقَالَ: آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَعَرَفَ مَوْضِعَ التَّخْوِيفِ، ثُمَّ سَأَلَ اللهَ أَنْ يُعِيذَهُ مِنَ النَّارِ.

وَإِنْ هُوَ مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا نِدَاءٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ وَقَفَ عِنْدَهَا، وَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: «لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ»، وَيَتَأَمَّلُ مَا بَعْدَهَا مِمَّا أُمِرَ بِهِ وَنُهِيَ عَنْهُ، فَيَعْتَقِدُ قَبُولَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَذَرَ عَنْ فِعْلِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ فِي تَقْصِيرِهِ، وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

وَعَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَمْرِ أَهْلِهِ: فِي صَلَاتِهِمْ وَصِيَامِهِمْ، وَأَدَاءِ مَا يَلْزَمُهُمْ فِي طَهَارَاتِهِمْ وَجَنَابَاتِهِمْ، وَفِي حَيْضِ النِّسَاءِ وَنِفَاسِهِنَّ.

وَعَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَقَّدَ ذَلِكَ فِي أَهْلِهِ، وَأَنْ يُرَاعِيَهُمْ بِمَسْأَلَتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُحْسِنُ ذَلِكَ؛ كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ؛ تَذْكِيرًا لَهُ، وَتَأْكِيدًا لِمَا فِي قَلْبِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُحْسِنُ؛ كَانَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لَهُ.

ثُمَّ هَكَذَا يُرَاعِي صِغَارَ وَلَدِهِ، وَيُعَلِّمُهُمْ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيَ سِنِينَ، وَيَضْرِبُهُمْ إِذَا بَلَغُوا الْعَشْرَ عَلَىٰ تَرْكِ ذَلِكَ.

فَمَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ قَدْ قَصَّرَ فِيمَا مَضَىٰ؛ اعْتَقَدَ قَبُولَهُ وَالْأَخْذَ بِهِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، وَإِنْ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ عَرَفَهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا مَرَّ بِهِ تَأَمَّلَهُ وَتَفَهَّمَهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، فَإِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ تَذَكَّرَ أَفْعَالَهُ فِي نَفْسِهِ، وَذُنُوبَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ؛ مِنَ الظُّلَامَاتِ، وَالْغِيبَةِ، وَغَيْرِهَا، وَرَدَّ ظُلَامَتَهُ، وَاسْتَغْفَرَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ قَصَّرَ فِي عَمَلِهِ،

وَنَوَىٰ أَنْ يَقُومَ بِذَلِكَ، وَيَسْتَحِلُّ كُلَّ مَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الظُّلَامَاتِ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ حَاضِرًا، وَأَنْ يَكْتُبَ إِلَىٰ مَنْ كَانَ غَائِبًا، وَأَنْ يَرُدَّ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَهُ مِنْهُ.

فَيَعْتَقِدُ هَذَا فِي وَقْتِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ حَتَّىٰ يَعْلَمَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ وَأَطَاعَ، فَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ هَذَا؛ كَانَ قَدْ قَامَ بِكَمَالِ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

بِهَذَا التَّدَبُّرِ تَفِيضُ الْعَيْنُ مِنَ الدَّمْعِ، وَيَوْجَلُ الْقَلْبُ، وَيَقْشَعِرُّ الْجِلْدُ؛ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ، وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَتَأَمَّلْ هَذَا الشَّاهِدَ؛ لِتَقِفَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَمَثَّلُهَا، وَيَتَخَلَّقُ بِهَا:

فَعَنْ حُذَيْفَةَ -فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»-، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ

عِمْرَانَ، فقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ﷺ..». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

كُلَّمَا ازْدَادَ الْإِنْسَانُ تَأَمُّلًا فِي الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرًا؛ ازْدَادَ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَتَبَصُّرًا وَتَذَكُّرًا، وَهَذَا هُوَ مَقْصُودُ الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَكَانَ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- قَدْ تَعَرَّضَ لِأَذًىٰ عَظِيمٍ، فَسُجِنَ، وَضُرِبَ، ثُمَّ نَرَاهُ يَعْفُو عَنْ جَمِيعِ مَنْ ظَلَمَهُ، حِينَ تَدبُّرِهِ لِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ!

فَهَذَا ابْنُهُ صَالِحٌ يَحْكِي عَنْهُ أَنَّهُ حِينَ خُلِّيَ عَنْهُ، فَصَارَ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ، وَوُجِّهَ إِلَىٰ الْمُطْبِقِ -وَهُوَ السِّجْنُ تَحْتَ الْأَرْضِ- فَجِيءَ بِرَجُلٍ مِمَّنْ يُبْصِرُ الضَّرْبَ وَالْعِلَاجَ، فَنَظَرَ إِلَىٰ ضَرْبِهِ، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ؛ مَا رَأَيْتُ ضَرْبًا مِثْلَ هَذَا!!

لَقَدْ جُرَّ عَلَيْهِ مِنْ خَلْفِهِ وَمِنْ قُدَّامِهِ، ثُمَّ أَخَذَ مِيلًا -وَهُوَ: الْمِيلُ الْجِرَاحِيُّ، كَالْمِسْبَارِ-، فَأَدْخَلَهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْجِرَاحَاتِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لم يُنْقَبْ، وَجَعَلَ يَأْتِيهِ وَيُعَالِجُهُ، وَكَانَ قَدْ أَصَابَ وَجْهَهُ غَيْرُ ضَرْبَةٍ، وَمَكَثَ مُنْكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ كَمْ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا شَيْئًا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَهُ، فَجَاءَ بِحَدِيدَةٍ، فَجَعَلَ يُعَلِّقُ اللَّحْمَ بِهَا، فَيَقْطَعُهُ بِسِكِّينٍ مَعَهُ، وَهُوَ صَابِرٌ لِذَلِكَ، يَجْهَرُ بِحَمْدِ اللهِ فِي ذَلِكَ، فَبَرَأَ مِنْهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ، وَكَانَ أَثَرُ الضَّرْبِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِهِ إِلَىٰ أَنْ تُوفِّيَ.

قَالَ صَالِحٌ: وَدَخَلْتُ يَوْمًا، فَقُلْتُ لَهُ -يَعْنِي: لِأَبِيهِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ-: بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَيْكَ، فَقَالَ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ؛ إِذْ لَمْ أَقُمْ بِنُصْرَتِكَ، فَقُلْ: لَا أَجْعَلُ أَحَدًا فِي حِلٍّ.

فَتَبَسَّمَ أَبِي، وَسَكَتَ!

وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: لَقَدْ جَعَلْتُ الْمَيِّتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَرْبِهِ إِيَّايَ.

ثُمَّ قَالَ: مَرَرْتُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فَنَظَرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا، فَإِذَا هُوَ مَا أَخْبَرَنَا هَاشِمُ بنُ الْقَاسِمِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ الْحَسَنَ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، جَثَتِ الْأُمَمُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ نُودِيَ: أَلَّا يَقُومَ إِلَّا مَنْ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَجَعَلْتُ الْمَيِّتَ فِي حِلٍّ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَلَىٰ رَجُلٍ أَلَّا يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا؟!!».

مَتَىٰ تَدَبَّرَ الْمُؤْمِنُ الْقُرْآنَ حَقَّ تَدَبُّرِهِ؛ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ تَنْزِيلَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَىٰ الْحَوَادِثِ النَّازِلَةِ، وَالْوَقَائِعِ الْمُسْتَجَدَّةِ.

إِذَنْ؛ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتعَلَّمَ كَيْفَ نَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْ خِلَالِ طَرِيقَيْنِ: عِلْمِيٍّ، وَعَمَلِيٍّ.

فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْعِلْمِيُّ: فَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أَنْ يَعْرِفَ الْمُسْلِمُ قِيمَةَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَعِظَمَ مَكَانَتِهِ، وَكَثْرَةَ فَوَائِدِهِ، وَأَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ سَبِيلٌ إِلَىٰ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَطَرِيقٌ إِلَىٰ حَيَاةِ الْقُلُوبِ.

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَىٰ ... فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، وَخَلَاءُ الْبَطْنِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ.

إِنَّ الْمَحْرُومَ حَقَّ الْمَحْرُومِ: مَنْ حُرِمَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَأُغْلِقَ عَلَيْهِ فَهْمُ آيَاتِهِ، وَمَعْرِفَةُ مَعَانِيهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ مَعَهَا».

تَفَكَّرَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ فِي مَثَلٍ مِنْ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ؛ فَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ مَعْنَاهُ، فَجَعَلَ يَبْكِي؛ فَسُئِلَ: مَا يُبْكِيكَ؟

قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَأَنَا لَمْ أَعْقِلْ هَذَا الْمَثَلَ؛ فَلَسْتُ بِعَالِمٍ، فَأَبْكِي عَلَىٰ ضَيَاعِ الْعِلْمِ مِنِّي».

فَهَذَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْعِلْمِيِّ؛ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

*** وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْعَمَلِيُّ؛ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَبِاتِّبَاعِ الْخُطُوَاتِ الْآتِيَةِ:**

١- الِالْتِزَامُ بِآدَابِ التِّلَاوَةِ؛ وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِخْلَاصِ، وَالطَّهَارَةِ، وَالسِّوَاكِ، وَالِاسْتِعَاذَةِ، وَاخْتِيَارِ الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ.

٢- تَفْرِيغُ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ، وَالتَّخَلِّي عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ؛ وَبِخَاصَّةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَالْغَفْلَةِ، وَالْكِبْرِ، مَعَ الْعَمَلِ عَلَىٰ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَطَهَارَتِهِ عَنْ طَرِيقِ الذِّكْرِ، وَالتَّسْبِيحِ، وَالِاسْتِغْفَارِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّوْبَةِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ، وَالْمَنَامِ، وَالْكَلَامِ، وَالنَّظَرِ، وَالْمُخَالَطَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ؛ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضُرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ، مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التَّأْثِيرِ لَمَّا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، وَمَحِلٍّ قَابِلٍ، وَشَرْطٍ لِحُصُولِ الْأَثَرِ، وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ؛ تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ بَيَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ، وَأَبْيَنِهِ، وَأَدَلِّهِ عَلَىٰ الْمُرَادِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: وهَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾: هَذَا هُوَ الْمَحِلُّ الْقَابِلُ؛ وَالْمُرَادُ بِهِ: الْقَلْبُ الْحَيُّ الَّذِي يَعْقِلُ عَنِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩-٧٠] أَيْ: مَنْ كَانَ حَيَّ الْقَلْبِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ أَيْ: وَجَّهَ سَمْعَهُ، وَأَصْغَىٰ حَاسَّةَ سَمْعِهِ إِلَىٰ مَا يُقَالُ؛ وَهَذَا شَرْطُ التَّأَثُّرِ بِالْكَلَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾: أَيْ: شَاهِدُ الْقَلْبِ، حَاضِرٌ غَيْرُ غَائِبٍ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «اسْتَمِعْ لِكِتَابِ اللهِ وَأَنْتَ شَاهِدُ الْقَلْبِ وَالْفَهْمِ، لَيْسَ بِغَافِلٍ وَلَا سَاهٍ.

وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْمَانِعِ مِنْ حُصُولِ التَّأْثِيرِ، وَهُوَ: سَهْوُ الْقَلْبِ، وَغَيْبَتُهُ عَنْ تَعَقُّلِ مَا يُقَالُ لَهُ، وَالنَّظَرِ فِيهِ، وَتَأَمُّلِهِ.

فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ- إِذَا وُجِدَ هَذَا وَحَصَلَ؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ بِالْقُرْآنِ، وَالتَّذَكُّرُ».

فَلَا بُدَّ مِنْ تَفْرِيغِ الْقَلْبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ: تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

فَتَرْتِيلُ الْقُرْآنِ يُسَاعِدُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْآيَاتِ، وَفَهْمِ الْمَعَانِي.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً أُرَتِّلُهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ».

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلَيْنِ، قَرَأَ أَحَدُهُمَا الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَالْآخَرُ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَحْدَهَا؛ وَزَمَنُهُمَا، وَرُكُوعُهُمَا، وَسُجُودُهُمَا، وَجُلُوسُهُمَا سَوَاءٌ.

قَالَ: «الَّذِي قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَحْدَهَا أَفْضَلُ».

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَسْتَحِبُّونَ التَّرْتِيلَ فِي الْقِرَاءَةِ؛ لِيَتَدَبَّرَهُ الْقَارِئُ، وَيَفْهَمَ مَعَانِيَهُ.

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ، فَيُرَتِّلُهَا؛ حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْهَا.

وَمِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ التَّدَبُّرِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَىٰ وَجْهِهِ: تَرْدِيدُ الْآيَةِ؛ حَتَّىٰ يَتَحَصَّلَ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ:** «قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَيْلَةً»؛ أَيْ: لَيْلَةً كَامِلَةً، قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْآيَةِ، يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ أَصْبَحَ، كَمَا وَرَدَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْآيَةُ هِيَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وَقَامَ قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ اللَّيْلَ، لَا يَقْرَأُ إِلَّا ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، يُرَدِّدُهَا، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا.

وَعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّهُ كَرَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

وَمِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْصِيلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ: أَنْ يَتَفَاعَلَ التَّالِي لِآيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَعَ مَا يَتْلُوهُ، مَعَ إِظْهَارِ الْحُزْنِ وَالتَّأَثُّرِ أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ: الَّذِي إِذَا سَمِعْتُمُوهُ يَقْرَأُ؛ حَسِبْتُمُوهُ يَخْشَىٰ اللهَ**».

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ**: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ..». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ سُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يُسْتَحَبُّ السُّؤَالُ وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالتَّسْبِيحُ لِكُلِّ قَارِئٍ؛ سَوَاءٌ كَانَ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ كَانَ خَارِجَ الصَّلَاةِ».

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ فَهِيَ مُعِينَةٌ عَلَىٰ حُدُوثِ التَّدَبُّرِ فِي عَقْلِهِ وَرُوحِهِ وَقَلْبِهِ؛ لِأَنَّ التَّأَثُّرَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ أَهَمِّ الْقَضَايَا فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ لِمَنْ يَنْشُدُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ؛ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَالِارْتِقَاءِ إِلَىٰ دَرَجَاتٍ عُلْيَا مِنَ الْإِيمَانِ.

وَاسْتِجْلَابُ التَّأَثُّرِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ حُضُورِ الْقَلْبِ، وَإِصْغَاءِ السَّمْعِ، وَهَذَا التَّأْثِيرُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فَقَطْ؛ فَقَدْ أَثَّرَ فِي غَيْرِهِمْ، وَغَيَّرَ مَجْرَىٰ حَيَاتِهِمْ.

وَهَذِهِ صُورَةٌ لِهَذَا التَّأَثُّرِ الَّذِي حَظِيَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ (عَائِشَة بِرْجِتْ هُونِي)، إِذْ تَقُولُ: «لَنْ أَسْتَطِيعَ -مَهْمَا حَاوَلْتُ- أَنْ أَصِفَ الَّذِي تَرَكَهُ الْقُرْآنُ فِي قَلْبِي، فَلَمْ أَكَدْ أَنْتَهِي مِنْ قِرَاءَةِ السُّورَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ وَجَدْتُنِي سَاجِدَةً لِخَالِقِ الْكَوْنِ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ صَلَاةٍ لِي فِي الْإِسْلَامِ».

لَقَدِ اعْتَنَىٰ الْعُلَمَاءُ بِكَيْفِيَّةِ التَّدَبُّرِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالتَّأَثُّرِ بِهِ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ؛ لَكِنَّ الْغَايَةَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الِاسْتِجَابَةُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

عَنْ مُسْلِمٍ الْخَوَّاصِّ، قَالَ: «كُنْتُ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَلَا أَجِدُ لَهُ حَلَاوَةً، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم.

قَالَ: فَجَاءَتْ حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ، ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنْ جِبْرِيلَ عليه السلام حِينَ أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، قَالَ: فَازْدَادَتِ الْحَلَاوَةُ، ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسِي: اقْرَئِيهِ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ؛ فَجَاءَتِ الْحَلَاوَةُ كُلُّهَا».

فَهَذَا الْفِعْلُ غَايَةُ التَّأَمُّلِ، وَتَأَمُّلُ الْغَايَةِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ؛ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضَرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ سُبْحَانَهُ، مِنْهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ».

إِذَا حَصَلَ التَّأَثُّرُ فِي الْقَلْبِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَىٰ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ، وَرُبَّمَا تَأَثَّرَتِ الْعَيْنُ بِالْبُكَاءِ، فَحِينَمَا تَذْرِفُ دُمُوعَهَا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ؛ فَهَذَا دَلِيلٌ حِسِّيٌّ عَلَىٰ حُصُولِ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَثُّرِ، كَمَا كَانَ يَقَعُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ، أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِحُسْنِ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِهِ الْمَجِيدِ.

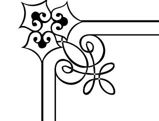
وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْإِقْبَالِ عَلَىٰ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ؛ حَمْلًا، وَفِقْهًا، وَتَدَبُّرًا، وَتَذَكُّرًا، وَتَفَكُّرًا، وَاسْتِبْصَارًا، وَعَمَلًا بِأَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابًا لِنَوَاهِيهِ، وَاتِّعَاظًا بِمَوَاعِظِهِ، وَانْزِجَارًا بِزَوَاجِرِهِ.

وَأَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَائِدًا لَنَا إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَأَلَّا يَجْعَلَهُ سَائِقًا لَنَا إِلَىٰ النَّارِ، إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

●●●


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com




مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّامِنَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْوَسَائِلُ الْمُعِينَةُ عَلَى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ ﷻ

فَهُنَالِكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ تُعِينُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَيَقَّنَ أَنَّهُ خِطَابٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِ، يَحْمِلُ إِلَيْهِ مَفَاتِيحَ سَعَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَدَبَّرَ هَذَا الْخِطَابَ الْإِلَهِيَّ الْكَرِيمَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَغَيَّرَ أَحْوَالُهُ إِلَىٰ أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ.

وَهَذَا حِينَئِذٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَنْ يَدُلُّهُ عَلَىٰ وَسَائِلَ تُعِينُهُ عَلَىٰ الِانْتِفَاعِ بِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ مُهَيَّأً لِلْمُضِيِّ نَحْوَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَلَكِنْ بِسَبَبِ مَا وَرِثْنَاهُ مِنْ أَنْمَاطِ التَّعَامُلِ الْخَاطِئِ مَعَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، صَارَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْنَا فِي الْبِدَايَاتِ أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْكَبِيرِ؛ وَلِذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ السُّبُلِ الَّتِي تُسْلَكُ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَصِّلَ بِهَا الْمُسْلِمُ -إِذَا مَا أَرَادَ التَّدَبُّرَ- الْوُصُولَ إِلَيْهِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَجْنِيَ بِهَا قَلْبُهُ لَطَائِفَ وَمَعَارِفَ وَأَحْوَالًا مَا كَانَ لِيَحْصُلَ عَلَيْهَا؛ بَلْ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ يَوْمًا عَلَىٰ بَالٍ.

وَبِدُونِ هَذِهِ السُّبُلِ الَّتِي تُسَاعِدُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ؛ سَيَتَعَثَّرُ الْمَرْءُ دُونَ غَايَتِهِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ مُبْتَغَاهُ، وَإِنْ أَدْرَكَ شَيْئًا مِمَّا يُرِيدُهُ فَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ قَلِيلٌ لَا يَشْفِي عَلِيلًا وَلَا يَرْوِي غَلِيلًا.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ وَفَهْمٌ وَتَقْوَىٰ وَتَدَبُّرٌ؛ لَمْ يُدْرِكْ مِنْ لَذَّةِ الْقُرْآنِ شَيْئًا».

فَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّنَا لِكَيْ نَصِلَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ اسْتِشْعَارِ لَذَّةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، فَإِنَّنَا نَحْتَاجُ مَعْرِفَةَ السُّبُلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، وَهِيَ تَنْطَلِقُ مِنْ قَاعِدَةِ: «تَيْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ».

فَمَا دَامَ الْقُرْآنُ مُيَسَّرًا لِلذِّكْرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَسَائِلُ الِانْتِفَاعِ بِهِ مُيَسَّرَةً، وَلَكِنْ تَحْتَاجُ إِلَىٰ جِدٍّ وَعَزْمٍ وَاجْتِهَادٍ وَبَذْلٍ وَصَبْرٍ وَمُصَابَرَةٍ.

وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَوَامِّ النَّاسِ الَّذِينَ حَظُّهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ تِلَاوَتُهُ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَفْسِيرِهِ الَّذِي هُوَ مِفْتَاحُ التَّدَبُّرِ.

● ● ●

مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

مَعْرِفَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَتَعْظِيمُهُ

وَمَعْرِفَةُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَتَعْظِيمُهُ هِيَ الْبَابُ الْأَعْظَمُ لِتَدَبُّرِ كَلَامِ الرَّبِّ الْأَكْرَمِ؛ لِأَنَّ مَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ مَعْرِفَةً وَتَعْظِيمًا لَهُ عَظَّمَ كَلَامَهُ، وَتَمَعَّنَ فِيهِ، وَأَصْغَىٰ إِلَيْهِ مُتَأَمِّلًا مُتَدَبِّرًا.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ -وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ- لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا أَنْتَ يَا نَبِيَّنَا بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ كِتَابَ اللهِ فَتَهْدِيَهُمْ بِهِ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ بِمَوَاعِظِ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَبَيِّنَاتِ حُجَجِهِ مَنْ كَانَ مَيِّتَ الْقَلْبِ مِنْ أَحْيَاءِ عِبَادِهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَا يَفْهَمُونَ كِتَابَهُ وَلَا تَنْزِيلَهُ».

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ سَبَبَ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ: عَدَمُ مَعْرِفَتِهِمْ لِلَّهِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ؛ فَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعْرَاف: ٦٤].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّةِ بَطْشِهِ».

وَقَالَ السَّعْدِيُّ: «فَإِنَّ تَمَامَ الْعِبَادَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ؛ بَلْ كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لِرَبِّهِ، كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ».

وَقَالَ: «فَهَذِهِ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ: مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَىٰ وَعِبَادَتُهُ، فَقَامَ بِذَلِكَ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ الظَّالِمُونَ الْمُعْرِضُونَ».

وَلَا شَكَّ أَنَّ مُطَالَعَةَ التَّفَاسِيرِ لَا تَكْفِي وَحْدَهَا فِي الْوُقُوعِ عَلَىٰ حَقِيقَةِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مَا لَمْ يَنْضَمَّ إِلَىٰ ذَلِكَ الْإِحْسَاسُ وَالْإِيمَانُ الْعَمِيقَانِ، مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ سَلْمُ بْنُ مَيْمُونٍ الْخَوَّاصُ: «قُلْتُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ؛ اقْرَئِي الْقُرْآنَ كَأَنَّكِ سَمِعْتِيهِ مِنَ اللهِ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، فَجَاءَتِ الْحَلَاوَةُ».

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَعْظِيمَ الْقُرْآنِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَكَمَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ فِي ذَاتِهِ فَإِنَّهُ عَظِيمٌ فِي صِفَاتِهِ، وَمِنْهَا كَلَامُهُ «الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ»، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: بُرْهَانًا، وَنُورًا، وَهُدًىٰ، وَفُرْقَانًا، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ؛ فَعَظَّمَهُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ لِيُعَظِّمُوا قَدْرَهُ وَيَفْهَمُوهُ لِيَنَالُوا شِفَاءَ قُلُوبِهِمْ.

فَإِذَا عَظُمَ فِي صَدْرِكَ تَعْظِيمُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ؛ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَرْفَعَ وَلَا أَشْرَفَ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَحْلَىٰ مِنَ اسْتِمَاعِ كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَهْمِ مَعَانِي قَوْلِهِ؛ تَعْظِيمًا وَحُبًّا لَهُ وَإِجْلَالًا، إِذْ كَانَ تَعَالَىٰ قَائِلًا، فَحُبُّ الْقَوْلِ عَلَىٰ قَدْرِ حُبِّ قَائِلِهِ.

وَقَدْ صَوَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَثَرَ ذَلِكَ التَّعْظِيمِ فِي النَّفْسِ، فَقَالَ: «وَلَنْ تَحْضُرَهُ عَظَمَةُ الْمُتَكَلِّمِ مَا لَمْ يَتَفَكَّرْ فِي صِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَإِذَا حَضَرَ بِبَالِهِ الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، وَالدَّوَابِّ، وَالْأَشْجَارِ.

وَعَلِمَ أَنَّ الْخَالِقَ لِجَمِيعِهَا وَأَنَّ الْقَادِرَ عَلَيْهَا وَالرَّازِقَ لَهَا وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْكُلَّ فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ مُتَرَدِّدُونَ بَيْنَ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَبَيْنَ نِقْمَتِهِ وَسَطْوَتِهِ، إِنْ أَنْعَمَ فَبِفَضْلِهِ، وَإِنْ عَاقَبَ فَبِعَدْلِهِ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَقُولُ: «هَؤُلَاءِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ إِلَىٰ النَّارِ وَلَا أُبَالِي»، وَهَذَا غَايَةُ الْعُظْمَىٰ وَالتَّعَالِي؛ فَبِالتَّفَكُّرِ فِي أَمْثَالِ هَذَا يَحْضُرُ تَعْظِيمُ الْمُتَكَلِّمِ، ثُمَّ يَحْضُرُ تَعْظِيمُ الْكَلَامِ».

⦿ ⦿ ⦿



وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: التَّمَهُّلُ وَالتَّأَنِّي عِنْدَ تِلَاوَتِهِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٤].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيِ اقْرَأْهُ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَوْنًا عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ».

وَالتَّمَهُّلُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَدْعَىٰ لِلْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ، وَهَذِهِ صِفَةُ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ؛ مِنْهَا:

عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّىٰ فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّىٰ كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا -تَعْنِي: التَّطَوُّعَ مِنَ الصَّلَاةِ-، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] يَمُدُّ بِـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، **أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قِرَاءَةِ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، **فَقَالَتْ**: «كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَجْعَلُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً -يَعْنِي: أَنَّهُ كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً-: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفَاتِحَة: ١-٤]». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قَالَ**: «لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ**: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ.

فَقَالَ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرِنُ بَيْنَهُنَّ، فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ، سُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم فِي كُلِّ رَكْعَةٍ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

• • •

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:

فَهْمُ الْقُرْآنِ

فَفَهْمُ الْقُرْآنِ هُوَ أَسَاسُ التَّدَبُّرِ الصَّحِيحِ، وَذَلِكَ بِفَهْمِ الْمُرَادِ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَفَهْمُ الْقُرْآنِ شَامِلٌ لِفَهْمِ مَعْنَى الْآيَاتِ، بِحَيْثُ يَفْهَمُ الْقَارِئُ مَعَانِيَ الْكَلِمَاتِ وَيَقْرَأُ تَفْسِيرَهَا، وَلِفَهْمِ الْمَقْصُودِ مِنْ إِيرَادِ الْآيَاتِ، وَبِهَذَا يَفْهَمُ الْقَارِئُ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِي حَثِّ اللهِ جَلَّ وَعَلَا عِبَادَهُ عَلَى الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْبَيِّنَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ تَأْوِيلِ مَا لَمْ يُحْجَبْ عَنْهُمْ تَأْوِيلُهُ مِنْ آيَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَا يَفْهَمُ مَا يُقَالُ لَهُ وَلَا يَعْقِلُ تَأْوِيلَهُ: اعْتَبِرْ بِمَا لَا فَهْمَ لَكَ بِهِ وَلَا مَعْرِفَةَ مِنَ الْقِيلِ وَالْبَيَانِ وَالْكَلَامِ إِلَّا عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ بِأَنْ يَفْهَمَهُ وَيَفْقَهَهُ، ثُمَّ يَتَدَبَّرَهُ وَيَعْتَبِرَ بِهِ.

فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَمُسْتَحِيلٌ أَمْرُهُ بِتَدَبُّرِهِ وَهُوَ بِمَعْنَاهُ جَاهِلٌ، كَمَا مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِبَعْضِ أَصْنَافِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَلَا يَفْهَمُونَهُ».

وَيَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ؛ كَالتَّكَلُّفِ فِي الْقِرَاءَةِ، وَالِانْشِغَالِ بِهَا عَنِ الْفَهْمِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَوَانِعِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

◉ ◉ ◉

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ: تَحْسِينُ الصَّوْتِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ

فَلِلصَّوْتِ الْحَسَنِ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ تَزْيِينِ الصَّوْتِ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ؛ فَقَالَ ﷺ: «**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ، وَسَلَكَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

وَقَالَ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «قَدْ فُهِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ السَّلَفَ رضي الله عنهم إِنَّمَا فَهِمُوا مِنَ التَّغَنِّي بِالْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ تَحْسِينُ الصَّوْتِ بِهِ وَتَحْزِينُهُ، كَمَا قَالَهُ الْأَئِمَّةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-».

وَقَالَ: «وَالْمُرَادُ مِنْ تَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ: تَطْرِيبُهُ، وَتَحْزِينُهُ، وَالتَّخَشُّعُ بِهِ».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: «أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ اسْتِحْبَابِ تَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ، وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ مَشْهُورَةٌ نِهَايَةَ الشُّهْرَةِ.

فَنَحْنُ مُسْتَغْنُونَ عَنْ نَقْلِ شَيْءٍ مِنْ أَفْرَادِهَا، وَدَلَائِلُ هَذَا مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْتَفِيضَةٌ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ».

وَالْمَطْلُوبُ مِنْ تَحْسِينِ الصَّوْتِ: الْوُصُولُ لِلْخُشُوعِ وَالتَّأَثُّرِ.

قَالَ السِّنْدِيُّ: «الْمَطْلُوبُ مِنْ تَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ: أَنْ تُنْتِجَ قِرَاءَتُهُ خَشْيَةَ اللهِ، فَمَنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ الْخَشْيَةَ فَقَدْ حَسَّنَ الصَّوْتَ بِالْقُرْآنِ، وَأَتَىٰ بِالْمَطْلُوبِ مِنْهُ شَرْعًا، فَيُعَدُّ -حِينَئِذٍ- مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا».

●●●

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: فَهْمُ لَوَازِمِ النَّصِّ وَمَقَاصِدِهِ

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُ الْقَصَصَ فِي مَوَاطِنِ الْعِبْرَةِ، وَيَتْرُكُ لِلْفُؤَادِ وَالْعَقْلِ مُطْلَقَ التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ فِيمَا لَمْ يَذْكُرْهُ، وَقَدْ يَخْتِمُ الْآيَةَ بِعِلَّةٍ لَمْ تُعَلَّقْ بِشَيْءٍ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَأَمَّلَ الْعَقْلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكَاثُر: ١-٢].

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «وَلَمْ يَقُلْ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ كَذَا، بَلْ أَطْلَقَهُ؛ لِأَنَّ الْإِطْلَاقَ أَبْلَغُ فِي الذَّمِّ، لِأَنَّهُ يَذْهَبُ الْوَهَمُ فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ، فَيَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَمِلُهُ الْمَقَامُ، وَلِأَنَّ حَذْفَ الْمُتَعَلِّقِ مُشْعِرٌ بِالتَّعْمِيمِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ».

فَأَطْلَقَ هَا هُنَا؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ كَذَا وَلَا عَنْ كَذَا.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا السَّبَبِ -يَعْنِي: أَنْ نَفْهَمَ لَوَازِمَ النَّصِّ وَمَقَاصِدَهُ-: مَعْرِفَةُ مَقَاصِدِ سُوَرِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَطْبِيقَاتُهُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ كَثِيرَةٌ.

وَهَذَا السَّبَبُ مُؤَثِّرٌ جِدًّا فِي التَّدَبُّرِ؛ خَاصَّةً فِي الْقَصَصِ الْقُرْآنِيِّ وَالْأَمْثَالِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَهُوَ فَهْمُ لَوَازِمِ النَّصِّ وَمَقَاصِدِهِ.

فَنَخْلُصُ مِنْ هَذَا الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ: أَنَّنَا يَنْبَغِي عَلَيْنَا مِنْ أَجْلِ أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ الْمُتَغَيَّاةِ -وَهِيَ الْوُصُولُ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ- أَنْ نُحَسِّنَ التِّلَاوَةَ، وَأَنْ نَقْرَأَ بِتُؤَدَةٍ كَمَا كَانَ يَقْرَأُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لَا هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلِأَنَّ تَحْسِينَ التِّلَاوَةِ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِمَا يُشِيرُ إِلَيْهَا، وَهُوَ الْأَمْرُ بِتَرْتِيلِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَرْتِيلُ الْقُرْآنِ بَاعِثٌ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٤].

وَحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا مَرَّ- عَلَىٰ التَّغَنِّي بِالْقِرَاءَةِ وَتَحْسِينِهَا فِي قَوْلِهِ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «الْمَطْلُوبُ -شَرْعًا- إِنَّمَا هُوَ التَّحْسِينُ بِالصَّوْتِ الْبَاعِثُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ، وَعَلَىٰ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ لِلطَّاعَةِ».

وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ التَّرْتِيلَ طَرِيقٌ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ؛ فَقَالَ: «التَّرْتِيلُ أَفْضَلُ مِنَ الْهَذِّ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ التَّدَبُّرُ مَعَ الْهَذِّ».

وَالْإِسْرَاعُ فِي الْقِرَاءَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ الْمَعَانِي، فَظَهَرَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ التَّرْتِيلِ إِنَّمَا هُوَ حُضُورُ الْقَلْبِ وَكَمَالُ الْمَعْرِفَةِ.

وَكَذَا قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالتَّرْتِيلُ مُسْتَحَبٌّ لِلتَّدَبُّرِ وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَىٰ التَّوْقِيرِ وَالِاحْتِرَامِ، وَأَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ».

وَأَيَّدَ ذَلِكَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بِقَوْلِهِ:** «تُسَنُّ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ؛ فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، وَالْمَطْلُوبُ الْأَهَمُّ».

وَالسَّبَبُ فِي كَرَاهَةِ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْقِرَاءَةَ بِالْأَلْحَانِ: لِخُرُوجِهَا عَمَّا جَاءَ الْقُرْآنُ لَهُ مِنَ الْخُشُوعِ وَالتَّفَهُّمِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَعَبَّدَ النَّاسَ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ كَمَا تَعَبَّدَهُمْ بِالتِّلَاوَةِ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ هُوَ التَّدَبُّرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي آيَاتِهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، لَا مُجَرَّدُ التِّلَاوَةِ مَعَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ.

⦿⦿⦿

مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَمُّلِ فِي آيَاتِهِ وَمَوَاعِظِهِ وَعِبَرِهِ: صَلَاةُ اللَّيْلِ مَعَ الْقِرَاءَةِ فِيهَا

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٦].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أَيْ: هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يُفْقَهَ فِيهِ الْقُرْآنُ»؛ لِأَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ أَصْوَبُ قِرَاءَةً، وَأَصَحُّ قَوْلًا مِنَ النَّهَارِ؛ لِسُكُوتِ الْأَصْوَاتِ فِي اللَّيْلِ، فَيُتَدَبَّرُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ.

وَالْحِكْمَةُ مِنَ اخْتِصَاصِ اللَّيْلِ بِالْقِيَامِ: أَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ أَوْفَقُ بِالْمُصَلِّي بَيْنَ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ؛ أَيْ: بَيْنَ النُّطْقِ بِالْأَلْفَاظِ، وَتَفَهُّمِ مَعَانِيهَا بِالْهُدُوءِ الَّذِي يَحْصُلُ فِي اللَّيْلِ، وَانْقِطَاعِ الشَّوَاغِلِ.

وَهُوَ أَعْوَنُ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ التَّدَبُّرِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُدَارِسُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ هَذِهِ الْمُدَارَسَةِ الْمُبَارَكَةِ: «الْمَقْصُودُ مِنَ التِّلَاوَةِ: الْحُضُورُ وَالْفَهْمُ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ مَظِنَّةُ ذَلِكَ، لِمَا فِي النَّهَارِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَارِضِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ».

وَمِنْ أَوْضَحِ الشَّوَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ: ثَنَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ تِلَاوَةِ اللَّيْلِ؛ ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٣].

وَكَذَا قَوْلُهُ ﷺ عَنْ شَفَاعَةِ الْقُرْآنِ لِصَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «**وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ، مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ؛ فَشَفِّعْنِي فِيهِ**».

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؛ كَيْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، وَيَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٠٤].

وَالْمَعْنَىٰ -كَمَا قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ-: أَصْغُوا سَمْعَكُمْ لِتَتَفَهَّمُوا آيَاتِهِ وَتَعْتَبِرُوا بِمَوَاعِظِهِ، وَأَنْصِتُوا إِلَيْهِ لِتَعْقِلُوهُ وَتَتَدَبَّرُوهُ، وَلَا تَلْغَوْا فِيهِ فَلَا تَعْقِلُوهُ؛ لِيَرْحَمَكُمْ رَبُّكُمْ بِاتِّعَاظِكُمْ بِمَوَاعِظِهِ، وَاعْتِبَارِكُمْ بِعِبَرِهِ.

فَالْمُلَازِمُ لِلِاسْتِمَاعِ وَالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ سَيَنَالُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَعِلْمًا غَزِيرًا، وَإِيمَانًا مُسْتَمِرًّا مُتَجَدِّدًا، وَهُدًىٰ مُتَزَايِدًا، وَبَصِيرَةً فِي دِينِهِ.

فَالْعُكُوفُ عَلَىٰ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ فِي وَعْيٍ وَتَدَبُّرٍ، لَا بِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ وَالتَّرَنُّمِ؛ لِيُنْشِئَ فِي الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ مِنَ الرُّؤْيَةِ الْوَاضِحَةِ الْبَعِيدَةِ الْمَدَىٰ، وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْمُسْتَيْقِنَةِ، وَمِنَ الْحَرَارَةِ وَالْحَيَوِيَّةِ وَالِانْطِلَاقِ، وَمِنَ الْإِيجَابِيَّةِ وَالْعَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ مَا لَا تُدَانِيهِ رِيَاضَةٌ أُخْرَىٰ أَوْ مَعْرِفَةٌ أَوْ تَجْرِيبٌ.

●●●



مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ: مُرَاعَاةُ حُسْنِ الِابْتِدَاءِ وَالْوَقْفِ أَثْنَاءَ التِّلَاوَةِ

هُنَاكَ بَعْضُ الْآيَاتِ لَهَا تَعَلُّقٌ بِمَا قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَّاءِ لَا يُرَاعُونَ حُسْنَ الِابْتِدَاءِ أَوِ الْوَقْفِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي ارْتِبَاطِ الْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَلَا يَتَأَمَّلُونَ مَعَانِيَ الْآيَاتِ؛ بَلْ جُلُّ عَمَلِهِمْ هُوَ التَّقَيُّدُ بِالْأَعْشَارِ وَالْأَحْزَابِ وَالْأَجْزَاءِ مِمَّا يُفَوِّتُ فَهْمَ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ عَلَىٰ وَجْهِهَا الصَّحِيحِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَهَذِهِ نَمَاذِجُ مِنَ الِابْتِدَاءِ وَالْوَقْفِ الْمَمْنُوعِ:

فَمِنْ أَمْثِلَةِ الْأَجْزَاءِ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يُوسُف: ٥٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [النَّمْل: ٥٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأَحْزَاب: ٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يس: ٢٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ [فُصِّلَت: ٤٧].

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الْأَحْزَابِ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ [آل عِمْرَان: ٢١].

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَكُلُّ هَذَا وَشِبْهُهُ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْدَأَ بِهِ وَلَا يُوقَفَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ، وَلَا يُغْتَرَّنَ بِكَثْرَةِ الْفَاعِلِينَ لَهُ مِنَ الْقُرَّاءِ الَّذِينَ لَا يُرَاعُونَ هَذِهِ الْآدَابَ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي».

وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ قَالَ الْعُلَمَاءُ: «قِرَاءَةُ سُورَةٍ قَصِيرَةٍ بِكَمَالِهَا أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَةِ بَعْضِ سُورَةٍ طَوِيلَةٍ بِقَدْرِ الْقَصِيرَةِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَخْفَىٰ الِارْتِبَاطُ عَلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ».

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ فَهْمِ كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

وَالْجَهْلُ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِهِ، وَتَلَذُّذِ الْقَلْبِ بِقِرَاءَتِهِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنِّي لَأَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!!».

وَالتَّأْوِيلُ فِي لِسَانِ الطَّبَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَذَا فِي لِسَانِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ -يَعْنِي: التَّفْسِيرَ-.

«إِنِّي لَأَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!!».

وَقَدْ تَعَجَّبَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ -أَيْضًا- مِمَّنْ قَصَدَ التَّدَبُّرَ وَالْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ مَعَ جَهْلِهِ بِمَعْنَاهُ، فَقَالَ: «وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَيَفْهَمَ عَنِ اللهِ مُرَادَهُ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِ، فَيَنْتَفِعَ بِمَا يَقْرَأُ، وَيَعْمَلَ بِمَا يَتْلُو، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمَا لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ؟!! وَمَا أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ فِقْهِ مَا يَتْلُوهُ وَلَا يَدْرِيهِ!! فَمَا مَثَلُ مَنْ هَذا حَالُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا».

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ الْفُقَهَاءُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، فَمَا زَالَ الْأَمْرُ يَتَنَاقَصُ حَتَّىٰ قَالَ الْمُتَأَخِّرُونَ: يَكْفِينَا أَنْ نَعْرِفَ آيَاتِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنْ نَعْتَمِدَ عَلَىٰ الْكُتُبِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ اسْتَهَانُوا بِهَذَا الْأَمْرِ أَيْضًا، وَصَارَ أَحَدُهُمْ يَحْتَجُّ بِآيَةٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهَا، وَإِنَّمَا الْفِقْهُ اسْتِخْرَاجٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَكَيْفَ يَسْتَخْرِجُ مِنْ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُهُ؟!!».

وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ قَدْ يُسِّرَتْ مَعَانِيهِ كَمَا يُسِّرَتْ أَلْفَاظُهُ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **مُعَلِّقًا عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ** جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا وَسَهَّلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ؛ أَلْفَاظَهُ لِلْحِفْظِ وَالْأَدَاءِ، وَمَعَانِيَهُ لِلْفَهْمِ وَالْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنُ الْكَلَامِ لَفْظًا، وَأَصْدَقُهُ مَعْنًىٰ، وَأَبْيَنُهُ تَفْسِيرًا.

فَكُلُّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ مَطْلُوبَهُ غَايَةَ التَّيْسِيرِ، وَسَهَّلَهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عِلْمُ الْقُرْآنِ حِفْظًا وَتَفْسِيرًا أَسْهَلَ الْعُلُومِ، وَأَجَلَّهَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي إِذَا طَلَبَهُ الْعَبْدُ أُعِينَ عَلَيْهِ».

وَتَعَلُّمُ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَوْلَىٰ مِنْ تَعَلُّمِ حُرُوفِهِ.

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ جَمِيعًا؛ بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيهِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ، كَمَا قَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمَا: «تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا»».

وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَعْرِفَةِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي كَالْفَرْقِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَلُ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَعْرِفُونَ التَّفْسِيرَ، كَمَثَلِ قَوْمٍ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ مَلِكِهِمْ لَيْلًا وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِصْبَاحٌ، فَتَدَاخَلَتْهُمْ رَوْعَةٌ لَا يَدْرُونَ مَا فِي الْكِتَابِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَعْرِفُ التَّفْسِيرَ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَهُمْ بِمِصْبَاحٍ، فَقَرَؤُوا مَا فِي الْكِتَابِ».

إِنَّ الْعُلُومَ وَإِنْ جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا ... فَتَاجُهَا مَا بِهِ الْإِيمَانُ قَدْ وَجَبَا

هُوَ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ اللهُ يَحْفَظُهُ ... وَبَعْدَ ذَلِكَ عِلْمٌ فَرَّجَ الْكُرَبَا

وَاتْلُ بِفَهْمٍ كِتَابَ اللهِ فِيهِ أَتَتْ ... كُلُّ الْعُلُومِ تَدَبَّرْهُ تَرَ عَجَبَا

وَلَا بُدَّ مِنَ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْمَعَانِي عِنْدَ إِرَادَةِ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَالْمَقْصُودُ بِذَلِكَ: أَنْ يَقِفَ الْقَارِئُ عِنْدَ الْمَعْنَىٰ فَلَا يَتَجَاوَزَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ مُتَأَمِّلًا لَهُ، مُتَفَكِّرًا فِيهِ.

وَمِنْ أَبْلَغِ الشَّوَاهِدِ وَأَوْضَحِهَا: مَا رَوَاهُ حُذَيْفَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ حَيْثُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَصِفَةُ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْمَعَانِي: أَنْ يَشْغَلَ قَلْبَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي مَعْنَىٰ مَا يَلْفِظُ بِهِ، فَيَعْرِفَ مَعْنَىٰ كُلِّ آيَةٍ، وَيَتَأَمَّلَ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ، وَيَعْتَقِدَ قَبُولَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ مِمَّا قَصَّرَ عَنْهُ فِيمَا مَضَىٰ اعْتَذَرَ وَاسْتَغْفَرَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، أَوْ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، أَوْ تَنْزِيهٍ نَزَّهَ وَعَظَّمَ، أَوْ بِآيَةِ دُعَاءٍ تَضَرَّعَ وَطَلَبَ.

وَيَنْبَغِي لِلتَّالِي لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَسْتَوْضِحَ مِنْ كُلِّ آيَةٍ مَا يَلِيقُ بِهَا، وَأَنْ يَتَفَهَّمَ ذَلِكَ، فَإِذَا تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]؛ فَلْيَعْلَمْ عَظَمَتَهُ، وَلْيَتَلَمَّحْ قُدْرَتَهُ فِي كُلِّ مَا يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ.

وَإِذَا تَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الوَاقِعَة: ٥٨]؛ فَلْيَتَفَكَّرْ فِي نُطْفَةٍ مُتَشَابِهَةِ الْأَجْزَاءِ كَيْفَ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ لَحْمٍ وَعَظْمٍ؟!!

وَإِذَا تَلَا أَحْوَالَ الْمُكَذِّبِينَ؛ فَلْيَسْتَشْعِرِ الْخَوْفَ مِنَ السَّطْوَةِ إِنْ غَفَلَ عَنِ امْتِثَالِ الْأَمْرِ.

وَيَنْبَغِي لِتَالِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِخِطَابِ الْقُرْآنِ وَوَعِيدِهِ، وَأَنَّ الْقَصَصَ لَمْ يُرَدْ بِهَا السَّمَرُ؛ بَلِ الْعِبَرُ، فَحِينَئِذٍ يَتْلُو تِلَاوَةَ عَبْدٍ كَاتَبَهُ سَيِّدُهُ بِمَقْصُودٍ؛ فَلْيَتَأَمَّلِ الْكِتَابَ، وَلْيَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ.



مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ:
تَرْدِيدُ الْآيَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْقَلْبِ

وَهَذَا التَّرْدِيدُ مِنْ أَبْرَزِ صُوَرِ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْمَعَانِي، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه **قَالَ**: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ؛ يُرَدِّدُهَا».

وَالْآيَةُ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المَائِدَة: ١١٨].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: «فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ؛ حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ، كَرَّرَهَا وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَلَوْ لَيْلَةً.

فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُّمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُصُولِ الْإِيمَانِ وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ».

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رحمه الله: «وَإِنْ لَمْ يَحْصُلِ التَّدَبُّرُ إِلَّا بِتَرْدَادِ الْآيَةِ؛ فَلْيُرَدِّدْهَا».

وَقَالَ بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ رحمه الله: «إِنَّمَا الْآيَةُ مِثْلُ التَّمْرَةِ؛ كُلَّمَا مَضَغْتَهَا اسْتَخْرَجْتَ حَلَاوَتَهَا».

فَحُدِّثَ بِهِ أَبُو سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: «صَدَقَ، إِنَّمَا يُؤْتَىٰ أَحَدُكُمْ مِنْ أَنَّهُ إِذَا ابْتَدَأَ السُّورَةَ أَرَادَ آخِرَهَا».

وَهَذِهِ نَمَاذِجُ مِنْ تَرْدِيدِ الْآيَةِ:

وَرَدَتْ نُقُولٌ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي تَرْدِيدِهِمْ لِبَعْضِ الْآيَاتِ؛ وَمِنْهَا:

عَنْ مَسْرُوقٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رَدَّدَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّىٰ أَصْبَحَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

وَكَذَا قَامَ بِهَا الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَعَنْ عَبَّادِ بْنِ حَمْزَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ أَسْمَاءَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وَهِيَ تَقْرَأُ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فَوَقَفَتْ عَلَيْهَا، فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو.

قَالَ عَبَّادٌ: فَذَهَبْتُ إِلَىٰ السُّوقِ فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ تَسْتَعِيذُ وَتَدْعُو».

وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْحَسَنِ، فَقَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي، فَلَمْ يُرَدِّدْ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّىٰ أَسْحَرَ -يَعْنِي: حَتَّىٰ دَخَلَ فِي السَّحَرِ-: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فَلَمَّا أَصْبَحَ قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، لَمْ تَكُنْ تُجَاوِزُ هَذِهِ الْآيَةَ سَائِرَ اللَّيْلِ!

قَالَ: إِنَّ فِيهَا مُعْتَبَرًا؛ مَا تَرْفَعُ طَرْفًا وَلَا تَرُدُّ إِلَّا وَقَعَ عَلَىٰ نِعْمَةٍ، وَمَا لَا نَعْلَمُ مِنْ نِعَمِ اللهِ أَكْثَرُ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُو الْوَاحِدُ مِنْهُمُ الْآيَةَ الْوَاحِدَةَ لَيْلَةً كَامِلَةً أَوْ مُعْظَمَهَا؛ يَتَدَبَّرُهَا عِنْدَ الْقِرَاءَةِ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةَ السَّلَفِ؛ يُرَدِّدُ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ إِلَىٰ الصَّبَاحِ».

فَتَرْدِيدُ الْآيَاتِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِيَرْسَخَ مَعْنَاهَا، وَتُؤْتِيَ ثِمَارَهَا، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ؛ يُرَدِّدُهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المَائِدَة: ١١٨]». وَالْحَدِيثُ قَدْ مَرَّ، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

لِهَذَا بَاتَ جَمَاعَاتٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُونَ آيَةً وَاحِدَةً يَتَدَبَّرُونَهَا وَيُرَدِّدُونَهَا إِلَىٰ الصَّبَاحِ، وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ فِعْلِ بَعْضِهِمْ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

وَكَانَ الضَّحَّاكُ إِذَا تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُّمَر: ١٦]؛ يُرَدِّدُهَا إِلَىٰ السَّحَرِ.

فَهَذَا كَانَ مِنْ عَادَةِ السَّلَفِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَتْ عَادَةُ السَّلَفِ؛ يُرَدِّدُ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ إِلَىٰ الصَّبَاحِ».

مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:

الْإِكْثَارُ مِنْ تِلَاوَتِهِ

إِنَّ الْقُرْآنَ نِعْمَ السَّمِيرُ وَنِعْمَ الْأَنِيسُ.

نِعْمَ السَّمِيرُ كِتَابُ اللهِ إِنَّ لَهُ ... حَلَاوَةً هِيَ أَحْلَىٰ مِنْ جَنَى الضَّرَبِ

بِهِ فُنُونُ الْمَعَانِي قَدْ جُمِعْنَ فَمَا ... يَفْتَنَّ مِنْ عَجَبٍ إِلَّا إِلَىٰ عَجَبِ

أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَأَمْثَالٌ وَمَوْعِظَةٌ ... وَحِكْمَةٌ أُودِعَتْ فِي أَفْصَحِ الْكُتُبِ

لَطَائِفٌ يَجْتَلِيهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ ... وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيهَا كُلُّ ذِي أَدَبِ

فَمَنْ رَامَ فَهْمَ الْقُرْآنِ لَزِمَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَنِيسَهُ، وَيَتَّخِذَهُ رَفِيقَهُ وَجَلِيسَهُ؛ فَإِنَّ قَارِئَهُ لَا يَمَلُّ قِرَاءَتَهُ، وَسَامِعَهُ لَا تَمُجُّهُ مَسَامِعُهُ، بَلِ الْإِكْبَابُ عَلَىٰ تِلَاوَتِهِ وَتَرْدِيدُهُ يَزِيدُهُ حَلَاوَةً وَمَحَبَّةً، لَا يَزَالُ غَضًّا طَرِيًّا، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ؛ فَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ تَرْدَادِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَزِيدُهَا إِلَّا جِدَّةً وَحَلَاوَةً، وَكَيْفَ يَلْتَذُّ بِالْقُرْآنِ مَنْ لَيْسَ لَهُ وِرْدٌ يُحَافِظُ عَلَيْهِ؟! فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ.

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وَأَغْنَىٰ غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلًا

وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلًا

وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ؛ فَإِنَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ رَسَخَتْ مَعَانِيهِ فِي قَلْبِهِ بِسَبَبِ تَرْدَادِهِ، وَحِينَئِذٍ يُرْزَقُ مَلَكَةَ التَّدَبُّرِ مِنْ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ.

يَزِيدُ عَلَىٰ طُولِ التَّأَمُّلِ بَهْجَةً ... كَأَنَّ الْعُيُونَ النَّاظِرَاتِ صَيَاقِلُ

وَمَا لَا يَفْهَمُهُ الْيَوْمَ يَفْهَمُهُ غَدًا.

إِنَّ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي يَوْمِهِ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ مَعَانِيهِ يَقْرَؤُهُ فِي غَدِهِ وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ، وَمَنْ قَرَأَهُ فِي غَدِهِ وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَلَ بَعْدَ غَدٍ بِهَدْيِ مَا تَلَاهُ.

وَهَكَذَا يَنْتَقِلُ الْقَارِئُ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَىٰ دَرَجَةٍ أَرْقَىٰ مِنْهَا، حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ الْغَايَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْبِدَايَةِ.

قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَابَدْتُ الْقُرْآنَ عِشْرِينَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهِ عِشْرِينَ سَنَةً، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ سَآمَةً وَمَلَلًا عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ فَلْيَتَفَقَّدْ قَلْبَهُ، وَلْيُحَاسِبْ نَفْسَهُ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «اطْلُبْ قَلْبَكَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَفِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ، وَفِي أَوْقَاتِ الْخَلْوَةِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ؛ فَسَلِ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْكَ بِقَلْبٍ، فَإِنَّهُ لَا قَلْبَ لَكَ».

وَلَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ لَأَكَبُّوا عَلَيْهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: ٢٩-٣٠].

وَكَانَ مُطَرِّفُ بْنُ الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «هَذِهِ آيَةُ الْقُرَّاءِ».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ: أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَأَمَّا آيَةُ الْقُرَّاءِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ؛ فَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي مَرَّتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فَاطِر: ٢٩-٣٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ! وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ!**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَضْمُونُ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ: أَنَّ صَاحِبَ الْقُرْآنِ فِي غِبْطَةٍ، وَهِيَ أَحْسَنُ الْحَالِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ شَدِيدَ الِاغْتِبَاطِ بِمَا هُوَ فِيهِ، وَيُسْتَحَبُّ تَغْبِيطُهُ بِذَلِكَ، يُقَالُ: غَبَطَهُ يَغْبِطُهُ -بِكَسْرِ الْبَاءِ- غَبْطًا: إِذَا تَمَنَّىٰ مِثْلَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ، وَهُوَ تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ الْمَحْسُودِ عَنْهُ؛ سَوَاءٌ حَصَلَتْ لِذَلِكَ الْحَاسِدِ أَوْ لَا».

وَقَدْ مَرَّ فِي مَوَاطِنَ أَنَّ الْحَسَدَ لَيْسَ يُعَرَّفُ بِهَذَا الْحَدِّ الْمَحْدُودِ، وَإِنَّمَا هُوَ: كَرَاهَةُ النِّعْمَةِ عَلَىٰ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا، فَإِذَا كَرِهْتَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَىٰ أَخِيكَ فَأَنْتَ لَهُ حَاسِدٌ؛ سَوَاءٌ تَمَنَّيْتَ زَوَالَهَا عَنْهُ أَمْ لَمْ تَتَمَنَّ، فَبِمُجَرَّدِ كَرَاهَةِ النِّعْمَةِ عَلَىٰ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهَا يَقَعُ الْحَسَدُ، وَهَذَا مَذْمُومٌ -شَرْعًا- مُهْلِكٌ، وَهُوَ أَوَّلُ مَعَاصِي إِبْلِيسَ حِينَ حَسَدَ آدَمَ عَلَىٰ مَا مَنَحَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالِاحْتِرَامِ وَالْإِعْظَامِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِمُلَازَمَةِ تِلَاوَةِ كِتَابِهِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العَنْكَبُوت: ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ **أَنْ يَقُولَ:** ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النَّمْل: ٩١- ٩٢].

لِهَذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- يُلَازِمُونَ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ: الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الْعَابِدُ الزَّاهِدُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَهُوَ الْقَائِلُ: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ؛ مَا شَبِعْتُمْ مِنْ كَلَامِ اللهِ رَبِّكُمْ».

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ وَلَا لَيْلَةٌ إِلَّا أَنْظُرَ فِي كَلَامِ اللهِ»؛ يَعْنِي الْقِرَاءَةَ فِي الْمُصْحَفِ.

وَقَدْ قَتَلَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْخَارِجُونَ الْمُعْتَدُونَ وَهُوَ نَاشِرٌ كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ يَتْلُوهُ، فَقَتَلُوهُ -قَبَّحَهُمُ اللهُ- وَهُوَ صَائِمٌ، وَبِالْقُرْآنِ قَائِمٌ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

وَقَدْ كَانَ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِزْبٌ مِنَ الْقُرْآنِ يَقْرَؤُهُ كُلَّ يَوْمٍ، لَا يُخِلُّ بِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِزْبٌ يَقْرَؤُهُ، وَلَا يُخِلُّ بِهِ، وَكَانَتْ قِرَاءَتُهُ تَرْتِيلًا، لَا هَذًّا وَلَا عَجَلَةً، بَلْ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً؛ حَرْفًا حَرْفًا، وَكَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً، وَكَانَ يَمُدُّ عِنْدَ حُرُوفِ الْمَدِّ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ؛ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**».

وَكَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَوْسِ بْنِ حُذَيْفَةَ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَدِمْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ، قَالَ: فَنَزَلَتِ الْأَحْلَافُ عَلَىٰ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنْزَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَنِي مَالِكٍ فِي قُبَّةٍ لَهُ.

وَكَانَ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثَقِيفٍ، قَالَ: كَانَ كُلَّ لَيْلَةٍ يَأْتِينَا بَعْدَ الْعِشَاءِ يُحَدِّثُنَا قَائِمًا عَلَىٰ رِجْلَيْهِ؛ حَتَّىٰ يُرَاوِحَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَأَكْثَرُ مَا يُحَدِّثُنَا مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «**لَا سَوَاءَ؛ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ بِمَكَّةَ، فَلَمَّا خَرَجْنَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ كَانَتْ سِجَالُ الْحَرْبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، نُدَالُ عَلَيْهِمْ وَيُدَالُونَ عَلَيْنَا**».

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةٌ أَبْطَأَ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَأْتِينَا فِيهِ، فَقُلْنَا: لَقَدْ أَبْطَأْتَ عَنَّا اللَّيْلَةَ.

قَالَ: «**إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ جُزْئِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّىٰ أُتِمَّهُ**».

قَالَ أَوْسٌ: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟

قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَىٰ عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ وَحْدَهُ». هَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ، وَضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَأَوْرَدَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي «دَقَائِقِ التَّفْسِيرِ».

لَقَدْ جَمَعَ بَعْضُ النُّبَلَاءِ بِقَوْلِهِ: «مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّحْزِيبُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ:

فَأَمَّا الثَّلَاثُ؛ فَالْفَاتِحَةُ، وَالْبَقَرَةُ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ.

وَأَمَّا الْخَمْسُ؛ فَالْمَائِدَةُ، وَالْأَنْعَامُ، وَالْأَعْرَافُ، وَالْأَنْفَالُ، وَالتَّوْبَةُ.

وَأَمَّا السَّبْعُ؛ فَيُونُسُ، وَهُودٌ، وَيُوسُفُ، وَالرَّعْدُ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَالْحِجْرُ، وَالنَّحْلُ.

وَأَمَّا التِّسْعُ؛ فَبَنُو إِسْرَائِيلَ -وَهِيَ الْإِسْرَاءُ-، وَالْكَهْفُ، وَمَرْيَمُ، وَطه، وَالْأَنْبِيَاءُ، وَالْحِجُّ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَالنُّورُ، وَالْفُرْقَانُ.

وَأَمَّا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ؛ فَالشُّعَرَاءُ، وَالنَّمْلُ، وَالْقَصَصُ، وَالْعَنْكَبُوتُ، وَالرُّومُ، وَلُقْمَانُ، وَالسَّجْدَةُ، وَالْأَحْزَابُ، وَسَبَأٌ، وَفَاطِرٌ، وَيس.

وَأَمَّا الثَّلَاثَةَ عَشَرَ؛ فَالصَّافَّاتُ، وَ[ص]، وَالزُّمَرُ، وَغَافِرٌ، وَفُصِّلَتْ، وَالشُّورَىٰ، وَالزُّخْرُفُ، وَالدُّخَانُ، وَالْجَاثِيَةُ، وَالْأَحْقَافُ، وَالْفَتْحُ، وَمُحَمَّدٌ، وَالْحُجُرَاتُ.

وَأَمَّا الْمُفَصَّلُ؛ فَمِنْ [ق] إِلَىٰ النَّاسِ».

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا فَاتَهُ حِزْبُهُ مِنَ الْقُرْآنِ تَأَثَّرَ لِذَلِكَ تَأَثُّرًا بَالِغًا.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الْجَفْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ كُرْزِ بْنِ وَبَرَةَ بَيْتَهُ، فَإِذَا هُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟

قَالَ: إِنَّ بَابِي مُغْلَقٌ، وَإِنَّ سِتْرِي لَمُسْبَلٌ، وَمُنِعْتُ حِزْبِي أَنْ أَقْرَأَهُ الْبَارِحَةَ، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ ذَنْبٍ أَحْدَثْتُهُ».

لِهَذَا تَوَجَّهَ الذَّمُّ نَحْوَ كُلِّ مَا أَشْعَرَ بِالتَّسَاهُلِ وَقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ؛ فَإِنَّ عَدَمَ التَّعَاهُدِ يُورِثُ النِّسْيَانَ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ -وَاللَّفْظُ لَهُ- وَمُسْلِمٌ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذَا اللَّفْظُ -يَعْنِي: «نُسِّيَ»- رُوِّينَاهُ مُشَدَّدًا مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَقَدْ سَمِعْنَاهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ لَقِينَاهُ بِالتَّخْفِيفِ.

وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا وَجْهٌ صَحِيحٌ؛ فَعَلَىٰ التَّشْدِيدِ يَكُونُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عُوقِبَ بِتَكْثِيرِ النِّسْيَانِ عَلَيْهِ لَمَّا تَمَادَىٰ فِي التَّفْرِيطِ، وَعَلَىٰ التَّخْفِيفِ يَكُونُ مَعْنَاهُ: تُرِكَ غَيْرَ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهِ، وَلَا مُعْتَنًىٰ بِهِ، وَلَا مَرْحُومٍ».

وَالْقُرْطُبِيُّ: هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ صَاحِبُ «الْمُفْهِمِ».

وَرَحِمَ اللهُ أَبَا إِسْحَاقَ السَّبِيعِيَّ وَهُوَ يُوصِي شَبَابَ الْإِسْلَامِ فِي اغْتِنَامِ شَبَابِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، فَيَقُولُ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ؛ اغْتَنِمُوا -يَعْنِي: قُوَّتَكُمْ وَشَبَابَكُمْ-، قَلَّمَا مَرَّتْ بِي لَيْلَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَقْرَأُ فِيهَا أَلْفَ آيَةٍ، وَإِنِّي لَأَقْرَأُ الْبَقَرَةَ فِي رَكْعَةٍ، وَإِنِّي لَأَصُومُ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَالِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ.

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عِمْرَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «ذَهَبَتِ الصَّلَاةُ مِنِّي وَضَعُفْتُ، وَإِنِّي لَأُصَلِّي فَمَا أَقْرَأُ وَأَنَا قَائِمٌ إِلَّا بِالْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ».

ثُمَّ قَالَ الْأَخْنَسِيُّ: «حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ سَالِمٍ الْعَبْدِيُّ، قَالَ: ضَعُفَ أَبُو إِسْحَاقَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَتَيْنِ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُومَ حَتَّىٰ يُقَامَ، فَإِذَا اسْتَتَمَّ قَائِمًا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ أَلْفَ آيَةٍ».

وَهَذَا الْأَثَرُ يُذَكِّرُنَا بِمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي جَالِسًا، فَيَقْرَأُ وَهُوَ جَالِسٌ، فَإِذَا بَقِيَ مِنْ قِرَاءَتِهِ قَدْرُ مَا يَكُونُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً قَامَ فَقَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ يَفْعَلُ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَتَرْجَمَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «صَحِيحِهِ» بِقَوْلِهِ:** «بَابٌ: فِي كَمْ يُقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [الْمُزَّمِّل: ٢٠]».

وَأَوْرَدَ حَدِيثَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، **وَفِيهِ قَالَ:** «أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ -وَهِيَ زَوْجُ الْوَلَدِ- فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ، لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**الْقَنِي بِهِ**»، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَصُومُ؟**».

قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ.

قَالَ: «**وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟**».

قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ.

قَالَ: «**صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**».

قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ**».

قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، وَصُمْ يَوْمًا**».

قَالَ: قُلْتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ؛ صِيَامَ يَوْمٍ، وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً**».

قَالَ: فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ، فَكَانَ يَقْرَأُ عَلَىٰ بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ مِنَ القُرْآنِ بِالنَّهَارِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّىٰ أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَىٰ، وَصَامَ مِثْلَهُنَّ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا فَارَقَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي ثَلَاثٍ، وَفِي خَمْسٍ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَىٰ سَبْعٍ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَهُمْ عَادَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي قَدْرِ مَا يَخْتِمُونَ فِيهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ خَتَمُوا الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ فَلَا يُحْصَوْنَ لِكَثْرَتِهِمْ، فَمِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَتَمِيمٌ الدَّارِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، خَتْمَةً فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فِي الْكَعْبَةِ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنَ الصَّحِيحِ عَنِ السَّلَفِ مَحْمُولٌ إِمَّا: عَلَىٰ أَنَّهُ مَا بَلَغَهُمْ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مِمَّا تَقَدَّمَ، أَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ فِيمَا يَقْرَؤُونَهُ مَعَ هَذِهِ السُّرْعَةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ: «وَإِنَّمَا وَرَدَ النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ عَلَىٰ الْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَأَمَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْمُفَضَّلَةِ؛ كَشَهْرِ رَمَضَانَ -خُصُوصًا فِي اللَّيَالِي الَّتِي يُطْلَبُ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ-، أَوْ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُفَضَّلَةِ؛ كَمَكَّةَ لِمَنْ دَخَلَهَا مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، فَيُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ فِيهَا مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ؛ اغْتِنَامًا لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ عَمَلُ غَيْرِهِمْ».

وَلِهَذَا كَانَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَخْتِمُ فِي رَمَضَانَ سِتِّينَ خَتْمَةً، فِي كُلِّ يَوْمٍ خَتْمَتَيْنِ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ زِيَادٍ النَّيْسَابُورِيُّ: سَمِعْتُ الرَّبِيعَ يَقُولُ: «كَانَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ سِتِّينَ خَتْمَةً».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالِاخْتِيَارُ: أَنَّ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ، فَمَنْ كَانَ يَظْهَرُ لَهُ بِدَقِيقِ الْفِكْرِ لَطَائِفُ وَمَعَارِفُ، فَلْيَقْتَصِرْ عَلَىٰ قَدْرٍ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ كَمَالُ فَهْمِ مَا يَقْرَؤُهُ، وَكَذَا مَنْ كَانَ مَشْغُولًا بِنَشْرِ الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ مُهِمَّاتِ الدِّينِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، فَلْيَقْتَصِرْ عَلَىٰ قَدْرٍ لَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِ إِخْلَالٌ بِمَا هُوَ مُرْصَدٌ

لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ فَلْيَسْتَكْثِرْ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ خُرُوجٍ إِلَىٰ حَدِّ الْمَلَلِ وَالْهَذْرَمَةِ».

وَقَدْ كَرِهَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْخَتْمَ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقْرَؤُهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الَّذِينَ خَتَمُوا فِي الْأُسْبُوعِ مَرَّةً فَكَثِيرُونَ، نُقِلَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ؛ كَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، وَعَلْقَمَةَ، وَإِبْرَاهِيمَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ-».

وَقَدْ سُئِلَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَقَلِّ مُدَّةٍ يُخْتَمُ فِيهَا الْقُرْآنُ، **فَأَجَابَ**: لَيْسَ فِيهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ؛ إِلَّا أَنَّ الْأَفْضَلَ أَلَّا يَقْرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**».

فَالْأَفْضَلُ أَنْ يَتَحَرَّىٰ فِي قِرَاءَتِهِ الْخُشُوعَ وَالتَّرْتِيلَ وَالتَّدَبُّرَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ الْعَجَلَةَ، بَلِ الْمَقْصُودُ أَنْ يَسْتَفِيدَ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْثِرَ الْقِرَاءَةَ فِي رَمَضَانَ، كَمَا فَعَلَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللهُ-؛ وَلَكِنْ مَعَ التَّدَبُّرِ وَالتَّعَقُّلِ، فَإِذَا خَتَمَ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ فَحَسَنٌ، وَبَعْضُ السَّلَفِ قَالَ: إِنَّهُ يُسْتَثْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَوْقَاتُ الْفَضَائِلِ، وَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ يَخْتِمَ كُلَّ لَيْلَةٍ، أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كَمَا ذَكَرُوا هَذَا عَنِ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَلَكِنَّ ظَاهِرَ السُّنَّةِ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَلَّا يَعْجَلَ، وَأَنْ يَطْمَئِنَّ فِي قِرَاءَتِهِ، وَأَنْ يُرَتِّلَ كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو فَقَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**»، فَهَذَا هُوَ آخِرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَقَالَ: «**لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَّا فِي رَمَضَانَ.

فَحَمْلُ بَعْضِ السَّلَفِ هَذَا عَلَىٰ غَيْرِ رَمَضَانَ مَحَلُّ نَظَرٍ.

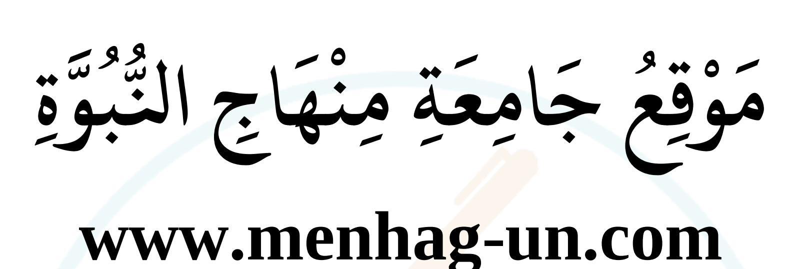
وَالْأَقْرَبُ -وَاللهُ أَعْلَمُ-: أَنَّ الْمَشْرُوعَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِالْقُرْآنِ، وَيَجْتَهِدَ فِي إِحْسَانِ قِرَاءَتِهِ وَتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالْعِنَايَةِ بِالْمَعَانِي، وَلَا يَعْجَلَ.

وَالْأَفْضَلُ أَلَّا يَخْتِمَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَىٰ حَسَبِ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَلَوْ فِي رَمَضَانَ».

وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة التَّاسِعَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنْ وَسَائِلِ التَّدَبُّرِ وَالْأُمُورِ المُعِينَةِ عَلَيْهِ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدَارُسُهُ وَفَهْمُ مَعَانِيهِ

فَمِنْ وَسَائِلِ التَّدَبُّرِ وَالْأُمُورِ الْمُعِينَةِ عَلَيْهِ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيم وَتَدَارُسُهُ وَفَهْمُ مَعَانِيهِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالْفَهْم أَنْ يَفْهَمَهُ كَفَهْم الْعُلَمَاءِ الْمُجْتَهِدِينَ، أَوْ بِمُصْطَلَحَاتِ أَهْل الْعِلْم، إِنَّمَا الْفَهْمُ الَّذِي يُحقِّقُ مَعْنَىٰ الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ دِلَالَتِهَا الْعَامَّةِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]:

«الْهَمْزَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ لِلْإِنْكَارِ، وَالْفَاءُ عَاطِفَةٌ عَلَىٰ جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ، عَلَىٰ أَصَحِّ الْقَوْلَيْن، وَالتَّقْدِيرُ: أَيُعْرِضُونَ عَنْ كِتَاب اللهِ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، كَمَا أَشَارَ لَهُ فِي الْخُلَاصَةِ بِقَوْلِهِ:

وَحَذْفُ مَتْبُوعٍ بَدَا هُنَا اسْتَبِحْ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ «أَمْ» فِيهِ مُنْقَطِعَةٌ بِمَعْنَىٰ: بَلْ، فَقَدْ أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ إِعْرَاضَهُمْ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ بِأَدَاةِ الْإِنْكَارِ الَّتِي هِيَ الْهَمْزَةُ، وَبَيَّنَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ عَلَيْهَا أَقْفَالٌ لَا تَنْفَتِحُ لِخَيْرٍ، وَلَا لِفَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنَ التَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ، جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ **كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٦٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٦].

⦿ ⦿ ⦿

مِنْ وَسَائِلِ التَّدبُّرِ وَالْأُمُورِ المُعِينَةِ عَلَيْه: ذَمُّ المُعْرِض عَنْ آيَاتِ اللهِ

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمُعْرِضَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيم فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكَهْف: ٥٧].

وَكَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السَّجْدَة: ٢٢].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بتَدَبُّرِ آيَاتِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيم -يَعْنِي: أَنْ يَتَصَفَّحَهَا وَيَفْهَمَهَا، وَأَنْ يُدْرِكَ مَعَانِيَهَا، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهَا- فَإِنَّهُ مُعْرِضٌ عَنْهَا، غَيْرُ مُتَدَبِّرٍ لَهَا، فَيَسْتَحِقُّ الإِنْكَارَ وَالتَّوْبِيخَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَاتِ إِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ أَعْطَاهُ فَهْمًا يَقْدِرُ بِهِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ.

وَقَدْ شَكَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ مِنْ قَوْمِهِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا ذَكَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفُرْقَان: ٣٠].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمَهُ وَتَعَلُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ، أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِذَلِكَ هُمْ خَيْرُ النَّاس، كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ فِي «الصَّحِيح» مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْن عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧٩].

فَإِعْرَاضُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ عَنِ النَّظَرِ فِي كِتَاب اللهِ تَعَالَىٰ وَتَفَهُّمِهِ وَالْعَمَل بِهِ وَبِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ، مِنْ أَعْظَم الْمَنَاكِرِ وَأَشْنَعِهَا، وَإِنْ ظَنَّ فَاعِلُوهُ أَنَّهُمْ عَلَىٰ هُدًىٰ.

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ عَاقِل أَنَّ الْقَوْلَ بِمَنْع الْعَمَل بِكِتَاب اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ اكْتِفَاءً عَنْهُمَا بِالْمَذَاهِب الْمُدَوَّنَةِ، وَانْتِفَاءَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ تَعَلُّمِهِمَا لِوُجُودِ مَا يَكْفِي عَنْهُمَا مِنْ مَذَاهِب الْأَئِمَّةِ؛ أَنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَم الْبَاطِل.

وَهُوَ مُخَالِفٌ لِكِتَاب اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَإِجْمَاع الصَّحَابَةِ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِأَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَنْفُسِهِمْ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَصْحَاب رَسُولِهِ جَمِيعًا، وَلِلْأَئِمَّةِ رَحِمَهُمُ اللهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ بَعْض مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ تَدَبُّرَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيم وَتَفَهُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ خَاصَّةً، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ بِشُرُوطِهِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَهُمُ الَّتِي لَمْ يَسْتَنِدِ اشْتِرَاطُ كَثِيرٍ مِنْهَا إِلَىٰ

دَلِيل مِنْ كِتَاب وَلَا سُنَّةٍ وَلَا إِجْمَاع وَلَا قِيَاس جَلِيٍّ، وَلَا أَثَر عَنِ الصَّحَابَةِ، أَنَّ هَذَا قَوْلٌ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ مِنْ دَلِيل شَرْعِيٍّ أَصْلًا.

بَل الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ التَّعَلُّم وَالتَّفَهُّم، وَإِدْرَاكِ مَعَانِي الْكِتَاب وَالسُّنَّةِ، يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُمَا، وَالْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ مِنْهُمَا.

أَمَّا العَمَلُ بِهِمَا مَعَ الْجَهْل بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مِنْهُمَا فَهَذَا مَمْنُوعٌ إِجْمَاعًا.

وَأَمَّا مَا عَلِمَهُ مِنْهُمَا عِلْمًا صَحِيحًا نَاشِئًا عَنْ تَعَلُّم صَحِيح فَلَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَلَوْ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الذَّمَّ وَالْإِنْكَارَ عَلَىٰ مَنْ يَتَدَبَّرُ كِتَابَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَلَىٰ نَحْوِ غَيْرِ مَرْضِيٍّ أَوْ لَا يَتَدَبَّرُهُ أَصْلًا، أَنَّ هَذَا عَامٌّ لِجَمِيع النَّاس.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ الْأَوَّلِينَ بِهِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ، هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْكُفَّارُ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسْتَكْمِلًا لِشُرُوطِ الِاجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَ أَهْل الْأُصُولِ، بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا أَصْلًا.

فَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْتَفَعَ بِالْعَمَل بِهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ سِوَىٰ الْمُجْتَهِدِينَ بِالِاصْطِلَاح الْأُصُولِيِّ، لَمَا وَبَّخَ اللهُ الْكُفَّارَ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الِاهْتِدَاءِ بِهُدَاهُ، وَلَمَا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ حَتَّىٰ يُحَصِّلُوا شُرُوطَ الِاجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ كَمَا تَرَىٰ.

بَلْ إِنَّ الَّذِي اشْتَرَطُوهُ مِنَ الشُّرُوطِ فِي الْمُجْتَهِدِ الْمُطْلَقِ لَا يَتَوَفَّرُ حَتَّىٰ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقَدْ أَتَوْا بِأُمُورٍ عَظِيمَةٍ، وَلَيْسَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا دَلِيلٌ مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ، وَلَا بِأَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنَ الْمُقَرَّرِ فِي الْأُصُولِ أَنَّ صُورَةَ سَبَبِ النُّزُولِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ، وَإِذَنْ فَدُخُولُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ قَطْعِيٌّ، وَلَوْ كَانَ لَا يَصِحُّ الِانْتِفَاعُ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ إِلَّا لِخُصُوصِ الْمُجْتَهِدِينَ لَمَا أَنْكَرَ اللهُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ عَدَمَ تَدَبُّرِهِمْ كِتَابَ اللهِ، وَعَدَمَ عَمَلِهِمْ بِهِ.

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْوَاقِعَ خِلَافُ ذَلِكَ قَطْعًا، وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ شُرُوطَ الِاجْتِهَادِ لَا تُشْتَرَطُ إِلَّا فِيمَا فِيهِ مَجَالٌ لِلِاجْتِهَادِ، وَالْأُمُورُ الْمَنْصُوصَةُ فِي نُصُوصٍ صَحِيحَةٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ الِاجْتِهَادُ فِيهَا لِأَحَدٍ حَتَّىٰ تُشْتَرَطَ فِيهِ شُرُوطُ الِاجْتِهَادِ، بَلْ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الِاتِّبَاعُ، وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ «مَرَاقِي السُّعُودِ» تَبَعًا لِلْقَرَافِيِّ مِنْ قَوْلِهِ:

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُجْتَهِدًا فَالْعَمَلُ ... مِنْهُ بِمَعْنَىٰ النَّصِّ مِمَّا يُحْظَلُ

لَا يَصِحُّ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ بِحَالٍ؛ لِمُعَارَضَتِهِ لِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَىٰ دَلِيلٍ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ تَخْصِيصُ عُمُومَاتِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُوم -أَيْضًا- أَنَّ عُمُومَاتِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ حَثِّ جَمِيع النَّاس عَلَىٰ الْعَمَل بِكِتَاب اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي**».

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**» الْحَدِيثَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَىٰ.

فَتَخْصِيصُ جَمِيع تِلْكَ النُّصُوص بِخُصُوصِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَتَحْرِيمُ الِانْتِفَاع بِهَدْيِ الْكِتَاب وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ تَحْرِيمًا بَاتًّا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيل مِنْ كِتَاب اللهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يَصِحُّ تَخْصِيصُ تِلْكَ النُّصُوص بِآرَاءِ جَمَاعَاتٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُقِرِّينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ لَا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُقَلِّدَ الصِّرْفَ لَا يَجُوزُ عَدُّهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ «مَرَاقِي السُّعُودِ» فِي نَشْرِ الْبُنُودِ فِي شَرْحِهِ لِبَيْتِهِ الْمَذْكُورِ آنِفًا مَا نَصُّهُ: «يَعْنِي أَنَّ غَيْرَ الْمُجْتَهِدِ يُحْظَلُ لَهُ -أَيْ: يُمْنَعُ- أَنْ يَعْمَلَ بِمَعْنَىٰ نَصٍّ مِنْ كِتَاب أَوْ سُنَّةٍ وَإِنْ صَحَّ سَنَدُهَا، لِاحْتِمَالِ عَوَارِضِهِ مِنْ نَسْخ وَتَقْيِيدٍ وَتَخْصِيص وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِض الَّتِي لَا يَضْبِطُهَا إِلَّا الْمُجْتَهِدُ، فَلَا يُخَلِّصُهُ مِنَ اللهِ إِلَّا تَقْلِيدُ مُجْتَهِدٍ». قَالَهُ الْقَرَافِيُّ، وَهَذَا مَحَلُّ الْغَرَض مِنْهُ بِلَفْظِهِ.

وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ -وَلَا لِلْقَرَافِيِّ الَّذِي تَبِعَهُ- فِي مَنْع جَمِيع الْمُسْلِمِينَ سِوَىٰ الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْعَمَل بِكِتَاب اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، سِوَىٰ مُطْلَق احْتِمَالِ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَعْرِضُ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ نَسْخٍ أَوْ تَخْصِيصٍ أَوْ تَقْيِيدٍ

وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا مَرْدُودٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَصْلَ السَّلَامَةُ مِنَ النَّسْخ حَتَّىٰ يَثْبُتَ وُرُودُ النَّاسِخ، وَالْعَامُّ ظَاهِرٌ فِي الْعُمُوم حَتَّىٰ يَثْبُتَ وُرُودُ الْمُخَصِّص، وَالْمُطْلَقُ ظَاهِرٌ فِي الْإِطْلَاقِ حَتَّىٰ يَثْبُتَ وُرُودُ الْمُقَيِّدِ.

وَالنَّصُّ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ حَتَّىٰ يَثْبُتَ النَّسْخُ بِدَلِيل شَرْعِيٍّ، وَالظَّاهِرُ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ عُمُومًا كَانَ أَوْ إِطْلَاقًا أَوْ غَيْرَهُمَا حَتَّىٰ يَرِدَ دَلِيلٌ صَارِفٌ عَنْهُ إِلَىٰ الْمُحْتَمَل الْمَرْجُوح، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَحَلِّهِ.

وَأَوَّلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِالْعَامِّ حَتَّىٰ يُبْحَثَ عَنِ الْمُخَصِّص فَلَا يُوجَدُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَزَعَمَهُ أَبُو الْعَبَّاس بْنُ سُرَيْج، وَتَبِعَهُ جَمَاعَاتٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، حَتَّىٰ حَكَوْا عَلَىٰ ذَلِكَ الْإِجْمَاعَ حِكَايَةً لَا أَسَاسَ لَهَا.

وَقَدْ أَوْضَحَ ابْنُ الْقَاسِم -بَيَّنَ غَلَطَهُمْ وَأَوْضَحَهُ- فِي كَلَامِهِ عَلَىٰ قَوْلِ ابْن السُّبْكِيِّ فِي «جَمْع الْجَوَامِع»: «وَيُتَمَسَّكُ بِالْعَامِّ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ الْبَحْثِ عَنِ الْمُخَصِّص، وَكَذَا بَعْدَ الْوَفَاةِ -قَالَ:- خِلَافًا لِابْن سُرَيْج».

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، فَظَوَاهِرُ النُّصُوص مِنْ عُمُوم وَإِطْلَاقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ تَرْكُهَا إِلَّا لِدَلِيل يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ مِنْ مُخَصِّص أَوْ مُقَيِّدٍ، لَا لِمُجَرَّدِ مُطْلَقِ الِاحْتِمَالِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي مَحَلِّهِ.

فَادِّعَاءُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّهُ يَجِبُ تَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ حَتَّىٰ يُبْحَثَ عَنِ

الْمُخَصِّصِ وَالْمُقَيِّدِ، خِلَافُ التَّحْقِيقِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ غَيْرَ الْمُجْتَهِدِ إِذَا تَعَلَّمَ بَعْضَ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَوْ بَعْضَ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ لِيَعْمَلَ بِهَا، تَعَلَّمَ ذَلِكَ النَّصَّ الْعَامَّ أَوِ الْمُطْلَقَ، وَتَعَلَّمَ مَعَهُ مُخَصِّصَهُ وَمُقَيِّدَهُ إِنْ كَانَ مُخَصَّصًا أَوْ مُقَيَّدًا، وَتَعَلَّمَ نَاسِخَهُ إِنْ كَانَ مَنْسُوخًا.

وَتَعَلُّمُ ذَلِكَ سَهْلٌ جِدًّا؛ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ الْعَارِفِينَ بِهِ، وَمُرَاجَعَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ الْمُعْتَدِّ بِهَا فِي ذَلِكَ، وَالصَّحَابَةُ كَانُوا فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ يَتَعَلَّمُ أَحَدُهُمْ آيَةً فَيَعْمَلُ بِهَا، وَحَدِيثًا فَيَعْمَلُ بِهِ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْعَمَلِ بِذَلِكَ حَتَّىٰ يُحَصِّلَ رُتْبَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ، وَرُبَّمَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ بِمَا عَلِمَ فَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، كَمَا يُشِيرُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾ [الأَنْفَال: ٢٩]، عَلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ «الْفُرْقَانَ» هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ**﴾ [الحَدِيد: ٢٨].

وَهَذِهِ التَّقْوَىٰ الَّتِي دَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يُعَلِّمُ صَاحِبَهَا بِسَبَبِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ، لَا تَزِيدُ عَلَىٰ عَمَلِهِ بِمَا عَلِمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ، وَعَلَيْهِ فَهِيَ عَمَلٌ بِبَعْضِ مَا عَلِمَ، فَزَادَهُ اللهُ بِهِ عِلْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ.

فَالْقَوْلُ بِمَنْعِ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّىٰ يُحَصِّلَ رُتْبَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ، هُوَ عَيْنُ السَّعْيِ فِي حِرْمَانِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِنُورِ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ يُحَصِّلُوا شَرْطًا مَفْقُودًا فِي اعْتِقَادِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ.

وَادِّعَاءُ مِثْلِ هَذَا عَلَىٰ اللهِ وَعَلَىٰ كِتَابِهِ وَعَلَىٰ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ هُوَ كَمَا تَرَىٰ». انْتَهَىٰ كَلَامُ الْعَلَّامَةِ الشَّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَضْوَاءِ الْبَيَانِ».

وَهُوَ كَلَامٌ مَتِينٌ جِدًّا -فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْحَمَهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً- وَحَاصِلُهُ: أَنَّهُ لَا يُصَدُّ عَنْ فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ اسْتِنْبَاطَ الْأَحْكَامِ، وَأَنَّ الْغَوْرَ عَلَىٰ الْمَعَانِي مِنْ أَجْلِ الِاسْتِنْبَاطِ، أَنَّهُ مَبْذُولٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَكِنْ مَا هُوَ ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ مِنَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي يُتَعَامَلُ مَعَهُ، فَهَذَا يَنْبَغِي أَلَّا يُصَدَّ الْمُسْلِمُونَ عَنْ تَحْصِيلِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، كَمَا مَرَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ الْأُصُولِيِّ الْمَتِينِ.

فَالْحَاصِلُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ كُلِّهِ؛ أَنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَسَيُورِثُهُ الْكِتَابُ فَهْمًا عَلَىٰ حَسَبِ مَا آتَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْعِلْمِ.

وَيَنْبَغِي عَلَىٰ كُلِّ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ مُتَوَقِّيًا؛ فَإِذَا مَا مَرَّ بِشَيْءٍ لَا يَفْهَمُهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ عَالِمَهُ، وَأَنْ يَكِلَهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ.

وَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ، وَالْبَحْثِ فِي مَصَادِرِ هَذَا الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ

الصَّحِيح، فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَزْدَادَ عِلْمًا.

قَالَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المُزَّمِّل: ٢٠]، مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ هَذَا الْكَلَامُ الْإِلَهِيُّ الْعَظِيمُ يَفْهَمُ مَعْنَاهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ «مَا» كَلِمَةُ شَرْطٍ، وَ«تُقَدِّمُوا» مَجْزُومٌ بِهَا لِأَنَّهُ شَرْطُهَا، وَ«تَجِدُوهُ» مَجْزُومٌ بِهَا لِأَنَّهُ جَزَاؤُهَا، وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ -قَالَ:- فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي خَصَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِالْمَنْعِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَفَهْمِ تَرَاكِيبِهَا وَمَبَانِيهَا، حَتَّىٰ جُعِلَتْ كَالْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا تَرْدِيدُ أَلْفَاظِهَا وَحُرُوفِهَا».

وَمِثْلُ هَذَا الْفَهْمِ يُحَصِّلُهُ الْمُسْلِمُ بِمُرَاجَعَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُتَيَسِّرَةِ؛ كَتَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ، وَتَفْسِيرِ ابْنِ سَعْدِيٍّ، وَنَحْوِهَا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ عَلَىٰ هَذَا.

ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِهِ الْأَخْبَارَ الَّتِي رُوِيَتْ فِي الْحَضِّ عَلَىٰ الْعِلْمِ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَمَنْ كَانَ يُفَسِّرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَأَوْرَدَ جُمْلَةً مِنَ الْآثَارِ فِي ذَلِكَ؛ مِنْهَا:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا

يَسْتَقْرِئُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُخَلِّفُوهَا حَتَّىٰ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا».

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَ نَزَلَتْ وَأَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي تَنَالُهُ الْمَطَايَا لَأَتَيْتُهُ».

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي حَثِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ عَلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِمَا فِي آيِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْبَيِّنَاتِ بِقَوْلِهِ -جَلَّ ذِكْرُهُ- لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزُّمَر: ٢٧- ٢٨]، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ، وَحَثَّهُمْ فِيهَا عَلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِأَمْثَالِ آيِ الْقُرْآنِ، وَالِاتِّعَاظِ بِمَوَاعِظِهِ.

فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةَ تَأْوِيلِ مَا لَمْ يُحْجَبْ عَنْهُمْ تَأْوِيلُهُ مِنْ آيِهِ؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَا يَفْهَمُ مَا يُقَالُ لَهُ وَلَا يَعْقِلُ تَأْوِيلَهُ، مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لَهُ: اعْتَبِرْ بِمَا لَا فَهْمَ لَكَ بِهِ وَلَا مَعْرِفَةَ مِنَ الْقِيلِ وَالْبَيَانِ وَالْكَلَامِ، إِلَّا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْأَمْرِ بِأَنْ يَفْهَمَهُ وَيَفْقَهَهُ، ثُمَّ يَتَدَبَّرَهُ وَيَعْتَبِرَ بِهِ، فَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَمُسْتَحِيلٌ أَمْرُهُ بِتَدَبُّرِهِ وَهُوَ جَاهِلٌ بِمَعْنَاهُ، كَمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِبَعْضِ أَصْنَافِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَلَا يَفْهَمُونَهُ، لَوْ أُنْشِدَ قَصِيدَةُ شِعْرٍ مِنْ أَشْعَارِ بَعْضِ الْعَرَبِ وَهِيَ ذَاتُ أَمْثَالٍ وَمَوَاعِظَ وَحِكَم، فَيُقَالُ لَهُ: اعْتَبِرْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْثَالِ، وَادَّكِرْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَهُوَ أَصْلًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا يَعْقِلُ مِنْهُ شَيْئًا.

فَإِذَا قِيلَ لَهُ: اعْتَبِرْ بِهَذَا -الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ- فَيَكُونُ هَذَا بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ لَهُ بِفَهْم كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ يَأْتِي الِاعْتِبَارُ بِمَا نُبِّهَ عَلَيْهِ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْحِكَم.

فَأَمَّا وَهِيَ جَاهِلَةٌ -يَعْنِي الْأُمَمَ- بِمَعَانِي مَا فِيهَا مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَنْطِقِ، فَمُحَالٌ أَمْرُهَا بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مَعَانِي مَا حَوَتْهُ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْعِبَرِ، بَلْ سَوَاءٌ أَمْرُهَا بِذَلِكَ وَأَمْرُ بَعْضِ الْبَهَائِم بِهِ، إِلَّا بَعْدَ الْعِلْم بِمَعَانِي الْمَنْطِقِ وَالْبَيَانِ الَّذِي فِيهَا -وَالْمَنْطِقُ يُرِيدُ بِهِ الْكَلَامَ وَالنُّطْقَ-.

فَكَذَلِكَ مَا فِي آيِ كِتَابِ اللهِ مِنَ الْعِبَرِ، وَالْحِكَم، وَالْأَمْثَالِ، وَالْمَوَاعِظِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: اعْتَبِرْ بِهَا، إِلَّا لِمَنْ كَانَ بِمَعَانِي بَيَانِهِ عَالِمًا، وَبِكَلَامِ الْعَرَبِ عَارِفًا، إِلَّا بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ لِمَنْ كَانَ بِذَلِكَ جَاهِلًا أَنْ يَعْلَمَ مَعَانِيَ كَلَامِ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَتَدَبَّرَهُ بَعْدُ، وَأَنْ يَتَّعِظَ بِحُكْمِهِ وَصُنُوفِ عِبَرِهِ.

فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ اللهُ -جَلَّ ثَنَاؤُهُ- قَدْ أَمَرَ عِبَادَهُ بِتَدَبُّرِهِ، وَحَثَّهُمْ عَلَىٰ الِاعْتِبَارِ بِأَمْثَالِهِ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ مَنْ كَانَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ آيُهُ جَاهِلًا، وَإِذْ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا وَهُمْ بِمَا يَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ عَالِمُونَ، صَحَّ أَنَّهُمْ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ يُحْجَبْ عَنْهُمْ عِلْمُهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ -أَيِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ مِنْهُ

دُونَ خَلْقِهِ-».

قَالَ: «الَّذِي قَدْ قَدَّمْنَا صِفَتَهُ آنِفًا إِلَّا إِذَا كَانُوا بِهِ عَالِمِينَ.

وَإِذْ صَحَّ ذَلِكَ فَسَدَ قَوْلُ مَنْ أَنْكَرَ تَفْسِيرَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَتَنْزِيلِهِ مَا لَمْ يُحْجَبْ عَنْ خَلْقِهِ تَأْوِيلُهُ».

هَذَا الْكَلَامُ كُلُّهُ يُؤَدِّي فِي النِّهَايَةِ إِلَىٰ النَّتِيجَةِ الَّتِي يُرَادُ الْوُصُولُ إِلَيْهَا؛ وَهِيَ أَنَّهُ لَا يُصَدُّ عَنْ فَهْمِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَتَدَبُّرِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ آتَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَقْلًا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَدَرَّجَ، وَأَنْ يَتَرَقَّىٰ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَفِي تَدَبُّرِ تِلْكَ الْمَعَانِي، مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْمُرَادِ مِنْهَا.

* **وَلِذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: التَّدَرُّجُ فِي التَّدَبُّرِ.**

فَمِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِطَرِيقَةِ التَّدَرُّجِ؛ فَإِنَّ الْبُيُوتَ تُؤْتَىٰ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ مِنْهُ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ، وَأُخَرَ مُتَشَابِهَاتٍ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عِمْرَان: ٧].

وَلَمَّا كَانَ الْمُفَصَّلُ مِنْ قَبِيلِ الْمُحْكَمِ فَيُبْدَأُ بِهِ أَوَّلًا.

فَمَنْ رَامَ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُوم؛ فَلْيَبْدَأْ بِالْمُفَصَّل، وَيُرَادُ بِهَذَا الْكَلَام -يَعْنِي الْعِلْمَ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُوم- مَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْعَظِيم، فَمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ فَلْيَبْدَأْ بِالْمُفَصَّل، يَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مُتَعَلِّمًا فَلْيَتَعَلَّمْ مِنَ الْمُفَصَّل؛ فَإِنَّهُ أَيْسَرُ».

وَقَدْ بَوَّبَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بِقَوْلِهِ: «بَابُ تَعْلِيمِ الصِّبْيَانِ الْقُرْآنَ»، ثُمَّ أَوْرَدَ أَثَرَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الْمُحْكَمُ»، قَالَ: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ -يُرِيدُ الْمُفَصَّلَ-».

فَظَاهِرُ هَذَا أَنَّ ابْنَ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بَدَأَ بِالْمُفَصَّل فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبُدَاءَةَ بِالْمُفَصَّل أَيْسَرُ فِي الْفَهْم، وَأَسْهَلُ فِي الْحِفْظِ كَذَلِكَ كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آنِفًا.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ».

وَالْمُفَصَّلُ أَوَّلُهُ مِنْ (سُورَةِ ق) إِلَىٰ آخِرِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْم.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: **التَّخَلِّي عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْم مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي**؛ فَإِنَّ ذَلِكَ حِجَابٌ كَثِيفٌ دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ.

فَاحْفَظْ فُؤَادَكَ عَنِ الْحَرَام، وَجَوَارِحَكَ عَنِ الْآثَام؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَطِّلُهَا عَنْ الِانْتِفَاعِ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الذُّنُوبَ إِذَا كَثُرَتْ أَظْلَمَ الْقَلْبُ، وَانْطَفَأَ نُورُهُ، وَعَلَاهُ الرَّانُ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بَاطِنُ الْقُرْآنِ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الْقُلُوبُ الْمُطَهَّرَةُ، وَأَمَّا الْقُلُوبُ الْمُنَجَّسَةُ فَلَا تَمَسُّ حَقَائِقَهُ، فَهَذَا مَعْنًىٰ صَحِيحٌ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَمْنَعُ قُلُوبَهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ** -وَالنُّكْتَةُ كَالنُّقْطَةِ وَزْنًا وَمَعْنًىٰ؛ أَيْ: نُقِطَ فِي قَلْبِهِ نُقْطَةٌ سَوْدَاءُ- **فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ:** ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المُطَفِّفِين: ١٤]»، فَالذُّنُوبُ تَرِينُ عَلَىٰ الْقُلُوب حَتَّىٰ تَمْنَعَهَا فَهْمَ كَلَام عَلَّام الْغُيُوب».

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَىٰ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَىٰ تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لَا يُهْدَىٰ لِعَاصِي

وَقَدْ شَرَطَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْإِنَابَةَ فِي الْفَهْمِ وَالتَّذَكُّرِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

فَشَرَطَ اللهُ تَعَالَىٰ الْإِنَابَةَ فِي الْفَهْمِ وَالتَّذَكُّرِ.

فَالتَّدَرُّجُ بِالتِّلَاوَةِ لِتَحْقِيقِ التَّدبُّرِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُسَاعِدُ عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَلَقَدْ سَاعَدَ نُزُولُ الْقُرْآنِ مُنَجَّمًا نَجْمًا نَجْمًا.. لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ آيَاتٍ آيَاتٍ؛ أَيْ نَجْمًا نَجْمًا، فَسَاعَدَ نُزُولُ الْقُرْآنِ كَذَلِكَ عَلَىٰ سُهُولَةِ تَدَبُّرِهِ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ خَمْسُ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ «اقْرَأْ».

قَالَ الْحَافِظُ: «أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَن السُّلَمِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ خَمْسَ آيَاتٍ خَمْسَ آيَاتٍ، وَأَسْنَدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَذَكَرَ أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَنْزِلُ بِهِ كَذَلِكَ، وَهُوَ مُرْسَلٌ جَيِّدٌ، وَشَاهِدُهُ -قَالَ- مَا قَدَّمْتُهُ فِي تَفْسِيرِ الْمُدَّثِّرِ وَفِي تَفْسِيرِ سُورَةِ اقْرَأْ».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَاسْتَحَبَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ يُلَقَّنَ الْقُرْآنُ خَمْسَ آيَاتٍ»، قَالَ: «وَرُوِّينَاهُ عَنْهُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ».

وَثَبَتَ -أَيْضًا- عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

فَيُسْتَنْتَجُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ التَّدَرُّجَ كَانَ مَا بَيْنَ خَمْسِ آيَاتٍ إِلَىٰ عَشْرِ آيَاتٍ،

وَأَنَّ هِمَّةَ الصَّحَابَةِ ﷺ كَانَتْ أَقْوَىٰ، وَفِي الْحَالَتَيْن يَتَبَيَّنُ قِلَّةُ عَدَدِ الْآيَاتِ الَّتِي تُحْفَظُ وَتَرْسَخُ فِي الْأَذْهَانِ رَسْمًا وَحِفْظًا وَفَهْمًا، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ الْعَمَل بالْجَوَارِح آدَابًا وَأَحْكَامًا.

وَبِهَذَا الْعَمَل فِي الْعَالَم الْإِسْلَامِيِّ غَالِبًا يَكُونُ الشَّأْنُ فِي تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

●●●

مِنْ وَسَائِلِ التَّدَبُّرِ وَالْأُمُورِ الْمُعِينَةِ عَلَيْهِ:
تَلَقِّي الْقُرْآنَ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ

وَمِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُتَوَسَّلُ بِهَا إِلَىٰ الْوُصُولِ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ عَلَىٰ النَّحْوِ الْمَرْضِيِّ: أَنْ يُتَلَقَّىٰ الْقُرْآنُ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ ﵃.

فَمَنْ رَامَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ فَلْيَتَلَقَّاهُ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ ﵃، كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ عَشْرَ آيَاتٍ عَشْرَ آيَاتٍ، وَلَكِنْ كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَيَفْقَهُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فَهِمُوهُ مِنْ ذَلِكَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الشَّرِيفِ، فَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا.

وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنَ الصَّحَابَةِ يَمْكُثُ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ؛ لِتَدَبُّرِهَا، وَتَعَلُّم مَا فِيهَا، كَمَا رَوَىٰ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن عُمَرَ ﵄: «أَنَّهُ مَكَثَ عَلَىٰ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا».

وَرَحِمَ اللهُ الْإِمَامَ مَالِكًا حَيْثُ قَالَ: «وَلَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا».

فَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ، وَرَدَ مَعِينَهُمْ، وَحَصَّلَ تَحْصِيلَهُمْ؛ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَرَاكِزَ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الْحِزْبِيِّينَ، وَالَّتِي تُعْنَىٰ بِتَحْفِيظِ

الْقُرْآنِ وَحَمْلِهِ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ وَجِيزَةٍ، أَنَّ هَذَا مِنَ النُّسُكِ الْأَعْجَمِيِّ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَعَلَّمَ الْقُرْآنُ بِتَعَلُّمِ الْآيَاتِ مَعَ فِقْهِ مَعَانِيهَا وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا.

فَهَذَا سَبِيلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ - كَعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَغَيْرِهِمَا- أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّىٰ يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا».

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتَحَدِّثًا عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «كَانَتْ عِنَايَتُهُمْ بِأَخْذِ الْمَعَانِي أَعْظَمَ مِنْ عِنَايَتِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ، وَكَانُوا يَأْخُذُونَ الْمَعَانِيَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْخُذُونَ الْأَلْفَاظَ لِيَضْبِطُوا بِهَا الْمَعَانِيَ حَتَّىٰ لَا تَشِذَّ عَنْهُمْ.

قَالَ جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيُّ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إِيمَانًا».

وَقَدْ رَوَىٰ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَىٰ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا، كَمَا تَعْلَمُونَ وَتَتَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ.

ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ

خَاتِمَتِهِ، مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ». قَالَ الْحَاكِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَا أَعْرِفُ لَهُ عِلَّةً، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ».

⦿⦿⦿

مِنْ وَسَائِلِ التَّدَبُّرِ وَالْأُمُورِ الْمُعِينَةِ عَلَيْهِ: تَرْتِيلُ الْقُرْآنِ وَتَحْسِينُ الصَّوْتِ بِتَجْوِيدِهِ

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ أَنْ يُرَتَّلَ الْقُرْآنُ تَرْتِيلًا، وَأَنْ يُحَسَّنَ الصَّوْتُ بِتِلَاوَتِهِ وَتَجْوِيدِهِ.

فَمِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ: تَرْتِيلُهُ، وَتَحْسِينُ الصَّوْتِ بِتِلَاوَتِهِ وَتَجْوِيدُهُ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَ مُرَتَّلًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفُرْقَان: ٣٢].

وَأَمَرَ -سُبْحَانَهُ- نَبِيَّهُ ﷺ بِتَرْتِيلِهِ؛ فَقَالَ -جَلَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٤].

﴿تَرْتِيلًا﴾: مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ، قُصِدَ بِهِ مَا فِي التَّنْكِيرِ مِنْ مَعْنَىٰ التَّعْظِيمِ، ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٤]، فَصَارَ الْمَصْدَرُ مُبَيِّنًا لِنَوْعِ التَّرْتِيلِ.

وَقَدِ امْتَثَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ، فَكَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا، فَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ يَمُدُّ بِـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وَيَمُدُّ بِـ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم: «كَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ**: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنِّي رَجُلٌ سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، وَرُبَّمَا قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ.

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً وَاحِدَةً أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ مِثْلَ الَّذِي تَفْعَلُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا لَا بُدَّ، فَاقْرَأْهُ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أُذُنَيْكَ، وَيَعِيهِ قَلْبُكَ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّرْتِيلُ أَفْضَلُ مِنَ الْهَذِّ، إِذْ لَا يَصِحُّ التَّدَبُّرُ مَعَ الْهَذِّ».

إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوُا الْقُرْآنَ رَسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ، وَيُنَفِّذُونَهَا بِالنَّهَارِ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، وَتَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ**: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي لَأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ -أَيْ: مِنْ (سُورَةِ ق) إِلَىٰ (سُورَةِ النَّاسِ)، يَقْرَأُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ- فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، لَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الطَّبَرِيُّ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَخْوَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَلَا

أَرْجَىٰ لِلنَّاسِ مِنَ الْفُضَيْلِ، كَانَتْ قِرَاءَتُهُ حَزِينَةً، شَهِيَّةً، بَطِيئَةً، مُتَرَسِّلَةً، كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ إِنْسَانًا، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ يُرَدِّدُ فِيهَا، وَسَأَلَ».

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالتَّرْتِيلُ مُسْتَحَبٌّ لِلتَّدَبُّرِ، وَلِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْإِجْلَالِ وَالتَّوْقِيرِ، وَأَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي الْقُلُوبِ، وَلِهَذَا يُسْتَحَبُّ التَّرْتِيلُ لِلْأَعْجَمِيِّ الَّذِي لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ».

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَحْسِينِ الصَّوْتِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالْخُشُوعِ، وَكَمَالِ التَّأَثُّرِ، حَتَّىٰ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَقَالَ ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ**». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا قِرَاءَتَهُ بِالنَّغَمَاتِ وَالْقَوَانِينِ الْمُوسِيقِيَّةِ، وَمَا يُعْرَفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالْمَقَامَاتِ، فَإِنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ يُصَانُ وَيُجَلُّ وَيُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ مَا اسْتَمَعَ لِشَيْءٍ -**مَا أَذِنَ لِشَيْءٍ**: أَيْ مَا اسْتَمَعَ لِشَيْءٍ- كَاسْتِمَاعِهِ لِقِرَاءَةِ نَبِيٍّ يَجْهَرُ بِقِرَاءَتِهِ وَيُحَسِّنُهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَجْتَمِعُ فِي قِرَاءَةِ الْأَنْبِيَاءِ طِيبُ الصَّوْتِ لِكَمَالِ خَلْقِهِمْ، وَتَمَامُ الْخَشْيَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْغَايَةُ فِي ذَلِكَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «سُبْحَانَ اللهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ»، وَلَكِنَّ اسْتِمَاعَهُ لِقِرَاءَةِ عِبَادِهِ

الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآيَةَ [يُونُس: ٦١]، ثُمَّ اسْتِمَاعَهُ لِقِرَاءَةِ أَنْبِيَائِهِ أَبْلَغُ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ».

وَكَانَ نَبِيُّنَا ﷺ أَحْسَنَ النَّاس صَوْتًا بِالْقُرْآنِ.

قَالَ الْبَرَاءُ رضي الله عنه: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فِي الْعِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَحِينَمَا اسْتَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ قِرَاءَةِ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَثْنَىٰ عَلَىٰ قِرَاءَتِهِ، وَقَالَ لَهُ: «**يَا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**».

وَعِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ أَنَّ أَبَا مُوسَىٰ رضي الله عنه **قَالَ:** «لَوْ عَلِمْتُ، لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِير رحمه الله: «فَدَلَّ عَلَىٰ جَوَازِ تَعَاطِي ذَلِكَ وَتَكَلُّفِهِ -يُرِيدُ تَزْيِينَ الْأَصْوَاتِ عِنْدَ التِّلَاوَةِ- مَعَ التَّخْشِيعِ وَالْبُكَاءِ إِنِ اسْتَطَاعَ».

فِي «شَرْحِ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ» لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رحمه الله: «فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ حَسَّنَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ لِأَجْلِ أَنْ يَتَلَذَّذَ السَّامِعُ وَيُسَرَّ بِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا يُعَدُّ مِنَ الرِّيَاءِ، بَلْ هَذَا مِمَّا يَدْعُو إِلَىٰ الِاسْتِمَاعِ لِكَلَامِ اللهِ عز وجل حَتَّىٰ يُسَرَّ النَّاسُ بِهِ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْغَرَضُ أَنَّ الْمَطْلُوبَ شَرْعًا إِنَّمَا هُوَ التَّحْسِينُ بِالصَّوْتِ الْبَاعِثُ عَلَىٰ تَدبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ لِلطَّاعَةِ، فَأَمَّا الْأَصْوَاتُ بِالنَّغَمَاتِ الْمُحْدَثَةِ الْمُرَكَّبَةِ عَلَىٰ الْأَوْزَانِ وَالْأَوْضَاعِ الْمُلْهِيَةِ، وَالْقَانُونِ الْمُوسِيقَائِيِّ، فَالْقُرْآنُ يُنَزَّهُ عَنْ هَذَا وَيُجَلُّ وَيُعَظَّمُ أَنْ يُسْلَكَ فِي أَدَائِهِ هَذَا الْمَذْهَبُ».

ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ».

فَهَذَا دَاءٌ قَدِيمٌ، أَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ، بَلْ لَهُ سَابِقَةٌ، فَهَذَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَىٰ فَاعِلِيهِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ بِالْأَصْوَاتِ وَالنَّغَمَاتِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي رُكِّبَتْ عَلَىٰ الْأَوْزَانِ، وَالْأَوْضَاعِ الْمُلْهِيَةِ، وَالْقَانُونِ الْمُوسِيقَائِيِّ.

الْقُرْآنُ يُنَزَّهُ عَنْ هَذَا، وَيُجَلُّ، وَيُعَظَّمُ أَنْ يُسْلَكَ فِي أَدَائِهِ هَذَا الْمَذْهَبُ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّطْرِيبُ وَالتَّغَنِّي عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَا اقْتَضَتْهُ الطَّبِيعَةُ وَسَمَحَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا تَمْرِينٍ وَلَا تَعْلِيمٍ، بَلْ إِذَا خُلِّيَ وَطَبْعَهُ، وَاسْتَرْسَلَتْ طَبِيعَتُهُ، جَاءَتْ بِذَلِكَ التَّطْرِيبِ وَالتَّلْحِينِ، فَذَلِكَ جَائِزٌ، وَإِنْ أَعَانَ طَبِيعَتَهُ بِفَضْلِ تَزْيِينٍ وَتَحْسِينٍ كَمَا قَالَ أَبُو مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا».

وَالْحَزِينُ، وَمَنْ هَاجَهُ الطَّرَبُ وَالْحُبُّ وَالشَّوْقُ، لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ دَفْعَ

التَّحْزِينِ وَالتَّطْرِيبِ فِي الْقِرَاءَةِ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ تَقْبَلُهُ وَتَسْتَحْلِيهِ لِمُوَافَقَتِهِ الطَّبْعَ، وَلِعَدَمِ التَّكَلُّفِ وَالتَّصَنُّعِ فِيهِ، فَهُوَ مَطْبُوعٌ لَا مُتَطَبَّعٌ، وَكَلِفٌ لَا مُتَكَلَّفٌ.

فَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ السَّلَفُ يَفْعَلُونَهُ وَيَسْتَمِعُونَهُ، وَهُوَ التَّغَنِّي الْمَمْدُوحُ الْمَحْمُودُ، وَهُوَ الَّذِي يَتَأَثَّرُ بِهِ التَّالِي وَالسَّامِعُ، وَعَلَىٰ هَذَا الْوَجْهِ تُحْمَلُ أَدِلَّةُ أَرْبَابِ هَذَا الْقَوْلِ كُلُّهَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ صِنَاعَةً مِنَ الصَّنَائِعِ، وَلَيْسَ فِي الطَّبْعِ السَّمَاحَةُ بِهِ، بَلْ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِتَكَلُّفٍ وَتَصَنُّعٍ وَتَمَرُّنٍ، كَمَا يُتَعَلَّمُ أَصْوَاتُ الْغِنَاءِ بِأَنْوَاعِ الْأَلْحَانِ الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ عَلَىٰ إِيقَاعَاتٍ مَخْصُوصَةٍ، وَأَوْزَانٍ مُخْتَرَعَةٍ، لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالتَّعَلُّمِ وَالتَّكَلُّفِ.

فَهَذِهِ هِيَ الَّتِي كَرِهَهَا السَّلَفُ، وَعَابُوهَا، وَذَمُّوهَا، وَمَنَعُوا الْقِرَاءَةَ بِهَا، وَأَنْكَرُوا عَلَىٰ مَنْ قَرَأَ بِهَا».

وَالصَّوْتُ الْحَسَنُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ.

قَالَ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَنْبَغِي لِمَنْ رَزَقَهُ اللهُ حُسْنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ قَدْ خَصَّهُ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ؛ فَلْيَعْرِفْ قَدْرَ مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ، وَلْيَقْرَأْ لِلَّهِ لَا لِلْمَخْلُوقِينَ.

وَلْيَحْذَرْ مِنَ الْمَيْلِ إِلَىٰ أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ لِيَحْظَىٰ بِهِ عِنْدَ السَّامِعِينَ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا، مَعَ الْمَيْلِ إِلَىٰ حُسْنِ الثَّنَاءِ وَالْجَاهِ عِنْدَ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، وَالصَّلَاةِ بِالْمُلُوكِ دُونَ

الصَّلَاةِ بِعَوَامِّ النَّاس.

فَمَنْ مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَىٰ مَا نَهَيْتُهُ عَنْهُ؛ خِفْتُهُ أَنْ يَكُونَ حُسْنُ صَوْتِهِ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُ حُسْنُ صَوْتِهِ إِذَا خَشِيَ اللهَ تَعَالَىٰ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَكَانَ مُرَادُهُ أَنْ يُسْتَمَعَ مِنْهُ الْقُرْآنُ لِيَنْتَبِهَ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنْ غَفْلَتِهِمْ، فَيَرْغَبُوا فِيمَا رَغَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ، وَيَنْتَهُوا عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ انْتَفَعَ بِحُسْنِ صَوْتِهِ وَانْتَفَعَ بِهِ النَّاسُ».

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ وَالْبَاقِي يَسْتَمِعُونَ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ لِأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**يَا أَبَا مُوسَىٰ، ذَكِّرْنَا رَبَّنَا**»، فَيَقْرَأُ أَبُو مُوسَىٰ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ.

وَمَا أَجْمَلَهُ! بَلْ مَا أَحْرَىٰ وَأَجْدَرَ أَنْ يَأْخُذَ الْمُسْلِمُونَ بِهَذَا الْهَدْيِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ حَسَنَ الصَّوْتِ مُتْقِنًا لِلتِّلَاوَةِ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِرَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا؛ فَإِنَّ فِي هَذَا خَيْرًا عَظِيمًا، وَلِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُؤْخَذْ بِهِ فَالْمَجَالِسُ مَجَالِسُ نَمِيمَةٍ، وَمَجَالِسُ مَعِيبَةٌ؛ يُخَاضُ فِيهَا فِي الْأَعْرَاضِ، وَيُتَكَلَّمُ فِيهَا فِي الْحَرَام دُونَ الْحَلَالِ، وَتُذْبَحُ فِيهَا الْأَوْقَاتُ حَتَّىٰ تَذْهَبَ هَدَرًا.

وَوَقْتُ الْمُسْلِم وَعُمُرُهُ رَأْسُ مَالِهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفَرِّطَ مِنْهُ فِي ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَحْفَظَ عَلَىٰ نَفْسِهِ عُمُرَهُ الَّذِي مَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِهِ؛ حَتَّىٰ لَا

يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخَزَانَاتٍ فَارِغَةٍ، فَإِنَّ كُلَّ وَقْتٍ يَمُرُّ عَلَيْهِ لَهُ خِزَانَةٌ يَجِدُ مَا حَصَّلَ فِيهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا وَجَدَ خَزَائِنَهُ فَارِغَةً فَقَدْ أَضَاعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ، فَكَيْفَ إِذَا وَجَدَ فِي تِلْكَ الْخَزَائِنِ كُلَّ مَا يَسُوؤُهُ مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَإِنْفَاقٍ لِلْأَعْمَارِ فِيمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، بَلْ يُؤَدِّي إِلَىٰ غَضَبِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَسَخَطِهِ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

●●●

أُمُورٌ شُرِعَتْ مِنْ أَجْلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ

هُنَاكَ أُمُورٌ شُرِعَتْ مِنْ أَجْلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ؛ مِنْهَا:

*** إِنْزَالُ الْقُرْآنِ وَالتَّعَبُّدُ بِقِرَاءَتِهِ؛** فَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ؛ لِيُتَدَبَّرَ، وَيُتَفَكَّرَ فِيهِ، وَيُعْمَلَ بِهِ، لَا لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ مَعَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «تَحْدِيقُ نَاظِرِ الْقَلْبِ إِلَىٰ مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ إِنْزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ التِّلَاوَةِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ».

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِلتَّدَبُّرِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، لَا لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ بِدُونِ تَفَكُّرٍ».

فَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شُرِعَتْ مِنْ أَجْلِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ.

*** وَمِنْهَا -كَمَا مَرَّ-: التَّرْتِيلُ، وَالتَّغَنِّي بِالْقِرَاءَةِ وَتَحْسِينُهَا، وَصَلَاةُ اللَّيْلِ، وَالْقِرَاءَةُ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَكَذَا الْقِرَاءَةُ فِي اللَّيْلِ.**

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٦].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَقَوْلُهُ ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يُفْهَمَ الْقُرْآنُ».

قَالَ ابْنُ حَجَر عَنْ مُدَارَسَةِ جِبْرِيلَ ﷺ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ: «الْمَقْصُودُ مِنَ التِّلَاوَةِ الْحُضُورُ وَالْفَهْمُ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ مَظِنَّةُ ذَلِكَ، لِمَا فِي النَّهَارِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَارِض الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ».

وَهُنَاكَ مِنَ الشَّوَاهِدِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ اقْتِرَانِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، فَتَقْتَرِنُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٣].

وَقَوْلِهِ ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَذَا فِي شَفَاعَةِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِصَاحِبِهِ، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ: «**مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَب»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيح الْجَامِعِ» وَغَيْرِهِ.

*** وَمِمَّا شُرِعَ -أَيْضًا- مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَدَبُّرِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: سَلَامَةُ التِّلَاوَةِ، وَإِتْقَانُ التَّجْوِيدِ.**

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ الْكِرَامِ السَّفَرَةِ**».

وَكَوْنُهُ مَاهِرًا بِهِ يَشْمَلُ إِتْقَانَهُ لِلْحِفْظِ مَعَ سَلَامَةِ التِّلَاوَةِ وَإِتْقَانِ التَّجْوِيدِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَبْنَىٰ الْكَلَامِ قَائِمٌ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، وَلَا شَكَّ أَنَّ سَلَامَةَ النُّطْقِ تَزِيدُ الْفَهْمَ، وَتُكَمِّلُ الْإِدْرَاكَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، وَإِذَا اخْتَلَّ النُّطْقُ بِالْكَلِمَةِ أَوْ بِإِعْرَابِهَا فَإِنَّ الْمَعْنَىٰ يَتَغَيَّرُ، أَوْ يَكُونُ نَاقِصًا، أَوْ يَكُونُ غَيْرَ بَيِّنٍ، بَلْ رُبَّمَا اسْتَحَالَ الْمَعْنَىٰ -يَعْنِي: أَتَىٰ عَلَىٰ النَّقِيضِ مِمَّا عَلَيْهِ الْمَعْنَىٰ فِي حَقِيقَتِهِ-

وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُبْعِدُ الْقَلْبَ عَن التَّدَبُّرِ وَتَفَهُّم الْآيَاتِ.

قَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ التَّحْقِيقَ يَكُونُ لِلرِّيَاضَةِ وَالتَّعَلُّم وَالتَّمْرِين، وَالتَّرْتِيلُ يَكُونُ لِلتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالِاسْتِنْبَاطِ، فَلَيْسَ كُلُّ تَرْتِيل تَحْقِيقًا».

*** وَمِمَّا شُرِعَ -أَيْضًا- مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التِّلَاوَةِ: الِاسْتِعَاذَةُ.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النَّحْل: ٩٨].

وَثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **كَانَ إِذَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ اسْتَفْتَحَ، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ باللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم؛ مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ**».

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَحْرَصُ مَا يَكُونُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ؛ لِهَذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ تَعَالَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، **وَفِي ذَلِكَ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:**

أَنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَتَكُونُ الِاسْتِعَاذَةُ تَنْقِيَةً لِمَا فِي الْقَلْب مِمَّا أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ مِنَ الشُّرُورِ، وَالْمَلَائِكَةُ تَدْنُوا مِنْ قَارِئِ الْقُرْآنِ، وَتَسْتَمِعُ لَهُ، وَتُثَبِّتُ الْقَلْبَ بِالسَّكِينَةِ، وَالِاسْتِعَاذَةُ تَطْرُدُ الشَّيَاطِينَ.

وَالشَّيْطَانُ يَشْغَلُ الْقَارِئَ، وَيُقْبِلُ عَلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ وَفِي غَيْرِهَا بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، فَيَحْرِصُ جُهْدَهُ عَلَىٰ أَنْ يَحُولَ بَيْنَ الْقَلْب وَبَيْنَ مَقْصُودِ الْقُرْآنِ؛ وَهُوَ تَدَبُّرُهُ وَتَفَهُّمُهُ وَالتَّأَثُّرُ بِهِ، وَالِاسْتِعَاذَةُ تَدْفَعُ ذَلِكَ.

وَمَا مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ إِلَّا أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي قِرَاءَتِهِ، فَهَذَا فِعْلُهُ مَعَ الرُّسُلِ، فَكَيْفَ بِغَيْرِهِمْ؟!!

وَلِهَذَا فَهُوَ يُغَالِطُ الْقَارِئَ -أَي الشَّيْطَانُ يُغَالِطُ الْقَارِئَ- وَيُنْسِيهِ، وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِ لِسَانَهُ، أَوْ يَشْغَلُ قَلْبَهُ وَذِهْنَهُ، أَوْ يَجْمَعُهُمَا لَهُ.

وَلِهَذَا وَغَيْرِهِ أُمِرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ.

وَأَيْضًا لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ تَمْنَعُ الشَّيْطَانَ مِنْ أَنْ يُفْسِدَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالنُّورِ وَالْعِلْمِ وَالْخَيْرِ لِتَفَهُّمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ.

*** وَمِمَّا شُرِعَ -أَيْضًا- مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: الْإِنْصَاتُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ؛ لِقَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا:** ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ٢٠٤].

قَالَ الشَّوْكَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَرَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ، وَالْإِنْصَاتِ لَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ؛ لِيَنْتَفِعُوا بِهِ، وَيَتَدَبَّرُوا مَا فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَمِنَ الْمَصَالِحِ».

*** وَأَيْضًا مِمَّا شُرِعَ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِرُوحِ الْفَرَحِ وَالِاسْتِبْشَارِ؛ فَهَذَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ.**

فَمَنْ رَامَ فَهْمَ الْقُرْآنِ فَلْيَقْرَأْهُ قِرَاءَةَ فَرِحٍ بِهِ مُسْتَبْشِرٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ دَوَاعِي التَّدَبُّرِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يُونُس: ٥٧- ٥٨].

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَذُكِرَ عَنْ بَقِيَّةَ -يَعْنِي ابْنَ الْوَلِيدِ- عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ أَيْفَعَ بْنَ عَبْدٍ الْكَلَاعِيَّ يَقُولُ: لَمَّا قَدِمَ خَرَاجُ الْعِرَاقِ إِلَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ عُمَرُ وَمَوْلًى لَهُ، فَجَعَلَ عُمَرُ يَعُدُّ الْإِبِلَ، فَإِذَا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَجَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَقُولُ مَوْلَاهُ: هَذَا وَاللهِ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.

فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ، لَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وَهَذَا ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ -يَعْنِي الْإِبِلَ-».

إِذَنْ؛ هُوَ يُرِيدُ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ عَلَىٰ حَسَبِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ، فَقَدْ ذُكِرَ قَبْلَهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كِتَابُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فَلَمَّا قَالَ مَوْلَىٰ عُمَرَ لِلْإِبِلِ: إِنَّهَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، قَالَ: «كَذَبْتَ، لَيْسَ

هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، هَذَا «﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾».

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرَّعْد: ٢٨].

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبى الْحَوَارِيِّ: «إِنِّي لَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَأَنْظُرُ فِي آيَةٍ آيَةٍ، فَيَتَحَيَّرُ عَقْلِي بِهَا، وَأَعْجَبُ مِنْ حُفَّاظِ الْقُرْآنِ كَيْفَ يَهْنِيهِمُ النَّوْمُ، وَيَسَعُهُمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَهُمْ يَتْلُونَ كَلَامَ اللهِ، أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ فَهِمُوا مَا يَتْلُونَ، وَعَرَفُوا حَقَّهُ، وَتَلَذَّذُوا بِهِ، وَاسْتَحْلُوا الْمُنَاجَاةَ بِهِ؛ لَذَهَبَ عَنْهُمُ النَّوْمُ فَرَحًا بِمَا قَدْ رُزِقُوا».

مَنَعَ الْقُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِهَا لَا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلَامَهُ ... فَهِمَا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «أَهْلُ اللَّيْلِ فِي لَيْلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ فِي لَهْوِهِمْ، وَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا».

وَقَالَ آخَرُ: «مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا؛ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا.

قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟

قَالَ: مَحَبَّةُ اللهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ».

وَلِهَذَا لَمَّا عَرَفُوا قَدْرَ مَا رُزِقُوا وَحَفِظُوا؛ أَشْفَقُوا أَنْ يُسْلَبُوهُ.

وَقَدْ كَانَ مِنْ دُعَاءِ أَبِى الْحَلَالِ الْعَتَكِيِّ -وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَعُبَّادِهِمْ-: «اللَّهُمَّ لَا تَسْلُبْنِي الْقُرْآنَ»؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُسْلَبُ بالذُّنُوب، كَمَا وَرَدَ عَنْ كَثِير مِنَ السَّلَفِ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَقَفَ يَنْظُرُ -النَّظَرَ الْمُحَرَّمَ- فَرَآهُ شَيْخُهُ فَقَالَ: مَا وُقُوفُكَ هَا هُنَا؟

فَقَالَ: يَا عَمِّ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ، كَيْفَ يُعَذِّبُهَا اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بالنَّارِ؟

فَقَالَ: لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ -أَيْ: عَاقِبَتَهُ- وَلَوْ بَعْدَ حِين.

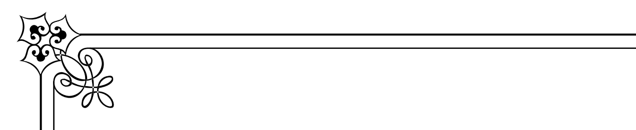
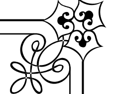
قَالَ: فَلَبِثْتُ دَهْرًا أُرَاعِي وَأُرَاقِبُ ذَلِكَ الْغِبَّ، قَالَ: حَتَّىٰ نِمْتُ لَيْلَةً فَاسْتَيْقَظْتُ وَقَدْ أُنْسِيتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ!!

فَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَسْلُبْنِي الْقُرْآنَ».

فَمَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَقَدْ أُوتِيَ أَعْظَمَ مَا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ، وَأَجَلَّ مَا يَفْرَحُ بِهِ الْعَارِفُونَ، لِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًّا عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحِجْر: ٨٧- ٨٨].

فَنَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ فَتْحًا مُبَارَكًا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا تِلَاوَتَهُ وَتَدَبُّرَهُ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَأَنْ يَنْفَعَنَا اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

●●●

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْعَاشِرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ

فَمِنَ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: مَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ.

وَمَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ أَهَمِّ الْعَوَامِلِ الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ تَدبُّرِ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَالَ الْوَاحِدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذْ هِيَ أَوْفَىٰ مَا يَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا، وَأَوْلَىٰ مَا تُصْرَفُ الْعِنَايَةُ إِلَيْهَا، لِامْتِنَاعِ مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَقَصْدِ سَبِيلِهَا دُونَ الْوُقُوفِ عَلَىٰ قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا».

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْآيَةِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُعْرَفْ مَا نَوَاهُ الْحَالِفُ رُجِعَ إِلَىٰ سَبَبِ يَمِينِهِ وَمَا هَيَّجَهَا وَمَا أَثَارَهَا».

وَهَذَا مِثَالٌ يَتَّضِحُ بِهِ الْمَقْصُودُ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: **﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾** [البَقَرَة:١٥٨]، فَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَفْيُ الْجُنَاحِ عَمَّنِ اطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَهَذَا وَحْدَهُ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْفَرْضِيَّةِ، لَكِنْ إِذَا عُرِفَ سَبَبُ النُّزُولِ

فُهِمَتِ الْآيَةُ عَلَىٰ وَجْهِهَا، فَإِنَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ تَحَرَّجَ عَنِ الطَّوَافِ عَلَىٰ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِكَوْنِهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُعْبَدُ عِنْدَهُمَا الْأَصْنَامُ.

لِهَذَا تَرْجَمَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِهِ»: «بَابُ وُجُوبِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَجَعْلِهِ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ»؛ يَعْنِي: وَجَعْلِ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَوْرَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدِيثَ عُرْوَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة:١٥٨]، فَوَاللهِ مَا عَلَىٰ أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.

قَالَتْ: «بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ كَانَتْ: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا! وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطَّوَّفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ...﴾ الْآيَةَ [البقرة:١٥٨]».

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا».

قَالَ: ثُمَّ أَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا لَعِلْمٌ مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَذْكُرُونَ أَنَّ النَّاسَ -إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ

عَائِشَةُ مِمَّنْ كَانَ يُهِلُّ بِمَنَاةَ- كَانُوا يَطُوفُونَ كُلُّهُمْ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ فِي الْقُرْآنِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُنَّا نَطُوفُ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، فَهَلْ عَلَيْنَا مِنْ حَرَجٍ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ** ...﴾ الْآيَةَ [البَقَرَة:١٥٨]».

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «فَأَسْمَعُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا؛ فِي الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْجَاهِلِيَّةِ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالَّذِينَ يَطُوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا فِي الْإِسْلَامِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، حَتَّىٰ ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ». الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ -أَيْضًا- مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَمَعْرِفَةُ سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يَجْعَلُ فَهْمَهَا مُسْتَقِيمًا عَلَىٰ النَّحْوِ الْمَرْضِيِّ كَمَا مَرَّ بَيَانُهُ، فَمَعْرِفَةُ أَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالتَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَشْرَفُ مَا أُنْفِقَتِ الْأَعْمَارُ فِي تَحْصِيلِهِ، حَمْلًا وَتِلَاوَةً وَفَهْمًا وَتَدَبُّرًا وَعَمَلًا وَتَطْبِيقًا، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَعْلَمَهُ فَضْلَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمَ خَلْقَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ عِصْمَةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ، وَهُدًىٰ لِمَنِ اهْتَدَىٰ بِهِ، وَغِنًىٰ لِمَنِ اسْتَغْنَىٰ بِهِ، وَحِرْزٌ مِنَ

النَّارِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وَنُورٌ لِمَنِ اسْتَنَارَ بِهِ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ خَلْقَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، فَيُحِلُّوا حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَيُؤْمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَيَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَىٰ تِلَاوَتِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ نَدَبَ خَلْقَهُ -أَيْ: دَعَاهُمْ- إِذَا هُمْ تَلَوْا كِتَابَهُ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ، وَيَتَفَكَّرُوا فِيهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَإِذَا سَمِعُوهُ مِنْ غَيْرِهِمْ أَحْسَنُوا اسْتِمَاعَهُ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ، فَلِلَّهِ -تَعَالَىٰ- الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

ثُمَّ أَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنَّ مَنْ تَلَا الْقُرْآنَ وَأَرَادَ بِهِ مُتَاجَرَةَ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ يُرْبِحُهُ الرِّبْحَ الَّذِىٰ لَا بَعْدَهُ رِبْحٌ، وَيُعَرِّفُهُ بَرَكَةَ الْمُتَاجَرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ بَيَانُهُ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَكَذَا هُوَ فِي قَوْلِ صَحَابَتِهِ ﭫ، وَفِىٰ سَائِرِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ.

قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وَقَالَ -عَزَّ مِنْ قَائِلٍ-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَقَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وَقَالَ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَحَبْلُ اللهِ - تَعَالَىٰ- هُوَ الْقُرْآنُ، وَقِيلَ: الْإِسْلَامُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي لَا تَتَعَارَضُ وَلَا تَتَضَادُّ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص٢٩].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

ثُمَّ إِنَّ اللهَ جَلَّاللهُ وَعَدَ مَنِ اسْتَمَعَ كَلَامَهُ فَأَحْسَنَ الْأَدَبَ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِ بِالِاعْتِبَارِ الْجَمِيلِ؛ أَي: بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَلُزُومِ الْوَاجِبِ لِاتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، يُبَشِّرُهُ مِنْهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَوَعَدَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَفْضَلَ الثَّوَابِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وَقَالَ اللهُ جَلَّاللهُ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٥]، فَكُلُّ كَلَامِ رَبِّنَا حَسَنٌ لِمَنْ تَلَاهُ وَلِمَنِ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هَذَا صِفَةُ قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يَتَّبِعُونَ أَحْسَنَ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِمَّا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ مَوْلَاهُمُ الْكَرِيمُ، يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ رِضَاهُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ.

سَمِعُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- قَالَ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعرف: ٢٠٤]، فَكَانَ حُسْنُ اسْتِمَاعِهِمْ يَبْعَثُهُمْ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ فِيمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ.

وَسَمِعُوا اللهَ جَلَّاللهُ قَالَ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ عَنِ الْجِنِّ فِي حُسْنِ اسْتِمَاعِهِمْ لِلْقُرْآنِ، وَاسْتِجَابَتِهِمْ لِمَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَوَعَظُوهُمْ بِمَا سَمِعُوا مِنَ الْقُرْآنِ بِأَحْسَنِ مَا

يَكُونُ مِنَ الْمَوْعِظَةِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، مَا دَلَّنَا عَلَىٰ عَظِيمِ مَا خَلَقَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ عَجَائِبِ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَوْتَ وَعَظِيمَ شَأْنِهِ، وَذَكَرَ النَّارَ وَعَظِيمَ شَأْنِهَا، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَمَا أَعَدَّ فِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فَأَخْبَرَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- أَنَّ الْمُسْتَمِعَ بِأُذُنَيْهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُشَاهِدًا بِقَلْبِهِ مَا يَتْلُو وَمَا يَسْمَعُ لِيَنْتَفِعَ بِتِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، وَبِالِاسْتِمَاعِ مِمَّنْ يَتْلُوهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ حَثَّ خَلْقَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ؛ فَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أَلَا تَرَوْنَ -رَحِمَكُمُ اللهُ- إِلَىٰ مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلَامَهُ، وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ عَرَفَ الرَّبَّ ﷻ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ، فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ، وَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ الْكَرِيمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَىٰ بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ بِمَا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ لِلسُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا: مَتَىٰ أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُو؟ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَزْدَجِرُ؟ مَتَىٰ أَعْتَبِرُ؟ لِأَنَّ تِلَاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ -وَالدَّقَلُ: رَدِيءُ التَّمْرِ، وَالْمَقْصُودُ: لَا تُسْرِعُوا فِي الْقِرَاءَةِ كَمَا تَرْمُونَ بِالتَّمْرِ الرَّدِيءِ- وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ -وَالْهَذُّ: الْكَلَامُ السَّرِيعُ غَيْرُ الْمَفْهُوم، لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ- قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: «الْزَمُوا كِتَابَ اللهِ، وَتَتَبَّعُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَمْثَالِ، وَكُونُوا فِيهِ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ»، ثُمَّ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا عَرَضَ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ، فَإِنْ وَافَقَ كِتَابَ اللهِ حَمِدَ اللهَ وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ، وَإِنْ خَالَفَ كِتَابَ اللهِ أَعْتَبَ نَفْسَهُ وَرَجَعَ مِنْ قَرِيبٍ».

وَعَنْ أَبِي كِنَانَةَ، أَنَّ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جَمَعَ الَّذِينَ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ، فَعَظَّمَ الْقُرْآنَ وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ ذُخْرًا -وَالذُّخْرُ: الثَّوَابُ الْمُدَّخَرُ- وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلَا يَتَّبِعْكُمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ هَبَطَ بِهِ عَلَىٰ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنِ اتَّبَعَهُ الْقُرْآنُ زَجَّ فِي قَفَاهُ فَقَذَفَهُ فِي النَّارِ».

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ -أَي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ حَالَهُ، هَلْ هُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ أَوْ مِنْ غَيْرِ الصَّالِحِينَ، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ- فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْقُرْآنِ».

وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قَالَ: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ».

وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: «إِنَّمَا الْقُرْآنُ عِبَرٌ، إِنَّمَا الْقُرْآنُ عِبَرٌ».

ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «أَخْلَاقِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ».

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ -وَالصُّفَّةُ: مَكَانٌ فِي آخِرِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ كَانَ يَأْوِي إِلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَكَنٌ وَلَا عَشِيرَةٌ حَتَّىٰ يَجِدَ أَحَدُهُمْ

سَكَنًا- قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ** -أَيْ: يَذْهَبَ- **فِي الصَّبَاحِ إِلَىٰ بُطْحَانَ** -وَبُطْحَانُ: اسْمُ وَادٍ فِي الْمَدِينَةِ- **أَوِ الْعَقِيقِ** -اسْمُ وَادٍ آخَرَ عَلَىٰ بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ- **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَىٰ بُطْحَانَ أَوِ الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ كُلَّ يَوْمٍ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ** -كَوْمَاوَيْنِ: مُثَنَّىٰ كَوْمَاءَ؛ وَهِيَ النَّاقَةُ عَظِيمَةُ السَّنَامِ، وَأَمَّا زَهْرَاوَيْنِ: فَبَيْضَاوَيْنِ مِنْ شِدَّةِ السِّمَنِ- **فَيَأْخُذَهُمَا مِنْ غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟!**

قُلْنَا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ يُحِبُّ ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ». الْحَدِيثُ -كَمَا مَرَّ- أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَأَخْرَجَهُ -أَيْضًا- أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمْ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا تَجَالَسَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»؛ يَعْنِي: مَنْ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ عَمَلُهُ الصَّالِحُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَلَنْ تَنْفَعَهُ أَحْسَابُهُ الشَّرِيفَةُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مُعَلَّقٌ مِنْ عَمَلِهِ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِمُسْلِمٍ: «**إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**».

وَعَنْ عَنْتَرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: «قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ»؛ يَعْنِي: ذِكْرُ اللهِ -تَعَالَىٰ- أَكْبَرُ الْأَعْمَالِ، وَلَا يُرِيدُ بِذَلِكَ ذِكْرَ اللِّسَانِ وَحْدَهُ كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ الذِّهْنِ، بَلْ إِنَّ ذِكْرَهُ -تَعَالَىٰ- أَنْوَاعٌ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

◉ ◉ ◉

أَنْوَاعُ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

أَوَّلُ أَنْوَاعِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ: ذِكْرُهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالثَّنَاءُ بِهَا عَلَيْهِ.

الثَّانِي: ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَمْجِيدٍ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عِنْدَ إِطْلَاقِ الذِّكْرِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

الثَّالِثُ: ذِكْرُهُ بِأَحْكَامِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَهُوَ مَا يَفْعَلُهُ الْعَالِمُ حِينَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ طَرِيقِ مَوْلَاهُمْ ﷻ.

الرَّابِعُ: ذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِتِلَاوَةِ آيَاتِهِ، وَالتَّدَبُّرِ فِيهَا، وَالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهَا.

الْخَامِسُ: دُعَاؤُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ.

«قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ -أَيْ: أَكْبَرُ الْأَعْمَالِ-، وَمَا جَلَسَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتَدَارَسُونَ فِيهِ كِتَابَ اللهِ وَيَتَعَاطَوْنَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا أَظَلَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا، وَكَانُوا أَضْيَافَ اللهِ -تَعَالَىٰ- مَا دَامُوا فِيهِ، حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ».

●●●

مِنَ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: مَعْرِفَةُ عِلْمِ الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ

مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَمَامِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: مَعْرِفَةُ عِلْمِ الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ، وَمَعْرِفَةُ عِلْمِ الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ خَيْرُ مُعِينٍ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَعِلْمُ الْوَقْفِ وَالِابْتِدَاءِ عِلْمٌ جَلِيلٌ، وَبِهِ يُعْرَفُ كَيْفَ أَدَاءُ الْقُرْآنِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، وَاسْتِنْبَاطَاتٌ غَزِيرَةٌ، وَبِهِ تُتَبَيَّنُ مَعَانِي الْآيَاتِ، وَيُؤْمَنُ الِاحْتِرَازُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمُشْكِلَاتِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَأَحَدُنَا يُؤْتَىٰ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَآمِرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ».

هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ فُنُونٍ كَثِيرَةٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ مُجَاهِدٍ: «لَا يَقُومُ بِالتَّمَامِ فِي الْوَقْفِ إِلَّا نَحْوِيٌّ عَالِمٌ بِالْقِرَاءَاتِ، عَالِمٌ بِالتَّفْسِيرِ وَالْقَصَصِ وَتَلْخِيصِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، عَالِمٌ بِاللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ».

مِثَالُ ذَلِكَ: الْوَقْفُ عَلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، فَهُنَا تَمَّ الْكَلَامُ، ثُمَّ يَبْتَدِأُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

◉ ◉ ◉

مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: تَحْقِيقُ التَّقْوَى

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: تَحْقِيقُ التَّقْوَىٰ، فَإِنَّ التَّقْوَىٰ جِمَاعُ الْخَيْرِ كُلِّهِ، فَبِالتَّقْوَىٰ يَسْتَنِيرُ الْقَلْبُ، وَتَتَنَوَّرُ الْبَصِيرَةُ، وَتتكَشَّفُ حَقَائِقُ الْعِلْمِ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وَقَدْ أَخبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّ مَنِ اتَّقَاهُ رَزَقَهُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وَأَيُّ رِزْقٍ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ فَهْمِ مُرَادِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا مِنْ خِطَابِهِ؟!

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مُتَحَدِّثًا عَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمِنَحِ الرَّبَّانِيَّةِ حِينَ تَأَمُّلِهِ فِي سُورَةِ «الْكَافِرُونَ» وَذِكْرِهِ لِفَوَائِدِهَا وَأَسْرَارِهَا، قَالَ: «فَهَذَا مَا فَتَحَ اللهُ الْعَظِيمُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْيَسِيرَةِ النَّزْرَةِ -أَيِ: الْقَلِيلَةِ-

الْمُشِيرَةِ إِلَىٰ عَظَمَةِ هَذِهِ السُّورَةِ وَجَلَالَتِهَا وَمَقْصُودِهَا وَبَدِيعِ نَظْمِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ بِتَفْسِيرٍ، وَلَا تَتَبُّعٍ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ مِنْ مَظَانٍّ تُوجَدُ فِيهِ، بَلْ هِيَ اسْتِمْلَاءٌ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ وَأَلْهَمَهُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَوْ وَجَدْتُهَا فِي كِتَابٍ لَأَضَفْتُهَا إِلَىٰ قَائِلِهَا، وَلَبَالَغْتُ فِي اسْتِحْسَانِهَا».

وَيَنْبَغِي لِمَنْ عَلَّمَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَحْمِلْهُ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ اللهِ ﷻ وَخَاصَّتِهِ، وَمِمَّنْ وَعَدَهُ اللهُ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ مَا بَيَّنَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي كِتَابِهِ، وَوَضَّحَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي بَيَانِهِ وَخِطَابِهِ، وَمِمَّنْ قَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِيهِمْ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ»، مِمَّنْ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: **«الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ الْكِرَامِ السَّفَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ عِيسَىٰ بْنُ يُونُسَ: «إِذَا خَتَمَ الْعَبْدُ الْقُرْآنَ قَبَّلَ الْمَلَكُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ».

◉◉◉

أَقْسَامُ أَخْلَاقِ النَّاسِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ

فَيَنْبَغِي لَهُ -أَيْ: لِمَنْ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ وَأَرَادَ أَنْ يُسْلَكَ فِي هَذَا النِّظَامِ- أَنْ يَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعًا لِقَلْبِهِ، يُعَمِّرُ بِهِ مَا خَربَ مِنْ قَلْبِهِ، وَيَتَأَدَّبُ بِآدَابِ الْقُرْآنِ، وَيَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقٍ شَرِيفَةٍ يَبِينُ بِهَا عَنْ سَائِرِ النَّاسِ مِمَّنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُعَظِّمًا لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَعْظِيمَ آيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَالْيَقِينَ الَّذِي لَا يُقْبَلُ سِوَاهُ مِنْ أَنَّ مَا يَتْلُوهُ إِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللهِ ﷻ، تَكَلَّمَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ حَقِيقَةً، وَأَوْحَاهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا إِلَىٰ جِبْرِيلَ، فَنَزَلَ بِهِ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَدَّاهُ إِلَىٰ الْأُمَّةِ.. لَا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ مُعِينًا عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ تَقْوَىٰ اللهِ ﷿ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، بِاسْتِعْمَالِ الْوَرَعِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَكْسَبِهِ، بَصِيرًا بِزَمَانِهِ وَفَسَادِ أَهْلِهِ، فَهُوَ يَحْذَرُهُمْ عَلَىٰ دِينِهِ، مُقْبِلًا عَلَىٰ شَأْنِهِ، مَهْمُومًا بِإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِهِ، حَافِظًا لِلِسَانِهِ، مُمَيِّزًا لِكَلَامِهِ، إِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِعِلْمٍ إِذَا رَأَىٰ الْكَلَامَ صَوَابًا، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ بِعِلْمٍ إِذَا كَانَ السُّكُوتُ صَوَابًا، قَلِيلَ الْخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، يَخَافُ مِنْ لِسَانِهِ أَشَدَّ مِمَّا يَخَافُ مِنْ عَدُوِّهِ، يَحْبِسُ لِسَانَهُ كَحَبْسِهِ لِعَدُوِّهِ لِيَأْمَنَ شَرَّهُ، وَلِيَأْمَنَ

سُوءَ عَاقِبَتِهِ، قَلِيلَ الضَّحِكِ مِمَّا يَضْحَكُ مِنْهُ النَّاسُ لِسُوءِ عَاقِبَةِ الضَّحِكِ، إِنْ سُرَّ بِشَيْءٍ مِمَّا يُوَافِقُ الْحَقَّ تَبَسَّمَ، يَكْرَهُ الْمِزَاحَ خَوْفًا مِنَ اللَّعِبِ، فَإِنْ مَزَحَ قَالَ حَقًّا، بَاسِطَ الْوَجْهِ، طَيِّبَ الْكَلَامِ، لَا يَمْدَحُ نَفْسَهُ بِمَا فِيهِ، فَكَيْفَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ؟!

يَحْذَرُ نَفْسَهُ أَنْ تَغْلِبَ عَلَىٰ مَا تَهْوَىٰ مِمَّا يُسْخِطُ مَوْلَاهُ، لَا يَغْتَابُ أَحَدًا، وَلَا يَحْقِرُ أَحَدًا، وَلَا يَسُبُّ أَحَدًا، وَلَا يَشْمَتُ بِمُصِيبَةٍ، وَلَا يَبْغِي عَلَىٰ أَحَدٍ وَلَا يَحْسُدُهُ، وَلَا يُسِيءُ الظَّنَّ بِأَحَدٍ إِلَّا بِمَنْ يَسْتَحِقُّ، يَحْسُدُ بِعِلْمٍ -وَيُقْصَدُ بِالْحَسَدِ هَاهُنَا: الْغِبْطَةُ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ-، وَيَظُنُّ بِعِلْمٍ -يَعْنِي: لَا يَعْتَقِدُ فِي أَحَدٍ سُوءًا إِلَّا بِيَقِينٍ جَازِمٍ لَا يَتَخَلَّفُ-، يَتَكَلَّمُ بِمَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ عَيْبٍ بِعِلْمٍ -يَعْنِي: إِذَا جَرَحَ أَحَدًا-، وَيَسْكُتُ عَنْ حَقِيقَةِ مَا فِيهِ بِعِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُوجِبٌ لِذِكْرِهِ.

قَدْ جَعَلَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ وَالْفِقْهَ دَلِيلَهُ إِلَىٰ كُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، حَافِظًا لِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ عَمَّا نُهِيَ عَنْهُ، إِنْ مَشَىٰ مَشَىٰ بِعِلْمٍ، وَإِنْ قَعَدَ قَعَدَ بِعِلْمٍ، يَجْتَهِدُ لِيَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَلَا يَجْهَلُ، فَإِنْ جُهِلَ عَلَيْهِ حَلُمَ، لَا يَظْلِمُ، وَإِنْ ظُلِمَ عَفَا، وَلَا يَبْغِي، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ، يَكْظِمُ غَيْظَهُ لِيُرْضِيَ رَبَّهُ وَيَغِيظَ عَدُوَّهُ، مُتَوَاضِعٌ فِي نَفْسِهِ، إِذَا قِيلَ لَهُ الْحَقُّ قَبِلَهُ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، يَطْلُبُ الرِّفْعَةَ مِنَ اللهِ ﷻ لَا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، مَاقِتًا لِلْكِبْرِ، خَائِفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْهُ.

لَا يَتَأَكَّلُ بِالْقُرْآنِ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ تُقْضَىٰ لَهُ بِهِ الْحَوَائِجُ، وَلَا يَسْعَىٰ بِهِ إِلَىٰ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، وَلَا يُجَالِسُ بِهِ الْأَغْنِيَاءَ لِيُكْرِمُوهُ، إِنْ كَسَبَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا الْكَثِيرَ بِلَا

فِقْهٍ وَلَا بَصِيرَةٍ كَسَبَ هُوَ الْقَلِيلَ بِفِقْهٍ وَعِلْمٍ، إِنْ لَبِسَ النَّاسُ اللَّيِّنَ الْفَاخِرَ لَبِسَ هُوَ مِنَ الْحَلَالِ مَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ، إِنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ وَسَّعَ، وَإِنْ أُمْسِكَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ، يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ فَيَكْفِيهِ، وَيَحْذَرُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُطْغِيهِ، يَتْبَعُ وَاجِبَاتِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، يَأْكُلُ الطَّعَامَ بِعِلْمٍ، وَيَشْرَبُ بِعِلْمٍ، وَيَلْبَسُ بِعِلْمٍ، وَيَنَامُ بِعِلْمٍ، وَيُجَامِعُ أَهْلَهُ بِعِلْمٍ، وَيَصْحَبُ إِخْوَانَهُ بِعِلْمٍ، وَيَزُورُهُمْ بِعِلْمٍ، وَيَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ، وَيُجَاوِرُ جَارَهُ بِعِلْمٍ؛ أَيِ: يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُتَّبِعًا لِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

يُلْزِمُ نَفْسَهُ بِرَّ وَالِدَيْهِ فَيَخْفِضُ لَهُمَا جَنَاحَهُ، وَيَخْفِضُ لِصَوْتِهِمَا صَوْتَهُ، وَيَبْذُلُ لَهُمَا مَالَهُ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا بِعَيْنِ الْوَقَارِ وَالرَّحْمَةِ، يَدْعُو لَهُمَا بِالْبَقَاءِ، وَيَشْكُرُ لَهُمَا عِنْدَ الْكِبَرِ، لَا يَضْجَرُ بِهِمَا وَلَا يَحْقِرُهُمَا، إِنِ اسْتَعَانَا بِهِ عَلَىٰ طَاعَةٍ أَعَانَهُمَا، وَإِنِ اسْتَعَانَا بِهِ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ لَمْ يُعِنْهُمَا عَلَيْهَا، وَرَفَقَ بِهِمَا فِي مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُمَا بِحُسْنِ الْأَدَبِ -يَعْنِي: عِنْدَمَا يَرْفُضُ طَاعَتَهُمَا فِي الْمَعْصِيَةِ فَلْيَكُنِ الرَّفْضُ بِأَدَبٍ وَرِفْقٍ، حَتَّىٰ إِذَا مَا دَعَوَاهُ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَلَّا يُطِيعَهُمَا، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَفْضُهُ طَاعَتَهُمَا فِي الْمَعْصِيَةِ بِأَدَبٍ وَرِفْقٍ لِيَرْجِعَا عَنْ قَبِيحِ مَا أَرَادَا مِمَّا لَا يَحْسُنُ بِهِمَا فِعْلُهُ-.

يَصِلُ الرَّحِمَ وَيَكْرَهُ الْقَطِيعَةَ، مَنْ قَطَعَهُ لَمْ يَقْطَعْهُ، وَمَنْ عَصَا اللهَ فِيهِ أَطَاعَ اللهَ فِيهِ، يَصْحَبُ الْمُؤْمِنِينَ بِعِلْمٍ وَيُجَالِسُهُمْ بِعِلْمٍ، مَنْ صَحِبَهُ نَفَعَهُ، حَسَنُ الْمُجَالَسَةِ لِمَنْ جَالَسَ، إِنْ عَلَّمَ غَيْرَهُ رَفَقَ بِهِ، لَا يُعَنِّفُ مَنْ أَخْطَأَ وَلَا يُخْجِلُهُ، رَفِيقٌ فِي أُمُورِهِ،

صَبُورٌ عَلَىٰ تَعْلِيمِ الْخَيْرِ، يَأْنَسُ بِهِ الْمُتَعَلِّمُ، وَيَفْرَحُ بِهِ الْمُجَالِسُ، مُجَالَسَتُهُ تُفِيدُ خَيْرًا، مُؤَدِّبٌ لِمَنْ جَالَسَهُ بِأَدَبِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، إِنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ لَهُ مُؤَدِّبَانِ بِحُزْنٍ وَعِلْمٍ، فَيَحْزَنُ بِعِلْمٍ، وَيَبْكِي بِعِلْمٍ، وَيَصْبِرُ بِعِلْمٍ، وَيَتَطَهَّرُ بِعِلْمٍ، وَيُصَلِّي بِعِلْمٍ، وَيُزَكِّي بِعِلْمٍ، وَيَتَصَدَّقُ بِعِلْمٍ، وَيَصُومُ بِعِلْمٍ، وَيَحُجُّ بِعِلْمٍ، وَيُجَاهِدُ بِعِلْمٍ، وَيَكْتَسِبُ بِعِلْمٍ، وَيُنْفِقُ بِعِلْمٍ، وَيَنْبَسِطُ فِي الْأُمُورِ بِعِلْمٍ، وَيَنْقَبِضُ عَنْهَا بِعِلْمٍ.

قَدْ أَدَّبَهُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، يَتَصَفَّحُ الْقُرْآنَ لِيُؤَدِّبَ بِهِ نَفْسَهُ، لَا يَرْضَىٰ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ مَا فَرَضَ اللهُ ﷻ بِجَهْلٍ، قَدْ جَعَلَ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ دَلِيلَهُ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ، إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ فَبِحُضُورِ فَهْمٍ وَعَقْلٍ، هِمَّتُهُ إِيقَاعُ الْفَهْمِ لِمَا أَلْزَمَهُ اللهُ ﷻ مِنَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ، وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَىٰ.

لَيْسَ هِمَّتُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ هِمَّتُهُ: مَتَىٰ أَسْتَغْنِي بِاللهِ عَنْ غَيْرِهِ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الْمُتَّقِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الْخَاشِعِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الصَّابِرِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الْخَائِفِينَ؟ مَتَىٰ أَكُونُ مِنَ الرَّاجِينَ؟ مَتَىٰ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا؟ مَتَىٰ أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ؟ مَتَىٰ أَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ؟ مَتَىٰ أَعْرِفُ النِّعَمَ الْمُتَوَاتِرَةَ؟ مَتَىٰ أَشْكُرُ عَلَيْهَا؟ مَتَىٰ أَعْقِلُ عَنِ اللهِ -جَلَّتْ عَظَمَتُهُ- الْخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَفْقَهُ مَا أَتْلُو؟ مَتَىٰ أَغْلِبُ نَفْسِي عَلَىٰ مَا تَهْوَىٰ؟ مَتَىٰ أُجَاهِدُ فِي اللهِ ﷻ حَقَّ الْجِهَادِ؟ مَتَىٰ أَحْفَظُ لِسَانِي؟ مَتَىٰ أَغُضُّ طَرْفِي؟ مَتَىٰ أَحْفَظُ فَرْجِي؟ مَتَىٰ أَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ؟

مَتَىٰ أَشْتَغِلُ بِعَيْبِي؟ مَتَىٰ أُصْلِحُ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِي؟ مَتَىٰ أُحَاسِبُ نَفْسِي؟ مَتَىٰ أَتزَوَّدُ لِيَوْمِ مَعَادِي؟ مَتَىٰ أَكُونُ عَنِ اللهِ رَاضِيًا؟ مَتَىٰ أَكُونُ بِاللهِ وَاثِقًا؟ مَتَىٰ أَكُونُ بِزَجْرِ الْقُرْآنِ مُتَّعِظًا؟ مَتَىٰ أَكُونُ بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ مُشْتَغِلًا؟ مَتَىٰ أُحِبُّ مَا يُحِبُّ؟ مَتَىٰ أُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ؟ مَتَىٰ أَنْصَحُ لِلَّهِ؟ مَتَىٰ أُخْلِصُ لَهُ عَمَلِي؟ مَتَىٰ أُقَصِّرُ أَمَلِي؟ مَتَىٰ أَتَأَهَّبُ لِيَوْمِ مَوْتِي وَقَدْ غُيِّبَ عَنِّي أَجَلِي؟ مَتَىٰ أَعْمُرُ قَبْرِي؟

مَتَىٰ أُفَكِّرُ فِي الْمَوْقِفِ وَشِدَّتِهِ؟ مَتَىٰ أُفَكِّرُ فِي خَلْوَتِي مع رَبِّي؟ مَتَىٰ أُفَكِّرُ فِي الْمُنْقَلَبِ؟ مَتَىٰ أَحْذَرُ مِمَّا حَذَّرَنِي مِنْهُ رَبِّي مِنْ نَارٍ حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَغَمُّهَا طَوِيلٌ، لَا يَمُوتُ أَهْلُهَا فَيَسْتَرِيحُوا، وَلَا تُقَالُ عَثْرَتُهُمْ، وَلَا تُرْحَمُ عَبْرَتُهُمْ، طَعَامُهُمُ الزَّقُّومُ، وَشَرَابُهُمُ الْحَمِيمُ، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، نَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، وَعَضُّوا عَلَىٰ الْأَيْدِي أَسَفًا عَلَىٰ تَقْصِيرِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ ﷻ، وَرُكُونِهِمْ لِمَعَاصِي اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، وَقَالَ قَائِلٌ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠]، وَقَالَ قَائِلٌ: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، وَقَالَ قَائِلٌ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨]، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ وَوُجُوهُهُمْ تَتَقَلَّبُ فِي أَنْوَاعِ الْعَذَابِ: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

فَهَذِهِ النَّارُ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، حَذَّرَهَا اللهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ رَحْمَةً مِنْهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

ثُمَّ حَذَّرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفُلُوا عَمَّا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَمَا عَهِدَهُ إِلَيْهِمْ أَلَّا يُضَيِّعُوهُ، وَأَنْ يَحْفَظُوا مَا اسْتَرْعَاهُمْ مِنْ حُدُودِهِ، وَلَا يَكُونُوا كَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ فَسَقَ عَنْ أَمْرِهِ فَعَذَّبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

ثُمَّ أَعْلَمَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

فَالْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ اسْتَعْرَضَ الْقُرْآنَ -أَيْ: عَرَضَهُ عَلَىٰ حَالِهِ- فَكَانَ كَالْمِرْآةِ يَرَىٰ بِهَا مَا حَسُنَ مِنْ فِعْلِهِ وَمَا قَبُحَ مِنْهُ، فَمَا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ حَذِرَهُ، وَمَا خَوَّفَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ خَافَهُ، وَمَا رَغَّبَهُ فِيهِ مَوْلَاهُ رَغِبَ فِيهِ وَرَجَاهُ، فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ أَوْ مَا قَارَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ فَقَدْ تَلَاهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَرَعَاهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، وَكَانَ لَهُ الْقُرْآنُ شَاهِدًا وَشَفِيعًا وَأَنِيسًا وَحِرْزًا، وَمَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَنَفَعَ أَهْلَهُ، وَعَادَ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ وَعَلَىٰ وَلَدِهِ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: مَرَّتِ امْرَأَةٌ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ: طُوبَىٰ لِحِجْرٍ حَمَلَكَ، وَلِثَدْيٍ رَضَعْتَ مِنْهُ، فَقَالَ عِيسَىٰ: طُوبَىٰ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ عَمِلَ بِهِ -وَهُوَ يُرِيدُ الْوَحْيَ-.

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ الرَّجُلِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ مُصْفَرِّ الْوَجْهِ مِنَ التَّعَبِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَظْمَأْتُ نَهَارَكَ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَصَحَّحَهُ الْبُوصِيرِيُّ، وَحَسَّنَهُ شُعَيْبٌ، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ: ضَعِيفٌ مُحْتَمِلٌ لِلتَّحْسِينِ.

وَعَنْ إِيَاسِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِىٰ طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنْ بَقِيتَ -يَعْنِي: طَالَ بِكَ الْعُمُرُ- فَسَيُقْرَأُ الْقُرْآنُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَصِنْفٌ لِلدُّنْيَا، وَصِنْفٌ لِلْجَدَلِ، فَمَنْ طَلَبَ بِهِ أَدْرَكَ.

فَهَذَا هُوَ الصِّنْفُ الَّذِينَ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ يُرِيدُونَ بِهِ وَجْهَ اللهِ بِقِرَاءَتِهِمْ.

وَأَمَّا الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُرِيدُونَ بِهِ وَجْهَ اللهِ، وَإِنَّمَا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لِلدُّنْيَا وَلِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَمِنْ أَخْلَاقِ هَؤُلَاءِ: أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِحُرُوفِ الْقُرْآنِ مُضَيِّعًا لِحُدُودِهِ، مُتَعَظِّمًا فِي نَفْسِهِ، مُتَكَبِّرًا عَلَىٰ غَيْرِهِ.

قَدِ اتَّخَذَ الْقُرْآنَ بِضَاعَةً يَتَأَكَّلُ بِهِ الْأَغْنِيَاءَ، وَيَسْتَقْضِي بِهِ الْحَوَائِجَ، يُعَظِّمُ أَبْنَاءَ الدُّنْيَا وَيَحْقِرُ الْفُقَرَاءَ، إِنْ عَلَّمَ الْغَنِيَّ رَفَقَ بِهِ طَمَعًا فِي دُنْيَاهُ، وَإِنْ عَلَّمَ الْفَقِيرَ زَجَرَهُ وَعَنَّفَهُ لِأَنَّهُ لَا دُنْيَا لَهُ يَطْمَعُ فِيهَا، يَسْتَخْدِمُ بِهِ الْفُقَرَاءَ، وَيَتِيهُ بِهِ عَلَىٰ الْأَغْنِيَاءِ، إِنْ

كَانَ حَسَنَ الصَّوْتِ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ لِلْمُلُوكِ وَيُصَلِّيَ بِهِمْ طَمَعًا فِي دُنْيَاهُمْ، وَإِنْ سَأَلَهُ الْفُقَرَاءُ الصَّلَاةَ بِهِمْ ثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِقِلَّةِ الدُّنْيَا فِي أَيْدِيهِمْ، إِنَّمَا طَلَبُهُ الدُّنْيَا حَيْثُ كَانَ رَبَضَ عِنْدَهَا.

يَفْخَرُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ، وَيَحْتَجُّ عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ فِي الْحِفْظِ بِفَضْلِ مَا مَعَهُ مِنَ الْقِرَاءَاتِ، وَزِيَادَةِ الْمَعْرِفَةِ بِالْغَرِيبِ مِنَ الْقِرَاءَاتِ الَّتِي لَوْ عَقَلَ لَعَلِمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَلَّا يَقْرَأَ بِهَا، فَتَرَاهُ تَائِهًا مُتَكَبِّرًا، كَثِيرَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ تَمْيِيزٍ، يَعِيبُ كُلَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ كَحِفْظِهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَحْفَظُ كَحِفْظِهِ طَلَبَ عَيْبَهُ، مُتَكَبِّرًا فِي جِلْسَتِهِ، مُتَعَاظِمًا فِي تَعْلِيمِهِ لِغَيْرِهِ، لَيْسَ لِلْخُشُوعِ فِي قَلْبِهِ مَوْضِعٌ، كَثِيرَ الضَّحِكِ وَالْخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ.

يَشْتَغِلُ عَمَّنْ يَأْخُذُ عَلَيْهِ بِحَدِيثِ مَنْ جَالَسَهُ، هُوَ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ حَدِيثِ جَلِيسِهِ أَصْغَىٰ مِنْهُ إِلَىٰ اسْتِمَاعِ مَنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَمِعَ لَهُ، يُرِي أَنَّهُ لِمَا يَسْتَمِعُ حَافِظٌ، فَهُوَ إِلَىٰ كَلَامِ النَّاسِ أَشْهَىٰ مِنْهُ إِلَىٰ كَلَامِ الرَّبِّ ﷻ، لَا يَخْشَعُ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَبْكِي وَلَا يَحْزَنُ، وَلَا يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْفِكْرِ فِيمَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِ وَقَدْ نُدِبَ إِلَىٰ ذَلِكَ، رَاغِبٌ فِي الدُّنْيَا وَمَا قَرَّبَ مِنْهَا، لَهَا يَغْضَبُ وَيَرْضَىٰ.

إِنْ قَصَّرَ رَجُلٌ فِي حَقِّهِ قَالَ: أَهْلُ الْقُرْآنِ لَا يُقَصَّرُ فِي حُقُوقِهِمْ، وَأَهْلُ الْقُرْآنِ تُقْضَىٰ حَوَائِجُهُمْ، يَسْتَقْضِي مِنَ النَّاسِ حَقَّ نَفْسِهِ، وَلَا يَسْتَقْضِي مِنْ نَفْسِهِ مَا لِلَّهِ عَلَيْهَا، يَغْضَبُ عَلَىٰ غَيْرِهِ -زَعَمَ- لِلَّهِ، وَلَا يَغْضَبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ لِلَّهِ، وَلَا يُبَالِي مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ مِنْ حَلَالٍ.

قَدْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ، إِنْ فَاتَهُ مِنْهَا شَيْءٌ لَا يَحِلُّ لَهُ أَخْذُهُ حَزِنَ عَلَىٰ فَوْتِهِ، لَا يَتَأَدَّبُ بِأَدَبِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَزْجُرُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، لَاهٍ غَافِلٌ عَمَّا يَتْلُو أَوْ يُتْلَىٰ عَلَيْهِ، هِمَّتُهُ حِفْظُ الْحُرُوفِ، إِنْ أَخْطَأَ فِي حَرْفٍ سَاءَهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَنْقُصَ جَاهُهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ فَتَنْقُصَ رُتْبَتُهُ عِنْدَهُمْ، فَتَرَاهُ مَحْزُونًا مَغْمُومًا بِذَلِكَ، وَمَا قَدْ ضَيَّعَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِمَّا أَمَرَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ بِهِ، أَخْلَاقُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهِ أَخْلَاقُ الْجُهَّالِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.

لَا يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ إِذْ سَمِعَ اللهَ ﷻ قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ طَلَبَ الْعِلْمِ لِمَعْرِفَةِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فَيَنْتَهِيَ عَنْهُ، قَلِيلُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ، كَثِيرُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ الَّذِي يَتَزَيَّنُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا لِيُكْرِمُوهُ بِذَلِكَ، قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الَّذِي نَدَبَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- إِلَيْهِ ثُمَّ رَسُولُهُ ﷺ لِيَأْخُذَ الْحَلَالَ بِعِلْمٍ، وَيَتْرُكَ الْحَرَامَ بِعِلْمٍ، لَا يَرْغَبُ بِمَعْرِفَةِ عِلْمِ النِّعَمِ، وَلَا فِي عِلْمِ شُكْرِ الْمُنْعِمِ.

تِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ كِبْرِهِ فِي نَفْسِهِ، وَتَزَيُّنٍ عِنْدَ السَّامِعِينَ مِنْهُ، لَيْسَ لَهُ خُشُوعٌ فَيَظْهَرَ عَلَىٰ جَوَارِحِهِ، إِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ أَوْ دَرَّسَهُ لِغَيْرِهِ فَهِمَّتُهُ مَتَىٰ يَقْطَعُ، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَىٰ يَفْهَمُ، لَا يَعْتَبِرُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ بِضَرْبِ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِرِضَا الْمَخْلُوقِينَ وَلَا يُبَالِي بِسَخَطِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يُحِبُّ أَنْ يُعْرَفَ بِكَثْرَةِ الدَّرْسِ، وَيُظْهِرُ خَتْمَهُ لِلْقُرْآنِ لِيَحْظَىٰ عِنْدَهُمْ، قَدْ فَتَنَهُ

حُسْنُ ثَنَاءِ مَنْ جَهِلَهُ، يَفْرَحُ بِمَدْحِ الْبَاطِلِ وَأَعْمَالُهُ أَعْمَالُ الْجَهْلِ، يَتَّبِعُ هَوَاهُ فِيمَا تُحِبُّ نَفْسُهُ، غَيْرُ مُتَصَفِّحٍ لِمَا زَجَرَهُ الْقُرْآنُ عَنْهُ.

إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُقْرِئُ غَضِبَ عَلَىٰ مَنْ قَرَأَ عَلَىٰ غَيْرِهِ، إِنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ بِالصَّلَاحِ كَرِهَ ذَلِكَ، وَإِنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ بِمَكْرُوهٍ سَرَّهُ ذَلِكَ، يَسْخَرُ بِمَنْ دُونَهُ وَيَهْمِزُ مَنْ فَوْقَهُ، يَتَتَبَّعُ عُيُوبَ أَهْلِ الْقُرْآنِ لِيَضَعَ مِنْهُمْ وَيَرْفَعَ مِنْ نَفْسِهِ، يَتَمَنَّىٰ أَنْ يُخْطِئَ غَيْرُهُ وَيَكُونَ هُوَ الْمُصِيبَ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِسَخَطِ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ -أَيْ: أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي مَرَّتْ، وَلَيْسَ بِأَعْظَمَ مِنْ سَخَطِ اللهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِسَخَطِ اللهِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَا مُصِيبَةَ بَعْدَ سَخَطِ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَلَعْنَتِهِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.. أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ- أَنْ أَظْهَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ شِعَارَ الصَّالِحِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ ضَيَّعَ فِي الْبَاطِنِ مَا يَجِبُ لِلَّهِ، وَرَكِبَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ مَوْلَاهُ الْكَرِيمُ، كُلُّ ذَلِكَ بِحُبِّ الرِّيَاسَةِ وَالْمَيْلِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، قَدْ فَتَنَهُ الْعُجْبُ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، وَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ.

إِنْ مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَوْ مُلُوكِهَا فَسَأَلَهُ أَنْ يَخْتِمَ عَلَيْهِ سَارَعَ إِلَيْهِ وَسُرَّ بِذَلِكَ، وَإِنْ مَرِضَ الْفَقِيرُ الْمَسْتُورُ فَسَأَلَهُ أَنْ يَخْتِمَ عَلَيْهِ ثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، يَحْفَظُ الْقُرْآنَ يَتْلُوهُ بِلِسَانِهِ، وَقَدْ ضَيَّعَ الْكَثِيرَ مِنْ أَحْكَامِهِ، أَخْلَاقُهُ أَخْلَاقُ الْجُهَّالِ، إِنْ أَكَلَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ شَرِبَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ لَبِسَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ جَامَعَ أَهْلَهُ

فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ نَامَ فَبِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِنْ صَحِبَ أَقْوَامًا أَوْ زَارَهُمْ أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَوِ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِمْ فَجَمِيعُ ذَلِكَ يَجْرِي بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، وَغَيْرُهُ مِمَّنْ يَحْفَظُ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ مُطَالِبٌ لِنَفْسِهِ لِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ وَلَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ.

فَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ أَخْلَاقَهُ صَارَ فِتْنَةً لِكُلِّ مَفْتُونٍ، لِأَنَّهُ إِذَا عَمِلَ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا تَحْسُنُ بِمِثْلِهِ اقْتَدَىٰ بِهِ الْجُهَّالُ، فَإِذَا عِيبَ الْجَاهِلُ قَالَ: فُلَانٌ الْحَامِلُ لِكِتَابِ اللهِ فَعَلَ كَذَا، فَنَحْنُ أَوْلَىٰ أَنْ نَفْعَلَهُ! وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِعَظِيمٍ -أَيْ: لِخَطَرٍ عَظِيمٍ- وَثَبَتَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَلَا عُذْرَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا قَدْ دَلَّتْ عَلَيْهَا الْآثَارُ وَجَاءَتْ بِهَا الْأَخْبَارُ.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقَدْ أَتَىٰ عَلَيْنَا حِينٌ وَمَا نَرَىٰ أَنَّ أَحَدًا يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ يُرِيدُ بِهِ إِلَّا اللهَ تَعَالَىٰ، فَلَمَّا كَانَ هَاهُنَا بِأَخَرَةٍ، خَشِيتُ أَنَّ رِجَالًا يَتَعَلَّمُونَهُ يُرِيدُونَ بِهِ النَّاسَ وَمَا عِنْدَهُمْ، فَأَرِيدُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- بِقِرَاءَتِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنَبِّئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ مَضَىٰ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -أَي: رَحَلَ- إِلَىٰ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ: مَنْ أَعْلَنَ خَيْرًا أَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ وَظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا، وَمَنْ أَظْهَرَ شَرًّا أَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ وَظَنَنَّا بِهِ شَرًّا، سَرَائِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ».

فَإِذَا كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدْ خَافَ عَلَىٰ قَوْمٍ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ فِي ذَٰلِكَ الْوَقْتِ خَافَ عَلَيْهِمْ مَيْلَهُمْ إِلَىٰ الدُّنْيَا، فَمَا ظَنُّكَ بِهِمُ الْيَوْمَ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَكُونُ أَقْوَامٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقِيمُونَ الْقِدْحَ -الْقِدْحُ: عَصَا السَّهْمِ يَكُونُ مُسْتَقِيمًا- يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ، يَطْلُبُونَ بِهِ عَاجِلَةَ الدُّنْيَا وَلَا يَطْلُبُونَ بِهِ الْآخِرَةَ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَفِينَا الْأَعْجَمِيُّ وَالْأَعْرَابِيُّ، فَاسْتَمَعَ، فَقَالَ: «**اقْرَؤُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقِيمُونَ الْقِدْحَ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ»، وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَظْهَرُ هَذَا الدِّينُ حَتَّىٰ يُجَاوِزَ الْبِحَارَ، وَحَتَّىٰ يُخَاضَ بِالْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، فَإِذَا قَرَؤُوهُ قَالُوا: قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟! فَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟! ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: هَلْ تَرَوْنَ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**». أَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَالْبَزَّارُ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ كَمَا قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ»، وَكَذَا فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلًا عَلَيْهِمْ -أَيْ: جَلِيلًا عَظِيمًا فِي قُلُوبِهِمْ، لَا يَحْفَظُونَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْقَهُوهُ،

وَأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِهِ- وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ، حَتَّىٰ يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَرِثَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَوْمٌ يَشْرَبُونَهُ كَمَا يُشْرَبُ الْمَاءُ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**».

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوا الْأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ -أَيْ: لَمْ يَأْخُذُوا الْقُرْآنَ بِحَقِّهِ، يُرِيدُ الْعَمَلَ بِهِ- قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وَمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ، أَمَا وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا! وَقَدْ -وَاللهِ- أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا تَرَىٰ الْقُرْآنَ لَهُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ! وَاللهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ وَلَا الْحُكَمَاءِ وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَّاءُ تَقُولُ مِثْلَ هَذَا؟! لَا كَثَّرَ اللهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ».

عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قَالَ: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ».

◉◉◉

مِنْ صِفَاتِ حَامِلِ الْقُرْآنِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ:** «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِوَرَعِهِ إِذِ النَّاسُ يُخَلِّطُونَ، وَبِتَوَاضُعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذِ النَّاسُ يَخُوضُونَ».

هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَتَدَبَّرُونَهُ وَيَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَتَأَدَّبُونَ بِآدَابِهِ، فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُؤْتِيهِمْ مَعْرِفَةً فِيهِ تَغْشَىٰ قُلُوبَهُمْ، وَتَفْقَهُ بِهَا أَنْفُسُهُمْ وَعُقُولُهُمْ مُرَادَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَىٰ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ الْحَسَنُ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَحَدُنَا آخِذٌ بِيَدِ صَاحِبِهِ، فَمَرَرْنَا بِسَائِلٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَاحْتَبَسَ عِمْرَانُ يَسْتَمِعُ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا فَرَغَ سَأَلَ، فَقَالَ عِمْرَانُ: انْطَلِقْ بِنَا، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ، فَإِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ بِهِ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ»، وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَكَذَا الْأَلْبَانِيُّ.

⦿⦿⦿

مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ:
اللَّجْأُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَكَثْرَةُ دُعَائِهِ

مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: اللَّجْأُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَثْرَةُ دُعَائِهِ، وَإِظْهَارُ شِدَّةِ الرَّغْبَةِ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، وَهِيَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْدَهُ يَهْدِي لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحٗا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورٗا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

فَهُوَ الَّذِي يَفْتَحُ مَغَالِيقَ الْقُلُوبِ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ، مَا جَاءَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ وَغَيْرُهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ،**

مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا». قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَىٰ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**».

الْفَهْمُ وَالتَّدَبُّرُ هُوَ الْغَايَةُ مِنَ التِّلَاوَةِ؛ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا شَرَعَ فِي الْقِرَاءَةِ فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ وَالتَّدَبُّرَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، وَالدَّلَائِلُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ».

وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَهُوَ أَحَدُ كُتَّابِ الْوَحْيِ- يَرَىٰ عَدَمَ التَّسَرُّعِ فِي خَتْمِ الْقِرَاءَةِ لِكَيْ يَتَدَبَّرَ وَيَقِفَ عَلَىٰ الْآيَاتِ وَالْمَعَانِي الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا.

أَخْرَجَ أَبُو عُبَيْدٍ وَالْفِرْيَابِيُّ، كِلَاهُمَا عَنْ قُتَيْبَةَ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ حُبَابٍ جَالِسَيْنِ، فَدَعَا رَجُلًا فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِالَّذِي سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ أَتَىٰ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَرَىٰ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِي سَبْعٍ، فَقَالَ زَيْدٌ: حَسَنٌ، وَلَأَنْ أَقْرَأَهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ عِشْرِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَسَلْنِي لِمَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَسْأَلُكَ، قَالَ: لِكَيْ أَتَدَبَّرَهُ وَأَقِفَ عَلَيْهِ.

فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ الْكَيْفِ، لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ الْكَمِّ، فَالْعِبْرَةُ بِالتَّدَبُّرِ، لَيْسَ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، أَمَّا إِذَا اجْتَمَعَ الْأَمْرَانِ فَنُورٌ عَلَىٰ نُورٍ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَشْمَلَنَا بِنُورِهِ، آمِينَ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَسْتَحِبُّونَ التَّرْتِيلَ فِي الْقِرَاءَةِ لِيَتَدَبَّرَهُ الْقَارِئُ وَلِيَفْهَمَ مَعَانِيَهُ».

فَهَمُّ الْقَارِئِ الْعَالِمِ فِي تِلَاوَةِ كَلَامِ اللهِ الْفَهْمُ عَنْ مَوْلَاهُ، وَفِي سُنَنِ الرَّسُولِ ﷺ الْفِقْهُ، لِئَلَّا يُضَيِّعَ مَا أُمِرَ بِهِ مُتَأَدِّبٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَالْإِنْسَانُ يَتَأَمَّلُ فِيمَا يَتْلُوهُ وَيَتَدَبَّرُهُ، لِأَنَّ التِّلَاوَةَ حَقَّ التِّلَاوَةِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْقِرَاءَةِ وَالتَّرْتِيلِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا مَا انْبَثَقَ عَنْ فَهْمٍ وَعِلْمٍ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قَالَ: «يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ»، وَقَدْ مَرَّ عَنْ مُجَاهِدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَثَبَتَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: «يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَكِلُونَ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ عَالِمِهِ».

فَمَنْ قَرَأَ قِرَاءَةَ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، فَقَدْ حَصَّلَ الْغَايَةَ الْقُصْوَىٰ الَّتِي لَيْسَ لِأَحَدٍ وَرَاءَهَا مَرْمَىٰ، فَالتَّدَبُّرُ أَمْرٌ مُهِمٌّ، هُوَ الْغَايَةُ الْكُبْرَىٰ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَسَمَاعِهِ، وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَكَانَةُ الْمَاهِرِ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَهَذِهِ بُشْرَىٰ لِلَّذِي يَقْرَأُ بِتَدَبُّرٍ وَتَأَمُّلٍ وَفَهْمٍ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَكُونُ مَاهِرًا بِالْقُرْآنِ حَتَّىٰ يَكُونَ عَالِمًا بِالْفُرْقَانِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَهُ، فَيَفْهَمَ عَنِ اللهِ مُرَادَهُ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِ، وَأَيْضًا لِيَعْرِفَ الْمَكِّيَّ مِنَ الْمَدَنِيِّ، لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَا خَاطَبَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ يَنْظُرَ فِي السُّنَنِ الْمَأْثُورَةِ الثَّابِتَةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَبِهَا يَصِلُ الطَّالِبُ إِلَىٰ مُرَادِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتُفْتَحُ لَهُ أَحْكَامُ الْقُرْآنِ فَتْحًا.

فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ كَانَ مَاهِرًا، وَهُوَ الْكَمَالُ، وَالْمَاهِرُ: الْحَاذِقُ بِالشَّيْءِ وَالْعَالِمُ بِهِ، إِذَنْ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ**»، مَا يَدُلُّنَا عَلَىٰ أَنَّ الْمَهَارَةَ هَاهُنَا لَيْسَتْ فِي إِخْرَاجِ الْحُرُوفِ مِنْ مَخَارِجِهَا، مَعَ إِعْطَاءِ كُلِّ حَرْفٍ حَقَّهُ وَمُسْتَحَقَّهُ فَقَطْ، فَهَذَا بِدَايَةُ الطَّرِيقِ، وَأَمَّا نِهَايَتُهُ فَبَعِيدَةٌ، يَمُرُّ عَلَىٰ هَذِهِ الصُّوَىٰ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا مَرَّ مِنْ كَلَامِهِ.

فَالْغَرَضُ: أَنَّ الْمَطْلُوبَ شَرْعًا إِنَّمَا هُوَ تَحْسِينُ الصَّوْتِ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالِانْقِيَادِ لِلطَّاعَةِ، فَيَنْبَغِي أَنْ نَجْتَهِدَ عِنْدَ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- أَنْ نَقْرَأَ بِيَقَظَةِ الْعَقْلِ وَعَدَمِ شُرُودِ الذِّهْنِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَالتَّذَكُّرِ بِعَظِيمِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ، وَالتَّدَبُّرِ لِفَوَائِدِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ يَقَظَةَ الْعَقْلِ وَحُضُورَهُ مَعَ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ فِيهَا ثَمَرَاتٌ عَظِيمَةٌ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَجِدُ الْعَنَاءَ عِنْدَ بِدَايَةِ هَذَا الطَّرِيقِ، بَلْ سَيَجِدُ أَشَدَّ الْعَنَاءِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مُعْتَادًا لِمَا يُرِيدُ، بَلْ هُوَ مُعْتَادٌ لِضِدِّهِ، فَقَدِ اعْتَادَ أَنْ يَهُذَّ الْقُرْآنَ هَذَّ

الشِّعْرِ، وَأَنْ يُفَاخِرَ بِكَثْرَةِ مَا تَلَا، لَا بِمَا فَهِمَ مِمَّا تَلَاهُ، فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ وَاقِفًا عِنْدَ الْخَوَاطِرِ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُتَدَبِّرًا فِي آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فَجَاءَ خَاطِرٌ مُقْتَحِمٌ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَجَالِ تَدَبُّرِهِ فَلْيَقْطَعِ الْخَاطِرَ وَلْيَعُدْ إِلَىٰ مَا كَانَ، سَتَهْجُمُ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرُ هُجُومًا عَظِيمًا مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَلَا بَأْسَ، فَأَوَّلُ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ الْغَايَةِ خُطْوَةٌ، عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَخْطُوَهَا بِعَزْمٍ وَحَسْمٍ مَعَ تَقْوَىٰ اللهِ ﷻ وَالْإِنَابَةِ وَالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ أَنْ يُرْزَقَ فِي الْقُرْآنِ فَهْمًا مُسْتَقِيمًا، لِيُحَصِّلَ الْمَرْءُ بِذَلِكَ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

●●●



مَعْرِفَةُ أَسَالِيبَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَسَالِيبَ الْقُرْآنِ سَيَجِدْ نَفْسَهُ غَرِيبًا عَنِ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبِ جُمَلِهِ، سَيُعَانِي فِي فَهْمِهَا مَا يُعَانِي، وَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَمِنْ أَبْرَزِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ: خَتْمُ الْآيَاتِ بِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، هَذَا بَابٌ أَوْ فَنٌّ أَوْ عِلْمٌ بِرَأْسِهِ، وَقَدْ كَتَبَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْكِبَارِ فِي خَتْمِ الْآيَاتِ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْحُسْنَىٰ مَعَ رِعَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ، فَإِذًا هَذَا مِنْ أَسَالِيبِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْحُكْمَ الْمَذْكُورَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِذَلِكَ الِاسْمِ الْكَرِيمِ.

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ: احْتِوَاؤُهُ عَلَىٰ أَحْسَنِ طُرُقِ التَّعْلِيلِ، وَإِيصَالُ الْمَعَانِي إِلَىٰ الْقُلُوبِ بِأَيْسَرِ طَرِيقٍ وَأَوْضَحِهِ، وَمِنْ أَبْرَزِ أَنْوَاعِ تَعْلِيمِهِ الْعَالِي: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ، فَتُوَضَّحُ الْمَعَانِي النَّافِعَةُ وَتُمَثَّلُ الْأُمُورُ الْمَحْسُوسَةُ كَأَنَّهَا تُرَىٰ رَأْيَ الْعَيْنِ، وَهَذَا مِنْ عِنَايَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، كَمَا قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ.

ذَكَرَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ أُسْلُوبًا مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا: التَّوْكِيدُ، وَالْحَذْفُ، وَالتَّقْدِيمُ، وَالِاسْتِطْرَادُ، وَالِالْتِفَافُ، وَالتَّضْمِينُ، وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي وَعَكْسُهُ، وَالتَّوَسُّعُ، وَالْإِعْرَاضُ، وَالتَّوْرِيَةُ، وَالطِّبَاقُ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَ فِي «الْبُرْهَانِ».

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ: الْحَذْفُ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَمْثِلَةً عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ: «وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- يَذْكُرُ جَوَابَ الْقَسَمِ تَارَةً وَهُوَ الْغَالِبُ، وَتَارَةً يَحْذِفُهُ، كَمَا يَحْذِفُ جَوَابَ (لَوْ)؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، يَكُونُ مَاذَا؟ فَحَذَفَ الْجَوَابَ.

وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وَمِثْلُ هَذَا حَذْفُهُ مِنْ أَحْسَنِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ ذَلِكَ لَرَأَيْتَ هَوْلًا عَظِيمًا، وَهَذِهِ عَادَةُ النَّاسِ فِي كَلَامِهِمْ إِذَا رَأَوْا أُمُورًا عَجِيبَةً، وَأَرَادُوا أَنْ يُخْبِرُوا بِهَا الْغَائِبَ عَنْهَا، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: لَوْ رَأَيْتَ مَا جَرَىٰ الْيَوْمَ!

● ● ●



أُسْلُوبُ الِالْتِفَاتِ فِي الْقُرْآنِ، وَأَنْوَاعُهُ

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ: **الِالْتِفَاتُ**، وَهُوَ كَمَا قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: «نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَىٰ أُسْلُوبٍ آخَرَ تَطْرِيَةً وَاسْتِدْرَارًا لِلسَّامِعِ، وَتَجْدِيدًا لِنَشَاطِهِ، وَصِيَانَةً لِخَاطِرِهِ مِنَ الْمَلَالِ وَالضَّجَرِ بِدَوَامِ الْأُسْلُوبِ الْوَاحِدِ عَلَىٰ سَمْعِهِ».

الِالْتِفَاتُ لَهُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:

الِالْتِفَاتُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ إِلَىٰ الْخِطَابِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ١- ٢]، وَلَمْ يَقُلْ: لِنَغْفِرَ لَكَ، وَإِنَّمَا انْتَقَلَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَىٰ الْخِطَابِ.

وَمِنَ الْمُتَكَلِّمِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١- ٢]، وَلَمْ يَقُلْ: فَصَلِّ لَنَا.

وَمِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وَمِنَ الْخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢]، لَمْ يَقُلْ: وَجَرَيْنَ بِكُمْ.

مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْمُتَكَلِّمِ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨- ٨٩].

وَمِنَ الْغَيْبَةِ إِلَىٰ الْخِطَابِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦].

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ فِي الْحَثِّ: التَّذْكِيرُ بِالْآمِرِ وَعَظَمَتِهِ، وَالتَّشْوِيقُ لِلْأَجْرِ وَكَثْرَتِهِ، وَالتَّذْكِيرُ بِمَنْزِلَةِ الْمَأْمُورِ وَحَاجَتِهِ، وَالتَّهْيِيجُ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، **قَالَ:** «هَذَا تَهْيِيجٌ لِلْأُمَّةِ عَلَىٰ الِاسْتِغْفَارِ».

الِاعْتِبَارُ بِحَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَعْيَانِ الصَّالِحِينَ.

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ فِي النَّهْيِ: التَّبْغِيضُ لِلْفِعْلِ، أَوِ التَّهَكُّمُ بِأَصْحَابِهِ، أَوِ السُّخْرِيَةُ مِنْهُمْ، أَوْ ذِكْرُ عَاقِبَةِ مَنْ فَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا، أَوْ وَصْفُ خَسَارَتِهِ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ عَطْفُهُ عَلَىٰ مَا هُوَ أَشْنَعُ مِنْهُ وَمَا هُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ النُّفُوسِ، أَوْ الِاعْتِبَارُ بِالْأُمَمِ الظَّالِمَةِ وَأَعْيَانِ الْمُعَانِدِينَ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]: «وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- لِمَنْ حَمَلَ الْكِتَابَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَعَانِيَهُ وَيَعْلَمَ مَا فِيهِ؛ لِئَلَّا يَلْحَقَهُ مِنَ الذَّمِّ مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ».

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي الْحَثِّ وَالنَّهْيِ: التَّشْبِيهُ، وَالْكِنَايَةُ، وَالتَّضْمِينُ، وَالْمُقَارَنَةُ، وَالْقَصَصُ، وَالتَّأْكِيدُ، وَالتَّخْصِيصُ، وَالتَّفْصِيلُ، وَالْإِجْمَالُ، وَالتَّقْدِيمُ،

وَالتَّأْخِيرُ، وَالِالْتِفَاتُ، وَالتَّلْمِيحُ، وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ، وَبَيَانُ الْحِكْمَةِ، وَخَتْمُ الْآيَةِ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَخَتْمُ السُّوَرِ بِمَا يُنَاسِبُهَا.

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ: اخْتِلَافُ مَسَاقِ إِيرَادِ الْقَصَصِ؛ قَالَ الشَّاطِبِيُّ عَنْ ذَلِكَ: «وَبِالْجُمْلَةِ فَحَيْثُ ذُكِرَ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَثْبِيتٌ لِفُؤَادِهِ لِمَا كَانَ يَلْقَىٰ مِنْ عِنَادِ الْكُفَّارِ وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ، عَلَىٰ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَتُذْكَرُ الْقِصَّةُ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يَقَعُ لَهُ مِثْلُهُ، وَبِذَلِكَ اخْتَلَفَ مَسَاقُ الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ.

مَعْرِفَةُ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَسَالِيبَ الْقُرْآنِ سَيَجِدُ نَفْسَهُ غَرِيبًا عَنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَتَرَاكِيبِ جُمَلِهِ، وَسَيُعَانِي لِفَهْمِهَا مَا يُعَانِي، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنَ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَمِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ، وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ بَلَغَ فِي التَّدَبُّرِ مَبْلَغًا.

وَأَمَّا مَا مَرَّ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي كَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَنْ يَفْهَمَهُ وَأَنْ يُعَانِيَ ذَلِكَ وَأَنْ يَفْقَهَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمَّا نَعَىٰ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ نَعَىٰ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الِاجْتِهَادِ شَيْءٌ، فَلَوْ كَانَ لَا يَصِلُ إِلَىٰ فَهْمِ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَّا مَنْ حَصَّلَ أَدَوَاتِ الِاجْتِهَادِ لَمَا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ سَامِعٍ لِكَلَامِ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَلِكُلِّ تَالٍ لَهُ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ فَهْمِهِ لِكَلَامِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، لِأَنَّ هُنَالِكَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ وَمَا فِيهَا مِنَ الدَّقَائِقِ، فَهَذَا لِلْعُلَمَاءِ.

وَلَا يُطَالَبُ كُلُّ النَّاسِ بِأَنْ يَفْهَمُوا هَذَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْعُلَمَاءُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ هُنَالِكَ كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِيهِ الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ، وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الرَّذَائِلِ، وَالْحَثُّ عَلَىٰ الْفَضَائِلِ، وَفِيهِ التَّخْوِيفُ بِالنَّارِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي الْجَنَّةِ وَفِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَفْهَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ، فَهَذَا عَطَاءُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ تَلَاهُ.

ثُمَّ يَرْتَقِي الْمَرْءُ فِي دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَمَعْرِفَةُ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ إِنَّمَا تَكُونُ مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِ الطَّرِيقِ لِكَيْ يَعْلَمَ وُجُوهَ الْإِعْجَازِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ -وَهُوَ إِذَا لَمْ يَتَدَبَّرْ كَلَامَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْجَوَابِ- عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ، الْقُرْآنُ هُوَ آيَةُ الرَّسُولِ ﷺ؛ أَيْ: مُعْجِزَتُهُ الْعُظْمَىٰ، وَهِيَ أَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ بِإِطْلَاقٍ، فَأَعْظَمُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ الْكِتَابُ الَّذِي آتَاهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مُحَمَّدًا ﷺ؛ «**مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَىٰ مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ لِأَنَّ آيَتَهُ هِيَ الْآيَةُ الْعُظْمَىٰ، إِذَنْ كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -وَهُوَ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ بَيْنَ يَدَيْكَ- أَعْظَمُ إِعْجَازًا وَأَقْوَىٰ دَلَالَةً مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ، وَمِنْ إِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ، وَأَعْظَمُ مِنْ شَقِّ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ، أَعْظَمُ عَظَمَةً مِنْ كُلِّ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، هَلْ هُوَ كَذَلِكَ عِنْدَكَ؟!

يَعْنِي: هَلْ إِذَا رَأَيْتَ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ، تَرَىٰ الْقُرْآنَ بِيَقِينٍ أَعْظَمَ دَلَالَةً وَأَكْبَرَ آيَةً وَأَعْجَزَ إِعْجَازًا مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ أَمْ أَنَّكَ تَرَىٰ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْظَمُ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، بَلْ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ؟!

مَا الْقُرْآنُ عِنْدَكَ؟! هَلْ هُوَ وَحْدَةٌ مُتَكَامِلَةٌ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، فَهَذِهِ كَلِمَةُ اللهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَهِيَ خِتَامُ الْوَحْيِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَلَا كِتَابَ بَعْدَهُ كَمَا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَحْدَةٌ وَاحِدَةٌ، هُوَ عِنْدَكَ كَذَلِكَ؟ أَوْ هُوَ تَفَارِيقُ وَتَبَاعِيضُ؟ بَلْ إِنَّ السُّورَةَ وَلَوْ كَانَتْ قَصِيرَةً لَا تَكُونُ عِنْدَكَ مُتَرَابِطَةً!

لَقَدْ كَتَبَ الْعُلَمَاءُ فِي تَنَاسُبِ الْآيِ وَتَنَاسُبِ السُّوَرِ، فَآيَةٌ تُسْلِمُ إِلَىٰ آيَةٍ، وَآيَةٌ تُسْلِمُ إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا، وَالسُّورَةُ تُسْلِمُ إِلَىٰ السُّورَةِ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ.

هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْبَاقِيَةُ إِلَىٰ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ الْكِتَابَ -الْقُرْآنَ- مِنَ الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، يَتَحَدَّىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ فِي عُمُومِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ أَقْصَرِ سُورَةٍ فِيهِ، وَالْعَجْزُ قَائِمٌ، وَلَكِنْ هَلْ تَرَىٰ وُجُوهَ الْإِعْجَازِ فِيهِ؟! مَا الَّذِي تَعْرِفُهُ عَنْ كِتَابِ اللهِ؟! لِمَاذَا تَشْغَلُ نَفْسَكَ بِالدُّونِ، وَلَا تَشْغَلُ نَفْسَكَ بِمَا يُصْلِحُ قَلْبَكَ، وَيُسَهِّلُ طَرِيقَكَ، وَيُنَوِّرُ وَجْهَكَ، وَيُسَهِّلُ أَمْرَكَ، وَيُثَبِّتُ قَدَمَيْكَ؟! لِمَاذَا تُهْدِرُ الْعُمُرَ فِيمَا لَا يُفِيدُ؟!

◉◉◉

مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

لَقَدْ تَكَلَّمَ الْعُلَمَاءُ فِي وُجُوهِ الْإِعْجَازِ، وَفَصَّلَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَشْرَةَ أَوْجُهٍ، وَالْأَوْجُهُ بَعْدَ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَهُنَاكَ مُصَنَّفَاتٌ بِرَأْسِهَا، بَلْ إِنَّ عِلْمَ الْبَلَاغَةِ إِنَّمَا أُسِّسَ مِنْ أَجْلِ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، بَلْ كُلُّ الْعُلُومِ إِنَّمَا نَشَأَتْ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ وَنَمَتْ وَتَرَعْرَعَتْ لِخِدْمَةِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمَا مَحَلُّهُ مِنْكَ، مِنْ قَلْبِكَ وَرُوحِكَ وَضَمِيرِكَ وَعَقْلِكَ وَحَيَاتِكَ وَسُلُوكِكَ وَمِنْهَاجِكَ وَأَخْلَاقِكَ؟!

أَوَّلُ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فِيمَا ذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ: النَّظْمُ الْبَدِيعُ لِكُلِّ نَظْمٍ مَعْهُودٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ.

ثَانِيهَا: الْأُسْلُوبُ الْمُخَالِفُ لِجَمِيعِ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَكَثَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُكَلِّمُهُمْ وَيُكَلِّمُونَهُ، يَعْرِفُونَ طَبَقَةَ كَلَامِهِ هُوَ ﷺ، وَهِيَ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ حَيْثُ هِيَ، وَلَكِنْ هُمْ يَعْرِفُونَ أُسْلُوبَ رَسُولِ اللهِ، فَلَمَّا جَاءَ بِالْقُرْآنِ لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِمْ، تَمَيَّزَ، قَالُوا: هَذَا لَيْسَ بِكَلَامِ مُحَمَّدٍ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ مِنْ كَلَامِ مُحَمَّدٍ. فَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مُكَابَرَةً، هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ، بَلْ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، إِذَنْ هَذَا أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ، وَهَذَا كَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ يَنْطِقُ بِالِاثْنَيْنِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ الْكِتَابَ

الْمَجِيدَ، وَالنَّبِيُّ يَتَكَلَّمُ، كَلَّمَهُمْ وَيُكَلِّمُونَهُ، وَحَادَثَهُمْ وَيُحَادِثُونَهُ، وَلَكِنْ هَذِهِ طَبَقَةٌ وَهَذِهِ طَبَقَةٌ، هَذَا كَلَامُ اللهِ، وَهَذَا كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأُسْلُوبُ الْقُرْآنِ مُخَالِفٌ لِجَمِيعِ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ.

ثَالِثًا: الْجَزَالَةُ الَّتِي لَا تَصِحُّ مِنْ مَخْلُوقٍ بِحَالٍ، تَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْحَقُّ، عَلِمَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجَزَالَةِ لَا تَصِحُّ فِي خِطَابِ غَيْرِهِ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ الدُّنْيَا أَنْ يَقُولَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وَلَا أَنْ يَقُولَ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣].

إِذَنْ؛ نَظْمٌ وَأُسْلُوبٌ وَجَزَالَةٌ، وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْخِصَالُ لَازِمَةٌ لِكُلِّ سُورَةٍ، بَلْ هِيَ لَازِمَةٌ لِكُلِّ آيَةٍ، وَبِمَجْمُوعِ هَذِهِ الثَّلَاثِ يَتَمَيَّزُ مَسْمُوعُ كُلِّ آيَةٍ وَكُلِّ سُورَةٍ عَنْ سَائِرِ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَبِهَا وَقَعَ التَّحَدِّي وَالتَّعْجِيزُ، اللهُ -تَعَالَىٰ- يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

يَقُولُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا إِنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَخَلَقَ النَّاسَ، وَخَلَقَ الْجِنَّ، وَخَلَقَ الْخَلْقَ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ، الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ سَيَقُولُ مَاذَا؟! خَلَقَ مَاذَا؟! رَزَقَ مَنْ؟! مَاذَا صَنَعَ؟! مَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ؟!

رَابِعًا: التَّصَرُّفُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ عَرَبِيٌّ.

خَامِسًا: الْإِخْبَارُ عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ وَقْتَ نُزُولِهِ؛ يَعْنِي: كَانَتْ قَبْلَ وَقْتِ النُّزُولِ، تَقَدَّمَتْ عَلَيْهِ.

سَادِسًا: الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ؛ كَوَعْدِهِ بِنُصْرَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَكَذَلِكَ فِي وَعْدِهِ بِأَنْ يَعْصِمَهُ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ -لِأَنَّ الَّذِي يُوحِي إِلَيْهِ الْقُرْآنَ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا- لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ صَرَفَ مَنْ كَانَ يَحْرُسُهُ، وَهَذَا لَا يُخَاطِرُ بِهِ أَحَدٌ لَيْسَ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْهِ هُوَ اللهُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ لِأَنَّهُ يُعَرِّضُ حَيَاتَهُ لِلْخَطَرِ، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، صَرَفَ مَنْ كَانَ يَحْرُسُهُ كِفَايَةً بِعِصْمَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

سَابِعًا: الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الَّتِي لَا يُطَّلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا بِالْوَحْيِ.

ثَامِنًا: مَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ قِوَامُ جَمِيعِ الْأَنَامِ.

تَاسِعًا: الْحِكَمُ الْبَالِغَةُ الَّتِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِأَنْ تَصْدُرَ فِي كَثْرَتِهَا وَشَرَفِهَا مِنْ آدَمِيٍّ.

عَاشِرًا: التَّنَاسُبُ فِي جَمِيعِ مَا تَضَمَّنَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، مِنْ غَيْرِ اخْتِلَافٍ وَلَا خِلَافٍ.

هَذِهِ بَعْضُ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فِي الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَعَلَىٰ الْمُسْلِمِ عِنْدَ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامِ رَبِّهِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَطْرَافِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي مَعْرِفَتِهَا فَاتَهُ مِنْ حُسْنِ التَّدَبُّرِ، بَلْ مِنْ حَقِيقَةِ التَّدَبُّرِ الْكَثِيرُ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ التَّدَبُّرَ هُوَ الْمَقْصِدُ، أَنْزَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ، وَلِتُتَدَبَّرَ آيَاتُهُ، فَإِذَا تُدُبِّرَتْ آيَاتُهُ وَفُهِمَتْ عُلِمَ الْمُرَادُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْرًا وَنَهْيًا، فَيُلْتَزَمُ أَمْرُهُ وَيُجْتَنَبُ نَهْيُهُ.

⦿⦿⦿

التَّأَمُّلُ فِي دَلَالَةِ الاِقْتِرَانِ، وَذِكْرُ أَمْثِلَتِهَا

مِمَّا يَدُلُّ -أَيْضًا- عَلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ: دَلَالَةُ الاِقْتِرَانِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَلَهَا أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي التَّدَبُّرِ، فَإِنَّ أَبْوَابَ التَّدبُّرِ التَّأَمُّلُ فِيمَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ بِدَلَالَةِ الاِقْتِرَانِ؛ أَيْ: دَلَالَةُ عَطْفِ الْكَلِمَةِ عَلَىٰ الْكَلِمَةِ، دَلَالَةُ مَجِيئِهَا مَعَهَا وَاقْتِرَانِهَا بِهَا، وَهُوَ بَابٌ لَطِيفٌ مِنْ أَبْوَابِ التَّدَبُّرِ فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ جَمَّةٌ، هَذِهِ أَمْثِلَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ:

تَأَمَّلْ كَيْفَ قَرَنَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بَيْنَ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فَأَكْلُ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ مِمَّا يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَىٰ فِعْلِ الصَّالِحَاتِ، كَمَا أَنَّ أَكْلَ الْحَرَامِ وَأَنَّ الْوُقُوعَ فِي الْمُشْتَبِهَاتِ يُثْقِلُ الْعَبْدَ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، فَتَأَمَّلْ فِي هَذَا الاِقْتِرَانِ بَيْنَ أَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ.

تَأَمَّلْ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، تَجِدْ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يَقْرِنُ اسْتِوَاءَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ كَثِيرًا، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرْشَ مُحِيطٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ قَدْ وَسِعَهَا، وَالرَّحْمَةَ مُحِيطَةٌ بِالْخَلْقِ وَاسِعَةٌ لَهُمْ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ أَوْسَعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَوْسَعِ الصِّفَاتِ.

بُشْرَىٰ لِمَنْ يَسْعَىٰ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ بِالتِّجَارَةِ وَنَحْوِهَا، ذَكَرَهَا اللهُ - تَعَالَىٰ- فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَتَأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَضِيلَةَ التِّجَارَةِ وَالسَّفَرِ لِأَجْلِهَا، حَيْثُ قَرَنَ اللهُ بَيْنَ الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُكْتَسِبِينَ الْمَالَ الْحَلَالَ، ذَلِكَ أَنَّ اللهَ مَا ذَكَرَ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ لِنَسْخِ تَحْدِيدِ الْقِيَامِ إِلَّا تَنْوِيهًا بِهِمَا؛ لِأَنَّ فِي غَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْذَارِ مَا هُوَ أَشْبَهُ كَالْمَرَضِ مَثَلًا.

لَمَّا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْعُبُودِيَّةِ ذَكَرَ سَبَبَ ذَلِكَ؛ وَهُوَ كَمَالُهُ فِي نَفْسِهِ وَكَمَالُهُ لِغَيْرِهِ، فَلَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، «وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ بَيَانِ مَنْزِلَةِ الْعُلَمَاءِ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ، حَيْثُ قَرَنَ اللهُ خُطُورَةَ جَرِيمَةِ قَتْلِهِمْ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وَقَرَنَ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ قَتْلَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ، ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فَقَرَنَ بَيْنَهُمَا لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ رِفْعَةِ شَأْنِ الْعُلَمَاءِ وَعَظِيمِ قَدْرِهِمْ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ وَالدِّرَاسَةَ تُوجِبُ كَوْنَ الْإِنْسَانِ رَبَّانِيًّا، فَمَنِ اشْتَغَلَ بِذَلِكَ لَا لِهَذَا الْمَقْصِدِ ضَاعَ سَعْيُهُ وَخَابَ عَمَلُهُ.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ٣]، جَمَعَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ لِأَنَّ الِاسْتِغْفَارَ مَحْوُ الذُّنُوبِ، وَفِي التَّسْبِيحِ طَلَبُ الْكَمَالِ.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، قَرَنَ شَهَادَةَ الْعُلَمَاءِ بِشَهَادَةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَبِشَهَادَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَهِيَ تَزْكِيَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَا يَسْتَشْهِدُ مَجْرُوحًا.

فَهَذِهِ بَعْضُ الْأَمْثِلَةِ الَّتِي تَفْتَحُ بَابًا لِلتَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

◉ ◉ ◉

مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ التَّدَبُّرِ:
أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلَ بِمَا عَلِمَ

مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ التَّدَبُّرِ: أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلَ بِمَا عَلِمَ، هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ التِّلَاوَةِ، «أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لِيَعْمَلُوا بِهِ فَاتَّخَذُوا دَرْسَهُ عَمَلًا»، «إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَتْلُو الْقُرْآنَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مَا يُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا وَقَدْ أَسْقَطَ الْعَمَلَ بِهِ»، فَالْعَمَلُ بِكِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْظَمُ مُعِينٍ عَلَىٰ التَّأَمُّلِ فِي آيَاتِهِ وَتَدَبُّرِ مَعَانِيهِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِهِ وَعَدَمَ مُخَالَفَتِهِ، يَعْنِي عِنْدَمَا تُؤْمِنُ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، يُخَاطِبُكَ بِهِ مِنْهُ إِلَيْكَ، فَعِنْدَمَا يُخَاطِبُ عَبْدَهُ، فَأَنْتَ عَبْدُهُ، وَهُوَ يَأْمُرُكَ وَيَنْهَاكَ، كَأَنَّكَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِكَ وَمَوْلَاكَ يَأْمُرُكَ وَيَنْهَاكَ، «لَا أَخْشَىٰ أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا عُوَيْمِرُ، مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا جَهِلْتَ؟! وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟!»؛ يَقُولُهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عَلِمَ، وَأَلَّا يُقِيمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْحُجَّةَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِمَا عَلِمَ فَقَدْ أَقَامَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْحُجَّةَ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَدْ عَلِمْتَ، فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ فَالْعَمَلُ بِمَا فِيهِ، وَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي وَصْفِ خُلُقِهِ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ».

«يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، اسْتَقِيمُوا! فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا».

يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ، اعْمَلُوا بِهِ! فَإِنَّ الْعَالِمَ إِنَّمَا هُوَ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ، سَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، وَتُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ، يَجْلِسُونَ حِلَقًا يُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَىٰ جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَىٰ غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لَا تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَمَا تَدَبَّرَ آيَاتِهِ إِلَّا مَنْ رُزِقَ السَّعَادَةَ دُنْيَا وَآخِرَةً، وَهِيَ مَا تُتَدَبَّرُ -أَيْ آيَاتُهُ- إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ، مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ -وَاللهِ- أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَىٰ الْقُرْآنُ لَهُ فِي خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَأَقْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفَسٍ! وَاللهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ وَلَا بِالْعُلَمَاءِ وَلَا بِالْحُكَمَاءِ وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَىٰ كَانَتِ الْقُرَّاءُ مِثْلَ هَذَا؟! لَا كَثَّرَ اللهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ». رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ»، وَابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ» عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ.

***

مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:
تَعْلِيمُهُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ بِهِ

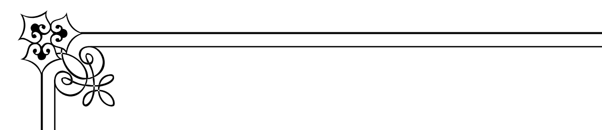
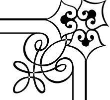
كَذَلِكَ مِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: تَعْلِيمُهُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ بِهِ، وَاسْتِحْضَارُ الْقَلْبِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ.

قِيَامُ اللَّيْلِ بِهِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِهِ، حَيْثُ خَلْوَةُ الرَّجُلِ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مَعَ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ الشَّوَاغِلِ وَالصَّوَارِفِ الَّتِي تَصْرِفُ الْإِنْسَانَ وَتَشْغَلُ قَلْبَهُ عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا.

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا حُسْنَ التَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَأَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي ذَلِكَ فَتْحًا مُبَارَكًا، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

◉ ◉ ◉


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْحَادِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن



جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

الْقِيَامُ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِهِ

فَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الْقِيَامُ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَهَمِّ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ تَدَبُّرًا صَحِيحًا، وَمِنْ أَعْظَمِ الْوَسَائِلِ إِلَىٰ ذَلِكَ شَأْنًا، وَقَدْ وَرَدَتِ النُّصُوصُ تُؤَكِّدُ أَهَمِّيَّتَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ رَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١- ٥].

وَقَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وَقَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وَقَالَ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ: «**يُنْفِقُهُ**»، مَعَ قَوْلِهِ: «**يَقُومُ بِهِ**»، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَقُمْ بِهِ -أَيْ: لَمْ يَقْرَأْهُ فِي صَلَاةٍ- فَهُوَ مِثْلُ مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُنْفِقْهُ، يُؤَكِّدُ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَاقْرَؤُوهُ وَأَقْرِئُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ عَلَىٰ مِسْكٍ**».

فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْقُرْآنَ فَرَقَدَ وَلَمْ يَقُمْ بِهِ، فَهُوَ مِثْلُ مَنِ اشْتَرَىٰ طِيبًا وَتَرَكَهُ مُغْلَقًا وَلَمْ يَسْتَخْدِمْهُ، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ، وَقَالَ مُحَقِّقُوهُ: «رِجَالُهُ ثِقَاتٌ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ عَطَاءٍ مَوْلَىٰ أَبِي أَحْمَدَ».

يُبَيِّنُ هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي دَلَّ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الْهَدَفِ مِنَ الْقِيَامِ بِالْقُرْآنِ، فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَهَذَا هُوَ بَيْتُ الْقَصِيدِ، وَحَجَرُ الزَّاوِيَةِ فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، إِنَّهُ تَذَكُّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَكَوْنُهَا حَاضِرَةً فِي الْقَلْبِ فِي كُلِّ آنٍ، خَاصَّةً فِي الْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ فِي الْحَيَاةِ، مَوَاقِفِ الشِّدَّةِ وَالذُّهُولِ، الْمَوَاقِفِ الَّتِي يُفْتَنُ فِيهَا الْمَرْءُ وَيُمْتَحَنُ وَيُخْتَبَرُ، فَمَنْ كَانَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ تَجِدُ إِجَابَتَهُ حَاضِرَةً

سَرِيعَةً قَوِيَّةً، تَجِدُهُ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مُفَرِّطًا فِي اسْتِخْدَامِ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ، فَمَا أَسْرَعَ مَا يَسْقُطُ وَيَهْوِي، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فَالصَّبْرُ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ وَسِيلَتُهُ الْقِرَاءَةُ بِتَدَبُّرٍ، وَهُوَ حَاصِلٌ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي صَلَاةٍ؛ لِذَلِكَ قَرَنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بَيْنَهُمَا فِي أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَيُطِيلُ فِيهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ كَمَا فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، فَمَنْ تَرَبَّىٰ عَلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ خَاصَّةً مِنَ الصِّغَرِ، سَهُلَ عَلَيْهِ الِانْتِفَاعُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَتَرَبَّ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ تَضِيقُ بِهِ الْحَيَاةُ فِي حَالِ الشِّدَّةِ، وَتَضِيعُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ حَالَ الرَّخَاءِ.

مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ: الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ

إِنَّ اجْتِمَاعَ الْقُرْآنِ مَعَ الصَّلَاةِ يُمْكِنُ أَنْ يُشَبَّهَ بِاجْتِمَاعِ الْأُمُورِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَمِرَّ وُجُودُهُ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ، وَكَذَلِكَ اجْتِمَاعُ الْقُرْآنِ مَعَ الصَّلَاةِ يَنْتُجُ عَنْهُ مَاءُ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَصِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ.

لِذَلِكَ فَلَا تَعْجَبْ مِنْ كُلِّ هَذَا الْفَضْلِ الَّذِي رُتِّبَ عَلَىٰ هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ**». أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ خُزَيْمَةَ، وَهُوَ حَدِيثٌ ثَابِتٌ صَحِيحٌ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ**».

وَبِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ، فَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَزْدَادُ قُرْبًا مِنَ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ؛ مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ مُنَاجٍ رَبَّهُ، وَرَبُّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ فَلَا يَبْزُقَنَّ أَمَامَهُ فَإِنَّهُ مُسْتَقْبِلٌ رَبَّهُ**».

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللهُ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ رَحِمَهُ اللهُ، أَيَجْعَلُ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ أَوْ ثَوْبِهِ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأُحِبُّ أَلَّا يُخَمِّرَ -أَيْ: لَا يُغَطِّيَ- فَاهُ، قَالَ عَطَاءٌ رَحِمَهُ اللهُ: بَلَغَنَا أَنَّ الرَّبَّ يَقُولُ: إِلَىٰ أَيْنَ تَلْتَفِتُ؟! إِلَيَّ يَا ابْنَ آدَمَ، إِنِّي خَيْرٌ لَكَ مِمَّنْ تَلْتَفِتُ إِلَيْهِ.

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ سِوَىٰ الِانْقِطَاعِ عَنِ الشَّوَاغِلِ وَالْمُلْهِيَاتِ لَكَفَىٰ، فَإِنَّ الْمُصَلِّيَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ حَرُمَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَالِالْتِفَاتُ وَالْحَرَكَةُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَهَذَا كُلُّهُ أَعْوَانٌ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَأَجْمَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ مَنْ حَوْلَهُ لَا يُقَاطِعُهُ وَلَا يَشْغَلُهُ مَا دَامَ فِي صَلَاةٍ.

إِذَنْ؛ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ، خَاصَّةً فِي اللَّيْلِ، وَخَاصَّةً فِي وَقْتِ السَّحَرِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَوْقَاتِ لِلتَّذَكُّرِ، فَالذَّاكِرَةُ تَكُونُ فِي أَعْلَىٰ مُسْتَوًىٰ بِسَبَبِ الْهُدُوءِ وَالصَّفَاءِ، وَبِسَبَبِ بَرَكَةِ الْوَقْتِ، وَهُوَ وَقْتُ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَقْتُ فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، فَأَيُّ أَمْرٍ تَسْتَثْبِتُهُ فِي الذَّاكِرَةِ بِحَيْثُ تَتَذَكَّرُهُ خِلَالَ النَّهَارِ فَقُمْ بِمُرَاجَعَتِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ.

لَقَدِ اسْتَفَادَ مِنْ هَذَا أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ السِّيَاسَةِ وَالِاقْتِصَادِ خَاصَّةً فِي الْغَرْبِ، حَيْثُ ذَكَرَ عَدَدٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَقُومُ بِمُرَاجَعَةِ لَوَائِحِهِ أَوْ حِسَابَاتِهِ أَوْ مُعَامَلَاتِهِ

وَأَوْرَاقِهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، وَأَنَّهُ يُوَفَّقُ لِلصَّوَابِ فِي قَرَارَاتِهِ، فَأَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ الْآخِرَةِ أَوْلَىٰ بِاغْتِنَامِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ لِتَثْبِيتِ إِيمَانِهِمْ وَعِلْمِهِمْ.

وَإِنَّ مِنَ الْحَقَائِقِ الْجَدِيرَةِ بِالدِّرَاسَةِ وَالتَّأَمُّلِ تِلْكَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَقِيَامِهِمْ بِاللَّيْلِ بِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَمِنْ خِلَالِ تَأَمُّلٍ سَرِيعٍ تَجِدُ أَنَّ انْتِصَارَاتِ الْمُسْلِمِينَ وُجِدَتْ حِينَمَا كَانَتْ جُنُودُهُمْ تُوصَفُ بِأَنَّهُمْ رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ فُرْسَانٌ فِي النَّهَارِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ كَوْنِ الْقِرَاءَةِ فِي اللَّيْلِ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وَقَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ أَجْدَرُ أَنْ يَفْقَهَ الْقُرْآنَ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ مُدَارَسَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ: «الْمَقْصُودُ مِنَ التِّلَاوَةِ الْحُضُورُ وَالْفَهْمُ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ مَظِنَّةُ ذَلِكَ، لِمَا فِي النَّهَارِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَارِضِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ»، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَأَوُا الْقُرْآنَ رَسَائِلَ مِنْ رَبِّهِمْ، فَكَانُوا يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ، وَيَتَفَقَّدُونَهَا فِي النَّهَارِ»، الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: «يَتَدَبَّرُونَهَا بِاللَّيْلِ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَوَّلُ مَا يَنْقُصُ مِنَ الْعِبَادَةِ التَّهَجُّدُ بِاللَّيْلِ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ فِيهَا بِالْقُرْآنِ».

قَالَ الشَّيْخُ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يَثْبُتُ الْقُرْآنُ فِي الصَّدْرِ، وَلَا يَسْهُلُ حِفْظُهُ وَيُيَسَّرُ فَهْمُهُ إِلَّا بِالْقِيَامِ بِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ».

وَمِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَجِدُ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ مَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ عَلِيمٌ، فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ أَكْثَرَ، وَفِي صَلَاةِ اللَّيْلِ أَكْثَرَ، وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، كَمَا قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّمَا رَجَحَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ وَقِرَاءَتُهُ لِكَوْنِهَا أَجْمَعَ لِلْقَلْبِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الشَّاغِلَاتِ وَالْمُلْهِيَاتِ وَالتَّصَرُّفِ فِي الْحَاجَاتِ، وَهِيَ أَصْوَنُ عَنِ الرِّيَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُحْبِطَاتِ مَعَ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنْ إِيجَادِ الْخَيْرَاتِ فِي اللَّيْلِ، فَإِنَّ الْإِسْرَاءَ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَيْلًا».

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْقِيَامِ بِالْحِزْبِ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ اللَّيْلُ، وَفِي حَالَةِ الْعُذْرِ فَإِنَّهُ يُعْطَىٰ الثَّوَابَ نَفْسَهُ إِذَا قَضَاهُ فِي النَّهَارِ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الْجَفْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ كُرْزِ بْنِ وَبْرَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي بَيْتِهِ فَإِذَا هُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟! قَالَ: إِنَّ بَابِي مُغْلَقٌ، وَإِنَّ سِتْرِي لَمُسْبَلٌ، وَمُنِعْتُ حِزْبِي أَنْ أَقْرَأَهُ الْبَارِحَةَ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِذَنْبٍ أَحْدَثْتُهُ.

الْقِرَاءَةُ لِلْقَلْبِ كَالسَّقْيِ لِلنَّبَاتِ، فَالسَّقْيُ لَا يَكُونُ فِي حَرِّ الشَّمْسِ، فَإِنَّ هَذَا يُضْعِفُ أَثَرَهُ خَاصَّةً مَعَ قِلَّةِ الْمَاءِ فَإِنَّهُ يَتَبَخَّرُ، وَكَذَلِكَ قُرْآنُ اللَّيْلِ إِذَا كَانَتْ قِرَاءَتُهُ قَلِيلَةً، وَكَانَتْ فِي النَّهَارِ فِي وَقْتِ الضَّجِيجِ وَالْمُشْغِلَاتِ، فَإِنَّ مَا يَرِدُ عَلَىٰ الْقَلْبِ مِنَ الْمَعَانِي يَتَبَخَّرُ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ، وَهَذَا يُجِيبُ عَلَىٰ تَسَاؤُلِ الْبَعْضِ إِذْ يَقُولُ: إِنِّي أُكْثِرُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ لَكِنْ لَا أَتَأَثَّرُ بِهِ! فَإِذَا سُئِلَ: مَتَىٰ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ تَبَيَّنَ أَنَّ كُلَّ قِرَاءَتِهِ فِي النَّهَارِ -فِي وَقْتِ الضَّجِيجِ- وَبِشَيْءٍ مِنَ الْمُكَابَدَةِ لِحُصُولِ التَّرْكِيزِ، فَكَيْفَ سَيَتَأَثَّرُ؟!

❋ ❋ ❋

مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرآنِ المَجِيدِ:
سَمَاعُه مِنَ الآخَرِينَ

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَىٰ تَدبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: سَمَاعُهُ مِنَ الْآخَرِينَ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **اقْرَأْ عَلَيَّ**. قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: **فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: **أَمْسِكْ**. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَعْنَىٰ اسْتِمَاعِهِ الْقُرْآنَ مِنْ غَيْرِهِ -وَاللهُ أَعْلَمُ- لِيَكُونَ عَرْضُ الْقُرْآنِ سُنَّةً، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كَيْ يَتَدَبَّرَهُ وَيَفْهَمَهُ، ذَلِكَ أَنَّ الْمُسْتَمِعَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ، وَنَفْسُهُ أَخْلَىٰ وَأَنْشَطُ مِنْ نَفْسِ الْقَارِئِ؛ لِأَنَّهُ فِي شُغْلٍ بِالْقِرَاءَةِ وَأَحْكَامِهَا».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ هَذَا فَوَائِدُ؛ مِنْهَا:**

* اسْتِحْبَابُ اسْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ، وَالْإِصْغَاءِ لَهَا، وَالْبُكَاءِ عِنْدَهَا، وَتَدَبُّرِهَا.

* وَاسْتِحْبَابُ طَلَبِ الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسْتَمِعَ لَهُ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي التَّفَهُّمِ وَالتَّدَبُّرِ مِنْ قِرَاءَتِهِ بِنَفْسِهِ.

* وَفِيهِ تَوَاضُعُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَلَوْ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ».

وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِذَا كَانَ هَذَا الشَّاهِدُ تَفِيضُ عَيْنَاهُ لِهَوْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ وَعِظَمِ تِلْكَ الْحَالَةِ، فَمَاذَا -لَعَمْرِي- يَصْنَعُ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ بِالْقِيَامَةِ وَقَدْ أَنَاخَتْ لَدَيْهِ».

كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ لِأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَجْلِسِ-: يَا أَبَا مُوسَىٰ ذَكِّرْنَا رَبَّنَا. فَيَقْرَأُ عِنْدَهُ أَبُو مُوسَىٰ.

وَرُبَّمَا قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ عَلَىٰ خَوَاصِّ أَصْحَابِهِ مِمَّنْ كَانَ مَاهِرًا بِالْقُرْآنِ تَخْصِيصًا وَتَشْرِيعًا، كَمَا حَدَثَ ذَلِكَ لِسَيِّدِ الْقُرَّاءِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوَّلِ مَنْ كَتَبَ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١]»، قَالَ: وَسَمَّانِي؟! قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَبَكَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَكَىٰ إِمَّا فَرَحًا وَسُرُورًا بِذَلِكَ، وَإِمَّا خُشُوعًا وَخَوْفًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ تِلْكَ النِّعْمَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: قَالَ: «**نَعَمْ، بِاسْمِكَ وَنَسَبِكَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ**».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «تَعَجَّبَ أُبَيٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ تَسْمِيَةَ اللهِ لَهُ وَنَصَّهُ عَلَيْهِ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ، فَلِذَلِكَ بَكَىٰ إِمَّا فَرَحًا وَإِمَّا خُشُوعًا».

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: «الْمُرَادُ بِالْعَرْضِ عَلَىٰ أُبَيٍّ لِيَتَعَلَّمَ أُبَيٌّ مِنْهُ الْقِرَاءَةَ وَيَتَثَبَّتَ فِيهَا، وَلِيَكُونَ عَرْضُ الْقُرْآنِ سُنَّةً، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضِيلَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَتَقَدُّمِهِ فِي حِفْظِ الْقُرْآنِ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَسْتَذْكِرَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا بِذَلِكَ الْعَرْضِ».

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: مَشْرُوعِيَّةُ التَّوَاضُعِ فِي أَخْذِ الْإِنْسَانِ الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ كَانَ دُونَهُ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِي الْحَدِيثِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا:

* الْمَنْقَبَةُ الشَّرِيفَةُ لِأُبَيٍّ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ شَارَكَهُ فِي هَذَا.

* وَمِنْهَا مَنْقَبَةٌ أُخْرَىٰ لَهُ بِذِكْرِ اللهِ -تَعَالَىٰ- لَهُ، وَنَصِّهِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ.

لَقَدْ أَوْصَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِأَخْذِ الْقُرْآنِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ مِنْهُمْ أُبَيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ؛ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَىٰ أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ**».

◉◉◉

مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الِاجْتِمَاعُ لِمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ

مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الِاجْتِمَاعُ لِمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِنُزُولِ السَّكِينَةِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَذَلِكَ كَانَ جِبْرِيلُ يُدَارِسُ النَّبِيَّ ﷺ فِي كُلِّ رَمَضَانَ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ السَّكِينَةَ وَالْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَعَلَىٰ هَذَا بَوَّبَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِهِ» بِقَوْلِهِ: «بَابُ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلَائِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، وَأَوْرَدَ حَدِيثَ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ

فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ**».

قَالَ: فَأَشْفَقْتُ -يَا رَسُولَ اللهِ- أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَىٰ السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا.

قَالَ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**».

قَالَ: لَا.

قَالَ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ**». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَعِنْدَ الْبَزَّارِ: «كَانَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ حَسَنَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ».



مِنْ أَسْبَابِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الْعِلْمُ

مِنْ أَسْبَابِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الْعِلْمُ؛ إِذْ كَمَالُ الْإِنْسَانِ بِتَكْمِيلِ قُوَّتَيِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالصَّبْرِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَلَمَّا كَانَ كَمَالُ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُمَا الْهُدَىٰ وَدِينُ الْحَقِّ، وَبِتَكْمِيلِهِ لِغَيْرِهِ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١- ٣]، فَأَقْسَمَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ خَاسِرٌ إِلَّا مَنْ كَمَّلَ قُوَّتَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْإِيمَانِ، وَقُوَّتَهُ الْعَمَلِيَّةَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمَّلَ غَيْرَهُ بِالتَّوْصِيَةِ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالتَّوَاصِي بِهِ.

لَمَّا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ حَقِيقًا بِالْإِنْسَانِ أَنْ يُنْفِقَ سَاعَاتِ عُمُرِهِ -بَلْ أَنْفَاسَهُ- فِيمَا يَنَالُ بِهِ الْمَطَالِبَ الْعَالِيَةَ، وَيَخْلُصُ بِهِ مِنَ الْخُسْرَانِ الْمُبِينِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْإِقْبَالِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمِهِ وَتَدَبُّرِهِ، وَاسْتِخْرَاجِ كُنُوزِهِ وَإِثَارَةِ دَفَائِنِهِ، وَصَرْفِ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ، وَالْعُكُوفِ بِالْهِمَّةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ الْكَفِيلُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَالْمُوصِلُ لَهُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَالْحَقِيقَةُ وَالطَّرِيقَةُ

وَالْأَذْوَاقُ وَالْمَوَاجِيدُ الصَّحِيحَةُ كُلُّهَا لَا تُقْتَبَسُ إِلَّا مِنْ مِشْكَاتِهِ، وَلَا تُسْتَثْمَرُ إِلَّا مِنْ شَجَرَاتِهِ».

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالنَّاسُ فِي الْعِلْمِ طَبَقَاتٌ، مَوْقِعُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِقَدْرِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْعِلْمِ بِهِ، فَحَقَّ عَلَىٰ طَلَبَةِ الْعِلْمِ بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلْمِهِ، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلْمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا، وَالرَّغْبَةُ إِلَىٰ اللهِ فِي الْعَوْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ خَيْرٌ إِلَّا بِعَوْنِهِ.

فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ عِلْمَ أَحْكَامِ اللهِ فِي كِتَابِهِ نَصًّا وَاسْتِدْلَالًا، وَوَفَّقَهُ اللهُ لِلْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِمَا عَلِمَ مِنْهُ، فَازَ بِالْفَضِيلَةِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيَبُ، وَنَوَّرَتْ فِي قَلْبِهِ الْحِكْمَةُ، وَاسْتَوْجَبَ فِي الدِّينِ مَوْضِعَ الْإِمَامَةِ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْمُبْتَدِئَ لَنَا بِنِعَمِهِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا، الْمُدِيمَ بِهَا عَلَيْنَا مَعَ تَقْصِيرِنَا فِي الْإِتْيَانِ عَلَىٰ مَا أَوْجَبَ مِنْ شُكْرِهِ لَهَا، الْجَاعِلَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، أَنْ يَرْزُقَنَا فَهْمًا فِي كِتَابِهِ».

⊙⊙⊙

خَشْيَةُ الرَّبِّ الَّتِي تُورِثُ الْخُشُوعَ وَالْبُكَاءَ مِنْ أَظْهَرِ ثَمَرَاتِ عِلْمِ الْقَلْبِ

مِنْ أَظْهَرِ ثَمَرَاتِ عِلْمِ الْقَلْبِ: خَشْيَةُ الرَّبِّ الَّتِي تُورِثُ الْخُشُوعَ وَالْبُكَاءَ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْبُكَاءُ فِي حَالِ الْقِرَاءَةِ هُوَ صِفَةُ الْعَارِفِينَ، وَشِعَارُ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ -رَحِمَهُمَا اللهُ- قَالَ: قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟ قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ».

وَأَخْبَرَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ حَالِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَيْ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلَائِلَهُ وَبَرَاهِينَهُ سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ.

كَانَ عَبْدُ الْأَعْلَىٰ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: «مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ، لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونُ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُ؛ لِأَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- نَعَتَ الْعُلَمَاءَ فَقَالَ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩]، فَمَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ لَخَلِيقٌ أَلَّا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُ.

وَهَذَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا اشْتَدَّ الْمَرَضُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ: «قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ!».

وَأَمَّا الْفَارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَكَانَ يُسْمَعُ نَشِيجُهُ مِنْ وَرَاءِ الصُّفُوفِ؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ: «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]».

وَجَاءَ فِي تَرْجَمَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ «بَيْنَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمٌ يُصَلِّي إِذِ اسْتَبْكَىٰ، فَكَثُرَ بُكَاؤُهُ حَتَّىٰ فَزِعَ لَهُ أَهْلُهُ وَسَأَلُوهُ، فَاسْتَعْجَمَ عَلَيْهِمْ، وَتَمَادَىٰ فِي الْبُكَاءِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ فَجَاءَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟! قَالَ: مَرَّتْ بِي آيَةٌ! قَالَ: وَمَا هِيَ؟! قَالَ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فَبَكَىٰ أَبُو حَازِمٍ مَعَهُ فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُمَا».

وَجَاءَ فِي تَرْجَمَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ «جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَجْزَعُ؟ قَالَ: أَخْشَىٰ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾، أَنَا أَخْشَىٰ أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللهِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ».

وَفِي «الْمُسْتَدْرَكِ» عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاضِعًا رَأْسَهُ فِي حِجْرِ امْرَأَتِهِ فَبَكَىٰ، فَبَكَتِ امْرَأَتُهُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟! فَقَالَتْ: رَأَيْتُكَ تَبْكِي فَبَكَيْتُ! قَالَ: إِنِّي ذَكَرْتُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فَلَا أَدْرِي أَنْجُو مِنْهَا أَمْ لَا».

وَعَنِ الرَّبَاحِيِّ قَالَ: «شَرِبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَاءً بَارِدًا، فَبَكَىٰ فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: ذَكَرْتُ آيَةً فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، فَعَرَفْتُ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَشْتَهُونَ شَيْئًا شَهْوَتَهُمُ الْمَاءَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]»، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا أَجْمَعِينَ.

❁ ❁ ❁

أَحْوَالُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ

إِنَّ الْأَخْيَارَ الْأَبْرَارَ -كَمَا وَصَفَهُمُ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ- عِنْدَ تِلَاوَتِهِمْ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، حَالُهُمْ عِنْدَ الْمَوَاعِظِ الْفَهْمُ عَنِ اللهِ، وَالْبُكَاءُ خَوْفًا مِنَ اللهِ، لَقَدْ وَصَفَ اللهُ أَحْوَالَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ سَمَاعِ ذِكْرِهِ وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فَهَذَا وَصْفُ حَالِهِمْ وَحِكَايَةُ مَقَالِهِمْ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ وَلَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ.

◉ ◉ ◉



مِمَّا يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: أَنْ يَرْجِعَ إِلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ

مِمَّا يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، مَعَ اسْتِشْعَارِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحِيطَ بِمَعَانِي كَلَامِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، فَيَظَلُّ مَعَ ذَلِكَ مُمْعِنًا مُتَفَكِّرًا مُتَدَبِّرًا، لَوْ أُعْطِيَ الْعَبْدُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَلْفَ فَهْمٍ لَمْ يَبْلُغْ نِهَايَةَ مَا أَوْدَعَهُ اللهُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، وَكَلَامُهُ صِفَتُهُ، وَكَمَا أَنَّهُ لَيسَ لِلَّهِ نِهَايَةٌ، فَكَذَلِكَ لَا نِهَايَةَ لِفَهْمِ كَلَامِهِ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُ كُلٌّ مِقْدَارَ مَا يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَيَفْهَمَ عَنِ اللهِ مُرَادَهُ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِ، فَيَنْتَفِعَ بِمَا يَقْرَأُ، وَيَعْمَلَ بِمَا يَتْلُو، فَمَا أَقْبَحَ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَتْلُوَ فَرَائِضَهُ وَأَحْكَامَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَا يَتْلُو، فَكَيْفَ يَعْمَلُ بِمَا لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ، وَمَا أَقْبَحَ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ فِقْهِ مَا يَتْلُو وَلَا يَدْرِيهِ، فَمَا مَثَلُ مَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ إِلَّا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا».

وَتَأَمَّلْ مَا قَالَهُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لِتَرَىٰ كَيْفَ بَلَغَ بِهِمُ الْحِرْصُ عَلَىٰ فَهْمِ مُرَادِ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِنْ كَلَامِهِ، قَالَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ

غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللهُ: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا».

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**: «وَرُبَّمَا طَالَعْتُ عَلَىٰ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ نَحْوَ مِائَةِ تَفْسِيرٍ، ثُمَّ أَسْأَلُ اللهَ الْفَهْمَ، وَأَقُولُ: يَا مُعَلِّمَ آدَمَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي. وَكُنْتُ أَذْهَبُ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ الْمَهْجُورَةِ وَنَحْوِهَا، وَأُمَرِّغُ وَجْهِي فِي التُّرَابِ، وَأَسْأَلُ اللهَ -تَعَالَىٰ- وَأَقُولُ: يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ فَهِّمْنِي».

هَكَذَا كَانُوا، رَحِمَهُمُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

●●●



مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّدَبُّرِ: الِاسْتِعَانَةُ بِكَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيَانِهِ لِلْقُرْآنِ

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ التَّدَبُّرِ: الِاسْتِعَانَةُ بِكَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيَانِهِ لِلْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ مُبَيِّنٌ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «السُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟! قَالَ: «**لَيْسَ ذَلِكَ؛ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ**: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ».

وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

قَالَ السُّيُوطِيُّ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ طَلَبَهُ أَوَّلًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَمَا أُجْمِلَ مِنْهُ فِي مَكَانٍ فَقَدْ فُسِّرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَإِنْ أَعْيَاهُ ذَلِكَ طَلَبَهُ مِنَ السُّنَّةِ، فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ لَهُ».

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ مَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ فَهُوَ مِمَّا فَهِمَهُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥]، وَقَالَ ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»؛ يَعْنِي: السُّنَّةَ.

لِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يَفْتَحُ لَكَ الْبَابَ فِي فَهْمِ الْفَاتِحَةِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، **قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١- ٧]، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قَالَ: فَإِذَا تَأَمَّلَ الْعَبْدُ هَذَا، وَعَلِمَ أَنَّهَا نِصْفَانِ، نِصْفٌ لِلَّهِ وَهُوَ أَوَّلُهَا إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وَنِصْفٌ لِلْعَبْدِ دُعَاءٌ يَدْعُو بِهِ لِنَفْسِهِ، وَتَأَمَّلَ أَنَّ الَّذِي عَلَّمَهُ هَذَا هُوَ

اللهُ تَعَالَىٰ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهِ وَيُكَرِّرَهُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، وَأَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ضَمِنَ إِجَابَةَ هَذَا الدُّعَاءِ إِذَا دَعَاهُ بِإِخْلَاصٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ.

إِذَا مَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لِلْعَبْدِ مَا أَضَاعَ أَكْثَرُ النَّاسِ.

قَدْ هَيَّؤُوكَ لِأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ=فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَىٰ مَعَ الْهَمَلِ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَقَدْ ثَبَتَ بِهَذَا النَّصِّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مُنْقَسِمَةٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ عَبْدِهِ، وَأَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مُقْتَسَمُ السُّورَةِ؛ فَـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مَعَ مَا قَبْلَهُ لِلَّهِ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ لِلْعَبْدِ، وَلَهُ مَا سَأَلَ، لِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ وَنِصْفُهَا مَسْأَلَةٌ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ دُعَاءٌ».

فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَذَلِكَ مَا يَأْتِي بِهِ فِي التِّلَاوَةِ مِنَ الْجَهْرِ؛ لِأَنَّهُ أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ عَلَىٰ الْمَعَانِي، وَيَمْنَعُ شُرُودَ الذِّهْنِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**».

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كُنْتُ أَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا عَلَىٰ عَرِيشِي» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عَنْ جَهْرِ النَّبِيِّ** ﷺ **بِالْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ**: «كَانَ يَقْرَأُ فِي حُجْرَتِهِ قِرَاءَةً لَوْ أَرَادَ حَافِظٌ أَنْ يَحْفَظَهَا فَعَلَ».

مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ؛ مَا رَوَاهُ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ لَيْلَةً، فَإِذَا بِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه يُصَلِّي يَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ، وَمَرَّ عَلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ، قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ مِنْ صَوْتِكَ**»، قَالَ: أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَالَ لِعُمَرَ: «**مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَرْفَعُ صَوْتَكَ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا**»، وَقَالَ لِعُمَرَ: «**اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيُّ فِي الْمَجْمُوعِ، وَالْحَاكِمُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَالْأَلْبَانِيُّ فِي «صِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ».

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيح سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله: «وَأَجَازَتْ طَائِفَةٌ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا حَسُنَ الصَّوْتُ بِهِ كَانَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ، وَكَانَ أَسْمَعَ فِي الْقُلُوبِ».

فَيُسْتَحَبُّ الْجَهْرُ بِالْقِرَاءَةِ، نَعَمْ مَنْ قَرَأَ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْهَرَ جَهْرًا يَشْغَلُهُمْ بِهِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يُصَلُّونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ**».

وَلَكِنْ يَكُونُ مُرَاعِيًا لِحَالِهِ وَأَحْوَالِ مَنْ حَوْلَهُ.

● ● ●

الْإِيمَانُ وَالْيَقِينُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَاعِي الَّتِي تَدْعُو إِلَى تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ

مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَاعِي الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: الْإِيمَانُ وَالْيَقِينُ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقًّا، وَأَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَحْيًا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧- ٨٠].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «دَلَّتِ الْآيَةُ بِإِشَارَتِهَا وَإِيمَائِهَا عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُدْرِكُ مَعَانِيَهُ وَلَا يَفْهَمُهُ إِلَّا الْقُلُوبُ الطَّاهِرَةُ، وَحَرَامٌ عَلَىٰ الْقَلْبِ الْمُتَلَوِّثِ بِنَجَاسَةِ الْبِدَعِ وَالْمُخَالَفَاتِ أَنْ يَنَالَ مَعَانِيَهُ، وَأَنْ يَفْهَمَهُ كَمَا يَنْبَغِي، لَا يَنَالُ مَعَانِيَهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ حَرَجٌ مِنْهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ».

أَوْرَدَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ» فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]: «لَا يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ، وَلَا يَحْمِلُهُ بِحَقِّهِ إِلَّا الْمُوقِنُ».

●●●

مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَاعِي إِلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:
شِدَّةُ الإِقْبَالِ عَلَى اللهِ

أَهَمُّ الْمُهِمَّاتِ وَأَعْظَمُ الدَّوَاعِي إِلَىٰ تَدَبُّرِ كَلَامِ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا: شِدَّةُ الْإِقْبَالِ عَلَىٰ اللهِ، وَعَدَمُ الْتِفَاتِ الْقَلْبِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَبِذَلِكَ تَتَنَوَّرُ الْبَصِيرَةُ وَتَجْتَمِعُ الْهِمَّةُ، فَالْقَلْبُ الْمَشْغُولُ عَنِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِهِ قَلَّمَا يَتَأَثَّرُ بِالْقُرْآنِ، وَأَنَّىٰ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ وَقَلْبُهُ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لَا يَجْتَمِعُ فَهْمُ الْقُرْآنِ وَالِاشْتِغَالُ بِالْحُطَامِ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ أَبَدًا».

وَقَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِنَّمَا رَجَحَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ وَقِرَاءَتُهُ لِكَوْنِهَا أَجْمَعَ لِلْقَلْبِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الشَّاغِلَاتِ وَالْمُلْهِيَاتِ».

فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّىٰ يَرِيَهُ -أَيْ: حَتَّىٰ يُفْسِدَهُ- خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَيَّنَ أَنَّ الْجَوْفَ يَمْتَلِئُ بِالشِّعْرِ، فَكَذَلِكَ يَمْتَلِئُ بِالشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ وَالْخَيَالَاتِ وَالتَّقْدِيرَاتِ الَّتِي لَا وُجُودَ لَهَا، وَالْعُلُومِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ، وَالْمُفَاكَهَاتِ وَالْمُضْحِكَاتِ وَالْحِكَايَاتِ وَنَحْوِهَا، وَإِذَا امْتَلَأَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ جَاءَتْهُ حَقَائِقُ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ الَّذِي بِهِ كَمَالُهُ وَسَعَادَتُهُ فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ فَرَاغًا لَهَا وَلَا قَبُولًا، فَتَعَدَّتْهُ وَجَاوَزَتْهُ إِلَىٰ مَحَلٍّ سِوَاهُ، كَمَا إِذَا بُذِلَتِ النَّصِيحَةُ لِقَلْبٍ مَلْآنَ مِنْ ضِدِّهَا، لَا مَنْفَذَ لَهَا فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُهَا وَلَا تَلِجُ فِيهِ، لَكِنْ تَمُرُّ مُجْتَازَةً لَا مُسْتَوْطِنَةً، لِذَلِكَ قِيلَ:

نَــزِّهْ فُــؤَادَكَ مِــنْ سِــوَانَا تَلْقَنَــا ... فَجَنَابُنَــا حِــلٌّ لِكُــلِّ مُنَــزِّهِ».

لِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُسْتَشْعِرًا مَا أَفَاضَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالِاسْتِنْبَاطَاتِ الْبَدِيعَةِ، ذَلِكَ أَثْنَاءَ سَجْنِهِ وَخَلْوَتِهِ بِرَبِّهِ وَإِقْبَالِهِ التَّامِّ عَلَىٰ الْقُرْآنِ: «قَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَمِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ بِأَشْيَاءَ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَتَمَنَّوْنَهَا، وَنَدِمْتُ عَلَىٰ تَضْيِيعِ أَكْثَرِ أَوْقَاتِي فِي غَيْرِ مَعَانِي الْقُرْآنِ».

هَذَا كَلَامُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا سُجِنَ فِي الْقَلْعَةِ بِدِمَشْقَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا إِلَىٰ قَبْرِهِ، فَهَذَا الْكَلَامُ قَالَهُ عِنْدَمَا سُجِنَ بِالْقَلْعَةِ.

وَمَهْمَا اسْتَشْعَرَ الْقَارِئُ أَنَّهُ مُخَاطَبٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَفْلَحَ كُلَّ الْفَلَاحِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَلْقِ سَمْعَكَ، وَاحْضُرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ -سُبْحَانَهُ- مِنْهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لَكَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

ذَلِكَ أَنَّ تَمَامَ التَّأْثِيرِ لَمَّا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَىٰ مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، وَمَحَلٍّ قَابِلٍ وَشَرْطٍ لِحُصُولِ الْأَثَرِ، وَانْتِفَاءِ الْمَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ، تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ بَيَانَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ وَأَدَلِّهِ عَلَىٰ الْمُرَادِ، فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ، وَوُجِدَ الشَّرْطُ وَهُوَ الْإِصْغَاءُ، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ، حَصَلَ الْأَثَرُ وَهُوَ الِانْتِفَاعُ وَالتَّذَكُّرُ.

فَكُلُّ مَنْ قَصَدَ الْهِدَايَةَ وَالْعِلْمَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِيهِ وَيُرْشِدُهُ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ، وَيَزِيدُهُ نُورًا وَهِدَايَةً وَبَصِيرَةً، فَالْهُدَىٰ كُلُّ الْهُدَىٰ فِي الْقُرْآنِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وَإِذَا بَذَلَ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ وُسْعَهُ، فَالرَّبُّ جَلَّ وَعَلَا أَكْرَمُ مِنْ عَبْدِهِ، فَيَفْتَحُ عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِهِ أُمُورًا لَيْسَتْ فِي حِسَابِهِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وَالَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَاءِ الْمَطَرِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِحْيَاءَ الْأَرْضِ بِمَا يُنْزِلُهُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، فَكَمَا يُحْيِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا يُنْزِلُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْحَيَا وَمَاءِ الْمَطَرِ، فَكَذَلِكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ بِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْخَيْرِ مِنْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

●●●

الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ لِلْقُرْآنِ هِيَ الْمَدْخَلُ الْأَمْثَلُ لِلتَّدَبُّرِ

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قِرَاءَةً صَحِيحَةً؛ لِأَنَّهَا الْمَدْخَلُ الْأَمْثَلُ لِلتَّدَبُّرِ، فَهِيَ مَرْحَلَةٌ مُهِمَّةٌ أَوَّلِيَّةٌ لِلتَّدَبُّرِ، الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ إِلَّا بِالتَّلَقِّي مِنْ أَفْوَاهِ الْمَشَايِخِ الْمُقْرِئِينَ، وَقَدِ اعْتَنَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا، فَقَدْ أَكْثَرَ مِنَ التِّلَاوَةِ، وَلَوْ أَحْصَيْنَا مَا كَانَ يَقْرَؤُهُ فِي الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ الْجَهْرِيَّةِ عِنْدَمَا كَانَ يَؤُمُّ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نَجِدُ أَنَّهَا تَبْلُغُ عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الرَّكَعَاتِ، فَمَا بَالُكَ بِالصَّلَوَاتِ النَّافِلَةِ، وَالْعَرَضَاتِ الثَّاقِبَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ عَلَىٰ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً، إِلَّا فِي السَّنَةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا فَقَدْ عَرَضَ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ، فَيَكُونُ مَجْمُوعُ الْعَرَضَاتِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ عَرْضَةً.

قِرَاءَتُهُ كَانَتْ بِتَدَبُّرٍ، لِهَذَا كَانَتِ السُّورَةُ عِنْدَمَا يُرَتِّلُهَا تَطُولُ، فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّىٰ فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّىٰ كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ، وَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّىٰ تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا». وَفِي ذَلِكَ تَعْلِيمٌ لِلتِّلَاوَةِ وَالتَّدَبُّرِ، وَرَصِيدٌ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ.

●●●

الخِلَافُ فِي ثَوَابِ قِرَاءَةِ التَّرَسُّلِ وَالسُّرْعَةِ

ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عَبْدِ الْهَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ الْخِلَافَ فِي ثَوَابِ قِرَاءَةِ التَّرَسُّلِ وَالسُّرْعَةِ، وَنَقَلَ عَنِ الْحَافِظِ ابْنِ رَجَبٍ فِي كِتَابِهِ «الِاسْتِغْنَاءُ بِالْقُرْآنِ» قَوْلَهُ: «الصَّوَابُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُقَالَ: ثَوَابُ قِرَاءَةِ التَّرْتِيلِ وَالتَّدَبُّرِ أَجَلُّ وَأَرْفَعُ قَدْرًا، وَثَوَابُ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ أَكْثَرُ عَدَدًا، فَالْأَوَّلُ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِجَوْهَرَةٍ عَظِيمَةٍ، أَوْ أَعْتَقَ عَبْدًا قِيمَتُهُ نَفِيسَةٌ جِدًّا، وَالثَّانِي كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ أَوْ أَعْتَقَ عَدَدًا مِنَ الصِّبْيَةِ قِيمَتُهُمْ رَخِيصَةٌ».

قِرَاءَتُهُ ﷺ سَاعَدَتْ عَلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ الْفَهْمِ ثُمَّ الْعَمَلِ، وَصَفَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: «كَانَتْ مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا»، وَأَنَّهُ «كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً»، قَالَ النَّحَّاسُ: «وَمَعْنَىٰ هَذَا الْوُقُوفُ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْآيَاتِ؛ فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً، وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ كَانَ لَهَا الْأَثَرُ الْفَاعِلُ فِي تَعْلِيمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِلْمَ التَّفْسِيرِ وَعِلْمَ التَّدَبُّرِ، فَمِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الْمُؤَثِّرَةِ إِذَا الْتَقَىٰ مَعَهَا التَّأَمُّلُ فِي مَقَاصِدِهَا وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهَا فَإِنَّهَا تَمَسُّ شَغَافَ الْقَلْبِ، فَيَخْشَعُ وَيَخْضَعُ لِلْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي يُخَاطِبُ عِبَادَهُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ هِدَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠- ١١].

لَقَدْ أَوْصَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِالْعِنَايَةِ بِالْوَقْفِ عَلَىٰ الْمَعَانِي؛ كَالْوَقْفِ عِنْدَ ذِكْرِ آيَةِ الرَّحْمَةِ، وَالْوَقْفِ عِنْدَ آيَةِ الْعَذَابِ، أَخْرَجَ النَّحَّاسُ بِسَنَدِهِ مِنْ طَرِيقِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، اقْرَؤُوا وَلَا حَرَجَ، وَلَكِنْ لَا تَخْتِمُوا ذِكْرَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ، وَلَا تَخْتِمُوا ذِكْرَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ**».



دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ

* دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ:

١- قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ.

٢- وَخَلَاءُ الْبَطْنِ.

٣- وَقِيَامُ اللَّيْلِ.

٤- وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ.

٥- وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ.

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ مِنْ أُسْلُوبِهِ عِنْدَ التِّلَاوَةِ أَنْ يُكَرِّرَ فِي الْقِرَاءَةِ، فِي هَذَا الْأُسْلُوبِ حَثٌّ عَلَىٰ تَدبُّرِ الْآيَةِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا مِرَارًا مِنْ أَجْلِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ مَعَانِيهَا وَمَرَامِيهَا.

أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّىٰ أَصْبَحَ؛ يُرَدِّدُهَا، وَالْآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]»، هَذَا التَّرْدِيدُ آيَةُ التَّدبُّرِ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُم رضي الله عنهم.

كَمَا وَقَعَ مِنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ «أَتَىٰ الْمَقَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَامَ يُصَلِّي، فَافْتَتَحَ السُّورَةَ الَّتِي تُذْكَرُ فِيهَا الْجَاثِيَةُ، فَلَمَّا أَتَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ أَصْبَحَ».

وَكَذَلِكَ وَقَعَ مِنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ «كَانَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] حَتَّىٰ أَصْبَحَ»، فَلَا بَأْسَ بِتَكْرِيرِ الْآيَةِ وَتَرْدِيدِهَا كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَكَذَلِكَ كَمَا فَعَلَ جُمْلَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَكَذَا مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ، رَحْمَةُ اللهِ -تَعَالَىٰ- عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

عَلَىٰ كُلٍّ، الَّذِي يُعِينُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ إِجْمَالًا -بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ- هَذِهِ الْأُمُورُ:

* النَّظْرَةُ الْكُلِّيَّةُ الشَّامِلَةُ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، كَمَا مَرَّ، الْقُرْآنُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَبَاعِيضُ وَتَفَارِيقُ حَتَّىٰ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا يَدْرِي مَا الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي جَعَلَتِ الْآيَةَ بِعَقِبِ الْآيَةِ، وَمَا الْمَعْنَىٰ الَّذِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ آيَةٌ بِعَقِبِ آيَةٍ، فَضْلًا عَنِ السُّورَةِ بَعْدَ السُّورَةِ، وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الْقُرْآنَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، لِذَلِكَ كَتَبَ الْعُلَمَاءُ الْفُحُولُ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ، وَلِمَاذَا جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِعَقِبِ هَذِهِ؟!

بَلْ مَا يُظَنُّ -أَحْيَانًا- أَنَّهُ مُقْحَمٌ بَيْنَ الْآيَاتِ ذَاتِ السِّيَاقِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا الْمَرْءُ بَادِيَ الرَّأْيِ تَعَجَّبَ مِنْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ بِهَذِهِ السُّورَةِ، لَكِنَّهُ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلِمَ الْمُنَاسَبَةَ، فَالنَّظْرَةُ الْكُلِّيَّةُ الشَّامِلَةُ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَكَذَلِكَ النَّظْرَةُ التَّفْصِيلِيَّةُ فِي الْمُقَابِلِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ تَرْكِيبِهَا وَمَعْنَاهَا وَنُزُولِهَا وَغَرِيبِهَا وَدَلَالَتِهَا.

* الِالْتِفَاتُ لِلْأَهْدَافِ الرَّئِيسَةِ لِلْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ يُبَيِّنُ الْعَقِيدَةَ وَيُبَيِّنُ الْأَحْكَامَ وَيَقُصُّ قَصَصَ السَّالِفِينَ مِنَ الْمَرْحُومِينَ وَالْمُعَذَّبِينَ، فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْمَقَاصِدُ هِيَ الَّتِي يَدُورُ عَلَيْهَا كِتَابُ اللهِ جَلَّوَعَلَا: بَيَانُ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَبَيَانُ الْأَحْكَامِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَمَا قَصَّهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَصَصِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا صَالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ- دُنْيَا وَآخِرَةً، وَالَّذِينَ كَانُوا طَالِحِينَ فَأَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ بَأْسَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

* تَدَارُسُ الْقُرْآنِ، كَمَا دَارَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ.

* الثِّقَةُ الْمُطْلَقَةُ بِالنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، وَإِخْضَاعُ الْوَاقِعِ الْمُخَالِفِ لَهُ، لَا أَنْ يُخْضَعَ الْقُرْآنُ لِلْوَاقِعِ الْمُخَالِفِ لَهُ، هَذَا عَكْسٌ لِلْمَقْصُودِ.

* مُلَاحَظَةُ الْبُعْدِ الْوَاقِعِيِّ لِلْآيَةِ، بِحَيْثُ يَجْعَلُ مِنَ الْآيَةِ مُنْطَلَقًا لِعِلَاجِ حَيَاتِهِ وَوَاقِعِهِ، وَمِيزَانًا لِمَنْ حَوْلَهُ وَمَا يُحِيطُ بِهِ.

* مُعَايَشَةُ مَعَانِي الْآيَاتِ وَإِيحَاءَاتِ النُّصُوصِ، وَمُلَاحَظَةُ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْتَقِلَّةِ لِلسُّورَةِ، وَالتَّمَكُّنُ مِنْ أَسَاسِيَّاتِ عُلُومِ التَّفْسِيرِ، وَتَصَوُّرُ حَالِ الدَّعْوَةِ عِنْدَ نُزُولِ الْآيَاتِ، وَالْعَوْدَةُ الْمُتَجَدِّدَةُ لِلْآيَاتِ، وَعَدَمُ الِاقْتِصَارِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَالْمَعَانِي تَتَجَدَّدُ، الِاسْتِعَانَةُ بِالْمَعَارِفِ وَالثَّقَافَاتِ الْحَدِيثَةِ، وَالْقِرَاءَةُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَخَصِّصَةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

كُلُّ هَذَا يُعِينُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِجْمَالِ مَعَ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ.

◉◉◉

مَا هِيَ دَرَجَةُ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ فِي عُقُولِنَا؟

وَالْآنَ:

مَا هِيَ دَرَجَةُ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ فِي عُقُولِنَا؟!

وَمَا نِسْبَةُ التَّدَبُّرِ فِي وَاقِعِنَا الْعَمَلِيِّ فِيمَا نَقْرَؤُهُ فِي الْمَسْجِدِ قَبْلَ الصَّلَوَاتِ؟!

هَلْ نَحْنُ نُرَبِّي أَبْنَاءَنَا وَطُلَّابَنَا عَلَىٰ التَّدَبُّرِ فِي حِلَقِ الْقُرْآنِ، أَمْ أَنَّ الْأَهَمَّ الْحِفْظُ وَكَفَىٰ بِلَا تَدَبُّرٍ وَلَا فَهْمٍ، لِأَنَّ التَّدَبُّرَ يُؤَخِّرُ الْحِفْظَ؟!

مَا مِقْدَارُ التَّدَبُّرِ فِي دُرُوسِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ، خَاصَّةً دُرُوسَ التَّفْسِيرِ؟!

وَهَلْ يُرَبِّي الْمُعَلِّمُ طُلَّابَهُ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ أَمْ عَلَىٰ حِفْظِ مَعَانِي الْكَلِمَاتِ فَقَطْ؟!

مَا مَرْتَبَةُ دُرُوسِ التَّفْسِيرِ فِي حِلَقِ الْعِلْمِ فِي الْمَسَاجِدِ؟!

هَلْ هِيَ فِي رَأْسِ الْقَائِمَةِ أَمْ فِي آخِرِهَا؟! هَذَا إِنْ وُجِدَتْ أَصْلًا!

مَا مَدَىٰ اهْتِمَامِنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنْ بَيْنِ مَا نَقْرَأُ؟!

مَتَىٰ نَقْتَنِعُ أَنَّ فَوَائِدَ التَّدَبُّرِ وَأَجْرَهُ أَعْظَمُ مِنَ التِّلَاوَةِ كَهَذِّ الشِّعْرِ؟!

هَذِهِ كُلُّهَا أَسْئِلَةٌ تَبْحَثُ عَنِ الْإِجَابَةِ، فَهَلْ مِنْ مُجِيبٍ؟!

لَقَدْ ذُكِرَ فِي الْمَبَاحِثِ السَّابِقَةِ عَدَدٌ مِنَ الْوَسَائِلِ وَالطُّرُقِ الَّتِي تُتَّبَعُ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ وَغَرْسِ مَفْهُومِهِ وَتَطْبِيقِهِ لَدَىٰ الْمُتَرَبِّي، وَهَذِهِ الْوَسَائِلُ وَالطُّرُقُ يَخْتَلِفُ تَطْبِيقُهَا مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ عَلَىٰ حَسَبِ قُدُرَاتِهِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ، وَهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مِقْدَارِ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ الَّذِي يَبْذُلُهُ لِلتَّمَكُّنِ مِنْهَا، وَتَخْتَلِفُ قُوَّةُ اسْتِيعَابِهَا بِنَاءً عَلَىٰ عَوَامِلَ مُتَعَدِّدَةٍ تَرْجِعُ إِلَىٰ خَلْفِيَّةِ الْمُتَرَبِّي الْإِيمَانِيَّةِ وَتَتَأَثَّرُ بِالْمَرْحَلَةِ الْعُمْرِيَّةِ السِّنِّيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْمُتَرَبِّي.

وَتَرْجِعُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بَعْدَ تَوْفِيقِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا إِلَىٰ مَا يُسَمَّىٰ بِالتَّعْلِيمِ الذَّاتِيِّ، وَهَذَا الْأُسْلُوبُ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نَشَاطِ الْمُتَعَلِّمِ، وَيُعَدُّ أَحَدَ الْأَسَالِيبِ الْفَاعِلَةِ فِي مُرَاعَاةِ الْفُرُوقِ الْفَرْدِيَّةِ بَيْنَ الْمُتَعَلِّمِينَ، لِأَنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ التَّعَلُّمِ، وَفِي اهْتِمَامَاتِهِمْ وَدَافِعِيَّتِهِمْ لِلتَّعَلُّمِ، وَكَذَلِكَ فِي مُسْتَوَىٰ تَحْصِيلِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمُ السَّابِقَةِ، لِذَلِكَ فَالتَّعَلُّمُ الذَّاتِيُّ يُقَرِّرُ فِيهِ الْمُتَعَلِّمُ مَتَىٰ يَبْدَأُ؟! وَأَيْنَ يَبْدَأُ؟! وَمَتَىٰ يَنْتَهِي؟! وَأَيَّ الْوَسَائِلِ وَالْبَدَائِلِ يَخْتَارُ؟! وَهُوَ الْمَسْؤُولُ عَنْ تَعَلُّمِهِ، وَعَنِ النَّتَائِجِ الَّتِي يُحَقِّقُهَا وَالْقَرَارَاتِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا.

◉◉◉

الطُّرُقُ الذَّاتِيَّةُ فِي تَعَلُّمِ التَّدَبُّرِ

مِنَ الطُّرُقِ الذَّاتِيَّةِ فِي تَعَلُّمِ التَّدَبُّرِ: الْإِخْلَاصُ، وَهُوَ سِرُّ النَّجَاحِ فِي التَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ، سِرُّ النَّجَاحِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ لَيْسَ خَاصًّا بِالْقُرْآنِ، بَلْ هُوَ سِرٌّ كَامِنٌ فِي كُلِّ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ذَلِكُمُ السِّرُّ هُوَ الْإِخْلَاصُ، الْإِخْلَاصُ فِي الْأَدَاءِ، فَلَا يَقْرَأُ الْمُتَعَلِّمُ ابْتِدَاءً لِيُقَالَ قَارِئٌ، وَلَا لِيَتَفَاخَرَ بِتَدَبُّرِهِ، أَوْ بِرُجُوعِهِ إِلَىٰ التَّفَاسِيرِ وَكُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَهَذَا مِنْ أَخْطَرِ الْأُمُورِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ بُطْلَانِ الْعَمَلِ وَذَهَابِ أَجْرِهِ وَزَوَالِ ثَوَابِهِ، فَعَلَىٰ مُتَدَبِّرِ الْقُرْآنِ أَنْ يُذَكِّرَ نَفْسَهُ دَائِمًا بِالْإِخْلَاصِ، وَأَنْ يُجَدِّدَ نِيَّتَهُ وَهُوَ يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ مُتَأَمِّلًا أَوْ مُتَدَبِّرًا.

مِنَ الطُّرُقِ الذَّاتِيَّةِ فِي تَعَلُّمِ التَّدَبُّرِ: الِاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ؛ لِأَنَّ عَمَلِيَّةَ التَّدَبُّرِ الْحَقِيقِيِّ لِكِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- يَبْدَأُ فِعْلُهَا مِنَ الشَّخْصِ نَفْسِهِ، وَيَنْتَهِي أَثَرُهَا إِلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَصِّلَهَا الْمُتَعَلِّمُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَدَيْهِ دَافِعِيَّةٌ قَوِيَّةٌ لِتَعَلُّمِهَا وَتَطْبِيقِهَا فِي وَاقِعِهِ الْحَيَاتِيِّ الْعَمَلِيِّ، فَهِيَ مِنَ التَّرْبِيَةِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي لَا يَكْفِي أَنْ يَقُومَ بِهَا الْمُعَلِّمُونَ وَالْمُرَبُّونَ؛ لِأَنَّ دَوْرَهُمْ يَنْتَهِي بِالدَّلَالَةِ وَالتَّوْجِيهِ، وَلَكِنَّ التَّأَمُّلَ وَالتَّأَثُّرَ يَرْجِعُ إِلَىٰ الْمُتَعَلِّمِ بِذَاتِهِ، وَالسَّبَبُ أَنَّ الْمُتَعَلِّمَ قَدْ يُمْسِكُ بِكِتَابِ اللهِ بِيَدَيْهِ، أَوْ يَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ بِأُذُنَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ تَكُونُ الْقِرَاءَةُ مُجَرَّدَ

تَرْدِيدٍ لِلْأَلْفَاظِ، وَيَكُونُ الِاسْتِمَاعُ مُجَرَّدَ لَحَظَاتِ صَمْتٍ، وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ حَقِيقَةَ أَنَّ التَّدَبُّرَ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ الذِّهْنِيَّةِ الْعُلْيَا الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَىٰ تَرْكِيزٍ وَانْتِبَاهٍ وَمُجَاهَدَةٍ، فَإِذَا مَا نَجَحَ الْمُتَعَلِّمُ فِي ذَلِكَ تَحَصَّلَ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ وَنَالَ الْمَطْلُوبَ بِإِذْنِ الرَّبِّ الْمَعْبُودِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

مِنَ الطُّرُقِ الذَّاتِيَّةِ فِي تَعَلُّمِ التَّدَبُّرِ: الدُّعَاءُ بِأَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التَّدَبُّرَ، فَمِنَ الْأَخْطَاءِ التَّرْبَوِيَّةِ الْفَادِحَةِ الَّتِي مَا زَالَتْ تُعَانِي مِنْهَا مُجْتَمَعَاتُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهَا اعْتَمَدَتْ عَلَىٰ الْأَسْبَابِ وَلَمْ تَرْكَنْ إِلَىٰ مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، لِذَلِكَ جَانَبَ الصَّوَابُ وَالتَّوْفِيقُ الْكَثِيرَ مِنَ الْجُهُودِ التَّرْبَوِيَّةِ، وَالْمَشَارِيعِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْأُمْنِيَّاتِ الْحَيَاتِيَّةِ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي الْمَيْدَانِ التَّرْبَوِيِّ نَسُوا أَوْ تَنَاسَوْا أَنَّ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ لِتَحْصِيلِ أَيِّ مَقْصُودٍ هُوَ أَنْ يَلْتَجِئَ الْمُتَرَبِّي إِلَىٰ خَالِقِهِ، يَطْلُبُ مِنْهُ التَّوْفِيقَ وَالْإِعَانَةَ عَلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يَتَمَنَّىٰ وَيُرِيدُ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي عَدَمُ إِغْفَالِ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَمِنْهَا تَحْصِيلُ التَّفَهُّمِ وَالتَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمِنَ الطُّرُقِ الذَّاتِيَّةِ: مُرَاقَبَةُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَمُحَاسَبَتُهَا أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ؛ لِأَنَّ مِمَّا يَدْفَعُ لِلتَّدَبُّرِ أَنْ يُحَاسِبَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَيَكُونَ عَلَيْهَا رَقِيبًا، يَرَىٰ هَلْ تَتَفَاعَلُ نَفْسُهُ مَعَ الْآيَاتِ؟ أَمْ هُنَاكَ مِنَ الْعَقَبَاتِ وَالْحَوَاجِزِ مَا يَمْنَعُ حُصُولَ الْأَثَرِ التَّدَبُّرِيِّ؟ ثُمَّ يَسْعَىٰ لِتَجَاوُزِ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَتَحْصِيلِ التَّزْكِيَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا الْقُرْآنُ، كَمَا قَالَ

الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ -أَيْ: يَعْلَمَ حَالَهُ وَقَدْرَهُ- فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْقُرْآنِ».

فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُسْلَكُ مِنْ أَجْلِ التَّعَلُّمِ الذَّاتِيِّ لِهَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْعُظْمَىٰ فِي الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ نَصَّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُدَّبَّرَ وَلِتُتَدَبَّرَ آيَاتُهُ، وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ إِلَّا بِتَدَبُّرِهِ وَفَهْمِهِ وَالنَّظَرِ فِي مَعَانِيهِ، وَحِينَئِذٍ يَعْلَمُ الْعَبْدُ مُرَادَ الرَّبِّ مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا، وَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ، وَأَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ التَّأَنِّي وَعَدَمِ الْعَجَلَةِ؛ لِأَنَّ الْعَجَلَةَ مُضَادَّةٌ لِلْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّثَبُّتِ.

وَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَيْضًا -وَهَذَا مِنْ أَنْفَعِ مَا يَكُونُ فِي التَّدَبُّرِ وَفِي غَيْرِهِ لِإِحْدَاثِ الْخُشُوعِ فِي الْقَلْبِ وَالْإِنَابَةِ إِلَىٰ الرَّبِّ- أَنْ يَعْتَبِرَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ وَلَيْسَ سِوَاهُ بِكُلِّ خِطَابٍ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَغِيبُ كَثِيرًا عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، لَيْسَ فَقَطْ عِنْدَ التَّعَلُّمِ الذَّاتِيِّ لِلتَّدَبُّرِ وَتَحْصِيلِ الْفِقْهِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، بَلْ عِنْدَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَهِيَ آفَةٌ عَظِيمَةٌ تَشْمَلُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي دِينِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دَاعِينَ إِلَىٰ الْحَقِّ وَالْهُدَىٰ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَضْلًا عَنِ الْآخَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ وَالزَّيْغِ وَالِانْحِرَافِ.

وَلَكِنْ.. الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ تُحِيطُ بِهِمْ هَذِهِ الْآفَةُ وَتَغْزُو قُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَهِيَ أَنَّنَا نَدْعُو النَّاسَ، نُخَوِّفُهُمْ

وَنُرَهِّبُهُمْ وَنُرَغِّبُهُمْ وَنَحُثُّهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ كَأَنَّنَا نُؤَدِّي إِلَيْهِمْ مَا لَا يَعْنِينَا نَحْنُ، فَمَا أَكْثَرَ مَا تَجِدُ الْخَطِيبَ عَلَىٰ مِنْبَرِهِ، وَالْمُعَلِّمَ فِي حَلْقَتِهِ، يُذَكِّرُ النَّاسَ بِالنَّارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْكِي وَيَعْلُو نَشِيجُهُ وَبُكَاؤُهُ!! وَأَمَّا الَّذِي يَقُولُ فَكَأَنَّمَا الْكَلَامُ الَّذِي يَقُولُهُ لِلسَّامِعِينَ وَلَيْسَ لَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِذَلِكَ أَوَّلَ مَنْ يُعْنَىٰ بِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ، هُوَ أَوَّلُ سَامِعٍ لَهُ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ لَيْسَ مِنَ الْآذَانِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ أُذُنَيْهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُ مَا يَقُولُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ هُوَ بَادِئَ ذِي بَدْءٍ.

وَلَكِنْ.. الْآفَةُ الَّتِي تَأْتِي أَنَّنَا نُخَاطِبُ النَّاسَ عَلَىٰ أَنَّ مَا نُخَوِّفُهُمْ مِنْهُ وَنُرَهِّبُهُمْ مِنْهُ كَأَنَّمَا أُنْزِلَ وَشُرِعَ لِأَجْلِهِمْ هُمْ، وَأَمَّا نَحْنُ فَبِمَنْجَاةٍ عَنْ ذَلِكَ، إِذَا كَلَّمْنَاهُمْ عَنِ الْمَوْتِ وَوَصَفْنَا لَهُمُ اللِّقَاءَ، وَمَا يَكُونُ فِي السِّيَاقِ وَمَا يُحِيطُ بِالْمَرْءِ فِي السَّكَرَاتِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ الْمَخُوفِ، ثُمَّ مَا يَعْقُبُهُ مِنَ الْقُدُومِ عَلَىٰ الْقُبُورِ، وَمَا يَكُونُ فِي الْبَرْزَخِ مِنَ النَّعِيمِ أَوِ مِنَ الْعَذَابِ بَعْدَ الْفِتْنَةِ فِي الْقُبُورِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يُؤَثِّرُ فِي الْقَائِلِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هُوَ أَنْ يُؤَثِّرَ بِهِ فِي سَامِعِهِ، وَأَمَّا هُوَ فَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْمَوْتِ كَأَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ.

فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ إِذَا تَلَا كِتَابَ اللهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَصِّلَ التَّدَبُّرَ وَالْفِقْهَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّ مَا يَقْرَؤُهُ هُوَ خِطَابٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَيْهِ.. إِلَيْهِ هُوَ، لِفُلَانِ بْنِ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ بِذَاتِهِ، يُخَاطِبُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ، بِهَذَا الْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ عَلَىٰ



لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ، فَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ حَقِيقَةً، وَاسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَالرُّوحِ وَالضَّمِيرِ أَحْدَثَ تَدَبُّرًا عَظِيمًا لِكَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتْحًا مُبَارَكًا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا تِلَاوَتَهُ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا التَّدَبُّرَ وَالْفِقْهَ وَالْفَهْمَ فِيهِ، إِنَّهُ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ وَالْجَوَادُ الرَّحِيمُ.

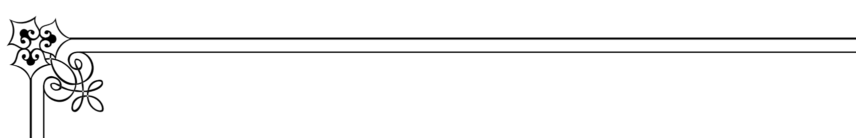
وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

◉ ◉ ◉





جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com





مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أُمُورٌ تَتَوَقَّفُ وَتَتَرَتَّبُ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيه

فَقَدْ مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- ذِكْرُ الْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهُنَاكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ مُتَرَتِّبَةٌ وَمُتَوَقِّفَةٌ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، فَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ، رُجِيَ حُصُولُهَا، وَإِذَا فُقِدَ التَّدَبُّرُ امْتَنَعَ حُصُولُهَا أَوْ يَكَادُ، أَوْ قَلَّ نَفْعُهَا، أَوْ ضَعُفَ شَأْنُهَا، أَوْ كَانَ فَضْلُهَا يَدُورُ مَعَ التَّدَبُّرِ وُجُودًا وَعَدَمًا.

لِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ لِسَانِهِ فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

* **وَمِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ: عِظَمُ أَجْرِ التِّلَاوَةِ؛** فَإِنَّ أَجْرَ التِّلَاوَةِ يُرْجَىٰ بِأَدَاءِ التِّلَاوَةِ، وَلَكِنَّ عِظَمَ الْأَجْرِ يُرْجَىٰ بِمَزِيدِ التَّدَبُّرِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَا يَتْلُوهُ الْقَارِئُ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّ التِّلَاوَةَ أَفْضَلُ الْأَذْكَارِ، وَأَنَّ الْمَطْلُوبَ الْقِرَاءَةُ بِفَهْمٍ».

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ مَنْ رَتَّلَ وَتَأَمَّلَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِجَوْهَرَةٍ وَاحِدَةٍ ثَمِينَةٍ، وَمَنْ أَسْرَعَ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعِدَّةِ جَوَاهِرَ، لَكِنَّ قِيمَتَهَا قِيمَةُ الْوَاحِدَةِ، وَقَدْ تَكُونُ قِيمَةُ الْوَاحِدَةِ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةِ الْأُخْرَيَاتِ، وَقَدْ يَكُونُ الْعَكْسُ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ: «وَأَحْسَنَ بَعْضُ أَئِمَّتِنَا فَقَالَ: إِنَّ ثَوَابَ قِرَاءَةِ التَّرْتِيلِ أَجَلُّ قَدْرًا، وَثَوَابُ الْكَثْرَةِ أَكْثَرُ عَدَدًا».

وَقَالَ عَنْ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ: «الْمُرَادُ بِإِعْرَابِهِ مَعْرِفَةُ مَعَانِي أَلْفَاظِهِ، لَيْسَ الْمُرَادُ الْإِعْرَابَ الْمُصْطَلَحَ عَلَيْهِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَهُوَ مَا يُقَابِلُ اللَّحْنَ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ مَعَ فَقْدِهِ لَيْسَتْ قِرَاءَةً، وَلَا ثَوَابَ فِيهَا».

قَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالصَّحِيحُ -بَلِ الصَّوَابُ- مَا عَلَيْهِ مُعْظَمُ السَّلَفِ، وَهُوَ أَنَّ التَّرْتِيلَ وَالتَّدَبُّرَ مَعَ قِلَّةِ الْقِرَاءَةِ، أَفْضَلُ مِنَ السُّرْعَةِ مَعَ كَثْرَتِهَا، فَهَذَا مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَيَتَوَقَّفُ عَلَىٰ ذَلِكَ -أَيْضًا- حُصُولُ بَرَكَةِ الْقُرْآنِ، وَانْتِفَاعُ الْقَلْبِ بِهِ».

قَالَ الْآجُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِنَّ اللهَ وَعَدَ لِمَنِ اسْتَمَعَ كَلَامَهُ فَأَحْسَنَ الْأَدَبَ عِنْدَ اسْتِمَاعِهِ بِالِاعْتِبَارِ الْجَمِيلِ، وَلُزُومِ الْوَاجِبِ لِاتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَإِنَّ اللهَ وَعَدَ مَنِ اسْتَمَعَ كَلَامَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ بِبُشْرَىٰ مِنْهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَوَعَدَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَفْضَلَ الثَّوَابِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧- ١٨].

سَمِعُوا اللهَ -تَعَالَىٰ- يَقُولُ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فَكَانَ حُسْنُ اسْتِمَاعِهِمْ يَبْعَثُهُمْ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ أَصْغَىٰ إِلَىٰ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ بِعَقْلِهِ، وَتَدَبَّرَهُ بِقَلْبِهِ؛ وَجَدَ فِيهِ مِنَ الْفَهْمِ وَالْحَلَاوَةِ وَالْهُدَىٰ وَشِفَاءِ الْقُلُوبِ وَالْبَرَكَةِ وَالْمَنْفَعَةِ مَا لَا يَجِدُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَلَامِ، لَا مَنْظُومِهِ وَلَا مَنْثُورِهِ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمَاعُ الْقُرْآنِ بِالِاعْتِبَارَاتِ الثَّلَاثَةِ إِدْرَاكًا وَفَهْمًا وَتَدَبُّرًا وَإِجَابَةً، لَنْ يَعْدِمَ مَنِ اخْتَارَ هَذَا السَّمَاعَ إِرْشَادًا لِحُجَّةٍ، وَتَبْصِرَةً لِعِبْرَةٍ، وَتَذْكِرَةً لِمَعْرِفَةٍ، وَفِكْرَةً فِي آيَةٍ، وَدَلَالَةً عَلَىٰ رُشْدٍ، وَحَيَاةً لِقَلْبٍ، وَغِذَاءً وَدَوَاءً وَشِفَاءً، وَعِصْمَةً وَنَجَاةً وَكَشْفَ شُبْهَةٍ، وَمَنْ هَجَرَ التَّدَبُّرَ فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً.

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا».

لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فِقْهَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا.

***** **وَمِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ مِنَ الْمُصْحَفِ، وَالْقِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، فَإِنَّ هَذَا مَنُوطٌ بِالتَّدَبُّرِ.**

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ فَيُخْتَارُ الْقِرَاءَةُ فِي الْمُصْحَفِ لِمَنِ اسْتَوَىٰ خُشُوعُهُ وَتَدَبُّرُهُ فِي حَالَتَي الْقِرَاءَةِ فِي الْمُصْحَفِ وَعَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَيُخْتَارُ الْقِرَاءَةُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ لِمَنْ يَكْمُلُ بِذَلِكَ خُشُوعُهُ، وَيَزِيدُ عَلَىٰ خُشُوعِهِ لَوْ تَدَبَّرَهُ قِرَاءَةً مِنَ الْمُصْحَفِ.

لَوْ قُلْنَا هَذَا لَكَانَ قَوْلًا حَسَنًا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كَلَامَ السَّلَفِ وَفِعْلَهُمْ مَحْمُولٌ عَلَىٰ هَذَا التَّفْصِيلِ».

*** يَتَرَتَّبُ -أَيْضًا- عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَفَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ خَارِجَهَا.**

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ مَنْ حَصَلَ لَهُ نَشَاطٌ وَفَهْمٌ لِلْقِرَاءَةِ دُونَ الصَّلَاةِ، فَالْأَفْضَلُ فِي حَقِّهِ مَا كَانَ أَنْفَعَ لَهُ».

*** وَيَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا: التَّفْضِيلُ بَيْنَ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْإِسْرَارِ بِهَا.**

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَاءَتْ آثَارٌ بِفَضِيلَةِ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ وَآثَارٌ بِفَضِيلَةِ الْإِسْرَارِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْإِسْرَارَ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّ مَنْ يَخَافُ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَخَفِ الرِّيَاءَ فَالْجَهْرُ أَفْضَلُ، بِشَرْطِ أَلَّا يُؤْذِيَ غَيْرَهُ مِنْ مُصَلٍّ أَوْ نَائِمٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا.

وَدَلِيلُ فَضِيلَةِ الْجَهْرِ أَنَّ الْعَمَلَ فِيهِ أَكْثَرُ، وَلِأَنَّهُ يَتَعَدَّىٰ نَفْعُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَلِأَنَّهُ يُوقِظُ الْقَلْبَ وَيَجْمَعُ هَمَّهُ إِلَىٰ الْفِكْرِ، وَيَصْرِفُ سَمْعَهُ إِلَيْهِ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: فَمَتَىٰ حَضَرَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ النِّيَّاتِ، فَالْجَهْرُ أَفْضَلُ».

* **يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ أَيْضًا: تَرْتِيبُ أَوْلَوِيَّاتِ طَلَبِ الْعُلُومِ**، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بِلَا تَدَبُّرٍ قَدْ تَكُونُ مَفْضُولَةً، وَمَعَ التَّدَبُّرِ تَكُونُ مُقَدَّمَةً؛ لِأَنَّهَا أَنْفَعُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ.

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لَهُ: تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ مَعَ أَمْنِ النِّسْيَانِ؟ أَوِ التَّسْبِيحُ وَمَا عَدَاهُ؟

فَأَجَابَ: «الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَجِدُ فِي الذِّكْرِ مِنَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ، وَانْدِفَاعِ الْوَسَاوِسِ عَنْهُ، وَمَزِيدِ السَّكِينَةِ وَالنُّورِ وَالْهُدَىٰ؛ مَا لَا يَجِدُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، بَلْ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ لَا يَحْضُرُ قَلْبُهُ وَفَهْمُهُ.

كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْتَمِعُ قَلْبُهُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ وَتَدَبُّرِهِ مَا لَا يَجْتَمِعُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا كَانَ أَفْضَلَ يُشْرَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يُشْرَعُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ أَفْضَلُ لَهُ».

وَسُئِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ تَكْرَارِ الْقُرْآنِ وَالْفِقْهِ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا؟

فَأَجَابَ: «كَلَامُ اللهِ لَا يُقَاسُ بِهِ كَلَامُ الْخَلْقِ، وَأَمَّا الْأَفْضَلُ فِي حَقِّ الشَّخْصِ، فَهُوَ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ، فَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ تَعَلُّمِ غَيْرِهِ فَتَعَلُّمُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنْ تَكْرَارِ التِّلَاوَةِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَكْرَارِهَا.

وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ حَفِظَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيهِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ عِلْمٍ آخَرَ، وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ وَهُوَ لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ، فَتَعَلُّمُهُ لِمَا لَا يَفْهَمُهُ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تِلَاوَةِ مَا لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَهُ.

وَأَمَّا مَنْ تَعَبَّدَ بِتِلَاوَةِ الْفِقْهِ؛ فَتَعَبُّدُهُ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ، وَتَدَبُّرُهُ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامٍ لَا يَحْتَاجُ لِتَدَبُّرِهِ».

* **يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ الْفَهْمِ وَالتَّدَبُّرِ: قِصَرُ الْمُدَّةِ الَّتِي يَخْتِمُ فِيهَا الْقُرْآنَ**، فَإِنَّ فَضِيلَتَهَا مُرَتَّبَةٌ عَلَىٰ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَأَثُّرِ الْقَلْبِ بِهِ.

حِينَمَا سُئِلَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ تَرَىٰ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي سَبْعٍ؟

قَالَ: حَسَنٌ، وَلَأَنْ أَقْرَأَهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ عَشْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَسَلْنِي لِمَ ذَاكَ؟

قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ؟

قَالَ زَيْدٌ: لِكَيْ أَتَدَبَّرَهُ، وَأَقِفَ عَلَيْهِ».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قِرَاءَةِ الْإِمَامِ فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ: «لَيْسَ الْمُهِمُّ أَنْ يَخْتِمَ، وَإِنَّمَا الْمُهِمُّ أَنْ يَنْتَفِعَ النَّاسُ فِي صَلَاتِهِ، وَفِي خُشُوعِهِ، وَفِي قِرَاءَتِهِ، حَتَّىٰ يَسْتَفِيدُوا وَيَطْمَئِنُّوا؛ لِأَنَّ عِنَايَتَهُ بِالنَّاسِ وَحِرْصَهُ عَلَىٰ خُشُوعِهِمْ، وَعَلَىٰ إِفَادَتِهِمْ، أَهَمُّ مِنْ كَوْنِهِ يَخْتِمُ، وَلَيْسَ هَذَا مُوجِبًا لِأَنْ يَتَعَجَّلَ وَلَا يَتَأَنَّىٰ فِي قِرَاءَتِهِ، وَلَا يَتَحَرَّىٰ الْخُشُوعَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، بَلْ يَتَحَرَّىٰ هَذِهِ الْأُمُورَ أَوْلَىٰ مِنْ مُرَاعَاةِ الْخَتْمَةِ».

إِنَّ التَّأَمُّل فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَذْكُرُ أَفْعَالَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَدِقَّةَ تَدْبِيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي الرِّزْقِ وَالرِّعَايَةِ، تَجْعَلُ الْمؤْمِنَ يَعْرِفُ عَظَمَةَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا تَبْهَرُ الْعُقُولَ مَهْمَا كَانَ مُسْتَوَاهَا الثَّقَافِيُّ -أَيْ: مُسْتَوَىٰ الْعُقُولِ الثَّقَافِيُّ وَالْإِدْرَاكِيُّ-.

فَحِينَمَا يَذْكُرُ اللهُ -تَعَالَىٰ- خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ زِينَةِ الْكَوَاكِبِ، فَإِنَّ الْمُتَأَمِّلَ -حَتَّىٰ لَوْ كَانَ مِنَ الْعَوَامِّ أَوْ مِنَ الْبَادِيَةِ- يُدْرِكُ عَظَمَةَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي يَهْتَدِي بِكَوَاكِبِهَا، يَتَطَلَّعُ إِلَىٰ سُحُبِهَا، مُنْتَظِرًا الرِّزْقَ مِنَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

فَهُوَ يُتَابِعُ حَرَكَةَ السُّحُبِ، وَاتِّجَاهَ الرِّيحِ الَّتِي تَسُوقُ السُّحُبَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَعْلَمُ أَنَّ الرَّبَّ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي يُسَخِّرُ هَذِهِ النِّعَمَ.

وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ الْمُثَقَّفُ، كُلَّمَا زَادَتْ ثَقَافَتُهُ وَعِلْمُهُ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يَزْدَادُ يَقِينًا وَإِيمَانًا بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]:

«وَأَنْزَلَهُ بِهَذَا اللِّسَانِ لِنَعْقِلَهُ وَنَفْهَمَهُ، وَأَمَرَنَا بِتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِعُلُومِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَدَبُّرَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ مُحَصِّلٌ لِلْعُلُومِ وَالْأَسْرَارِ.

الْقِرَاءَةُ بِتَأَمُّلٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَأَثُّرٍ قَوْلًا وَفِعْلًا، تَرْتَقِي بِالْمُؤْمِنِ إِلَىٰ مَرَاتِبَ عَالِيَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَهُوَ يُرَتِّلُ كَلَامَ اللهِ، وَيَتَأَمَّلُ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ، وَيَدْعُو اللهَ بِعِدَّةِ أَدْعِيَةٍ، فَبَلَغَ إِلَىٰ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ.

وَهُوَ كَذَلِكَ يَسْتَجِيبُ لِأَوَامِرِهِ، وَيَنْزَجِرُ عَنْ نَوَاهِيهِ، فَمَنْ حَظِيَ بِهَذَا فَقَدْ أَفْلَحَ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَيَصِلُ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ سَنَامُ الْعُبُودِيَّةِ».

وَقَدْ سَرَدَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ جُمْلَةً مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُحَصِّلَةِ لِمَحَبَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا يَلِي:

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ.

فَهَذَا مِنْ أَوَّلِ مَا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَحْصِيلِ مَحَبَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: قِرَاءَةُ كِتَابِهِ جَلَّ وَعَلَا بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ.

مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ -تَعَالَىٰ- وَصِفَاتِهِ، وَمُشَاهَدَتُهَا، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَيَادِينِهَا.

مُشَاهَدَةُ بِرِّهِ -تَعَالَىٰ- وَإِحْسَانِهِ، وَنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَانْكِسَارُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْخَلْوَةُ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، وَتِلَاوَةُ كِتَابِهِ، ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ.

فَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَسْبَابَ لِمَحَبَّةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا التَّدَبُّرُ فِي كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهِ.

وَالتَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ يَتَحَقَّقُ بِكَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّأَمُّلِ، وَالِاسْتِجَابَةِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤَدِّي إِلَىٰ مَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْعَوْنِ الرَّبَّانِيِّ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ قَوْلُهُ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ جَلَّ وَعَلَا: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ».

فَمَاذَا يَنْتَظِرُ الْعَبْدُ بَعْدَ هَذَا الْوَعْدِ وَالْعَوْنِ؟!

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَذِكْرِ بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ وَحُقُوقِ مُرْسِلِهِمْ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ رِعَايَةِ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُ، مِنْ حِينَ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَىٰ يَوْمَ يُوَافِي رَبَّهُ وَيَقْدُمُ عَلَيْهِ.

وَعَلَىٰ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ دَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ، وَالَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِأَلَمٍ وَلَا نَكَدٍ وَلَا تَنْغِيصٍ.

وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَخَاءٌ، وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرَحٌ.

بَيَّنَ تَفَاصِيلَ ذَلِكَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ وَأَبْيَنَهُ، وَكَذَلِكَ نَصَّ عَلَىٰ تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَام، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكَمِ، وَالْمَبَادِئِ وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ -تَعَالَىٰ- وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ -يَعْنِي كِتَابَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا- تَنْهَضُ بِالْعَبْدِ وَتُنْهِضُهُ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ.

وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ، وَظُلَمِ الْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ.

وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ مِنَ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ.

وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللَّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ!

وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ:

الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَاعْتَصِمْ بِاللهِ وَاسْتَعِنْ بِهِ! وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ»، انْتَهَىٰ كَلَامُ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

التَّدَبُّرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ، سَوَاءٌ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ أَوِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَهُوَ سَبِيلٌ لِلِارْتِقَاءِ بِجَمِيعِ نَوَاحِي الْحَيَاةِ.

● ● ●

ثَمَرَاتُ التَّدَبُّرِ عَلَى نَوْعَيْنِ

وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ، وَوَضَّحَ النَّتَائِجَ الَّتِي يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ؛ وَهِيَ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ:

أَوَّلًا: ثِمَارٌ مُبَاشِرَةٌ؛ وَمِنْهَا:

مَعْرِفَةُ اللهِ وَتَعْظِيمُهُ، فَإِنَّ مَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ مَعْرِفَةً بِاللهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ عَظَّمَ كَلَامَهُ، وَتَمَعَّنَ فِيهِ، وَأَصْغَىٰ إِلَيْهِ مُتَأَمِّلًا مُتَدَبِّرًا، وَمِنْ ثَمَّ أَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّةِ بَطْشِهِ».

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: «كَمَا لَا يُقْدَرُ أَنْ يُسْمِعَ مَنْ فِي الْقُبُورِ.. أَنْ يُسْمِعُوا كَلَامَ اللهِ فَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَكَذَلِكَ لَا يُقْدَرُ أَنْ يُنْفَعَ بِمَوَاعِظِ اللهِ وَبَيَانِ حُجَجِهِ مَنْ كَانَ مَيِّتَ الْقَلْبِ مِنْ أَحْيَاءِ عِبَادِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَفَهْمِ كِتَابِهِ وَتَنْزِيلِهِ، وَوَاضِحِ حُجَجِهِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ هُوَ عَدَمُ مَعْرِفَتِهِمْ للهِ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَعْظِيمَ الْقُرْآنِ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَكَمَا أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- عَظِيمٌ فِي ذَاتِهِ، فَإِنَّهُ عَظِيمٌ فِي صِفَاتِهِ، وَمِنْهَا كَلَامُهُ الْقُرْآنِيُّ، وَقَدْ سَمَّاهُ سُبْحَانَهُ: بُرْهَانًا، وَنُورًا، وَفُرْقَانًا، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَعَظَّمَهُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيُعَظِّمُوا قَدْرَهُ وَيَفْهَمُوهُ؛ لِيَنَالُوا شِفَاءَ قُلُوبِهِمْ.

فَإِذَا عَظُمَ فِي صَدْرِكَ تَعْظِيمُ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَرْفَعَ وَلَا أَشْرَفَ وَلَا أَنْفَعَ وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَحْلَىٰ مِنَ اسْتِمَاعِ كَلَامِ اللهِ عَجَّلَ، وَفَهْمِ مَعَانِي قَوْلِهِ، تَعْظِيمًا وَحُبًّا لَهُ وَإِجْلَالًا، إِذْ كَانَ -تَعَالَىٰ- قَائِلَهُ، فَحُبُّ الْقَوْلِ عَلَىٰ قَدْرِ حُبِّ قَائِلِهِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ تَمَامَ الْعِبَادَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَىٰ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ مَعْرِفَةً لِرَبِّهِ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ».

وَقَالَ: «فَهَذِهِ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، مَعْرِفَةُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ، فَقَامَ بِذَلِكَ الْمُوَفَّقُونَ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، وَأَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ الظَّالِمُونَ الْمُعْرِضُونَ».

فَأَوَّلُ مَا يُتَحَصَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الثِّمَارِ الْمُبَاشِرَةِ لِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: مَعْرِفَةُ اللهِ وَتَعْظِيمُهُ.

وَثَانِي ذَلِكَ: تَحْقِيقُ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلْقُرْآنِ يَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ فِي أَحْوَالِهِ وَفِي مَآلَاتِهِ، كَمَا تُبَيِّنُ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾ [الرعد: ٢٨].

وَالْقُلُوبُ إِذَا فَقِهَتْ مُرَادَ اللهِ مِنْ آيَاتِهِ صَارَ أَصْحَابُهَا إِلَيْهِ بِاطْمِئْنَانٍ وَثَبَاتٍ، لَا تُزَعْزِعُهُ بِدَعُ الْمُحْدِثِينَ، وَلَا تَأْوِيلَاتُ الْجَاهِلِينَ، وَلَا فِتَنُ الْمُضِلِّينَ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَمَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ»، وَذَكَرَ الْكَلَامَ الَّذِي مَرَّ قَرِيبًا.

مِنَ الثِّمَارِ الَّتِي يُتَحَصَّلُ عَلَيْهَا، وَهِيَ ثِمَارٌ مُبَاشِرَةٌ لِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا:

زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِاللهِ -تَعَالَىٰ- وَخَشْيَتُهُ؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لِلْقُرْآنِ يَسْتَشْعِرُ عَظَمَةَ اللهِ فَيَزْدَادُ إِيمَانًا، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَالْآيَةُ الْأُولَىٰ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَةِ إِيمَانِ الْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ وَمَقَاصِدِهِ، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ مِنَ اللهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ: «﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أَيْ: فَرِقَتْ -أَيْ: فَزِعَتْ وَخَافَتْ-».

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: «﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾؛ أَيْ: زَادَتْهُم خَشْيَةً».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ حَقَّ الْمُؤْمِنِ، الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قَلْبُهُ؛ أَيْ خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ، وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ، فَازْدَادُوا إِيمَانًا بِسَبَبِ فَهْمِهِمْ لِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَحْكَامٍ، ثُمَّ الْعَمَلِ بِهَا، وَالرَّغْبَةِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ مُسْتَبْشِرُونَ يُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَذِهِ الْمِنَّةِ الْعَظِيمَةِ، مِنْ إِنْزَالِ الْآيَاتِ وَفَهْمِهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ صُدُورَهُمْ مُنْشَرِحَةٌ، وَقُلُوبَهُمْ مُطْمَئِنَّةٌ؛ فَيُبَادِرُونَ إِلَىٰ الْعَمَلِ مَعَ فَرَحٍ وَاسْتِبْشَارٍ».

التَّدَبُّرُ فِي الْقُرْآنِ لَهُ أَثَرُهُ فِي رِقَّةِ النُّفُوسِ وَخَشْيَتِهَا مِنْ بَارِئِهَا، وَرَجَائِهَا فِيهِ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

قَالَ قَتَادَةُ: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعَتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتْهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْغَشَيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ صِفَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ الْجَبَّارِ، الْمُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، لِمَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ، لِمَا يَرْجُونَ وَيُؤَمِّلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُمْ مُخَالِفُونَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

فَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَقَوَارِعَ آيَاتِهِ وَوَعِيدَهُ، أَصَابَتْهُمْ رَهْبَةٌ وَخَشْيَةٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا جُلُودُهُمْ، وَإِذَا ذَكَرُوا رَحْمَةَ اللهِ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِ وَعْدِهِ وَأَلْطَافِهِ تَبَدَّلَتْ خَشْيَتُهُمْ رَجَاءً، وَهَيْبَتُهُمْ رَغْبَةً.

لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَكْثَرَ خَشْيَةً وَتَدَبُّرًا لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِهِ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَاسْتَنَّ -أَيِ اسْتَاكَ- فَصَلَّىٰ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّىٰ الصُّبْحَ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَثَرِ الْقُرْآنِ فِي نَفْسِهِ، وَإِكْثَارِهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، كَمَا كَانَ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، كَانَ حَالُهُمْ أَكْثَرَ خَشْيَةً وَخَوْفًا عِنْدَ تِلَاوَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

فَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].. بَكَىٰ حَتَّىٰ يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ».

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «قُلْتُ لِجَدَّتِي أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ ﷻ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ نَاسًا الْيَوْمَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ خَرَّ أَحَدُهُمْ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ! فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: «سُئِلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَبْكُونَ».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ سَاقِطًا، فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟

قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَوْ سَمِعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ!

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «إِنَّا لَنَخْشَىٰ اللهَ وَمَا نَسْقُطُ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْخَوْفُ إِذَا سَكَنَ الْقَلْبَ أَوْجَبَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ، فَلَا يَمْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَهُ، فَتَرَاهُ مُطْرِقًا مُتَذَلِّلًا مُتَأَدِّبًا، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَجْتَهِدُونَ فِي سَتْرِ مَا يَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ، أَمَّا الْمَذْمُومُ فَتَكَلُّفُهُ وَالتَّبَاكِي وَمُطَأْطَأَةُ الرَّأْسِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ، لِيُرَوْا بِعَيْنِ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالِ، وَذَلِكَ خُدَعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ».

إِنَّ مِنْ ثِمَارِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، إِذَا تَدَبَّرَ الْمُؤْمِنُ الْقُرْآنَ زَالَتْ عَنْهُ الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ فَتَصْرِفُهُ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ تَهْوِي بِهِ فِي الْمَعَاصِي وَالظُّلُمَاتِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «أَيْ مِنَ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا فِيهَا مِنْ رِجْسٍ وَدَنَسٍ.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ أَيْ: مُحَصِّلٌ لَهَا الْهِدَايَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَالْمُصَدِّقِينَ الْمُوقِنِينَ بِمَا فِيهِ».

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَقُولُ -تَعَالَىٰ- ذِكْرُهُ: وَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ يُسْتَشْفَىٰ بِهِ مِنَ الْجَهْلِ وَمِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبَصَّرُ بِهِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ رَحْمَةٌ لَهُمْ دُونَ الْكَافِرِينَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، وَيُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، فَيُدْخِلُهُمْ بِذَلِكَ الْجَنَّةَ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ، فَهُوَ لَهُمْ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ مِنَ اللهِ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

فَالْقُرْآنُ يَهْدِي الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُثْمِرُ لَهُمُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، فَلَا يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ؛

لِأَنَّهُمْ فَهِمُوا مُرَادَ اللهِ، وَعَرَفُوا مَقْصُودَهُ، فَانْدَفَعَتْ عَنْهُمُ الْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ وَالْأَعْمَالُ الْقَبِيحَةُ.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: الِامْتِثَالُ لِمَا فِي الْقُرْآنِ وَالْعَمَلُ بِهِ، فَالْمُؤْمِنُ لَا يَقِفُ عِنْدَ مُجَرَّدِ السَّمَاعِ وَالتَّأَثُّرِ، بَلْ يَتَعَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالِاسْتِجَابَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ مِنْ أُصُولِ التَّدَبُّرِ، وَإِلَّا فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْيَهُودَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِهِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّدَبُّرُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَإِذَا أُمِرَ الْيَهُودُ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ؛ اسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا، وَقَالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أَيْ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُؤْمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ النَّافِعُ؛ الْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ».

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

أَيْ: لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَبِالْحَقِّ الْمُوَافِقِ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِهِمْ، فَلَمَّا كَفَرُوا بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ، أَيْ طَرَحُوهُ رَغْبَةً عَنْهُ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِعْرَاضِ، كَأَنَّهُمْ فِي فِعْلِهِمْ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَحَقِيقَةَ مَا جَاءَ فِيهِ.

وَأَمَّا السَّلَفُ الصَّالِحُ فَقَدِ امْتَثَلُوا لِأَوَامِرِ الْقُرْآنِ وَاجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ؛ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما **قَالَ**: «كَانَ الْفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا السُّورَةَ أَوْ نَحْوَهَا، وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْمَىٰ، وَلَا يُرْزَقُونَ الْعَمَلَ بِهِ».

وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَسَهُلَ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِ».

فَهَذَا كَانَ مَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ مَنْهَجُهُ فِي تَعْلِيمِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كِتَابَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، تَلَازُمُ الْعِلْمِ وَالْمَعْنَىٰ وَالْعَمَلِ، فَلَا عِلْمَ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ فَهْمِ السَّابِقِ وَالْعَمَلِ بِهِ، كَانَ الصَّحَابَةُ كَذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْهَجَ السَّلَفِ وَمِنْهَاجَ النُّبُوَّةِ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَأَصْحَابُهُ رضي الله عنهم؛ فَهَذَا لَا يَنْجُو الْمَرْءُ إِلَّا بِهِ.

فَهَذَا مَا كَانُوا عَلَيْهِ تِجَاهَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ وَيَفْهَمُونَ، يَفْقَهُونَ وَيَعْمَلُونَ.

«كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّىٰ يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ».

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ يُحَقِّقُ الْيَقِينَ التَّامَّ لِلنَّفْسِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَالْمَاءِ الْعَذْبِ، وَالْقَلْبُ كَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ وَتَنْمُوَ إِلَّا بِهَذَا الْمَاءِ، فَالْقَلْبُ كُلَّمَا تَفَكَّرَ فِي مَعَانِي كَلَامِ اللهِ حَصَلَ لَهُ الرِّيُّ وَالشِّبَعُ وَالنُّمُوُّ وَالِاسْتِقْرَارُ وَالثَّبَاتُ وَالْعُلُوُّ.

وَلَمَّا عَلِمَ اللهُ حَاجَةَ الْقَلْبِ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ كَرَّرَ هَذِهِ الْمَعَانِيَ الشَّرِيفَةَ فِي كِتَابِهِ، وَنَوَّعَ فِي بَيَانِهَا، وَضَرَبَ لَهَا الْأَمْثَالَ، وَصَرَّفَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْقَوْلِ مَا يَحْصُلُ بِهِ لِلْقُلُوبِ الْمُتَدَبِّرَةِ حَيَاةٌ لَا تَمُوتُ مَعَهُ أَبَدًا.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ: وُصُولُ الْمُتَدَبِّرِ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُوَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَتَرَىٰ الْحِكَمَ وَالْقِصَّةَ وَالْإِخْبَارَاتِ تُعَادُ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، كُلُّهَا مُتَوَافِقَةٌ مُتَصَادِقَةٌ لَا يَنْقُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ فَبِذَلِكَ يَعْلَمُ كَمَالَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ، لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أَيْ: فَلَمَّا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اخْتِلَافٌ أَصْلًا».

مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يُتَحَصَّلُ عَلَيْهَا بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ مِنْ تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَفَهُّمِ مَعَانِيهِ: أَنْ تَتَحَقَّقَ إِنَابَةُ النَّفْسِ لِرَبِّهَا، وَتَوْبَتُهَا مِنْ مَعَاصِيهَا، فَإِنَّ التَّدَبُّرَ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ يُفِيدُ فِي إِيقَاظِ الْغَافِلِينَ وَاللَّاهِينَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ، وَيَرُدُّهُمْ إِلَىٰ جَادَّةِ الصَّوَابِ، وَاتِّبَاعِ مَنْهَجِ الْحَقِّ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ مِنْ تَوْبَةِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ؛ قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ الْفُضَيْلُ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَحْدَهُ، فَخَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ لِيَقْطَعَ الطَّرِيقَ، فَإِذَا هُوَ بِقَافِلَةٍ قَدِ انْتَهَتْ إِلَيْهِ لَيْلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اعْدِلُوا بِنَا إِلَىٰ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَإِنَّ أَمَامَنَا رَجُلًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ يُقَالُ لَهُ: الْفُضَيْلُ.

قَالَ: فَسَمِعَ الْفُضَيْلُ فَأُرْعِدَ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، أَنَا الْفُضَيْلُ، جُوزُوا -أَيْ: سِيرُوا فِي الطَّرِيقِ وَاسْلُكُوهُ-، وَاللهِ لَأَجْتَهِدَنَّ أَلَّا أَعْصِيَ اللهَ أَبَدًا.

فَرَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ».

وَرُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَىٰ أَنَّهُ أَضَافَهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالَ: أَنْتُمْ آمِنُونَ مِنَ الْفُضَيْلِ، وَخَرَجَ يَرْتَادُ لَهُمْ عَلَفًا، ثُمَّ رَجَعَ فَسَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، قَالَ: بَلَىٰ وَاللهِ قَدْ آنَ يَا رَبِّ.

فَكَانَ هَذَا مُبْتَدَأَ تَوْبَتِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: **الْفَوْزُ بِالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، وَهَذَا الْخَيْرُ يَتَأَتَّىٰ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ.**

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهَا وَأَسْبَابِهَا وَغَايَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا، وَمَآلِ أَهْلِهَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ -أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ».

«لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهِمَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا وَمَآلِ أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِ الْعَبْدِ -أَيْ: تَضَعُ فِي يَدِهِ- مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ

النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَتُرِيهِ قَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَتُعَرِّفُهُ مَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ».

كُلُّ هَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ الْمُبَاشِرَةِ، الَّتِي يُحَصِّلُهَا الْمَرْءُ فِي قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ وَجَسَدِهِ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بِمُجَرَّدِ الْإِقْبَالِ مَعَ الْإِكْبَابِ عَلَىٰ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا تَدَبُّرًا وَتَفَهُّمًا وَوَعْيًا وَإِدْرَاكًا لِمَرَامِي الْآيَاتِ وَمَقَاصِدِ مَعَانِيهَا.

فَإِذَا قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، وَإِذَا تَلَوْنَاهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَدَبَّرَهُ.

وَقَدْ مَرَّ فِي بِدَايَةِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ بَيَانُ حُكْمِ التَّدَبُّرِ، وَأَنَّ التَّدَبُّرَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْإِتْيَانِ بِهَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

وَهُنَاكَ ثِمَارٌ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ يُثْمِرُهَا التَّدَبُّرُ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهِ، وَالْغَوْصُ عَلَىٰ مَرَامِيهِ؛ مِنْهَا:

الْحَثُّ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي تَقُودُ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ إِلَىٰ الْكَشْفِ عَنْ سُنَنٍ وَقَوَانِينَ تَتَعَلَّقُ بِالْكَوْنِ، مَعَ مَا فِي تَسْخِيرِ تِلْكَ السُّنَنِ لِتَنْمِيَةِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ؛ إِذْ أَثْنَىٰ اللهُ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ وَرَفَعَ مَقَامَهُمْ، فَقَرَنَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِذِكْرِهِ فِي الشَّهَادَةِ حِينَمَا قَالَ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

هُنَاكَ ثِمَارٌ غَيْرُ مُبَاشِرَةٍ لِلتَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ مِنْهَا أَيْضًا:

ظُهُورُ مُجْتَهِدِينَ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَعَلَّمُوا كَيْفَ يَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، وَكَيْفَ يَتَفَهَّمُونَ الْمَعَانِيَ، وَكَيْفَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ إِظْهَارِ وَاسْتِنْبَاطِ مَا فِي تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَاتِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ.

وَكَذَلِكَ.. التَّدَبُّرُ يُحَرِّكُ الْعَقْلَ، وَيَسْتَثِيرُ طَاقَتَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَيُنَمِّي مَهَارَاتِ الْبَحْثِ التَّجْرِيبِيِّ، وَيُؤَسِّسُ لِلْحَيَاةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ الَّتِي تَرَىٰ أَنَّ التَّفَكُّرَ فِي الْكَوْنِ وَالْأَنْفُسِ فَرِيضَةٌ وَعِبَادَةٌ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهَا تَحْقِيقٌ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: ٨].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وَمِنَ الثَّمَرَاتِ الَّتِي يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمُتَدَبِّرُ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ:

إِيقَاظُ النُّفُوسِ عَلَىٰ ضَرُورَةِ الْخُرُوجِ مِنْ فِكْرِ التَّبْرِيرَاتِ، وَإِلْقَاءِ الْمَلَامِ عَلَىٰ الْآخَرِينَ، إِلَىٰ فِكْرِ نَقْدِ الذَّاتِ وَالْإِزْرَاءِ وَالْحَطِّ عَلَيْهَا، وَهَذَا إِذَا مَا تَحَصَّلَ الْمَرْءُ عَلَيْهِ عَرَفَ عُيُوبَهُ، فَإِذَا عَرَفَ عُيُوبَهُ أَقْبَلَ عَلَيْهَا مُعَالِجًا وَمُطَهِّرًا.

ثَمَرَاتُ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ يُورِثُ الْمُؤْمِنَ مَلَكَةً يَتَمَكَّنُ بِهَا مِنْ تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ نَازِلَةٍ تَحُلُّ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَفِي كِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَلِّهَا، إِمَّا نَصًّا أَوْ دَلَالَةً أَوْ قِيَاسًا.

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء: ٩- ١٠].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فَلَيْسَتْ تَنْزِلُ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ دِينِ اللهِ نَازِلَةٌ إِلَّا وَفِي كِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- الدَّلِيلُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْهُدَىٰ فِيهَا».

وَقَالَ **الشَّاطِبِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمْ تَنُصَّ عَلَىٰ حُكْمِ كُلِّ جُزْئِيَّةٍ عَلَىٰ حِدَتِهَا، وَإِنَّمَا أَتَتْ بِأُمُورٍ كُلِّيَّةٍ وَعِبَارَاتٍ مُطْلَقَةٍ تَتَنَاوَلُ أَعْدَادًا لَا تَنْحَصِرُ».

وَقَالَ **السَّعْدِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يَتَلَقَّوْا مَعْنَىٰ كَلَامِ اللهِ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَرَءُوا عَشْرَ آيَاتٍ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّىٰ يَعْرِفُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَيُنَزِّلُونَهَا عَلَىٰ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ، فَيَعْتَقِدُونَ مَا حَوَتْ وَاحْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَيَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَيُدْخِلُونَ فِيهَا جَمِيعَ مَا يَشْهَدُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمَوْجُودَةِ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ.

وَيُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ هَلْ هُمْ قَائِمُونَ بِهَا أَوْ مُخِلُّونَ؟ وَكَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ وَإِيجَادِ مَا نَقَصَ مِنْهَا؟

وَكَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنَ الْأُمُورِ الضَّارَّةِ؟

فَيَهْتَدُونَ بِعُلُومِهِ، وَيَتَخَلَّقُونَ بِآدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ خِطَابٌ مِنْ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِمْ، وَمُطَالَبُونَ بِمَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ.

فَمَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ الَّذِي سَلَكُوهُ، وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ فِي تَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ، انْفَتَحَ لَهُ الْبَابُ الْأَعْظَمُ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَقَوِيَتْ مَعْرِفَتُهُ، وَاسْتَنَارَتْ بَصِيرَتُهُ، وَاسْتَغْنَىٰ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ عَنْ كَثْرَةِ التَّكَلُّفَاتِ، وَعَنِ الْبُحُوثِ الْخَارِجِيَّةِ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ قَدْ أَخَذَ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ جَانِبًا قَوِيًّا، وَكَانَ لَهُ إِلْمَامٌ وَاهْتِمَامٌ بِسِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَحْوَالِهِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْبَرُ عَوْنٍ عَلَىٰ هَذَا الْمَطْلَبِ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْقُرْآنِ: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّ فِي نَوْعٍ وَقَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعَقِّبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

وَهَذِهِ الْآفَةُ تَسْمَعُهَا كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا وَلَا يُوَحِّدُونَ، فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: هَذِهِ أُمَّةُ التَّوْحِيدِ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ التَّوْحِيدِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي الْأُمَّةِ شِرْكٌ.

وَكَأَنَّهُمْ يُصَادِمُونَ مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ الْمَأْمُونِ ﷺ عَنِ ارْتِدَادِ فِئَامٍ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ لَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخُلَصَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُقُوعِ الشِّرْكِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ.

فَنَسْمَعُ هَذَا كَثِيرًا؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَبْعِدُونَ دُخُولَ الْأُمَّةِ تَحْتَ النُّصُوصِ الَّتِي فِيهَا التَّحْذِيرُ وَفِيهَا التَّنْفِيرُ، وَفِيهَا مَعَالِمُ التَّوْحِيدِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يُسَارَ عَلَىٰ دَرْبِهَا وَأَلَّا تُجَانَبَ.

مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَالُوا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ -أَيْ: مِمَّنْ قَالَ- حَدِيثَ عَهْدٍ بِكُفْرٍ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَىٰ حُنَيْنٍ لِلِقَاءِ هَوَازِنَ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ لَمَّا مَرُّوا بِسِدْرَةٍ عَظِيمَةٍ:

يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ!

قَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ! قُلْتُمْ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

فَانْظُرْ هَذَا التَّشْبِيهَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَعَلَ قَوْلَهُمْ، وَلَمْ يَعْذُرْهُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَسِيرٍ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلَكِنْ بَيَّنَ عِظَمَ مَا قَالُوهُ لِيُشَنِّعَ عَلَيْهِ، وَلِيُنَفِّرَ مِنْهُ، حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِيهِ بَعْدَهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ حَتَّىٰ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَتَتَّبِعُ دُرُوبَهُمْ وَتَسْلُكُ مَسَالِكَهُمْ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلَتْهُ.

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**».

النَّبِيُّ ﷺ -يَقُولُ قَائِلٌ:- يَصِفُ وَاقِعًا، لَا حِيلَةَ لَنَا فِيهِ، فَهَذَا أَمْرٌ كَوْنِيٌّ، وَالْأُمُورُ الْكَوْنِيَّةُ لَا تُدْفَعُ، فَسَيَقَعُ هَذَا كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ!!

وَلَا بِمِثْلِ هَذَا يُحْتَجُّ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ هَذِهِ حُجَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهَدَاهُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَىٰ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، وَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

إِذَنْ؛ عِنْدَمَا نَقْرَأُ كَلَامَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَضَعَ فِي أَنْفُسِنَا هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ أَنَّ الْحَوَادِثَ النَّازِلَةَ وَالْوَقَائِعَ الْمُسْتَجَدَّةَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهَا الْآيَاتُ، لَا بِمَعْنَىٰ أَنَّهَا تَصِفُ مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَمَا يَقَعُ، وَلَكِنْ هِيَ تَدْخُلُ تَحْتَ تِلْكَ الْآيَاتِ بِدَلَالَاتِهَا وَمَعَانِيهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا.

قَضِيَّةُ تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْوَاقِعِ مُتَنَاوَلَةٌ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: أَلَا تُصَلُّونَ؟**

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا.

فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ -يَعْنِي بِيَدِهِ- وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]».

فَهَذِهِ هَذِهِ، وَهِيَ مُنَزَّلَةٌ عَلَىٰ هَذَا الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ.

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ -وَكَانَ يَخْطُبُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ- فَأَخَذَهُمَا فَصَعِدَ بِهِمَا الْمِنْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ؛** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]**، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ! ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

فَهَذَانِ شَاهِدَانِ عَلَىٰ تَنْزِيلِ النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ عَلَىٰ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمُسْتَجَدَّةِ، كَمَا كَانَ فِي قَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَمَا كَانَ فِي فِعْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ.

وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ سَارُوا عَلَىٰ هَذَا الْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ فِي تَعَامُلِهِمْ مَعَ الْحَوَادِثِ النَّازِلَةِ.

صِدِّيقُ الْأُمَّةِ الْأَكْبَرُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه حِينَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَرَأَىٰ رضي الله عنه تَوَقُّفَ الْبَعْضِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ، صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَخَطَبَ خُطْبَتَهُ الشَّهِيرَةَ الْبَلِيغَةَ، حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

فَكَانَ هَذَا التَّنْزِيلُ كَالْغَيْثِ الْهَتَّانِ النَّازِلِ عَلَىٰ الظَّمْآنِ، فَخَفَّفَ الْمُصَابَ، وَحَسَمَ الْجَدَلَ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِتِلْكَ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتْلُوَهَا الصِّدِّيقُ رضي الله عنه.

لَا يَزَالُ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ يَسِيرُونَ عَلَىٰ هَذَا الطَّرِيقِ، فَمِنَ التَّنْزِيلِ الصَّحِيحِ لِلْآيَاتِ مَا ذَكَرَهُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قَالَ: «نَزِّلْ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَىٰ أَحْوَالِ الْعَالَمِ، وَطَابِقْ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَبَيْنَهَا، وَأَنْتَ تَرَىٰ كَيْفَ تَحْدُثُ الْآفَاتُ وَالْعِلَلُ كُلَّ وَقْتٍ، فِي الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْحَيَوَانِ،

وَكَيْفَ يَحْدُثُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ آفَاتٌ أُخَرُ مُتَلَازِمَةٌ، بَعْضُهَا آخِذٌ بِرِقَابِ بَعْضٍ، وَكُلَّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَفُجُورًا أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَفَوَاكِهِهِمْ، وَأَهْوِيَتِهِمْ وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ وَخَلْقِهِمْ، وَصُوَرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ مُوجَبُ أَعْمَالِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمْ.

قَالَ: وَلَقَدْ كَانَتِ الْحُبُوبُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ، كَمَا كَانَتِ الْبَرَكَةُ فِيهَا أَعْظَمَ، وَقَدْ رَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادِهِ أَنَّهُ وُجِدَ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ صُرَّةٌ فِيهَا حِنْطَةٌ كَأَمْثَالِ نَوَىٰ التَّمْرِ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا -أَيْ عَلَىٰ تِلْكَ الصُّرَّةِ-:

هَذَا كَانَ يَنْبُتُ أَيَّامَ الْعَدْلِ.

وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الْعَامَّةِ بَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ، ثُمَّ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ مُرْصَدَةٌ لِمَنْ بَقِيَتْ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ أَعْمَالِ أُولَئِكَ السَّابِقِينَ، حُكْمًا قِسْطًا وَقَضَاءً عَدْلًا.

وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ هَذَا بِقَوْلِهِ فِي الطَّاعُونِ: «**إِنَّهُ بَقِيَّةُ رِجْزٍ** -أَوْ **عَذَابٍ**- **أُرْسِلَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَذَلِكَ سَلَّطَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- الرِّيحَ عَلَىٰ قَوْمٍ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ أَبْقَىٰ فِي الْعَالَمِ مِنْهَا بَقِيَّةً فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَفِي نَظِيرِهَا، وَهِيَ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْمَالَ الْبِرِّ وَأَعْمَالَ الْفُجُورِ.. أَعْمَالَ الْبَارِّ وَأَعْمَالَ الْفَاجِرِ، جَعَلَهَا مُقْتَضِيَاتٍ لِآثَارِهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ اقْتِضَاءً لَا بُدَّ مِنْهُ، فَجَعَلَ مَنْعَ الْإِحْسَانِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْقَحْطِ وَالْجَدْبِ.

وَجَعَلَ ظُلْمَ الْمَسَاكِينِ، وَالْبَخْسَ فِي الْمَكَايِيلِ وَالْمَوَازِينِ، وَتَعَدِّي الْقَوِيِّ عَلَىٰ الضَّعِيفِ سَبَبًا لِجَوْرِ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ الَّذِينَ لَا يَرْحَمُونَ إِنِ اسْتُرْحِمُوا، وَلَا يَعْطِفُونَ إِنِ اسْتُعْطِفُوا، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الرَّعَايَا ظَهَرَتْ فِي صُوَرِ وُلَاتِهِمْ.

فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ أَعْمَالَهُمْ فِي قَوَالِبَ وَصُوَرٍ تُنَاسِبُهَا، فَتَارَةً بِقَحْطٍ وَجَدْبٍ، وَتَارَةً بِعَدُوٍّ، وَتَارَةً بِوُلَاةٍ جَائِرِينَ، وَتَارَةً بِأَمْرَاضٍ عَامَّةٍ، وَتَارَةً بِهُمُومٍ وَآلَامٍ وَغُمُومٍ تَحْضُرُهَا نُفُوسُهُمْ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهَا، وَتَارَةً بِمَنْعِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَنْهُمْ، وَتَارَةً بِتَسْلِيطِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ تَؤُزُّهُمْ إِلَىٰ أَسْبَابِ الْعَذَابِ أَزًّا، لِتَحِقَّ كَلِمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلِيَصِيرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لَهُ.

وَالْعَاقِلُ يُسَيِّرُ بَصِيرَتَهُ بَيْنَ أَقْطَارِ الْعَالَمِ، فَيُشَاهِدُهُ، وَيَنْظُرُ مَوَاقِعَ عَدْلِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، وَحِينَئِذٍ يَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ الرُّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ خَاصَّةً عَلَىٰ سَبِيلِ النَّجَاةِ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْهَلَاكِ سَائِرُونَ، وَإِلَىٰ دَارِ الْبَوَارِ صَائِرُونَ، وَاللهُ بَالِغٌ أَمْرَهُ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَبِاللهِ -تَعَالَىٰ- التَّوْفِيقُ»، رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

هَذَا الْمَقَامُ -وَهُوَ تَنْزِيلُ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ الْمُسْتَجَدَّةِ- مَزِلَّةُ أَقْدَامٍ، وَمَضِلَّةُ أَفْهَامٍ، إِذَا اسْتَعْمَلَهُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، مِمَّنْ غَلَبَ عَلَيْهِ

الْهَوَىٰ أَوِ الْجَهْلُ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ سَلَامَةِ الْقَصْدِ وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الْهَوَىٰ السِّيَاسِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

مِنْ أَمْثِلَةِ مَنْ ضَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَ اسْتِخْدَامِ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «كَشَّافِهِ»، فَإِنَّهُ نَزَّلَ آيَةً فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَعَصُّبِهِ الِاعْتِزَالِيِّ ضِدَّ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ، فَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

«﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾؛ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الْمُوجِبَةُ لِلِاتِّفَاقِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ كَلِمَةُ الْحَقِّ، وَقِيلَ: هُمْ مُبْتَدِعُو هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُمُ الْمُشَبِّهَةُ وَالْمُجَبِّرَةُ وَالْحَشْوِيَّةُ وَأَشْبَاهُهُمْ».

الْمُصِيبَةُ أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَ السُّنَّةِ ضِمْنَ الْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا، وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَفْخَرُ بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِمْ فَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُ أَهْلُ الْعَدْلِ وَأَهْلُ السُّنَّةِ.

كَذَلِكَ مَا فَعَلَهُ الْخَوَارِجُ مِنَ التَّخَبُّطِ وَالتَّخْلِيطِ فِي تَنْزِيلِ الْآيَاتِ عَلَىٰ غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، جَهْلًا مِنْهُمْ وَسُوءَ فَهْمٍ؛ لِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرَاهُمْ شَرَّ الْخَلْقِ، وَيَقُولُ: «إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَىٰ آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ».

مِنَ الْهَذَيَانِ فِي هَذَا الشَّأْنِ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ فِي تَنْزِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] عَلَىٰ حَدَائِقِ الْحَيَوَانِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: «قَدْ حُشِرَتِ الْوُحُوشُ، وَجُمِعَتْ فِي الْبَسَاتِينِ الْمُعَدَّةِ لِذَلِكَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ».

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ بَعْدَ ذَلِكَ بِذِكْرِ لَازِمِ ذَلِكَ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ هَذَا الْمَفْهُومِ فَقَالَ: «وَهُوَ فِعْلٌ مُحَرَّمٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ شَرْعًا مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: تَعْذِيبُ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ بِسَجْنِهَا فِي الْأَقْفَاصِ وَمَنْعِهَا مِنْ حُرِّيَّتِهَا».

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «وَيَكْفِي أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عِنْدَ وُجُودِهَا.

الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ هُوَ: أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْغُمَارِيُّ، فِي كِتَابِهِ «مُطَابَقَةُ الِاخْتِرَاعَاتِ الْعَصْرِيَّةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ سَيِّدُ الْبَرِيَّةِ ﷺ».

فَهَذَا الْأَمْرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَخُوفَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَلَّا يُقْدِمَ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا.

وَهَذَا الْخَطَأُ وَالزَّلَلُ وَالْخَطَلُ وَالدَّجَلُ فَاشٍ فِي الرَّوَافِضِ، فَتَجِدُهُمْ يَكْذِبُونَ لَا يَتَوَرَّعُونَ؛ يَقُولُونَ مَثَلًا:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]؛ هُمَا: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ.

﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]: النَّبِيُّ ﷺ وَآلُهُ.

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هَذَا إِنَّمَا يَقُولُهُ مَنْ لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ، وَهُوَ بِالْهَذَيَانِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

●●●



دَرجَاتُ التَّدبُّرِ

وَالتَّدَبُّرُ دَرَجَاتٌ، فَالَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ مُسْتَوَيَاتٍ، وَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

«إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَنْظُرُ فِي الْآيَةِ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ، وَآخَرُ يَنْظُرُ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا مِائَةً أَوْ مِائَتَيْنِ».

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ:

* **الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ:** وَهِيَ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ؛ **﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾** [البقرة: ٢١٩].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [البقرة: ٢٢١].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾** [البقرة: ٢٦٩]، وَهِيَ سِمَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَىٰ التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّىٰ نَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ، فَالتَّفَكُّرُ وَالتَّذَكُّرُ بَذَارُ الْعِلْمِ، وَسَقْيُهُ مُطَارَحَتُهُ، وَمُذَاكَرَتُهُ تَلْقِيحُهُ.

وَمِنْ أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ هَذِهِ الْخِصَالُ -وَهِيَ التَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ-؛ لِأَنَّ الْفِكْرَةَ عَمَلُ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ عَمَلُ الْجَوَارِحِ.

الْفِكْرُ فِي الدُّنْيَا حِجَابٌ عَنِ الْآخِرَةِ، وَعُقُوبَةٌ لِأَهْلِ الْوِلَايَةِ.

وَالْفِكْرَةُ فِي الْآخِرَةِ تُورِثُ الْحِكْمَةَ، وَتَجْلِي الْقَلْبَ.

التَّفَكُّرُ يُوقِعُ صَاحِبَهُ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَىٰ مَا لَا يُوقِعُهُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ الْمُجَرَّدُ، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ يُوجِبُ لَهُ انْكِشَافَ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْوَهْمِ وَالْحَقِيقَةِ، إِذَا فَكَّرَ الْعَبْدُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَتَجَاوَزَ فِكْرُهُ مَبَادِيَهَا، وَوَضَعَهَا مَوَاضِعَهَا، وَعَلِمَ مَرَاتِبَهَا، فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ وَارِدُ الذَّنْبِ وَالشَّهْوَةِ تَجَاوَزَ بِفِكْرِهِ لَذَّتَهُ وَفَرَحَ النَّفْسِ بِهِ إِلَىٰ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحُزْنِ الَّذِي لَا يُقَاوِمُ تِلْكَ اللَّذَّةَ وَالْفَرْحَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُقْدِمُ عَلَيْهَا حِينَئِذٍ.

فَالتَّفَكُّرُ وَالنَّظَرُ وَالِاعْتِبَارُ أَوَّلُ مَا يُذْكَرُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ، وَالْفِكْرُ هُوَ الَّذِي يَنْقُلُ مِنْ مَوْتِ الْفِطْنَةِ إِلَىٰ حَيَاةِ الْيَقَظَةِ، وَمِنَ الْمَكَارِهِ إِلَىٰ الْمَحَابِّ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ إِلَىٰ الزُّهْدِ وَالْقَنَاعَةِ، وَمِنْ سِجْنِ الدُّنْيَا إِلَىٰ فَضَاءِ الْآخِرَةِ، وَمِنْ ضِيقِ الْجَهْلِ إِلَىٰ سَعَةِ الْعِلْمِ، وَمِنْ مَرَضِ الشَّهَوَاتِ وَالْإِخْلَادِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، إِلَىٰ شِفَاءِ الْإِنَابَةِ إِلَىٰ اللهِ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَمِنْ مُصِيبَةِ الْعَمَىٰ وَالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ إِلَىٰ نِعْمَةِ الْبَصَرِ وَالسَّمْعِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللهِ، وَالْعَقْلِ عَنْهُ، وَمِنْ أَمْرَاضِ الشُّبُهَاتِ إِلَىٰ بَرْدِ الْيَقِينِ.

تَدَبُّرُ كَلَامِ اللهِ يُوجِبُ مَعْرِفَةَ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيُوجِبُ تَنْزِيهَ الرَّبِّ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَيُوجِبُ وَصْفَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

هَذِهِ الثَّمَرَاتُ لَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهَا الْمَرْءُ إِلَّا بِتَدَبُّرِ كَلَامِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ.

وَالتَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

تَفَكُّرٌ فِيهِ، لِيَقَعَ عَلَىٰ مُرَادِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْهُ.

وَتَفَكُّرٌ فِي مَعَانِي مَا دَعَا عِبَادَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

الْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْعِيَانِيِّ.

فَالْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَسْمُوعَةِ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ الْمَنْظُورَةِ.

وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ وَيُتَفَكَّرَ فِيهِ وَيُعْمَلَ بِهِ، لَا لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ مَعَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ.

فَهَذِهِ هِيَ الدَّرَجَةُ الْأُولَىٰ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ.

* **الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ**: التَّأَثُّرُ وَخُشُوعُ الْقَلْبِ.

فَهِمْتَ، تَدَبَّرْتَ، فَعَلِمْتَ، وَوَعَيْتَ الْمُرَادَ؛ فَيُحْدِثُ ذَلِكَ تَأَثُّرًا وَخُشُوعًا فِي الْقَلْبِ.

وَخُشُوعُ الْقَلْبِ ذِلَّتُهُ وَسُكُونُهُ للهِ؛ لِذَلِكَ تَسْمُو الرُّوحُ وَتَبْكِي الْعَيْنُ وَتَتَأَثَّرُ الْجَوَارِحُ، وَتَذِلُّ النَّفْسُ لِخَالِقِهَا، وَتَخْضَعُ لِرَبِّهَا، وَيُورِثُ ذَلِكَ خُشُوعَ الظَّاهِرِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَحَلَّ الْخُشُوعِ الْقَلْبُ».

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]:

«لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ فِي غَايَةِ الْجَزَالَةِ وَالْبَلَاغَةِ، اقْشَعَرَّتِ الْجُلُودُ مِنْهُ؛ إِعْظَامًا لَهُ، وَتَعَجُّبًا مِنْ حُسْنِ تَرْصِيعِهِ، وَتَهَيُّبًا لِمَا فِيهِ».

فَالتَّأَثُّرُ وَخُشُوعُ الْقَلْبِ الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ سَيِّدُ الْخَاشِعِينَ؛ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:

«اقْرَأْ عَلَيَّ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»**.

فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّىٰ بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

قَالَ لِي: «أَمْسِكْ».

فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ ﷺ، كَانَتْ عَيْنَاهُ تَدْمَعَانِ، حَتَّىٰ تَهْمِلَانِ، يُسْمَعُ لِصَدْرِهِ أَزِيزٌ، وَكَانَ بُكَاؤُهُ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْقُرْآنَ بُكَاءَ اشْتِيَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَإِجْلَالٍ، مُصَاحِبٌ ذَلِكَ لِلْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ.

وَأَمَّا السَّلَفُ، فَقَدْ وَرَدَ مِنْ خُشُوعِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِ رَبِّهِمُ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَلَكِنَّهُ كَمَا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، تَدْمَعُ عُيُونُهُمْ وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ، وَأَمَّا مَا وَقَعَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْغَشَيَانِ وَالشَّهْقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.

*** الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ: الِاسْتِجَابَةُ وَالْخُضُوعُ.**

يُبَيِّنُ اللهُ لِعِبَادِهِ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ إِنْزَالِ كِتَابِهِ اتِّبَاعُهُ وَالِاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِهِ وَالْخُضُوعُ لَهُ وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَىٰ نَهْجِهِ؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وَقَدْ وَضَّحَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَلَاقَةَ الِانْقِيَادِ بِالْخُشُوعِ فَقَالَ:

«قِيلَ: مَعْنَىٰ الْخُشُوعِ: الِانْقِيَادُ لِلْحَقِّ، وَهَذَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُشُوعِ؛ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، يُحِلُّونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَقْرَءُونَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ».

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ، وَهُوَ وَارِدٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ»؛ «﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]: يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ».

فَهَذِهِ مِنْ دَرَجَاتِ التَّدَبُّرِ لِكَلَامِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هُدًىٰ وَنُورًا، يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

*** الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ: اسْتِخْرَاجُ الْحِكَمِ، وَاسْتِنْبَاطُ الْأَحْكَامِ، وَمَكَانَتُهَا أَنَّهَا مِنْ لَوَازِمِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ الْقَلْبِ وَنُورِ الْبَصِيرَةِ، وَأَنَّهَا تُثْمِرُ فِي الْقَلْبِ حَقَائِقَ الْإِيمَانِ.**

وَشُرُوطُ الِاسْتِنْبَاطِ وَاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ هِيَ: سَلَامَةُ الْمَقْصِدِ عِنْدَ بَيَانِ الْأَحْكَامِ، وَمَعْرِفَةُ مَوَاطِنِ الِاسْتِنْبَاطِ وَالنَّظَرِ، وَإِتْقَانُ الْعُلُومِ الْمُؤَهِّلَةِ لِلِاسْتِنْبَاطِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ الْحُجَّةِ، وَمُرَاعَاةُ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَغَايَةِ الْقُرْآنِ.

وَهَذَا الِاسْتِنْبَاطُ هُوَ مِنْ أَعْلَىٰ الدَّرَجَاتِ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ فَتَحَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ حَتَّىٰ أَرَاهُ مَا لَا يَرَاهُ سِوَاهُ.

فَهَذِهِ هِيَ دَرَجَاتُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالْأَمْرُ أَمْرٌ كَبِيرٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، أَنْ يُتَدَبَّرَ، وَأَنْ تُتَدَبَّرَ آيَاتُهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْمَلَ بِهِ بَعْدَ أَنْ يُفْهَمَ مُرَادُ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنَ الْآيَاتِ إِلَّا بِتَدَبُّرِهَا وَالنَّظَرِ فِي مَعَانِيهَا، حَتَّىٰ يُفْهَمَ الْمُرَادُ مِنْهَا، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَطْلُوبِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا مِنْ عِبَادِهِ فِي أَرْضِهِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَىٰ هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَالْأَصْلِ الْأَصِيلِ، وَهُوَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

فَلْيَكُنْ هَذَا مِنَّا عَلَىٰ ذُكْرٍ، وَلْنَجْتَهِدْ دَائِمًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ نَتعَامَلَ بِهِ مَعَهُ؛ هُوَ كَلَامُ اللهِ، تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

وَإِذَا أَرَدْتَ الْإِفَادَةَ الْكَامِلَةَ، وَالِاسْتِفَادَةَ التَّامَّةَ مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ جَلَّ وَعَلَا؛ فَلْتَجْعَلْ فِي يَقِينِكَ أَنَّ اللهَ يُخَاطِبُكَ بِهِ مِنْهُ إِلَيْكَ؛ لِأَنَّهُ رِسَالَتُهُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْكَ رَسُولَهُ ﷺ فَبَلَّغَكَ، فَهَذَا كَلَامُهُ، أَدَّاهُ إِلَيْكَ رَسُولُهُ ﷺ، وَفِيهِ الْمَطْلُوبُ مِنْكَ، فَإِذَا مَا جَاءَكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ قُلْتَ: سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ.

وَإِذَا جَاءَكَ الْخَبَرُ قُلْ: سَمِعْتُ وَصَدَّقْتُ؛ فَحِينَئِذٍ تُفِيدُ مِنَ الْقُرْآنِ الْفَائِدَةَ الْجُلَّىٰ.

وَكَذَلِكَ عِنْدَ مُرَادِكَ الِاسْتِفَادَةَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ، مَثِّلْ لِنَفْسِكَ أَنَّكَ أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي يَأْتِيكَ يَخْرُجُ مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْكَ.. إِلَىٰ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ: افْعَلْ، وَلَا تَفْعَلْ!

هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَ الرَّسُولَ ﷺ وَهُوَ يُخَاطِبُكَ فَمًا لِأُذُنٍ، وَأَنْتَ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ؟! هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَهُ ﷺ؟!

وَهُوَ أَحْرَصُ عَلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، وَلَا يَكْمُلُ إِيمَانُكَ إِلَّا بِأَنْ تُحِبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّتِكَ لِنَفْسِكَ.

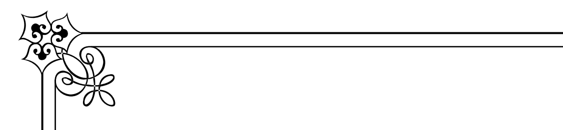
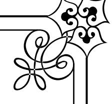
هَلْ كَانَ يَسَعُكَ أَنْ تُخَالِفَهُ؟! فَكَيْفَ بِكَلَامِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا؟!

وَإِذَا سَمِعْتَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤].. فَأَصْغِ إِلَيْهَا، وَارْعَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ تُدْعَىٰ إِلَيْهِ، أَوْ شَرٌّ تُحَذَّرُ مِنْهُ.

وَاللهُ -تَعَالَىٰ- الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

⦿ ⦿ ⦿

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّالِثَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أُمُورٌ تُحَدِّدُ عَلَاقَةَ التَّالِي (الْقَارِئُ) بِالْقُرْآنِ

فَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُحَدِّدُ عَلاقَةَ التَّالِي بِالْقُرْآنِ: بُعْدُ الْمُعَايَشَةِ، وَبُعْدُ اللُّغَةِ.

- **فَأَمَّا بُعْدُ الْمُعَايَشَةِ**: فَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعِيشُ مَعَ الْقُرْآنِ لَا يَحْتَاجُ إِلَّا إِلَىٰ إِيضَاحَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَتَفْسِيرِ أَلْفَاظٍ مَعْدُودَةٍ، وَيُدْرِكُ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ، وَهَذَا كَحَالِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم.

وَأَمَّا الْبَعِيدُ عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا يُعَايِشُهُ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوْضِيحٍ وَتَفْصِيلٍ، وَرُبَّمَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ الْوَاضِحَاتُ.

حَالُ الْأَوَّلِ: كَمَنْ يَسْعَىٰ فِي بَلْدَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ إِلَىٰ كُلِّ مَكَانٍ بِلَا نَظَرٍ إِلَىٰ الْإِرْشَادَاتِ وَدُونَ سُؤَالٍ، وَرُبَّمَا اكْتَفَىٰ بِتَلْمِيحَاتٍ سَرِيعَةٍ لِيَنَالَ مَطْلُوبَهُ بِيُسْرٍ وَسُهُولَةٍ.

وَحَالُ الثَّانِي: كَالْغَرِيبِ الَّذِي لَا تَكْفِيهِ الْإِرْشَادَاتُ الْمَكْتُوبَةُ، وَرُبَّمَا سَأَلَ كَثِيرًا وَضَلَّ كَثِيرًا وَاحْتَارَ كَثِيرًا، وَغَابَتْ عَنْهُ حَاجَتُهُ وَهُوَ مِنْهَا قَرِيبٌ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ حَيَّ الْقَلْبِ وَاعِيَهُ، تَامَّ الْفِطْرَةِ، فَإِذَا فَكَّرَ بِقَلْبِهِ وَجَالَ بِفِكْرِهِ دَلَّهُ عَقْلُهُ وَقَلْبُهُ عَلَىٰ صِحَّةِ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ

حَقٌّ، وَشَهِدَ قَلْبُهُ بِمَا أَخْبَرَ الْقُرْآنُ بِهِ، فَكَانَ وُرُودُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ قَلْبِهِ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ -يَعْنِي: نُورَ الْوَحْيِ عَلَىٰ نُورِ الْفِطْرَةِ-.

وَهَذَا وَصْفُ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سَبَأ: ٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النُّور: ٣٥]، فَهَذَا نُورُ الْفِطْرَةِ عَلَىٰ نُورِ الْوَحْيِ، وَهَذَا صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي، يَجْمَعُ بَيْنَ قَلْبِهِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ فَيَجِدُهَا كَأَنَّهَا قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ فَهُوَ يَقْرَؤُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَكُونُ تَامَّ الِاسْتِعْدَادِ واعِيَ الْقَلْبِ كَامِلَ الْحَيَاةِ، فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ شَاهِدٍ يُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَمْ تَبْلُغْ حَيَاةُ قَلْبِهِ وَنُورُهُ وَزَكَاءُ فِطْرَتِهِ مَبْلَغَ الْقَلْبِ الْحَيِّ الْوَاعِي، فَطَرِيقُ وُصُولِ هِدَايَتِهِ أَنْ يُفَرِّغَ سَمْعَهُ لِلْكَلَامِ وَقَلْبَهُ لِتَأَمُّلِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ، فَيَعْلَمُ -حِينَئِذٍ- أَنَّهُ الْحَقُّ».

- **وَأَمَّا بُعْدُ اللُّغَةِ:** فَذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ وَأَسَالِيبَ الْقُرْآنِ، وَيَتَعَامَلُ بِهَا كَثِيرًا فِي كَلَامِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ عَنَاءً فِي مَعْرِفَةِ دَلَائِلِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَإِدْرَاكِ الْمُرَادِ مِنَ الْآيَاتِ، وَتَصَوُّرِ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودِ فِي الْآيَةِ.

وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ جَيِّدًا، وَنَصِيبٌ كَبِيرٌ مِمَّا يَعْرِفُهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ لَا يَسْتَخْدِمُهُ فِي كَلَامِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ الْقُرْآنَ بِلَا تَفْسِيرٍ، وَكَمْ تَمُرُّ عَلَيْهِ أَلْفَاظٌ غَرِيبَةٌ عَلَىٰ سَمْعِهِ أَوْ جُمَلٌ تَحْتَاجُ فِي نَظَرِهِ إِلَىٰ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَكَلُّفٍ

لِتَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ، أَوْ تَمُرُّ عَلَيْهِ مَعَانٍ مُتَوَالِيَةٌ إِنْ سَعَىٰ بِجَهْدِهِ إِلَىٰ تَصَوُّرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ بَيْنَها عَلَاقَةً حَاضِرَةً فِي ذِهْنِهِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يَصِفَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ إِلَّا بِالدُّرَرِ الْمُتَنَاثِرَةِ.

حَالُ الْأَوَّلِ: حَالُ مَنْ يَسْمَعُ الْمَثَلَ السَّائِرَ «الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»، فَيُدْرِكُ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودَ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَىٰ بَالِهِ الْبَحْثُ عَنْ مَعَانِي الْمُفْرَدَاتِ، أَوْ تَعْرِيفُ الْعِلْمِ، أَوِ الْمَقْصُودُ بِالْمَثَلِ.

وَأَمَّا حَالُ الثَّانِي: فَإِنَّهُ لِبُعْدِهِ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ يَسْأَلُ عَنْ مَعْنَىٰ الْعِلْمِ؟ وَأَيُّ عِلْمٍ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ الْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ؟ وَعَنْ حَدِّ الصِّغَرِ؟ وَمَا مَعْنَىٰ النَّقْشِ؟ وَلِمَاذَا ذَكَرَ الْحَجَرَ؟ وَيَجْتَهِدُ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ بَقَاءَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ الْإِنْسَانُ فِي صِغَرِهِ يَبْقَىٰ كَبَقَاءِ النَّقْشِ؛ وَهُوَ الْحَفْرُ الْجَمِيلُ فِي الْحَجَرِ الصُّلْبِ... وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَبُعْدُهُ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ أَجْهَدَهُ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمَقْصُودِ، وَأَطَالَ فِي تَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ، وَفِي تَكَلُّفِ تَقْدِيرِ مَا يَظُنُّهُ مَحْذُوفًا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنَ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ كَمَا حَصَلَ لِلْأَوَّلِ.

❁ ❁ ❁

التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ

إِنَّ جُزْءًا كَبِيرًا فِي مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبِهِ مِمَّا يُعْرَفُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَهَا فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظَ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَقُومُ مَعَانِيهِ الَّتِي هِيَ الشَّرْعُ».

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَا بَلَغَهُ جَهْدُهُ، حَتَّىٰ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيَتْلُو بِهِ الْقُرْآنَ، وَمَا ازْدَادَ مِنَ الْعِلْمِ بِاللِّسَانِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِسَانَ مَنْ خَتَمَ بِهِ نُبُوَّتَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ آخِرَ كُتُبِهِ كَانَ خَيْرًا لَهُ».

لِذَلِكَ كَانَتْ مَعْرِفَةُ الْعَرَبِيَّةِ شَرْطًا لِمَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ؛ قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَعَنِ الْغَايَةِ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَالْعَرَبِيَّةُ إِنَّمَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا لِأَجْلِ خِطَابِ الرَّسُولِ بِهَا، فَإِذَا أَعْرَضَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ كَانَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ حَطَبِ جَهَنَّمَ».

لِهَذَا عُلِمَ أَنَّ تَعَلُّمَ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَنَّ سَبْرَ فُنُونِهَا وَضَبْطَ أُصُولِهَا؛ إِنَّمَا هُوَ لِمَعْرِفَةِ الْمَقْصُودِ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا سُمِّيَتْ مَعَ غَيْرِهَا عُلُومَ الْآلَةِ إِلَّا لِهَذَا الْأَمْرِ، وَمَنْ فَاتَهُ تَحْقِيقُ هَذَا الْمَقْصِدِ مَعَ جُهْدٍ وَتَعَبٍ وَتَعَمُّقٍ وَتَوَسُّعٍ؛ فَقَدْ أَمْضَىٰ عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا طَائِلٍ، وَغَايَةُ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ يُجِيدُ تَعْلِيمَهَا لِغَيْرِهِ.

إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ بُعْدِ الْمُعَايَشَةِ لِكَلَامِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَبُعْدِ اللُّغَةِ أَدْرَكْنَا سِرَّ فَهْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لِلْقُرْآنِ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ تَفْسِيرٍ إِلَّا فِي النَّزْرِ الْيَسِيرِ، وَسَنُدْرِكُ -أَيْضًا- عَظِيمَ حَاجَتِنَا إِلَىٰ تَفْسِيرٍ مُفَصَّلٍ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النَّحل: ١٠٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ [العَنْكَبُوت: ٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٣]، وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَحْكَامَهُ وَيُسْرَهُ، وَأَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهَكَذَا تَزِيدُ حَاجَةُ النَّاسِ لِلتَّفْسِيرِ كُلَّمَا بَعُدُوا عَنْ مُعَايَشَةِ هَدْيِهِ أَوْ هَجَرُوا لُغَتَهُ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّهُ يُقَالُ: حِينَمَا يَجِدُ الْقَارِئُ فِي الْقُرْآنِ وَصْفًا أَوْ مَعْنًىٰ لَا يُدْرِكُهُ؛ فَلَا يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَجِدُ فِي التَّفْسِيرِ لَفْظًا أَجْزَلَ أَوْ أَدَقَّ أَوْ أَجْمَلَ أَوْ أَوْضَحَ أَوْمَا يُدَانِي، بَلْ غَايَةُ مَا يَذْكُرُ تَفْسِيرًا لِلْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ تَوْضِيحٌ وَتَقْرِيبٌ لِلْمَعْنَىٰ لِمَنْ بَعُدَ عَنِ الْقُرْآنِ مُعَايَشَةً أَوْ لُغَةً، بِاسْتِثْنَاءِ مَا يَكُونُ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، أَوْ بِالسُّنَّةِ الثَّابِتَةِ أَوْ مَا فِي حُكْمِهَا.

مِنَ الْأَمْثِلَةِ الصَّرِيحَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ نَقَلَ تَفْسِيرَ مُجَاهِدٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ: «يُقَالُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مِنَ الْعَرَبِ. فَيُقَالُ: مِنْ أَيِّ الْعَرَبِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ قُرَيْشٍ». قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ مِنْ هَذَا بَيِّنٌ فِي الْآيَةِ، مُسْتَغْنًىٰ فِيهِ بِالتَّنْزِيلِ عَنِ التَّفْسِيرِ».

لَوْ عَلِمَ الْقَارِئُ عَيْنَ حَقِيقَةِ الْمَعْنَىٰ، أَوْ شَاهَدَ الْمَوْصُوفَ؛ لَمَا ابْتَغَىٰ لِلَفْظِ الْقُرْآنِ زِيَادَةً، وَلَا عَنْ أُسْلُوبِهِ صِيَاغَةً، وَلَا عَلَىٰ تَرْكِيبِهِ اسْتِدْرَاكًا، وَلَا تَقْدِيرًا لِمَحْذُوفٍ، وَلَمْ يَعْدِلْ عَنِ الْقُرْآنِ بَدَلًا.

لِذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُفَسَّرُ بِهَا أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ: «أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ لَا مُتَرَادِفَةٌ، فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ أَوْ مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ، بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ.

وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطُّور: ٩]، إِنَّ الْمَوْرَ: هُوَ الْحَرَكَةُ، كَانَ تَقْرِيبًا؛ إِذِ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ، فَهَذَا كُلُّهُ تَقْرِيبٌ لَا تَحْقِيقٌ.

وَالْعَرَبُ تُضَمِّنَ الْفِعْلَ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَةً، وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقُومُ مَقَامَ بَعْضٍ، كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤] أَنَّ مَعْنَىٰ «إِلَىٰ»: مَعَ. وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ النُّحَاةُ الْبَصْرِيُّونَ مِنَ التَّضْمِينِ، فَسُؤَالِ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَىٰ نِعَاجِهِ.

وَمَنْ قَالَ مَعْنَىٰ ﴿لَا رَيْبَ﴾: لَا شَكَّ، فَهَذَا تَقْرِيبٌ، وَإِلَّا فَالرَّيْبُ فِيهِ اضْطِرَابٌ وَحَرَكَةٌ، وَلَفْظُ الشَّكِّ وَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا الْمَعْنَىٰ لَكِنَّ لَفْظَهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ جِدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدَلُّ عَلَىٰ الْمَقْصُودِ مِنْ عِبَارَةٍ أَوْ عِبَارَتَيْنِ».

فَمُعَايَشَةُ كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَعَ مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهَا الْوَحْيَ الْخَاتِمَ؛ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ وَسَبْرِ مَعَانِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّعَقُّلِ فِي آيَاتِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هِدَايَةً وَنُورًا.

وَالنُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ مُتَكَامِلَةٌ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَلَيْسَ فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ قُرْآنِيٍّ فَجْوَاتٌ مُهْمَلَةٌ، وَمِنْ شَأْنِ الْبَحْثِ وَالتَّدَبُّرِ الْمُتَعَمِّقِ أَنْ يَمْلَأَ كُلَّ فَجْوَةٍ مِنْ صَرِيحِ نَصٍّ، أَوْ مِنْ فَحْوَاهُ، أَوْ إِشَارَتِهِ، أَوْ مِنْ مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ تُوجَدُ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ.

فَعَلَىٰ مُتَدَبِّرِ كِتَابِ اللهِ ﷻ أَنْ يَتَتَبَّعَ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ كُلَّ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ، وَأَنْ يَتَدَبَّرَهَا مُلَاحِظًا تَكَامُلَ دَلَالَاتِهَا، وَمُسْتَبْعِدًا مَا أَمْكَنَ تَصَوُّرَاتِ التَّكْرَارِ، فَالْأَصْلُ التَّأْسِيسُ لَا التَّأْكِيدُ.

قَدْ يَسْهُلُ عَلَىٰ النَّاظِرِ فِي كِتَابِ اللهِ دُونَ تَدَبُّرٍ عَمِيقٍ إِذَا رَأَىٰ آيَاتٍ مُتَفَرِّقَاتٍ تَتَحَدَّثُ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ؛ أَنْ يَتَصَوَّرَ بِيُسْرٍ أَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ مُكَرَّرَةً لِغَرَضِ التَّأْكِيدِ، وَأَنَّهُ لَا تُوجَدُ فُرُوقٌ بَيْنَهَا تَجْعَلُهَا مُتَكَامِلَةً فِي دَلَالَاتِهَا لَا مُكَرَّرَةً.

وَبَادِيَ الرَّأْيِ هَذِهِ سَطْحِيَّةٌ لَا تَلِيقُ بِمُتَدَبِّرٍ حَصِيفٍ يَتَدَبَّرُ كِتَابَ اللهِ بِعُمْقٍ وَرَوِيَّةٍ وَبَحْثٍ مُسْتَقْصٍ لِأَطْرَافِ الْمَوْضُوعِ.

كَثِيرٌ مِنَ النُّصُوصِ نَظُنُّهَا مُكَرَّرَةً، وَنَفْهَمُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَكْرَارِهَا التَّأْكِيدُ، وَتَحْقِيقُ أَهْدَافٍ تَرْبَوِيَّةٍ، وَلَكِنَّ الْبَحْثَ الْعَمِيقَ أَثْبَتَ أَنَّهَا مُتَكَامِلَةٌ مَعَ تَحْقِيقِ غَرَضِ التَّأْكِيدِ وَالْأَهْدَافِ التَّرْبَوِيَّةِ.

وَمِنَ التَّتَبُّعِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ فِي اسْتِقْرَاءٍ نَاقِصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ تَأَكَّدَ أَنَّ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ مُتَكَامِلَةٌ فِي الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَأَنَّ كُلَّ نَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَا يَمْلَأُ فَرَاغَ حَبَّةٍ فِي عِقْدِ الْمَوْضُوعِ، وَيَمْتَازُ بِبَيَانِ فِكْرَةٍ إِذَا انْضَمَّتْ مَعَ سَائِرِ الْأَفْكَارِ الَّتِي أَبَانَتْهَا سَائِرُ النُّصُوصِ؛ تَكَامَلَ بَيَانُ الْمَوْضُوعِ بِكُلِّ عَنَاصِرِهِ وَمِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ، وَيَتَأَكَّدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ قُرْآنِيٍّ فَجَوَاتٌ مُهْمَلَةٌ، وَلَكِنْ قَدْ لَا

يَهْتَدِي الْمُتَدَبِّرُ إِلَىٰ مَلْءِ الْفَجْوَةِ الَّتِي يُلَاحِظُهَا بِدَلَالَةِ نَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُوَزَّعَةِ فِي السُّوَرِ؛ إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَىٰ النَّصِّ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَتَنَبَّهْ إِلَىٰ دَلَالَتِهِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الْخَفِيَّةِ.

فَالْعَيْبُ مِنْ نَقْصِ التَّدَبُّرِ أَوْ مِنْ قُصُورِهِ، أَمَّا كِتَابُ اللهِ فَلَا نَقْصَ فِيهِ، وَلَا تَفْرِيطَ فِيهِ بِشَيْءٍ مِمَّا هُوَ مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلنَّاسِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، إِذَا حَمَلْنَا لَفْظَ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ، وَكَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ الرُّومِ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ [الروم: ٥٨]، وَالْمَثَلُ فِي مَوْضُوعٍ مَا أَوْ جُزْئِيَّةٍ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ قَدْ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ سَائِرِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ.

لَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ كُلَّ التَّفْصِيلَاتِ الْجُزْئِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ قَدْ جَاءَتْ بِوَجْهٍ أَوْ بِآخَرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ أُصُولَ الْمَعَانِي لِلْمَوْضُوعَاتِ الدِّينِيَّةِ قَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ بِوَجْهٍ أَوْ بِآخَرَ، فَالْقُرْآنُ فِيهِ اسْتِيعَابٌ لِأَفْكَارِ كُلِّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اهْتَمَّ بِبَيَانِهَا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ الدِّينِيَّةِ.

أَمَّا التَّكَالِيفُ الْعَمَلِيَّةُ وَالتَّطْبِيقَاتُ الْفِعْلِيَّةُ؛ فَقَدْ أَحَالَ الْقُرْآنُ تَفْصِيلَاتِهَا عَلَىٰ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ الْقَوْلِيِّ وَالْعَمَلِيِّ، وَالِاسْتِيعَابُ لِأَفْكَارِ كُلِّ مَوْضُوعٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اسْتَوْفَتْ مَقْصُودَ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلنَّاسِ قَدْ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ ضَرْبِ الْمَثَلِ، وَقِيَاسِ سَائِرِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ عَلَيْهِ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذَا فَالأَصْلُ تَكَامُلُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَالتَّأْسِيسُ فِي كُلِّ نَصٍّ مِنْهَا مُقَدَّمٌ عَلَىٰ التَّأْكِيدِ؛ أَيْ: فَهْمُ النَّصِّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَحْمِلُ مَعْنًىٰ جَدِيدًا أَوْلَىٰ مِنْ فَهْمِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يُؤَكِّدُ مَعْنًىٰ سَبَقَ، وَلا يُصَارُ إِلَىٰ حَمْلِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ التَّأْكِيدِ الْمَحْضِ إِلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِ حَمْلِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ جَدِيدٍ مَقْبُولٍ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِي مَفَاهِيمِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَأْكِيدٍ لِأَصْلِ الْمَوْضُوعِ مُقْتَرِنٍ بِزِيَادَةِ الْفِكْرَةِ أَوِ الْمَعْنَىٰ الْجَدِيدِ.

الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ مَبْدَأَ تَكَامُلِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَلَا يَجْعَلُونَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ الرَّئِيسَةِ لِمَا يَتَدَبَّرُونَ مِنْ كِتَابِ اللهِ؛ يَقَعُونَ فِي عِدَّةِ أَخْطَاءٍ؛ مِنْهَا:

- أَنَّهُمْ لَا يَتَنَبَّهُونَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُضَافِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصُّ الثَّانِي.

- وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ آيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ فَيَفْهَمُونَهَا أَشْتَاتًا، وَلَا يَتَدَبَّرُونَهَا عَلَىٰ أَسَاسِ أَنَّهَا وَحْدَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهَا يَمْلَأُ فَرَاغًا مِنَ الْمَوْضُوعِ الْعَامِّ لَا يُزَاحِمُ فِيهِ غَيْرَهُ.

- وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ قَدْ يُطَبِّقُونَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَجْعَلُونَهَا مُكَرَّرَاتٍ، وَيُلْغُونَ بِذَلِكَ الدَّلَالَاتِ الْخَاصَّةَ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا كُلُّ نَصٍّ، وَالَّذِي يُوقِعُهُمْ فِي هَذَا الْوَهْمِ أَنَّ إِضَافَةَ الْمَعْنَىٰ الْجَدِيدِ فِي النَّصِّ الثَّانِي أَوِ الثَّالِثِ قَدِ اسْتَدْعَتْ إِعَادَةَ أَصْلِ الْمَوْضُوعِ.

فَهُمْ يَغْفُلُونَ عَنِ الْمَعْنَىٰ الْمُضَافِ، فَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّ النَّصَّ كُلَّهُ تَكْرِيرٌ لِمَا سَبَقَهُ لِغَرَضِ التَّأْكِيدِ لَا لِلتَّأْسِيسِ، وَقَدْ يُعَلِّلُونَ ذَلِكَ بِأَغْرَاضٍ تَرْبَوِيَّةٍ، عَلَىٰ أَنَّ التَّأْكِيدَ

وَالْأَهْدَافَ التَّرْبَوِيَّةَ أُمُورٌ بَاقِيَةٌ لَا تُلْغَىٰ مَعَ فَهْمِ الْفِكْرَةِ الْمُضَافَةِ فِي النَّصِّ الْجَدِيدِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ الْمُعَلِّمُ الْبَارِعُ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يُضِيفَ فِكْرَةً لِدَرْسٍ سَابِقٍ.

فَالْفَهْمُ السَّدِيدُ وَالتَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ لِلنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ يُوجِبَانِ عَلَىٰ الْمُتَدَبِّرِ لِكَلَامِ اللهِ ﷻ أَنْ يَجْمَعَ كُلَّ النُّصُوصِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، وَأَنْ يَتَدَبَّرَهَا مُجْتَمِعَةً، مَالِئَةً أَمْكِنَتَهَا مِنَ الْمَوْضُوعِ؛ حَتَّىٰ لَا يَطْغَىٰ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَحَتَّىٰ لَا يَتَجَاوَزَ حُدُودَ مَكَانَةِ الْخَاصِّ، فَحِينَئِذٍ يُزَحْزِحُهُ عَنْ مَكَانِهِ لِيَأْخُذَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ.

خُذْ مَثَلًا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي الْمَائِدَةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥].

إِنَّ هَذَا النَّصَّ لَا بُدَّ أَنْ يُفْهَمَ مُجْتَمِعًا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الْآمِرَةِ بِالْجِهَادِ، وَالَّتِي تُحَمِّلُ الْمُؤْمِنِينَ مَسْؤُولِيَّةَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْأَخْذِ عَلَىٰ أَيْدِي الظَّالِمِينَ، وَوِقَايَةِ الْأَهْلِ مِنَ النَّارِ، وَالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَإِقَامَةِ حُكْمِ اللهِ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ الِاسْتِطَاعَةِ.

وَطَرِيقَةُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ لَا تَعْنِي تَطْبِيقَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْوَارِدَةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ أَوْ مُتَقَارِبٍ -لَا تَعْنِي تَطْبِيقَهَا- بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَاعْتِبَارَهَا دَالَّةً عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ، بَلْ مِنْ أَهَمِّ مَا تَجِبُ مُلَاحَظَتُهُ لَدَىٰ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ: تَوْزِيعُ دَلَالَاتِ الْآيَاتِ عَلَىٰ الْمَعَانِي الَّتِي تَمْلَأُ فَرَاغَاتٍ فِي سَاحَةِ الْمَوْضُوعِ، أَوْ فِي خَرِيطَةِ الْمَوْضُوعِ، فَهَذَا أَوْلَىٰ مِنْ تَجْمِيعِهَا وَتَطْبِيقِهَا جَمِيعًا عَلَىٰ فِكْرَةٍ

وَاحِدَةٍ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُوجِبُهُ التَّدَبُّرُ الصَّحِيحُ لِكِتَابِ اللهِ -تَعَالَىٰ- الْمَجِيدِ، كَمَا مَرَّ فِي هَذَا النَّصِّ الْإِلَهِيِّ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥].

لَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يُنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَلْ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُصَحِّحًا لِلْمَفْهُومِ الَّذِي قَدْ يَسْتَقِرُّ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مِمَّنْ يَحْسُو حَسْوَ الطَّائِرِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ وَفِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَانِيهَا، وَهَذِهِ بَعْضُ الْأَمْثِلَةِ:

*** فِي مَوْضُوعٍ مِنْ مَوْضُوعَاتِ التَّقْوَىٰ لَدَيْنَا ثَلَاثَةُ نُصُوصٍ:**

الْأَوَّلُ: مَا جَاءَ آخِرَ آيَةِ الْمُدَايَنَةِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

الثَّانِي: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩].

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحَدِيد: ٢٨].

هَذِهِ النُّصُوصُ الثَّلَاثَةُ يَرَىٰ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَخْذًا بِطَرِيقَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ تَطْبِيقَ الْمُرَادِ مِنْهَا عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ؛ هُوَ أَنَّ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ فَتَحَ اللهُ لَهُ أَبْوَابَ

الْمَعْرِفَةِ، وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ لِلجَوَلَانِ فِي آفَاقِ الْعِلْمِ. وَيَزِيدُ الْخُرَافِيُّونَ فِي هَذَا فَيَجْعَلُونَ الْمُرَادَ مِنْهَا الْوُصُولَ إِلَىٰ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ الَّذِي لَا يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الِاكْتِسَابِ الْعِلْمِيِّ، وَإِنَّمَا يَأْتِي عَنْ طَرِيقِ الْإِلْهَامِ أَوْ مَا يُسَمُّونَهُ بِالْكَشْفِ، وَسَبَبُهُ التَّقْوَىٰ فَقَطْ!

وَتَتَسَاءَلُ هُنَا: كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ التَّقْوَىٰ، فَقَدْ يَعْصِي اللهَ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَتَّقِيهِ؟!

إِذَا طَرَقْنَا فِي هَذِهِ النُّصُوصِ الثَّلَاثَةِ طَرِيقَةَ التَّطْبِيقِ -يَعْنِي لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ عَلَىٰ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ- كَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَدَبِّرِينَ، وَاسْتَهْدَيْنَا لِقَاعِدَةِ تَكَامُلِ النُّصُوصِ، وَرَجَعْنَا إِلَىٰ سِيَاقِ كُلِّ نَصٍّ مِنْهَا؛ ظَهَرَ لَنَا مَا يَلِي:

- مَا جَاءَ فِي آخِرِ الْمُدَايَنَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أَحْكَامٍ رَائِعَةٍ، وَإِرْشَادَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَتَعْلِيمٍ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- لِلَّذِينَ آمَنُوا، قَدْ جَاءَ مُنَاسِبًا تَمَامًا لِتِلْكَ الْأَحْكَامِ وَالْإِرْشَادَاتِ، وَمُنَاسِبًا لِهَذَا التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ الْمُنَزَّلِ فِي الْكِتَابِ.

إِنَّ الْأَحْكَامَ التَّكْلِيفِيَّةَ يُنَاسِبُهَا الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ؛ فَجَاءَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾، وَالْأَحْكَامُ وَالْإِرْشَادَاتُ الْعَظِيمَةُ تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ مُنَزَّلٌ يُنَاسِبُهُ الِامْتِنَانُ بِالتَّعْلِيمِ؛ فَجَاءَ عَقِبَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَىٰ ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِتَمْجِيدِ اللهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؛ أَيْ: فَمَا يُعَلِّمُهُ عِبَادَهُ هُوَ الْحَقُّ وَهُوَ الْخَيْرُ لَهُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾، فَهَذَا اسْتِئْنَافٌ لِكَلَامٍ جَدِيدٍ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هَذَا أَمْرٌ بِالتَّقْوَىٰ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الْأَحْكَامَ التَّكْلِيفِيَّةَ الَّتِي يُنَاسِبُهَا الْأَمْرُ بِالتَّقْوَىٰ فِي آيَةِ الْمُدَايَنَةِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾، لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكُمْ تِلْكَ الْأَحْكَامَ، وَهُوَ الَّذِي عَلَّمَكُمْ بَعْدَ الْجَهَالَةِ وَبَصَّرَكُمْ بَعْدَ الْعَمَايَةِ.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾، لَوْ كَانَ هَذَا مُرَتَّبًا عَلَىٰ هَذَا لَكَانَ السِّيَاقُ عَلَىٰ سَبِيلِ الْجَزْمِ: وَاتَّقُوا اللهَ يُعَلِّمْكُمُ اللهُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

لَا خِلَافَ عَلَىٰ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هِيَ السَّبِيلُ الْمَمْهُودَةُ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ الْفَيْضَ بِالْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ عَلَىٰ الْقَلْبِ النَّقِيِّ التَّقِيِّ يَكُونُ -بِفَضْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- مَلْحُوظًا فِيهِ تَقْوَىٰ ذَلِكَ الْقَلْبِ، بِعَكْسِ مَا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ مَمْلُوءًا بِالْآفَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَحَلًّا قَابِلًا لِنُزُولِ فُيُوضَاتِ الرَّحَمَاتِ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَا دَلَّ سِيَاقُ الْآيَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، جَاءَ بَيَانًا لِبَعْضِ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْفُرْقَانُ؛ أَيِ: الْبَصِيرَةُ الَّتِي تَجْعَلُ الْمُتَّقِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّوْفِيقِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي يَمْنَحُ اللهُ فِيهِ الْمُتَّقِينَ نُورًا خَاصًّا لِبَصَائِرِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحَدِيد: ٢٨]، دَلَّ السِّيَاقُ عَلَىٰ أَنَّهُ ثَوَابٌ أُخْرَوِيٌّ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهَذَا النُّورُ الَّذِي يَمْشُونَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ ثَوَابٌ أُخْرَوِيٌّ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَالْخِطَابُ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَاللهُ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ أَيْ: يُؤْتِكُمْ نَصِيبَيْنِ؛ عَلَىٰ إِيمَانِكُمُ الْأَوَّلِ، ثُمَّ عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ.

وَالسُّورَةُ قَدْ تَحَدَّثَتْ فِي سَوَابِقِهَا عَنِ النُّورِ الَّذِي يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ مَحْرُومُونَ مِنْ هَذَا النُّورِ، فَتَكَامَلَتِ الْمَعَانِي بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَهْدِيَةِ بِقَاعِدَةِ تَكَامُلِ النُّصُوصِ، أَمَّا التَّطْبِيقُ عَلَىٰ مَعْنًىٰ وَاحِدٍ فَقَدْ ضَيَّعَ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ.

*** مِثَالٌ ثَانٍ: فِي مَوْضُوعِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ؛ لَدَيْنَا نَصَّانِ:**

الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْأَسْبَقُ نُزُولًا، نَزَلَ فِي مَكَّةَ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٣١].

الثَّانِي: نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأَنْعَام: ١٥١].

- لَوْ تَدَبَّرْنَا هَذَيْنِ النَّصَّيْنِ لَوَجَدْنَاهُمَا مُتَكَامِلَيْنِ لَا مُكَرَّرَيْنِ، فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ أَعْلَنَ اللهُ ﷻ فِيهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ الْأَوْلَادِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ أَوْلِيَائِهِمُ الْمُنْفِقِينَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ فِي مَوْضُوعِ مُحَاوَلَةِ التَّخَلُّصِ مِنَ الْأَوْلَادِ بِقَتْلِهِمْ خَشْيَةَ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِسَبَبِ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ.

فَاللهُ يَنْهَىٰ عَنْ قَتْلِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ، وَيُبَيِّنُ لِلْأَوْلِيَاءِ أَنَّ رِزْقَهُمْ قَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ الْأَوْلَادِ أَوْ عَنْ طَرِيقِهِمْ إِذَا كَبِرُوا، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ تَقْدِيمُ التَّكَفُّلِ بِرِزْقِ الْأَوْلَادِ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْفَقْرَ أَمْرٌ مَحْذُورٌ وُقُوعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ وَلَيْسَ وَاقِعًا فِي الْحَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ- فِي الْآيَةِ: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾؛ أَيْ: خَشْيَةَ حُدُوثِ فَقْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

- مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ أَعْلَنَ اللهُ فِيهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ الْأَوْلِيَاءِ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ تَكَفُّلَهُ بِرِزْقِ أَوْلَادِهِمْ، عَلَىٰ عَكْسِ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ هُنَا هُوَ مُحَاوَلَةُ التَّخَلُّصِ مِنَ الْأَوْلَادِ بِقَتْلِهِمْ، تَخَلُّصًا مِنْ أَزْمَةِ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ الْجَاثِمِ، دَلَّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُ اللهِ فِي الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾، لَمْ يَقُلْ: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ وَهُوَ: تَوَقُّعُ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ، وَأَمَّا هَاهُنَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾؛ مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ جَاثِمٍ ضَاغِطٍ ثَقِيلٍ، أَيْ مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ فِعْلًا، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ هَاهُنَا تَقْدِيمُ التَّعَهُّدِ بِرِزْقِ الْأَوْلِيَاءِ عَلَىٰ التَّعَهُّدِ بِرِزْقِ أَوْلَادِهِمْ.

فتكَامَلَ النَّصَّانِ، وَتَمَّ الْمَوْضُوعُ مِنْ مُخْتَلِفِ جوَانِبِهِ، وَحَصَلَ مَعَ ذَلِكَ تَأْكِيدُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْمَوْضُوعِ بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْمُتَأَخِّرِ.

وَجَاءَ تَرْتِيبُ النُّزُولِ مُنْسَجِمًا مَعَ التَّرْتِيبِ الْمَنْطِقِيِّ، فَالنَّهْيُ الْأَوَّلُ تَضَمَّنَ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ حُدُوثِ الْفَقْرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لَكِنْ بَقِيَ بَعْدَهُ سُؤَالٌ، وَهُوَ: فَمَا حَالُ مَنْ يُعَانِي مِنْ أَزْمَةِ فَقْرٍ وَاقِعٍ جَاثِمٍ؟ أَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُهُ عَلَيْهِمْ؟

فَكَانَ جَوَابُ هَذَا السُّؤَالِ الَّذِي قَدْ يَدُورُ فِي الصُّدُورِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾.

فَبِتَكَامُلِ النُّصُوصِ نَصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّتِيجَةِ الْمُبْهِرَةِ.

* **الْمِثَالُ الثَّالِثُ:** فِي مَوْضُوعِ التَّقْلِيدِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْآبَاءُ بِتَعَصُّبٍ أَعْمَىٰ، مَعَ ذَمِّ ذَلِكَ، وَالْإِقْنَاعِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ، جَاءَ عِنْدَنَا نَصَّانِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

الْأَوَّلُ: مَكِّيٌّ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لُقْمَان: ٢٠-٢١].

النَّصُّ الثَّانِي: مَدَنِيٌّ؛ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البَقَرَة: ١٧٠].

لَوْ تَدَبَّرْنَا هَذَيْنِ النَّصَّيْنِ -أَيْضًا- لَوَجَدْنَاهُمَا مُتَكَامِلَيْنِ لَا مُكَرَّرَيْنِ، وَبُرْهَانُ ذَلِكَ:

- أَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ وَكَانَ الْأَسْبَقَ نُزُولًا، تَضَمَّنَ إِقْنَاعَ الْمُقَلِّدِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِآبَائِهِمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ آبَاؤُهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِخُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، الَّذِي يَدْعُوهُمْ عَنْ طَرِيقِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ، وَإِذَا كَانَ أَمْرُهُمْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمُ اتِّبَاعًا أَعْمَىٰ، لِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ فِي عَذَابِ السَّعِيرِ.

- وَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ تَضَمَّنَ إِقْنَاعَ الْمُقَلِّدِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِآبَائِهِمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ آبَاؤُهُمْ قَدْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ سَبِيلِ نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَإِذَا كَانَ أَمْرُهُمْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُمُ اتِّبَاعًا أَعْمَىٰ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ فَقَدِ اتَّبَعُوا جَاهِلِينَ ضَالِّينَ.

وَلَمَّا كَانَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَىٰ لِلْآبَاءِ بِدَافِعِ التَّعَصُّبِ عُرْضَةً لِأَمْرَيْنِ فَاسِدَيْنِ:

الْأَوَّلُ: كَوْنُ الْمَتْبُوعِ تَابِعًا لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَمُتَأَثِّرًا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ.

الثَّانِي: كَوْنُ الْمَتْبُوعِ جَاهِلًا لَا بَصِيرَةَ لَهُ، وَمُعَانِدًا لَا يَتَقَبَّلُ هِدَايَةً.

لَمَّا كَانَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَىٰ لِلْآبَاءِ كَذَلِكَ؛ كَانَ مَنْهَجًا بَاطِلًا وعَمَلًا مَذْمُومًا لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ الْإِقْنَاعُ لِمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ.

فتَكَامَلَ النَّصَّانِ، وَتَمَّ الْمَوْضُوعُ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهِ، وَحَصَلَ مَعَ ذَلِكَ تَأْكِيدُ ذَمِّ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْمَوْضُوعِ بِمَا جَاءَ فِي النَّصِّ الْمُتَأَخِّرِ الَّذِي أَفَادَ مَعْنًىٰ جَدِيدًا، لَا عَلَىٰ طَرِيقَةِ أَنَّ هَذَا يَكُونُ تَطْبِيقًا بِمَعْنَىٰ أَنَّ النَّصَّ الثَّانِيَ أَدَّىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّكْرِيرِ، مِنْ أَجْلِ التَّرْكِيزِ عَلَىٰ التَّأْكِيدِ فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَسْمَعُهُ كَثِيرًا.

فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ تَكَامُلِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنُّصُوصِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

***

نَمَاذِجُ مِنْ تَدَبُّرِ السَّلَفِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَعِنْدَنَا نَمَاذِجُ مِنْ تَدَبُّرِ السَّلَفِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهِيَ كَالشَّوَاهِدِ التَّطْبِيقِيَّةِ تَكُونُ حَافِزًا لِلْهِمَّةِ فِي أَنْ تَحْذُوَ حَذْوَهُمْ، وَتَنْتَظِمَ فِي سِلْكِهِمْ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَاللهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

لِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ نَمَاذِجُ كَثِيرَةٌ تَحْتَوِي عَلَىٰ تَدَارُسِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ، وَاسْتِخْرَاجِ حِكَمِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ مَعَانِيهِ، وَالْتِزَامِ أَوَامِرِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ، وَلَعَلَّ مِمَّا يُفِيدُ فِي عَرْضِ الْأَمْثِلَةِ أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ مَا يَدُلُّ بِمُنَاسَبَةٍ عَلَىٰ كُلِّ مِثَالٍ.

*** الِالْتِزَامُ بِالْأَمْرِ:**

وَذَلِكَ فِي الْتِزَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِلتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ بَعْدَ نُزُولِ سُورَةِ النَّصْرِ؛ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا صَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النَّصر: ١] إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فَهَذَا نَمُوذَجٌ مِنْ نَمَاذِجِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ** ﴾ [النَّصر: ٣]، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ وَعَىٰ عَنِ اللهِ تبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُرَادَهُ.

*** تَذَكُّرُ الْآيَةِ عِنْدَ مُقْتَضَاهَا:**

كَمَا جَاءَ فِي تَذَكُّرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ [التَّكاثُر: ٨]، وَذَلِكَ فِيمَا يَرْوِيهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**»، قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ!

الصِّدِّيقُ وَالْفَارُوقُ!! مَا أَخْرَجَهُمَا مِنْ بُيُوتِهِمَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي لَا يُخْرَجُ فِيهَا سِوَىٰ الْجُوعِ!!

قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا** ﷺ، **قُومَا**»، فَقَامَا مَعَهُ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا!

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**»، قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا -أَيِ: الْمَاءَ-. إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي!

قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَ لَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذَا. ثُمَّ أَخَذَ الْمُدْيَةَ -أَيِ: السِّكِّينَ-، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ!**»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، وَشَرِبُوا، فَلَمَّا شَبِعُوا وَرَوَوْا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسَأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَتَذَكَّرَ الْآيَةَ ﷺ عِنْدَ مُقْتَضَاهَا.

*** كَذَلِكَ اتِّبَاعُ أَحْسَنِهِ:**

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿**لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي بَيْرَحَاءُ، وَإِنَّهَا لَصَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ! ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**»، فَقَسَّمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَضَرَتْنِي هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٩٢]، فَذَكَرْتُ مَا أَعْطَانِي اللهُ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَرْجَانَةَ؛ وَهِيَ جَارِيَةٌ لِي رُومِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هِيَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ، فَلَوْ أَنِّي أَعُودُ فِي شَيْءٍ جَعَلْتُهُ للهِ لَأَنْكَحْتُهَا نَافِعًا.

وَلَمَّا نَزَلَتْ تِلْكَ الْآيَةُ قَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي مَالٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ فَرَسِي هَذِهِ. فَجَاءَ بِهَا إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ**».

*** كَذَلِكَ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي:**

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ-: وَاللهُ لَا أُنْفِقُ عَلَىٰ مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النُّور: ٢٢].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَىٰ وَاللهِ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَىٰ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

*** وَمُرَاعَاةُ مَوْضُوعِ السُّورَةِ:**

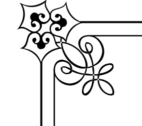
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا

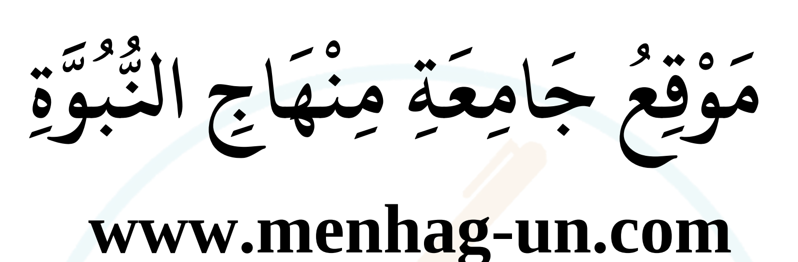
أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ. فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، قَالَ: فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النَّصْر: ١]؟

قَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرَنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرَنَا وَفتح عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي عُمَرُ: أَكَذَا يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟! فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ؛ قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النَّصْر: ١] وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النَّصْر: ٣].

فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.







مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الرَّابِعَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

التَّدَبُّرُ فِي بَعْضِ آيَاتِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

* كَذَلِكَ النَّظَرُ بِتَدَبُّرٍ وَفَهْمٍ إِلَىٰ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْآيَاتِ:

- فَهَذَا مِثَالٌ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَصَفَ اللهُ -تَعَالَىٰ- نَفْسَهُ بَعْدَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بِأَنَّهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي اتِّصَافِهِ بِـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَرْهِيبٌ، قَرَنَهُ بِـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ التَّرْغِيبِ؛ لِيَجْمَعَ فِي صِفَاتِهِ بَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْهُ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، لِيَكُونَ أَعْوَنَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَأَمْنَعَ».

فَتَأَمَّلِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: فِيهَا اتِّصَافٌ بِالتَّرْهِيبِ، فَقَرَنَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالتَّرْغِيبِ فَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١- ٣]؛ لِيَجْمَعَ فِي صِفَاتِهِ بَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْهُ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، لِيَكُونَ أَعْوَنَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَأَمْنَعَ.

- فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤-١٦٥].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا أَخْبَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- فِي الْآيَةِ قَبْلُ مَا دَلَّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِظَمِ سُلْطَانِهِ؛ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ -الْقَاهِرَةِ لِذَوِي الْعُقُولِ- مَنْ يَتَّخِذُ مَعَهُ أَنْدَادًا».

وَقَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا أَحْسَنَ اتِّصَالَ هَذِهِ الْآيَةِ بِالَّتِي قَبْلَهَا؛ فَإِنَّهُ -تَعَالَىٰ- لَمَّا بَيَّنَ وَحْدَانِيَّتَهُ وَأَدِلَّتَهَا الْقَاطِعَةَ، وَبَرَاهِينَهَا السَّاطِعَةَ، الْمُوصِلَةَ إِلَىٰ عِلْمِ الْيَقِينِ، الْمُزِيلَةَ لِكُلِّ شَكٍّ، ذَكَرَ هُنَا أَنَّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ التَّامِّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾».

* كَذَلِكَ وَصْفُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِمُقْتَضَىٰ الْآيَةِ:

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ سَمِعَتْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المُجَادَلَة: ١]: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ».

سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ٢٣]، فَصَاحَ وَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ!! مَنْ أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ حَلَفَ؟! أَلَمْ يُصَدِّقُوهُ فِي قَوْلِهِ؟!

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فَيَقُولُ: مَنْ أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ حَلَفَ؟!

*** وَأَمَّا الْخَوْفُ مِنَ الْعُقُوبَةِ:**

فَعَنْ عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: جِئْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَبْكِي؛ وَإِذَا الْمُصْحَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حِجْرِهِ فَأَعْظَمْتُ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، ثُمَّ لَمْ أَزَلْ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَقَدَّمْتُ فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ؟! فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الْوَرَقَاتُ! وَإِذَا هُوَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ.. وَذَكَرَ لَهُ أَصْحَابَ السَّبْتِ.. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٦٥].

قَالَ: فَأَرَىٰ الَّذِينَ نَهَوْا قَدْ نَجَوْا، وَلَا أَرَىٰ الْآخَرِينَ ذُكِرُوا، وَنَحْنُ نَرَىٰ أَشْيَاءَ نُنْكِرُهَا وَلَا نَقُولُ فِيهَا! قَالَ: قُلْتُ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفُوهُمْ وَقَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأَعْرَاف: ١٦٤]؟! قَالَ: فَأَمَرَ لِي فَكُسِيتُ ثَوْبَيْنِ غَلِيظَيْنِ.

لِأَنَّهُ تَنَبَّهَ إِلَىٰ أَمْرٍ لَمْ يَفْطِنْ هُوَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَا هُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفُوهُمْ وَقَالُوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأَعْرَاف: ١٦٤]؟! قَالَ: فَأَمَرَ لِي فَكُسِيتُ ثَوْبَيْنِ غَلِيظَيْنِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأْتُ اللَّيْلَةَ آيَةً أَسْهَرَتْنِي: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآيَةَ [البَقَرَة: ٢٦٦]، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ.. وَقَدْ سَأَلَهُمْ: مَا عَنَىٰ؟ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: اللهُ أَعْلَمُ.

فَقَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَعْلَمُ، وَلَكِنْ إِنَّمَا سَأَلْتُ، إِنْ كَانَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ عِلْمٌ وَسَمِعَ فِيهَا بِشَيْءٍ أَنْ يُخْبِرَ بِمَا سَمِعَ! فَسَكَتُوا، فَرَآنِي أَهْمِسُ -يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: قُلْ يَا ابْنَ أَخِي، وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ: قُلْتُ: عُنِيَ بِهَا الْعَمَلُ. فَتَرَكَنِي، وَأَقْبَلَ وَهُوَ يُفَسِّرُهَا وَيَقُولُ: صَدَقْتَ يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّمَا عُنِيَ بِهَا الْعَمَلُ، ابْنُ آدَمَ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ جَنَّتِهِ إِذَا كَبُرَ سِنُّهُ وَكَثُرَ عِيَالُهُ، وَابْنُ آدَمَ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، صَدَقْتَ يَا ابْنَ أَخِي.

وَعَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «قَرَأَ ابْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا آيَةً فَوَقَفَ عِنْدَهَا، أَسْهَرَتْهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، فَدَعَا ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: إِنِّي قَرَأْتُ آيَةً وَقَفْتُ اللَّيْلَةَ عِنْدَهَا فَأَسْهَرَتْنِي حَتَّىٰ أَصْبَحْتُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٦]! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لَا تُسْهِرْكَ؛ إِنَّمَا عُنِيَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ.. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ [لُقْمَان: ٢٥]، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ هُنَا وَيُشْرِكُونَ بِاللهِ».

فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

أَتَىٰ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ شَيْءٍ كَثِيرٍ مِنْ مَقَاصِدِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْمُبَارَكَةِ مِمَّا لَا يَنْقَضِي مِنْهُ الْعَجَبُ، وَذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ مُجَلَّدَاتٍ كِبَارٍ -يُرِيدُ

«مَدَارِجَ السَّالِكِينَ»-، وَأَتَىٰ بِوَقْفَاتٍ يَتَأَمَّلُ فِيهَا فِي فَاتِحَةِ الْفَوَاتِحِ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ مِمَّا لَا يَنْقَضِي مِنْهُ الْعَجَبُ وَمِمَّا يَبْهَرُ الْعُقُولَ وَالْقُلُوبَ، فَسُبْحَانَ مَنْ هَذَا عَطَاؤُهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

* **الْوَقْفَةُ الْأُولَىٰ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]:

تَأَمَّلْ فِي هَذَا الْمَثَلِ التَّطْبِيقِيِّ لِلتَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ؛ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

«إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا تَرَامَيَا بِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ وَلَا بُدَّ؛ وَهُمَا: الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ. فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قَالَ: وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ.

فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بِـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَمِنْ مَرَضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بِـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بِـ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦]؛ عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَالضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ، الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ.

وَحُقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ هَذَا الشِّفَاءِ أَنْ يُسْتَشْفَىٰ بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، لِهَذَا لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ هَذَا الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ، كَانَ حُصُولُ الشِّفَاءِ الْأَدْنَىٰ بِهَا أَوْلَىٰ، فَلَا شَيْءَ أَشْفَىٰ لِلْقُلُوبِ الَّتِي عَقَلَتْ عَنِ اللهِ كَلَامَهُ، وَفَهِمَتْ عَنْهُ فَهْمًا خَاصًّا، اخْتَصَّهَا بِهِ مِنْ مَعَانِي هَذِهِ السُّورَةِ».

*** الْوَقْفَةُ الثَّانِيَةُ: وَجْهُ الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفَاتِحَة: ٦]:

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: هَذَا مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وَالْإِتْيَانُ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ أَحْسَنُ وَأَفْخَمُ، فَإِنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ عُبُودِيَّةٍ وَافْتِقَارٍ إِلَىٰ الرَّبِّ الْجَلِيلِ جَلَّ وَعَلَا، وَإِقْرَارٍ بِالْفَاقَةِ لَهُ وَإِلَىٰ عُبُودِيَّتِهِ مَعَ اسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِهْدَائِهِ؛ فَأَتَىٰ فِيهِ بِصِيغَةِ ضَمِيرِ الْجَمْعِ؛ نَحْنُ مَعَاشِرَ عَبِيدِكَ مُقِرُّونَ لَكَ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْعَبْدُ لِلْمَلِكِ الْمُعَظَّمِ شَأْنُهُ: نَحْنُ عَبِيدُكَ وَمَمَالِيكُكَ وَتَحْتَ طَاعَتِكَ وَلَا نُخَالِفُ أَمْرَكَ، فَيَكُونُ هَذَا أَحْسَنَ وَأَعْظَمَ مَوْقِعًا عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْ أَنْ يَقُولَ: أَنَا عَبْدُكَ وَمَمْلُوكُكَ، وَلِهَذَا لَوْ قَالَ: أَنَا وَحْدِي مَمْلُوكُكَ اسْتَدْعَىٰ مَقْتَهُ؛ فَإِذَا قَالَ: أَنَا وَكُلُّ مَنْ فِي الْبَلَدِ مَمَالِيكُكَ وَعَبِيدُكَ وَجُنْدٌ لَكَ كَانَ أَعْظَمَ وَأَفْخَمَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أَنَّ عَبِيدَكَ كَثِيرٌ جِدًّا، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَكُلُّنَا مُشْتَرِكُونَ فِي عُبُودِيَّتِكَ وَالِاسْتِعَانَةِ بِكَ وَطَلَبِ الْهِدَايَةِ مِنْكَ، فَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الرَّبِّ بِسَعَةِ مَجْدِهِ وَكَثْرَةِ عَبِيدِهِ وَكَثْرَةِ سَائِلِيهِ الْهِدَايَةَ مَا لَا يَتَضَمَّنُهُ لَفْظُ الْإِفْرَادِ فَتَأَمَّلْهُ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ أَدْعِيَةَ الْقُرْآنِ رَأَيْتَ

عَامَّتَها عَلَىٰ هَذَا النَّمَطِ؛ نَحْوَ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وَنَحْوَ دُعَاءٍ آخَرَ فِي آخِرِ الْبَقَرَةِ وَفِي آخِرِ آلِ عِمْرَانَ وَأَوَّلِهَا، وَهُوَ أَكْثَرُ أَدْعِيَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ».

* **الْوَقْفَةُ الثَّالِثَةُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦-٧].

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَضَافَ النِّعْمَةَ إِلَيْهِ، وَحَذَفَ فَاعِلَ الْغَضَبِ لِوُجُوهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ النِّعْمَةَ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ النِّعْمَةَ إِلَيْهِ وَحَذَفَ فَاعِلَ الْغَضَبِ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ مَنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ، لَمْ يَقُلْ هَكَذَا.. وَإِنَّمَا حَذَفَ فَاعِلَ الْغَضَبِ وَقَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

فَأَمَّا إِضَافَةُ النِّعْمَةِ إِلَيْهِ فَالنِّعْمَةُ هِيَ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ، وَأَمَّا الْغَضَبُ فَمِنْ بَابِ الِانْتِقَامِ وَالْعَدْلِ، وَالرَّحْمَةُ تَغْلِبُ الْغَضَبَ، فَأَضَافَ إِلَىٰ نَفْسِهِ أَكْمَلَ الْأَمْرَيْنِ، وَأَسْبَقَهُمَا وَأَقْوَاهُمَا، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي إِسْنَادِ الْخَيْرَاتِ وَالنِّعَمِ إِلَيْهِ، وَحَذْفِ الْفَاعِلِ فِي مُقَابِلِهَا، كَقَوْلِ مُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجِنّ: ١٠].

فَعِنْدَ الشَّرِّ أَتَوْا بِالْإِسْنَادِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجِنّ: ١٠]، وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَضِرِ فِي شَأْنِ الْجِدَارِ

وَالْيَتِيمَيْنِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكَهْف: ٨٢]، وَأَمَّا فِي خَرْقِ السَّفِينَةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكَهْف: ٧٩]، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكَهْف: ٨٢]».

وَقَالَ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ: «فِي حَذْفِ فَاعِلِ الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْإِشْعَارِ بِإِهَانَةِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ وَتَحْقِيرِهِ وَتَصْغِيرِ شَأْنِهِ مَا لَيْسَ فِي ذِكْرِهِ، وَفِي ذِكْرِ فَاعِلِ النِّعْمَةِ مِنْ إِكْرَامِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ وَرَفْعِ قَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي حَذْفِهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ قَدْ أَكْرَمَهُ مَلِكٌ وَشَرَّفَهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ، فَقُلْتَ: هَذَا الَّذِي أَكْرَمَهُ السُّلْطَانُ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مَا تَمَنَّاهُ، كَانَ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ مِنْ قَوْلِكَ: هَذَا الَّذِي أُكْرِمَ وَخُلِعَ عَلَيْهِ وَشُرِّفَ وَأُعْطِيَ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَمَّا كَانَ طَالِبُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ طَالِبَ أَمْرٍ أَكْثَرُ النَّاسِ نَاكِبُونَ عَنْهُ، مُرِيدًا لِسُلُوكِ طَرِيقٍ مُرَافِقُهُ فِيهَا فِي غَايَةِ الْعِزَّةِ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ وَحْشَةِ التَّفَرُّدِ، وَعَلَىٰ الْأُنْسِ بِالرَّفِيقِ، نَبَّهَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَىٰ الرَّفِيقِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩]، فَأَضَافَ الصِّرَاطَ إِلَىٰ الرَّفِيقِ السَّالِكِينَهُ، وَهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، لِيَزُولَ عَنِ الطَّالِبِ لِلْهِدَايَةِ وَسُلُوكِ الصِّرَاطِ وَحْشَةُ تَفَرُّدِهِ عَنْ أَهْلِ زَمَانِهِ وَبَنِي جِنْسِهِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ رَفِيقَهُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ هُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَكْتَرِثُ بِمُخَالَفَةِ النَّاكِبِينَ عَنْهُ لَهُ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الْأَقَلُّونَ قَدْرًا، وَإِنْ كَانُوا الْأَكْثَرِينَ عَدَدًا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «عَلَيْكَ

بِطَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقِلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، وَكُلَّمَا اسْتَوْحَشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَىٰ الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِصْ عَلَىٰ اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضَّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَىٰ الْتَفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ أَوْ عَاقُوكَ».

***

أَصْنَافُ الْخَلْقِ فِي الْعَمَلِ بِرُكْنَي

هَذِهِ الْآيَة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ، أَجْمَعُ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ لِمَعَانِي الدِّينِ وَحَقَائِقِ الْمِلَّةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، يَعْتَرِفُ الْعَبْدُ عِنْدَ تِلَاوَتِهَا بِأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ عَبْدٌ للهِ لَا يَعْبُدُ أَحَدًا سِوَاهُ، وَلَا يَتَوَجَّهُ بِرَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرَجَائِهِ وَصَلَاتِهِ وَنُسُكِهِ وَجَمِيعِ عِبَادَاتِهِ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

فَالْأُسْلُوبُ أُسْلُوبُ قَصْرٍ فِيهِ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْقَصْرَ وَالْحَصْرَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يَعْنِي: لَا نَعْبُدُ إِلَّا أَنْتَ، وَ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ يَعْنِي: لَا نَسْتَعِينُ إِلَّا أَنْتَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَكَشْفِ كُرَبِهِ وَتَفْرِيجِ هُمُومِهِ، وَإِجَابَةِ دُعَائِهِ وَتَحْقِيقِ آمَالِهِ وَرَفْعِ آلَامِهِ، إِلَّا بِاللهِ؛ فَهُوَ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِهَذَا يَعْتَرِفُ لِرَبِّهِ بِالْقُوَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَالْقُدْرَةِ التَّامَّةِ، وَالْعِلْمِ الْكَامِلِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ الشَّامِلَةِ، وَالْفَضْلِ وَالْمُلْكِ وَالْإِنْعَامِ -جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ-.

وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ قِلَّةِ أَلْفَاظِهَا، فَإِنَّهَا تَضَمَّنَتْ مَعَانِيَ جَلِيلَةً وَحَقَائِقَ عَالِيَةً، تَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَوَقَّفَ الْمُسْلِمُ عِنْدَهَا مَلِيًّا؛ مِنْ ذَلِكَ:

أَنَّ الْعِبَادَةَ قُدِّمَتْ فِيهَا عَلَىٰ الِاسْتِعَانَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فَتَقَدَّمَتِ الْعِبَادَةُ عَلَىٰ الِاسْتِعَانَةِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقُّ اللهِ، وَأَمَّا الِاسْتِعَانَةُ فَحَقُّ الْمَخْلُوقِ، وَحَقُّ اللهِ -بِلَا شَكٍّ- مُقَدَّمٌ عَلَىٰ حَقِّ الْمَخْلُوقِ، وَهِيَ بِهَذَا تُعَلِّمُنَا الْأَدَبَ مَعَ اللهِ، وَتَقْدِيمَ حَقِّهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ؛ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَإِجْلَالًا لَهُ وَخُضْعَانًا لِجَنَابِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْفِعْلَيْنِ جَاءَا بِلَفْظِ الْجَمْعِ «نَعْبُدُ» وَ«نَسْتَعِينُ»، وَلَمْ يَقُلْ: أَعْبُدُ وَأَسْتَعِينُ؛ تَذْكِيرًا لِلْمُسْلِمِ بِارْتِبَاطِهِ مَعَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَحِرْصِهِ عَلَىٰ إِيجَادِهَا، وَبُعْدِهِ عَنِ الْفَرْدِيَّةِ وَالِانْعِزَالِ، إِضَافَةً إِلَىٰ مَا فِيهَا مِنَ التَّوَاضُعِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ هَذَا الِاعْتِرَافُ.

ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ عِبَادَتَهُ مَعَ عِبَادَةِ الْأُمَّةِ، وَاسْتِعَانَتَهُ مَعَ اسْتِعَانَتِهَا؛ ارْتَفَعَ مِنْ قَلْبِهِ الِالْتِفَاتُ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَالْعُجْبُ بِهَا، فَهُوَ يَقُولُ بِلِسَانِ الْحَالِ: أَنَا يَا رَبِّ لَيْسَ مِنِّي عِبَادَةٌ تَسْتَحِقُّ أَنْ أَعْتَرِفَ بِهَا؛ لَكِنَّ عِبَادَتِي مَعَ إِخْوَانِي هِيَ مَحَلُّ اعْتِرَافِي لَكَ وَتَوَسُّلِي إِلَيْكَ، فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ رُؤْيَةُ الْمُصَلِّي لِعَمَلِهِ، وَهَذَا دَاعٍ لِقَبُولِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَاسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ عَمَلًا مِنْ مُعْجَبٍ، وَلَا يَسْمَعُ دُعَاءً مِنْ مُتَكَبِّرٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ: تَقْدِيمُ الْعِبَادَةِ فِي الْآيَةِ عَلَىٰ الِاسْتِعَانَةِ وَافَقَ قَسْمَ السُّورَةِ الْمَذْكُورَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ: النِّصْفُ الْأَوَّلُ للهِ، وَالنِّصْفُ الثَّانِي لِلْعَبْدِ، وَالسُّورَةُ مِنْ سَبْعِ

آيَاتٍ، تَبْدَأُ -عَلَىٰ الصَّحِيحِ- بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فَيَكُونُ مَا للهِ فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ وَنِصْفٌ، وَمَا لِلْعَبْدِ ثَلَاثُ آيَاتٍ وَنِصْفٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الدِّينَ مُنْقَسِمٌ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ؛ هُمَا: الْعِبَادَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ. وَلَا يَكْمُلُ دِينُ امْرِئٍ حَتَّىٰ يَقُومَ بِهِمَا عَلَىٰ أَكْمَلِ الْوُجُوهِ.

فَالصَّلَاةُ عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ، وَسُؤَالُ اللهِ وَدُعَاؤُهُ عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ، وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ مَنْ كَمَّلَهُمَا وَقَامَ بِهِمَا عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ وَأَحْسَنِ حَالٍ، وَشَرُّ الْخَلْقِ مَنْ تَرَكَ عِبَادَةَ اللهِ، وَتَرَكَ الِاسْتِعَانَةَ بِهِ عَلَىٰ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَكَشْفِ الْكُرَبِ، وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ، وَشَرْحِ الصُّدُورِ.

هَذَانِ صِنْفَانِ، وَبَقِيَ صِنْفَانِ:

أَوَّلُهُمَا: مَنْ قَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ وَقَصَّرَ فِي الِاسْتِعَانَةِ، وَهَذَا يَحْصُلُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ يُؤَدِّي الْمَأْمُورَاتِ وَيَتْرُكُ الْمَنْهِيَّاتِ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِانْتِظَامٍ، لَكِنَّهُ مُقِلٌّ مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَىٰ قَضَاءِ حَاجَاتِهِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَقَدْ حُرِمَ بِذَلِكَ حَظًّا عَظِيمًا مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ، وَاللَّجَأِ إِلَيْهِ وَالِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَرْضِ حَاجَتِهِ عَلَىٰ مَنْ يَفْرَحُ بِقَضَائِهَا، وَيَبْتَلِي عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ لِيُقْبِلُوا بِهَا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، مُتَضَرِّعَةً قُلُوبُهُمْ، وَجِلَةً أَفْئِدَتُهُمْ، فَتَسْكُنُ بِمُنَاجَاةِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ الرَّحِيمِ، تَلَذُّ بِدُعَائِهِ، وَتَأْنَسُ بِعَرْضِ حَاجَتِهَا عَلَيْهِ.

وَهَذَا الصِّنْفُ يَقَعُ مِنْهُ التَّقْصِيرُ فِي الِاسْتِعَانَةِ جَهْلًا بِمَقَامِ الِاسْتِعَانَةِ، الَّذِي لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ الْعَبْدِ إِلَّا بِهِ، وَغَفْلَةً عَنِ الِاقْتِدَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ

الِاسْتِعَانَةِ بِرَبِّهِمْ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، كَمَا وَقَعَ مِنْ آدَمَ، وَكَمَا وَقَعَ كَذَلِكَ مِنْ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ ﷺ، وَمِنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّهُمْ فِي الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَاللَّجْأِ إِلَيْهِ عَلَىٰ مَقَامٍ عَظِيمٍ.

ثَانِي الصِّنْفَيْنِ: مَنْ يَسْتَعِينُ بِاللهِ فِي أُمُورِهِ وَتَحْصِيلِ حَاجَتِهِ وَلَوْ كَانَتْ مُحَرَّمَةً، لَكِنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي الْعِبَادَةِ، أَوْ تَارِكٌ لَهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي بَعْضِ الْعُصَاةِ وَالْمُنْحَرِفِينَ، وَعُتَاةِ الْمُجْرِمِينَ، فَتَجِدُهُمْ يَدْعُونَ اللهَ كَثِيرًا لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ -حَلَالًا كَانَتْ أَمْ حَرَامًا-، لَكِنَّهُمْ لَا يَرْعَوْنَ أَمْرَ اللهِ وَلَا نَهْيَهُ، وَلَا يُطِيعُونَ اللهَ وَلَا رَسُولَهُ ﷺ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ.

فَهَؤُلَاءِ أَصْنَافٌ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ فِي الْعَمَلِ بِرُكْنَيْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ.

وَمِنْ عَجَائِبِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ أَنَّ الْعَبْدَ يَتَوَسَّلُ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ الْأَعْظَمِ فِي السُّورَةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فَيَعْتَرِفُ أَنَّهُ عَبْدٌ ذَلِيلٌ مُفْتَقِرٌ مُحْتَاجٌ طَالِبٌ لِلْعَوْنِ، وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا أَهَمُّ شَيْءٍ تُرِيدُ أَنْ يُعِينَكَ اللهُ عَلَيْهِ؟ فَيَقُولُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

حَرِيٌّ بِمَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِعُبُودِيَّتِهِ بِرَبِّهِ؛ أَنْ يُجَابَ دُعَاؤُهُ وَتُحَقَّقَ طَلَبَاتُهُ.

فَهَذَا بَعْضُ التَّدَبُّرِ فِي بَعْضِ آيَاتِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهُنَاكَ أَمْثِلَةٌ وَنَمَاذِجُ لِتَدَبُّرِ السَّلَفِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يَنْبَغِي أَنْ تُعْرَفَ لِتُحْتَذَىٰ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَنْ يَصِلَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا بِذُلِّهِ لِرَبِّهِ، وَافْتِقَارِهِ إِلَيْهِ، وَانْطِرَاحِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ طَالِبًا عَوْنَهُ، مُسْتَمْنِحًا إِيَّاهُ الْهِدَايَةَ وَالْفَهْمَ، لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هُوَ صَاحِبُ الْإِفْهَامِ وَحْدَهُ.. ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ فِي تِلْكَ الْمُشْكِلَةِ الَّتِي حَكَمَ فِيهَا دَاوُدُ بِمَا حَكَمَ، وَصَارَ سُلَيْمَانُ إِلَىٰ حُكْمٍ آخَرَ كَانَ مَوْطِنَ الصَّوَابِ فِي الْحُكْمِ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا﴾ [الأَنْبِيَاء: ٧٩].

حَتَّىٰ يَنْفِيَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَقَ بِالْأَذْهَانِ عِنْدَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ قَدْ فُهِّمَ مَا لَمْ يَفْهَمْهُ أَبُوهُ لِبَعْضِ تَنَقُّصٍ لِأَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ أَيْضًا، فَيَنْفِي هَذَا عَنِ الْأَذْهَانِ: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا﴾، وَلَكِنَّ الْمِنْحَةَ مِنَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِمَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.

أَنِينُ التَّائِبِينَ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- مِنْ زَجَلِ الْمُسَبِّحِينَ، وَمَا دُخِلَ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مِنْ بَابٍ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ بَابِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهِ، وَالذُّلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالِانْكِسَارِ لِجَلَالِ عَظَمَتِهِ، فَإِنَّهُ مَا دَخَلَ دَاخِلٌ عَلَىٰ رَبِّهِ مِنْ بَابٍ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ هَذَا الْبَابِ، بِمَعْنَىٰ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا للهِ، وَهَذَا مَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَلْحَظَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحَقِّقَهُ فِي الْحَيَاةِ.

كُنْ عَبْدًا؛ لَسْتَ سَيِّدًا، لَسْتَ أَصِيلًا فِي الْكَوْنِ، أَنْتَ طَارِئٌ عَلَيْهِ.

كُنْ كَمَا خَلَقَكَ اللهُ، قَدْ خَلَقَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَبْدًا، فَكُنْ عَبْدًا كَمَا خَلَقَكَ اللهُ.

مَا خَلَقَكَ سَيِّدًا، وَلَنْ تَكُونَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مُسَخَّرٌ مَرْبُوبٌ مَقْهُورٌ -هَذَا فِي الْجُمْلَةِ-، وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ وَمَنْ خَلَقَ كَذَلِكَ، حَتَّىٰ إِبْلِيسُ؛ فَهُوَ عَبْدٌ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ فِي إِطَارِ الْعُبُودِيَّةِ الْعَامَّةِ، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مَقْهُورٌ مَرْبُوبٌ مُسَخَّرٌ.

وَأَمَّا الْعِبَادَةُ الَّتِي يَأْتِي بِهَا الْعَبْدُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَضَافَهُمُ الرَّحْمَنُ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفُرْقَان: ٦٣]، فَأَضَافَهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ.

وَأَمَّا الْكُلُّ فَهُمْ عَبِيدٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْمَعْنَىٰ الْعَامِّ، وَأَمَّا بِالْمَعْنَىٰ الْخَاصِّ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ يَذِلُّونَ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَيُحَقِّقُونَ الْعُبُودِيَّةَ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَمْدُوحُونَ حَقًّا، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ صِدْقًا.

وَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بِالْوَسَائِلِ الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]، فَخَلَقَنَا اللهُ لِعِبَادَتِهِ؛ فَهَذَا هُوَ الْمَقْصِدُ مِنْ خَلْقِنَا وَخَلْقِ الْخَلْقِ، وَهِيَ عِبَادَةُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَوَسَّلَ بِالْوَسَائِلِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي آتَانَا اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ الْمُتَغَيَّاةِ، مِنْ ذَلِكَ مَا سَنَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ -أَعْنِي: الِاعْتِكَافَ فِي بُيُوتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا-.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْغَايَةُ سَامِيَةً، وَكَانَتِ الْقِمَّةُ عَالِيَةً؛ كَانَ عَبَثُ الشَّيْطَانِ وَكَيْدُهُ مِنْ أَجْلِ صَرْفِ الْخَلْقِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا شَدِيدًا وَضَارِيًا، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَفَطَّنَ لِذَلِكَ، فَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنَ الِاعْتِكَافِ هُوَ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَىٰ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا بِتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ مِنْ شَوَائِبِهِ، وَإِقْبَالِهِ عَلَىٰ اللهِ خَالِقِهِ، وَالِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ عُبُودِيَّةً لَهُ وَاسْتِعَانَةً بِهِ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ مَعَ السَّفَاسِفِ وَمَعَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، فَمَا أَكْثَرَ مَا تَتَأَتَّىٰ هَذِهِ الْأُمُورُ عِنْدَ عَدَمِ الْمُوَاتَاةِ لِمَا هُوَ الْأَصْلُ فِي مَسَائِلِ الِاعْتِكَافِ، لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي مَسْأَلَةِ الِاعْتِكَافِ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ وَحْدَهُ.

وَقَدْ ضُرِبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْخِبَاءُ فِي الْمَسْجِدِ لِيَخْلُوَ فِيهِ بِرَبِّهِ بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ، وتَدَاخُلِ الْمُتَدَاخِلِينَ، وَتَشْوِيشِ الْمُشَوِّشِينَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الصَّوَارِفِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَلَكِنْ مَا لَا يُدْرَكُ كُلُّهُ لَا يُتْرَكُ كُلُّهُ؛ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْكُفَ عَلَىٰ ذَاتِهِ، مُقْبِلًا عَلَىٰ رَبِّهِ، بَعِيدًا عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ، وَبَعِيدًا عَنِ الْخِلَافِ وَالشِّجَارِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ إِنَّمَا جَعَلَ عَلَىٰ

بَابِ الْمَسْجِدِ مَعَ نَعْلِهِ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهُوِيَّتِهِ وَدَخَلَ عَبْدًا للهِ مُجَرَّدًا؛ وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الِاعْتِكَافِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرَاجِعَ الْمَرْءُ مَا كَانَ، مُنْذُ احْتَلَمَ وَصَارَ مُكَلَّفًا، تُكْتَبُ عَلَيْهِ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، أَوْ تُكْتَبُ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُهُ وَلَهُ حَسَنَاتُهُ، إِلَىٰ اللَّحْظَةِ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا مُعْتَكَفَهُ.

فَحِينَئِذٍ يُصَفِّي قَلْبَهُ، وَيُنَقِّي ضَمِيرَهُ، وَيُهَذِّبُ تَصَوُّرَهُ وَفِكْرَهُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحَصِّلَ أَكْبَرَ فَائِدَةٍ مَرْجُوَّةٍ مِنَ انْقِطَاعِهِ فِي بَيْتِ اللهِ لِرَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَىٰ الْمِنْحَةِ الْإِلَهِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ إِذَا خَرَجَ مِنَ اعْتِكَافِهِ مَغْفُورًا لَهُ مُهَذَّبًا مَصْقُولًا كَأَنَّمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ جَدِيدٍ.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَطْرَحَ جَانِبًا كُلَّ خِلَافٍ وَكُلَّ شِجَارٍ، وَأَنْ نَقْطَعَ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ الطَّرِيقَ، فَإِذَا مَا جَاءَتِ الْأَسْئِلَةُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ الْخِلَافِ وَالْمُشَاجَرَةِ وَالنِّزَاعِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَمَا أَشْبَهَ مِنْ تَضْيِيعِ الْأَوْقَاتِ وَذَبْحِهَا، يَنْبَغِي عَلَيْنَا إِذَا مَا جَاءَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَنْ نَصُدَّهُ وَأَنْ نَرُدَّهُ، وَأَنْ نَسْتَقِيمَ عَلَىٰ النَّهْجِ، وَأَنْ نُقِلَّ الْكَلَامَ، وَأَنْ نُقِلَّ الْمَنَامَ، وَأَنْ نُقْبِلَ عَلَىٰ الْمَلِيكِ الْعَلَّامِ بِهِمَّةٍ وَاهْتِمَامٍ، وَأَنْ نَجْتَهِدَ فِي ذِكْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَلَّا نُضَيِّعَ نَفَسًا فَيَصِيرَ فَارِغًا مِنْ ذِكْرٍ للهِ جَلَّ وَعَلَا.

هَذِهِ لَيْلَةٌ مِنَ لَيَالِي الْوِتْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَهِيَ مَظِنَّةٌ أَنْ تَكُونَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**التَمِسُوهَا فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ**»، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَحْدِيدَاتِهَا عَلَىٰ حَسَبِ التَّقْرِيبِ

لَا عَلَىٰ حَسَبِ التَّعْيِينِ، وَلَكِنْ مَنْ قَامَ لَيَالِيَ الْعَشْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَهَذَا فِي الْجُمْلَةِ يَجْمَعُ لَكَ الْأَمْرَ كُلَّهُ.

أَنَّكَ إِذَا مَا قُمْتَ لَيَالِيَ الْعَشْرِ فَحَتْمًا تُصِيبُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ لِأَنَّهَا فِي أَوْتَارِ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَبِحِسْبَةٍ أُخْرَىٰ أَتَتْ مِنَ النَّقِيضِ لِلْحِسْبَةِ الْمَعْلُومَةِ فِي الْأَوْتَارِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَبعًا لِبَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ﷺ، إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَدْ تَكُونُ فِي الْأَشْفَاعِ، كَمَا تَكُونُ -أَيْضًا- فِي الْأَوْتَارِ «**الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَىٰ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَىٰ**»، قَالَ: «لَوْ كَانَ الشَّهْرُ كَامِلًا لَكَانَ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِلْأَشْفَاعِ لَا لِلْأَوْتَارِ»، فِي مَعْنَىٰ مَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ، إِذَنْ هِيَ الْعَشْرُ، وَيَنْبَغِي أَنْ تُنْفَقَ أَوْقَاتُهَا فِي طَاعَةِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»، لَوْ قُمْتَ وَحْدَكَ لَمْ تَتَحَصَّلْ عَلَىٰ هَذَا الْوَعْدِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ؛ يَعْنِي لَوْ قُمْتَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَحْدَكَ مَعَ غَيْرِ إِمَامِكَ، فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّكَ كُتِبَ لَكَ قِيَامُ اللَّيْلَةِ؟ حَتَّىٰ لَوْ قُمْتَهَا، لِأَنَّكَ يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ اللَّيْلَةَ وَلَا تُكْتَبُ لَكَ، وَإِنَّمَا تُكْتَبُ عَلَيْكَ، مَنْ أَدْرَاكَ؟

أَمَّا هَذَا الْوَعْدُ النَّبَوِيُّ الْكَرِيمُ فَهُوَ مُتَحَقِّقٌ لَا مَحَالَةَ: «**مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**».

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ -كَمَا قَالَتِ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا لَيْلَهُ؛ يَعْنِي كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَهِيَ الَّتِي رَوَتْ -أَيْضًا- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا صَلَّىٰ لَيْلَةً إِلَىٰ الْفَجْرِ؛ يَعْنِي: مَا أَحْيَا لَيْلَةً قَطُّ بِالصَّلَاةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا.

إِذَنْ: بِالنَّظَرِ فِي الْحَدِيثَيْنِ، نَخْلُصُ إِلَىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُنَوِّعُ الْعِبَادَةَ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ، وَهَذَا مَقْطُوعٌ بِهِ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَان يُدَارِسُ النَّبِيَّ ﷺ الْقُرْآنَ فِي رَمَضَانَ، فَلَا شَكَّ أَنَّ مُدَارَسَةَ الْقُرْآنِ كَانَتْ تَحْدُثُ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ، فَهَذَا قَدْرٌ مِنَ الزَّمَانِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ مَا شَاءَ اللهُ، وَيُدَارِسُهُ جِبْرِيلُ الْقُرْآنَ، فَمُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ مِنْ وَسَائِلِ إِحْيَاءِ لَيَالِي رَمَضَانَ وَإِحْيَاءِ الْعَشْرِ أَيْضًا.

فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَكُتِبَ لَكَ -بِفَضْلِ اللهِ- قِيَامُ لَيْلَةٍ؛ فَاشْغَلْ بَاقِيَهَا بِمَا يَنْفَعُكَ، تَدَبَّرْ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَتَعَلَّمْ كَيْفَ تَفْهَمُ، تَعَلَّمْ كَيْفَ تَسْبُرُ غَوْرَ الْآيَاتِ، وَكَيْفَ تَصِلُ إِلَىٰ الْمُرَادِ، وَقَدْ كُنْتُ ذَكَرْتُ قَدِيمًا لِإِخْوَانِنَا -بَارَكَ اللهُ فِيهِمْ- عِنْدَ النَّظَرِ فِي بَعْضِ الْأَجْزَاءِ مِنْ تَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَتَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ عَلَىٰ خِلَافِ تَفْسِيرِ الْمُفَسِّرِينَ؛ لِأَنَّهُ يَلْحَظُ الْمَعْنَىٰ وَيُرَكِّزُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَىٰ التَّقْدِيرَاتِ النَّحْوِيَّةِ، وَالتَّخْرِيجَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْفِقْهِيَّةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُرَكِّزُ عَلَيْهِ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ مَطْلُوبٌ، وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ مَكْشُوفًا مِنْ أَقْصَرِ طَرِيقٍ، فَيَأْتِي بِالْآيَاتِ ثُمَّ يُعَقِّبُ الْآيَاتِ بِذِكْرِ مَعْنَاهَا.

فَكُنْتُ أَقُولُ لِإِخْوَانِي: «اقْرَأْ مَا ذَكَرَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ مَعْنَىٰ الْآيَاتِ مَرَّةً وَمَرَّةً وَمَرَّةً، ثُمَّ اكْتُبْ أَنْتَ مَعْنَىٰ الْآيَاتِ عَلَىٰ حَسَبِ مَا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِكَ وَعَقْلِكَ مِنْ قِرَاءَتِكَ لِتَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِتِلْكَ الْآيَاتِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَارِنْ مَا كَتَبْتَهُ بِمَا

كَتَبَهُ هُوَ، وَانْظُرْ هَلِ الْفَجْوَةُ بَيْنَ مَا كَتَبْتَ وَمَا كَتَبَ عَمِيقَةٌ وَغَائِرَةٌ، أَمْ أَنَّ الْمَدَىٰ قَرِيبٌ؟ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَوْ ذَلِكَ فَاقْرَأْ كَلَامَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً، ثُمَّ اكْتُبْ أَنْتَ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَمَا يَزَالُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَقَعَ التَّطَابُقُ -لَا أَقْصِدُ فِي الْحِفْظِ، يَعْنِي أَنْ تَحْفَظَ كَلَامَهُ ثُمَّ تَكْتُبَهُ، فَمَا اسْتَفَدْنَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَكْتُبَ كِتَابَةً مُقَارِبَةً شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ يَقَعَ الْحَافِرُ عَلَىٰ الْحَافِرِ؛ يَعْنِي فِي الْمَعْنَىٰ لَا فِي اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا بِفَهْمِكَ لِمَقَاصِدِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ-.

فَاشْغَلْ نَفْسَكَ بِمِثْلِ هَذَا، تَأَمَّلْ وَتَفَكَّرْ فِي حَالِكَ مُنْذُ بَلَغْتَ الْحُلُمَ، مُنْذُ صِرْتَ مُكَلَّفًا، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ يَسُوءُ وَمَا كَانَ مِنْ ذَنْبٍ، فَلَا تَدْرِي هَلْ غَفَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْ لَمْ يَغْفِرْهُ! ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٦]، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧]؛ مَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ مَا كَانَ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالذُّنُوبِ قَدْ غُفِرَ؟! مَنْ أَدْرَاكَ أَنَّكَ لَا تُحَاسَبُ عَلَيْهِ؟!

مَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقَعُ عَلَىٰ الذَّنْبِ فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا إِلَىٰ أَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي سَخَطِهِ؟!!

لَا تَدْرِي..!

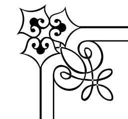
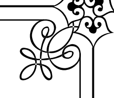
تَأَمَّلْ وَاسْتَعِدْ وَانْظُرْ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ، اشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ بِمَا يَنْفَعُكُمْ، لَا تُضَيِّعُوا أَوْقَاتَكُمْ، وَلَا تُبَدِّدُوا وَتُهْدِرُوا أَعْمَارَكُمْ، وَلَا تَأْخُذُوا فِي الْجِدَالِ وَالْخِلَافِ وَالنِّقَاشِ وَالْمُمَارَاةِ.

دَعُوا هَذَا جَانِبًا، صَفُّوا الْقُلُوبَ وَالْعُقُولَ وَالنُّفُوسَ كَمَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الِاعْتِكَافِ، وَاللهُ يَرْعَاكُمْ، وَيُوَفِّقُ مَسْعَاكُمْ، وَيُسَدِّدُ قَصْدَكُمْ وَخُطَاكُمْ، إِنَّهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

●●●


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن





جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

كَيْفِيَّةُ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

فَبَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْنَا بِالنَّظَرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ خَلُصْنَا بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ إِلَىٰ بَعْضِ النَّمَاذِجِ الَّتِي تُحْتَذَىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، وَهَذِهِ صُورَةٌ تَتَعَلَّقُ بِكَيْفِيَّةِ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ:

لَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهِ تَعَالَىٰ، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تفكَّرُوا فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ»**.

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَوَّاهُ السَّخَاوِيُّ كَمَا فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ»، وَجَوَّدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

«تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفكَّرُوا فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

لَقَدْ عَلَّمَنَا كَيْفِيَّةَ التَّفَكُّرِ، إِنَّهَا حِكْمَةُ التَّفَكُّرِ، وَتَفَكُّرُ الْحِكْمَةِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ صِفَاتِ أُولِي الْأَلْبَابِ، أَيِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَمِنْهَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: **﴿إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون فِي خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾** [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْكُبْرَىٰ بَرَاهِينُ سَاطِعَةٌ عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري فِي البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة:١٦٤].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ نَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِهَا، وَلَا تَنْفَكُّ عَنَّا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَلَا اللَّيْلُ وَلَا النَّهَارُ، فَأَيْنَمَا كُنَّا وَمَتَىٰ كُنَّا؛ فَنَحْنُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَعَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَحِينَمَا نَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْعَظَمَةِ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ نُرَدِّدُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُتَقَدِّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَهُوَ فِعْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ كَانَ يُكَرِّرُ النَّظَرَ فِي السَّمَاءِ، وَكُلَّمَا نَظَرَ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَخَرَجَ، فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ:

﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار**﴾، حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿**فقنا عذاب النار**﴾، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، ثُمَّ قَامَ فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ ﷺ. وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

بَعْدَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ تَتِمَّةَ الدُّعَاءِ، ثُمَّ خَتَمَهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم**﴾ [آل عمران:١٩٥]. وَهَذِهِ بُشْرَىٰ بِالِاسْتِجَابَةِ لِذَلِكَ الدُّعَاءِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَزِيدَنَا تَدَبُّرًا، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَا**».

﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾، وَفِيهَا الْوَعِيدُ لِمَنْ لَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا.

وَقَدْ سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنِ الْآيَةِ نَفْسِهَا: مَا غَايَةُ التَّفَكُّرِ فِيهَا؟ قَالَ -يَعْنِي تِلْكَ الْآيَاتِ-: «يَقْرَأُهُنَّ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ».

وَسَأَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ أَيْضًا فَقَالَ: «سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ عَنْ أَدْنَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الْفِكْرِ فِيهِنَّ، وَمَا يُنْجِيهِ مِنْ هَذَا الْوَيْلِ؟ قَالَ: فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: يَقْرَأُهُنَّ يَعْقِلُهُنَّ».



مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ

وَمِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ مَا ثَبَتَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ تَنْزِيهٍ نَزَّهَ وَسَبَّحَ»، أَخْرَجَهُ الْمَرْوَزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ سُورَةَ النِّسَاءِ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ.

ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَهَذَا مِنْ أَرْقَىٰ الْأَسَالِيبِ فِي التَّمَرُّنِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

«إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ».

قِرَاءَةُ التَّدَبُّرِ، وَتَدَبُّرُ الْقِرَاءَةِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَدِيثَ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مَرْفُوعًا، قَالَ فِي التَّدَبُّرِ:** «الْمُسْتَحَبُّ لِلْقَارِئِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ هَذَا: إِذَا قَرَأَ آيَةَ رَحْمَةٍ أَنْ يَسْأَلَ، أَوْ آيَةَ عَذَابٍ أَنْ يَتَعَوَّذَ، أَوْ آيَةَ تَسْبِيحٍ أَنْ يُسَبِّحَ»، وَبِنَحْوِ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

فَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ: «قَالَ أَصْحَابُنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ: وَيُسْتَحَبُّ هَذَا السُّؤَالُ وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالتَّسْبِيحُ لِكُلِّ قَارِئٍ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ خَارِجًا عَنْهَا.

قَالُوا: وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ فِي صَلَاةِ الْمَأْمُومِ وَالْإِمَامِ وَالْمُنْفَرِدِ؛ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ، فَاسْتَوَوْا فِيهِ، كَالتَّأْمِينِ عَقِبَ الْفَاتِحَةِ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ بَعْضِ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، فَقَدْ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**قل هو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم**﴾ قَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، **قَالَ:** ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ **قَالَ:** «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَهَذَا التَّعَوُّذُ فِيهِ تَفْسِيرٌ لِخُطُورَةِ هَذَا الَّذِي ذَكَرَتْهُ الْآيَةُ، وَتَفَاعُلٌ مَعَ التَّخْوِيفِ الَّذِي فِيهَا.

وَمِنْ صِيَغِ سُؤَالِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَىٰ**».

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يُسْتَنْبَطُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقِفُ عِنْدَ الْآيَةِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الرَّحْمَةِ، وَالْآيَةِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْعَذَابِ، أَوِ الْآيَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا التَّنْزِيهُ، فَإِنَّهُ بَعْدَ الْوُقُوفِ يَدْعُو اللهَ تَعَالَىٰ.

وَكَذَا فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ الْآيَةِ ثُمَّ دَعَا، فَإِذَا عَلِمْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ مَا فِيهِ مِنَ الْوَقْفِ وَالذِّكْرِ، فَسَنَكُونُ إِذَا عَمِلْنَا بِهِ قَدْ تَدَبَّرْنَا مِئَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَتْ تَنْزِيهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمِئَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي كَرَّرَتْ ذِكْرَ الرَّحْمَةِ، وَمِئَاتٍ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْذَرَتْ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ شَامِلٍ، وَإِنْ قَلَّ مَنْ هُوَ بِهِ عَامِلٌ!

* * *





كَيْفِيَّةُ تَسْبِيحِهِ ﷺ

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تَسْبِيحِهِ ﷺ؛ فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**مَا صَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إِلَّا وَكَانَ يَقُولُ فِيهَا: سُبْحَانَكَ اللهُ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي!**».

وَمِنْهُ يُسْتَنْبَطُ تَدَبُّرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّسْبِيحِ، وَاسْتِجَابَتُهُ لِهَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿**فسبح بحمد ربك استغفره**﴾.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿**سبح اسم ربك الأعلىٰ**﴾ [**الأعلىٰ**:١]. قَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ**»، أَوْ قَالَ: «**سُبْحَانَهُ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ».

وَأَمَّا تَدَبُّرُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَكَانَ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَاقْشِعْرَارِ الْجُلُودِ، فَقَدْ سَأَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ جَدَّتَهُ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ»، أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم**﴾ [**الطور:٢٧-٢٨**]. فَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا، وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: نَعَمْ»، أَخْرَجَهُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَقَدْ تَأَثَّرَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَتَرْدِيدِهَا، وَكَثْرَةِ الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ذِكْرِهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا التَّأَثُّرِ.

إِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ هَذِهِ الصِّدِّيقَةِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُورَدُ هَهُنَا لِكَيْ تَكُونَ مِنْ أُولَئِكَ الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم﴾؛ لِتَكُونَ فِي عِدَادِهِمْ.

لَقَدْ تَأَثَّرَتِ الْجِنُّ بِهَذَا الْمَنْهَجِ، وَسَلَكَتْهُ، وَعَمِلَتْ بِهِ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ نُعَيْمٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ مِخْرَاقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ -وَقَدْ ذُكِرَ لَهَا أَنَّ نَاسًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ فِي اللَّيْلَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ-: «أُولَئِكَ قَرَأُوا وَلَمْ يَقْرَأُوا، كُنْتُ أَقُومُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ التَّمَامِ، فَكَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءَ، فَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا تَخَوُّفٌ إِلَّا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَعَاذَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إِلَّا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغِبَ إِلَيْهِ».

لَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ، ثُمَّ تَلَاهُ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ -: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ»، وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ اسْتِحْبَابِ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ وَالتَّرَسُّلِ فِي الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِ هَذْرَمَةٍ، وَلَا سُرْعَةٍ مُفْرِطَةٍ، بَلْ بِتَأَمُّلٍ وَتَفَكُّرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾ [ص:٢٩]. -وَالْهَذْرَمَةُ: السُّرْعَةُ فِي الْكَلَامِ-.

مِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الْمُؤَثِّرَةِ إِذَا الْتَقَىٰ مَعَهَا التَّأَمُّلُ فِي مَقَاصِدِهَا، وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهَا، فَإِنَّهَا تَمَسُّ شِغَافَ الْقَلْبِ، فَيَخْشَعُ وَيَخْضَعُ لِلْخَالِقِ الَّذِي يُخَاطِبُ عِبَادَهُ.

لَقَدْ حَثَّنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَسْأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِيَسْأَلَ اللهَ بِهِ**»، وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ قَارِئٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثُمَّ سَأَلَ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَالْحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي «جَامِعِهِ»، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

◉◉◉

أَمْثِلَةٌ عَلَى التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَدْ عَمِلُوا بِهَذَا التَّدَبُّرِ النَّبَوِيِّ، وَذَلِكَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا رَحْمَة سَأَلَ، أَمَّا الِاسْتِرْجَاعُ فَإِنَّهُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، فَلَعَلَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَصَصِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَائِبِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا.

وَهَكَذَا تَدَبَّرَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، عَلَىٰ هَذَا الْمِنْهَاجِ النَّبَوِيِّ السَّدِيدِ.

أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ الْخَوْلَانِيُّ الشَّامِيُّ، عَنْ صَالِحِ بْنِ سَعِيدٍ الْمُؤَذِّنِ، قَالَ: «بَيْنَا أَنَا وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالسُّوَيْدَاءِ، فَأَذَّنْتُ الْآخِرَةَ، فَصَلَّىٰ، ثُمَّ دَخَلَ الْقَصْرَ، فَقَلَّمَا لَبِثَ أَنْ خَرَجَ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ فَاحْتَبَىٰ، فَافْتَتَحَ بِالْأَنْفَالِ، فَمَا زَالَ يُرَدِّدُهَا وَيَقْرَأُ، كُلَّمَا مَرَّ بِتَخْوِيفٍ تَضَرَّعَ، وَكُلَّمَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ دَعَا، حَتَّىٰ أَذَّنْتُ الْفَجْرَ».

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَهْزٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَسْمَاءُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو يَقْرَأُ فِي صَلَاتِهِ فَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ، فَيَقِفُ عِنْدَهَا، فَيَدْعُو وَيَسْأَلُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَيَدْعُو

وَيَبْكِي، قَالَ: وَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ، فَيَدْعُو وَيَسْتَجِيرُ بِاللهِ ﷻ مِنْهَا»، أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» لَهُ، بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدِهِ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ رَبِيعٍ، عَنِ الصُّنَابِحِيِّ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الْمَغْرِبَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ مَسَّتْ ثِيَابِي ثِيَابَهُ، أَوْ يَدِي ثِيَابَهُ، فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّالِثَةِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**﴾ [**آل عمران**:٨]؛ ذَلِكَ لِأَنَّ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾».

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْفِرْيَابِيِّ قَالَ: «قَرَأَ عَلَيَّ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ كِتَابَهُ إِلَىٰ عَبَّادٍ الْخَوَّاصِ، وَفِيهِ: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أَوْ قُرِئَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَافْهَمِ الْقُرْآنَ، وَتَفَكَّرْ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ».

قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، أُوقِفُهُ عَلَىٰ كُلِّ آيَةٍ، أَسْأَلُهُ: فِيمَ نَزَلَتْ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ؟ وَيَقُولُ لِي: اكْتُبْ، فَأَكْتُبُ».

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «قُلْتُ لِأُمِّ الدَّرْدَاءِ: أَيُّ عِبَادَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَكْثَرُ؟ قَالَتْ: التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ».

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه **قَالَ:** «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ».

وَعَنْ نَافِعٍ: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا قَرَأَ: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ [**الحديد**:١٦]. بَكَىٰ حَتَّىٰ يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ».

وَعَنْ مَهْدِيٍّ قَالَ: «كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ سَمَاعَ قِرَاءَةِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مِنْ كَثْرَةِ بُكَائِهِ».

وَعَنْ إِسْحَقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الطَّبَرِيِّ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَخْوَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَلَا أَرْجَىٰ لِلنَّاسِ مِنْ فُضَيْلٍ، كَانَتْ قِرَاءَتُهُ حَزِينَةً شَهِيَّةً بَطِيئَةً مُتَرَسِّلَةً، كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ إِنْسَانًا، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ يُرَدِّدُ فِيهَا وَيَسْأَلُ».

وَعَنْ زُهَيْرِ بْنِ صَالِحٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: «سَمِعْتُ أَبِي كَثِيرًا يَتْلُو سُورَةَ الْكَهْفِ، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ!».

وَبَيْنَمَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمٌ يُصَلِّي إِذَا اسْتَبْكَىٰ، فَكَثُرَ بُكَاؤُهُ حَتَّىٰ فَزِعَ أَهْلُهُ، وَسَأَلُوهُ، فَاسْتَعْجَمَ عَلَيْهِمْ وَتَمَادَىٰ فِي الْبُكَاءِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ فَجَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟ قَالَ: مَرَّتْ بِي آيَةُ ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾ [**الزمر**:٤٧]، فَبَكَىٰ أَبُو حَازِمٍ مَعَهُ، فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُمَا».

وَلَعَلَّهُ بَقِيَ مُتَأَثِّرًا مُتَفَكِّرًا مُتَدَبِّرًا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ حَتَّىٰ مَوْتِهِ، فَقَدْ رَوَىٰ عِكْرِمَةُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ أَنَّهُ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَجْزَعُ؟

قَالَ: أَخْشَىٰ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾، فَأَنَا أَخْشَىٰ أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللهِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: «قَرَأَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: ﴿**أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا**﴾ [**الكهف**:٣٧]. وَهُوَ يُصَلِّي صَلَاةَ اللَّيْلِ، يَنْتَحِبُ وَيُرَدِّدُهَا».

وَقَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرُّؤَاسِيُّ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي صَالِحٍ وَرَجُلٌ يَقْرَأُ: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ [**الأنبياء:١٠٣**]، فَالْتَفَتَ عَلِيٌّ إِلَىٰ أَخِيهِ الْحَسَنِ، وَقَدِ اخْضَرَّ وَاصْفَرَّ، فَقَالَ: يَا حَسَنُ! إِنَّهَا أَفْزَاعٌ فَوْقَ أَفْزَاعٍ.

وَرَأَيْتُ الْحَسَنَ أَرَادَ أَنْ يَصِيحَ، ثُمَّ جَمَعَ ثَوْبَهُ فَعَضَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ سَكَنَ عَنْهُ، وَقَدْ ذَبُلَ فَمُهُ وَاخْضَرَّ وَاصْفَرَّ».

وَرَوَىٰ ابْنُ عَبْدِ الْهَادِي عَنْ صَدَقَةَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَقَابِرِيِّ، قَالَ: «كَانَ لِي خَتْمَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَتَدَبَّرُ فِيهَا الْقُرْآنَ».

خَتْمَةُ تَدَبُّرٍ سِوَىٰ مَا يَكُونُ مِنَ التَّعَبُّدِ بِالتَّرْتِيلِ، هَذَا نَهْجُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ يَهُذُّونَ الْقُرْآنَ هَذًّا هَذَّ الشِّعْرِ، وَيَنْثُرُونَهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَيَقْرَأُ أَحَدُهُمْ خَتْمَةً مِنْ فَاتِحَتِهَا إِلَىٰ خَاتِمَتِهَا، وَلَا يَدْرِي شَيْئًا مِمَّا قَرَأَ، وَلَا يَفْهَمُ حَرْفًا مِمَّا تَلَاهُ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

إِنَّهُ لَا عِصْمَةَ لِلْأُمَّةِ مِنَ الضَّلَالِ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي**».

إِذَنْ؛ الْعِصْمَةُ مِنَ الضَّلَالِ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا كَانَتْ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ لَا تَفْهَمُ شَيْئًا فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا تَعِي شَيْئًا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَيْفَ تُعْصَمُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ؟

فَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بِهَذَا النَّهْجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُوَ: مُمَارَسَةُ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمُحَاوَلَةُ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَفَهُّمِ آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مِثَالٌ آخَرُ فِيهِ تَدَبُّرٌ لِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَاسْتِجْلَاءٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي وَالْعِبَرِ وَالْأَحْكَامِ وَالْآدَابِ الَّتِي بِهَا تَزْكُو النُّفُوسُ، وَبِهَا يَظْهَرُ أَثَرُ التَّدَبُّرِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِثَالًا لِلتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَمَّا ذَكَرَ زَادَ الْمُهَاجِرِ إِلَىٰ رَبِّهِ بِطَاعَتِهِ -سُبْحَانَهُ- وَتَجَنُّبِ مَنَاهِيهِ، وَطَرِيقَةَ ذَلِكَ، فَقَالَ:

«وَرَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ دَوَامُ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ بِآيَاتِ اللهِ، حَيْثُ تَسْتَوْلِي عَلَىٰ الْفِكْرِ، وَتَشْغَلُ الْقَلْبَ، فَإِذَا صَارَتْ مَعَانِي الْقُرْآنِ مَكَانَ الْخَوَاطِرِ مِنْ قَلْبِهِ، وَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ، وَصَارَ لَهُ التَّصَرُّفُ، وَصَارَ هُوَ الْأَمِيرَ الْمُطَاعَ أَمْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَسْتَقِيمُ لَهُ سَيْرُهُ، وَيَتَّضِحُ لَهُ الطَّرِيقُ، وَتَرَاهُ سَاكِنًا وَهُوَ يُبَارِي الرِّيحَ، ﴿وترىٰ الجبال تحسبها هامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّكَ قَدْ أَشَرْتَ إِلَىٰ مَقَامٍ عَظِيمٍ، فَافْتَحْ لِي بَابَهُ، وَاكْشِفْ لِي حِجَابَهُ، وَكَيْفَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمُهُ، وَالْإِشْرَافُ عَلَىٰ عَجَائِبِهِ وَكُنُوزِهِ، وَهَذِهِ تَفَاسِيرُ الْأَئِمَّةِ بِأَيْدِينَا، فَهَلْ فِي الْبَيَانِ سِوَىٰ مَا ذَكَرُوهُ؟

قُلْتُ: سَأَضْرِبُ لَكَ أَمْثَالًا تُحْتَذَىٰ تَجْعَلُهَا إِمَامًا لَكَ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلاما قوم منكرون * فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليمٍ * فأقبلت امرأته فِي صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم**﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

فَعَهْدِي بِكَ إِذَا قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَطَلَّعْتَ إِلَىٰ مَعْنَاهَا، وَتَدَبَّرْتَهَا، تَتَطَلَّعُ مِنْهَا عَلَىٰ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَتَوْا إِبْرَاهِيمَ فِي صُورَةِ الْأَضْيَافِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، ﴿**وبشروه بغلام عليم**﴾، وَأَنَّ امْرَأَتَهُ عَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ أَنَّ اللهَ قَالَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تَدَبُّرُكَ غَيْرَ ذَلِكَ.

فَاسْمَعِ الْآنَ بَعْضَ مَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْرَارِ، وَكَمْ قَدْ تَضَمَّنَتْ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَكَيْفَ جَمَعَتِ الضِّيَافَةَ وَحُقُوقَهَا، وَمَا تَضَمَّنَتْ مِنَ الرَّدِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ، وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ عِلْمًا عَظِيمًا وَعِلْمًا جَلِيلًا مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي رَدُّهَا إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

وَكَيْفَ أَشَارَتْ إِلَىٰ دَلِيلِ إِمْكَانِ الْمَعَادِ بِأَلْطَفِ إِشَارَةٍ وَأَوْضَحِهَا، ثُمَّ أَفْصَحَتْ عَنْ وُقُوعِهِ.

وَكَيْفَ تَضَمَّنَتِ الْإِخْبَارَ عَنْ عَدْلِ الرَّبِّ وَانْتِقَامِهِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ.

وَتَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَبَيَّنَتِ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا.

وَتَضَمَّنَتْ بَقَاءَ آيَاتِ الرَّبِّ الدَّالَّةَ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَعَلَىٰ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَتَضَمَّنَتْ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا كُلِّهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ خَوْفٌ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا، وَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُ الْآخِرَةَ وَلَا يُؤْمِنُ بِهَا فَلَا يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْآيَاتِ.

فَاسْمَعِ الْآنَ بَعْضَ تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ [**الذاريات**:٢٤].

افْتَتَحَ سُبْحَانَهُ الْقِصَّةَ بِصِيغَةٍ مَوْضُوعَةٍ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا حَقِيقَةَ الِاسْتِفْهَامِ؛ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ (هَلْ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَىٰ (قَدْ) الَّتِي تَقْتَضِي التَّحْقِيقَ.

وَلَكِنْ فِي وُرُودِ الْكَلَامِ فِي مِثْلِ هَذَا بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَمَعْنًىٰ بَدِيعٌ، فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ الْمُخَاطَبَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ يَنْبَغِي الِاعْتِنَاءُ بِهِ وَإِحْضَارُ الذِّهْنِ بِهِ صَدَّرَ الْكَلَامَ لَهُ بِأَدَاةِ الِاسْتِفْهَامِ؛ لِتَنْبِيهِ سَمْعِهِ وَذِهْنِهِ لِلْمُخْبَرِ بِهِ، فَتَارَةً يُصَدِّرُهُ بِـ(أَلَا)، وَتَارَةً يُصَدِّرُهُ بِـ(هَلْ)، فَيَقُولُ: هَلْ عَلِمْتَ مَا كَانَ مِنْ كَيْتَ وَكَيْتَ؟ إِمَّا مُذَكِّرًا بِهَا، إِمَّا وَاعِظًا لَهُ مُخَوِّفًا، وَإِمَّا مُنَبِّهًا عَلَىٰ عَظَمَةِ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَإِمَّا مُقَرِّرًا لَهُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث موسىٰ**﴾ [**النازعات:١٥**].

وَ﴿**هل أتاك نبأ الخصم**﴾ [**ص:٢١**].

وَ﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾ [**الغاشية:١**].

وَ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ [**الذاريات:٢٤**]. مُتَضَمِّنٌ لِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْقَصَصِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهَا وَمَعْرِفَتِهَا، وَمَعْرِفَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ، فَفِيهِ أَمْرٌ آخَرُ وَهُوَ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ إِتْيَانَ هَذَا إِلَيْكَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ، فَهَلْ أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ إِعْلَامِنَا وَإِرْسَالِنَا وَتَعْرِيفِنَا، أَمْ لَمْ يَأْتِكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِنَا؟

فَانْظُرْ ظُهُورَ هَذَا الْكَلَامِ بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ، وَتَأَمَّلْ عِظَمَ مَوْقِعِهِ مِنْ جَمِيعِ مَوَارِدِهِ، يَشْهَدْ أَنَّهُ مِنَ الْفَصَاحَةِ فِي ذِرْوَتِهَا الْعُلْيَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِثَنَائِهِ عَلَىٰ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ فِي ﴿**المكرمين**﴾ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِكْرَامُ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ، فَفِيهِ مَدْحُ إِبْرَاهِيمَ بِإِكْرَامِ الضَّيْفِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ عِنْدَ اللهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**بل عباد مكرمون**﴾، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ أَيْضًا لِتَعْظِيمِ خَلِيلِهِ وَمَدْحِهِ، إِذْ جَعَلَ مَلَائِكَتَهُ الْمُكْرَمِينَ أَضْيَافًا لَهُ، فَعَلَىٰ كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ مَدْحُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**قالوا سلاما قال سلام**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِمَدْحٍ آخَرَ لِإِبْرَاهِيمَ؛ حَيْثُ رَدَّ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ أَحْسَنَ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ، فَإِنَّ تَحِيَّتَهُمْ بِاسْمٍ مَنْصُوبٍ مُتَضَمِّنٍ لِجُمْلَةٍ فِعْلِيَّةٍ تَقْدِيرُهُ: سَلَّمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا.

وَتَحِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ بِاسْمٍ مَرْفُوعٍ مُتَضَمِّنٌ لِجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ تَقْدِيرُهُ: سَلَامٌ دَائِمٌ، أَوْ ثَابِتٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ عَلَيْكُمْ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الِاسْمِيَّةَ تَقْتَضِي الثُّبُوتَ وَاللُّزُومَ، وَالْفِعْلِيَّةَ تَقْتَضِي التَّجَدُّدَ وَالْحُدُوثَ، فَكَانَتْ تَحِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَكْمَلَ وَأَحْسَنَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿**قوم منكرون**﴾، وَفِي هَذَا مِنْ حُسْنِ مُخَاطَبَةِ الضَّيْفِ.

وَالتَّذَمُّمُ مِنْهُ وَجْهَانِ فِي الْمَدْحِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَذَفَ الْمُبْتَدَأَ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنْتُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَتَذَمَّمَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُوَاجِهْهُمْ بِهَذَا الْخِطَابِ لِمَا فِيهِ مِنَ الِاسْتِيحَاشِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُهُ، بَلْ يَقُولُ: «**وَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَيَفْعَلُونَ كَذَا؟**».

الثَّانِي مِنَ الْوَجْهَيْنِ: قَوْلُهُ: ﴿**قوم منكرون**﴾؛ فَحَذَفَ فَاعِلَ الْإِنْكَارِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَنْكَرَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿**نَكِرَهُمْ**﴾، وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**مُنْكَرُونَ**﴾ أَلْطَفُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: أَنْكَرْتُكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون**﴾ مُتَضَمِّنٌ وُجُوهًا مِنَ الْمَدْحِ وَآدَابِ الضِّيَافَةِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ:

مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿**فراغ إلىٰ أهله**﴾، وَالرَّوَغَان: الذَّهَاب بِسرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْمُبَادَرَةَ إِلَىٰ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَعَ الِاخْتِفَاءِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَرْكَ تَخْجِيلِهِ، وَأَلَّا يُعَرِّضَهُ لِلْحَيَاءِ.

هَذَا بِخِلَافِ مَنْ يَتَثَاقَلُ وَيَتَبَادَرُ عَلَىٰ ضَيْفِهِ، ثُمَّ يَبْرُزُ بِمَرْأَىٰ مِنْهُ، وَيَحُلُّ صُرَّةَ النَّفَقَةِ، وَيَزِنُ مَا يَأْخُذُ، وَيَتَنَاوَلُ الْإِنَاءَ بِمَرْأَىٰ مِنْهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَضَمَّنُ تَخْجِيلَ الضَّيْفِ وَحَيَاءَهُ، فَلَفْظَةُ (رَاغَ) تَنْفِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**إلىٰ أهله**﴾ مَدْحٌ آخَرُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ أَنَّ كَرَامَةَ الضَّيْفِ مُعَدَّةٌ، وَهِيَ حَاصِلَةٌ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مِنْ جِيرَانِهِ، وَلَا يَذْهَبَ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ إِذَا قَرَىٰ الضَّيْفَ، فَإِنَّ قِرَىٰ الضَّيْفِ حَاصِلٌ عِنْدَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فجاء بعجل سمين**﴾ **يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَدْحِ**:

أَحَدُهَا: خِدْمَةُ ضَيْفِهِ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ بِهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ بِنَفْسِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ جَاءَهُمْ بِحَيَوَانٍ تَامٍّ، لَمْ يَأْتِهِمْ بِبَعْضِهِ؛ لِيَتَخَيَّرُوا مِنْ أَطْيَبِ لَحْمِهِ مَا شَاؤُوا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ سَمِينٌ لَيْسَ بِمَهْزُولٍ، وَهَذَا مِنْ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ: وَلَدُ الْبَقَرِ السَّمِينُ، فَإِنَّهُمْ يُعْجَبُونَ بِهِ، فَمِنْ كَرَمِهِ هَانَ عَلَيْهِ ذَبْحُهُ وَإِحْضَارُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**إليهم**﴾ مُتَضَمِّنٌ الْمَدْحَ وَأَدَبًا آخَرَ وَهُوَ: إِحْضَارُ الطَّعَامِ بَيْنَ يَدَيِ الضَّيْفِ، بِخِلَافِ مَنْ يُهَيِّئُ الطَّعَامَ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ يُقِيمُ ضَيْفَهُ فَيُورِدُهُ عَلَىٰ طَعَامِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ألا تأكلون**﴾ فِيهِ مَدْحٌ وَأَدَبٌ آخَرُ، فَإِنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿**ألا تأكلون**﴾ وَهَذِهِ صِيغَةُ عَرْضٍ مُؤْذِنَةٌ بِالتَّلَطُّفِ بِخِلَافِ مَنْ يَقُولُ: ضَعُوا أَيْدِيَكُمْ فِي الطَّعَامِ، كُلُوا، تَقَدَّمُوا، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فأوجس منهم خيفة**﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا رَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ طَعَامِهِ أَضْمَرَ مِنْهُمْ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ شَرٌّ، فَإِنَّ الضَّيْفَ إِذَا أَكَلَ مِنْ طَعَامِ رَبِّ الْمَنْزِلِ اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَأَنِسَ بِهِ.

فَلَمَّا عَلِمُوا مِنْهُ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿**لا تخف وبشروه بغلام عليم**﴾ وَهَذَا الْغُلَامُ إِسْحَقُ لَا إِسْمَاعِيلُ؛ لِأَنَّ امْرَأَتَهُ عَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: ﴿**عجوز عقيم**﴾ لَا يُولَدُ لِمِثْلِي؛ فَأَنَّىٰ لِي بِالْوَلَدِ؟!

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ مِنْ سُرِّيَّتِهِ هَاجَرَ، وَكَانَ بِكْرَهُ وَأَوَّلَ وَلَدِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ هَذَا فِي سُورَةِ هُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب**﴾، وَهَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ نَفْسُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وأقبلت امرأته فِي صرة فصكت وجهها**﴾ فِيهِ بَيَانُ ضَعْفِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ، وَفِيهِ عَدَمُ ثَبَاتِهَا، إِذْ بَادَرَتْ إِلَىٰ النُّدْبَةِ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا عِنْدَ هَذَا الْإِخْبَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عجوز عقيم﴾ فِيهِ حُسْنُ أَدَبِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ خِطَابِ الرِّجَالِ، وَاقْتِصَارُهَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَىٰ مَا يَتَأَدَّىٰ بِهِ الْحَاجَةُ، فَإِنَّهَا حَذَفَتِ الْمُبْتَدَأَ، وَلَمْ تَقُلْ: أَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ، وَاقْتَصَرَتْ عَلَىٰ ذِكْرِ السَّبَبِ الدَّالِ عَلَىٰ عَدَمِ الْوِلَادَةِ، لَمْ تَذْكُرْ غَيْرَهُ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ هُودٍ، فَذَكَرَتِ السَّبَبَ الْمَانِعَ مِنْهَا وَمِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَصَرَّحَتْ بِالْعَجَبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ مُتَضَمِّنٌ لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْقَوْلِ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ مُتَضَمِّنٌ لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مَصْدَرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَجَمِيعُ مَا خَلَقَهُ سُبْحَانَهُ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ وَشَرْعُهُ مَصْدَرُهُ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ مُتَضَمِّنَانِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

فَالْعِلْمُ يَتَضَمَّنُ الْحَيَاةَ وَلَوَازِمَ كَمَالِهَا مِنَ الْقَيُّومِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْبَقَاءِ، وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَسَائِرِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَسْتَلْزِمُهَا الْعِلْمُ التَّامُّ.

وَالْحِكْمَةُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْإِرَادَةِ وَالْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِحْسَانَ وَالْجُودَ وَالْبِرَّ، وَوَضْعَ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ وُجُوهِهَا، وَيَتَضَمَّنُ الْإِرْسَالَ، وَإِثْبَاتَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

كُلُّ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ اسْمِهِ الْحَكِيمِ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَطَالِبِ الْعَظِيمَةِ بِصِفَةِ الْحِكْمَةِ، مَعَ الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ

عَبَثًا وَسُدًىٰ وَبَاطِلًا، فَحِينَئِذٍ صِفَةُ حِكْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ الشَّرْعَ وَالْقَدَرَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ؛ لِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ الْمَعَادَ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَرَدَ بِتَفْصِيلِ مَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَىٰ إِثْبَاتِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ وَجَدَهَا دَالَّةً عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَضْرِبُ لَهُمُ الْأَمْثَالَ الْمَعْقُولَةَ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْمَعَادِ تَارَةً، وَوُقُوعِهِ أُخْرَىٰ، فَيَذْكُرُ أَدِلَّةَ الْقُدْرَةِ الدَّالَّةَ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْمَعَادِ، وَأَدِلَّةَ الْحِكْمَةِ الْمُسْتَلْزِمَةَ لِوُقُوعِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَدِلَّةَ الْمَعَادِ فِي الْقُرْآنِ وَجَدَهَا كَذَلِكَ، مُغْنِيَةً -بِحَمْدِ اللهِ- عَنْ غَيْرِهَا، كَافِيَةً شَافِيَةً، مُوصِلَةً إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ بِسُرْعَةٍ، مُتَضَمِّنَةً لِلْجَوَابِ عَنِ الشُّبَهِ الْعَارِضَةِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِنْ سَاعَدَ التَّوْفِيقُ كَتَبْتُ فِي ذَلِكَ سِفْرًا كَبِيرًا؛ لِمَا رَأَيْتُ فِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ مِنَ الشِّفَاءِ وَالْهُدَىٰ، وَسُرْعَةِ الْإِنْصَافِ وَحُسْنِ الْبَيَانِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الشُّبَهِ، وَالْجَوَابِ عَنْهَا بِمَا يَنْفَلِجُ لَهُ الصَّدْرُ وَيَكْثُرُ مَعَهُ الْيَقِينُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَإِنَّهَا عَلَىٰ الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ التَّفْصِيلِ».

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ صُدُورَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ عَنْ عِلْمِ الرَّبِّ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتَصَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِذِكْرِ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ لِاقْتِضَائِهِمَا لِتَعَجُّبِ النُّفُوسِ مِنْ تَوَلُّدِ مَوْلُودٍ بَيْنَ أَبَوَيْنِ لَا يُولَدُ لِمِثْلِهِمَا عَادَةً، وَخَفَاءِ هَذَا الْعِلْمِ بِسَبَبِ هَذَا الْإِيلَادِ، وَكَوْنِ الْحِكْمَةِ اقْتَضَتْ جَرَيَانَ هَذِهِ الْوِلَادَةِ عَلَىٰ غَيْرِ الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ.

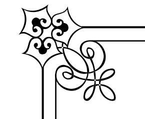
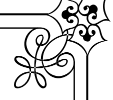
فَذَكَرَ فِي الْآيَةِ اسْمَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ الْمُتَضَمِّنِ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِسَبَبِ هَذَا الْخَلْقِ، وَغَايَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، فِي وَضْعِهِ مَوْضِعَهُ، مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِمُوجِبِ الْحِكْمَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ الْمَلَائِكَةِ فِي إِرْسَالِهِمْ لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَإِرْسَالِ الْحِجَارَةِ الْمُسَوَّمَةِ عَلَيْهِمْ، وَفِي هَذَا مَا يَتَضَمَّنُ تَصْدِيقَ رُسُلِهِ، وَإِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، وَالدَّلَالَةَ عَلَىٰ الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ لِوُقُوعِهِ عِيَانًا فِي هَذَا الْعَالَمِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ لِصِحَّةِ مَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

•••


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن


جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الْأَمْثِلَةِ عَلَى التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦].

فَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِسِرٍّ اقْتَضَاهُ الْكَلَامُ، فَإِنَّ الْإِخْرَاجَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ النَّجَاةِ، فَهُوَ إِخْرَاجُ نَجَاةٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مُخْتَصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلرُّسُلِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ لَمَّا كَانَ الْمَوْجُودُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أَوْقَعَ اسْمَ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ امْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتْ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَهِيَ مُسْلِمَةٌ فِي الظَّاهِرِ، فَكَانَتْ فِي الْبَيْتِ الْمَوْجُودِينَ لَا فِي الْقَوْمِ النَّاجِينَ.

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ خِيَانَةِ امْرَأَةِ لُوطٍ، وَخِيَانَتُهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَىٰ أَضْيَافِهِ، وَقَلْبُهَا مَعَهُمْ، وَلَيْسَتْ خِيَانَةَ فَاحِشَةٍ، فَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ظَاهِرًا، وَلَيْسَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ النَّاجِينَ.

وَمَنْ وَضَعَ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ وَأَلْفَاظَهُ مَوَاضِعَهَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنْ أَسْرَارِهِ وَحِكَمِهِ مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

وَبِهَذَا خَرَجَ الْجَوَابُ عَنِ السُّؤَالِ الْمَشْهُورِ وَهُوَ: أَنَّ الْإِسْلَامَ أَعَمُّ مِنَ الْإِيمَانِ، فَكَيْفَ اسْتِثْنَاءُ الْأَعَمِّ مِنَ الْأَخَصِّ، وَقَاعِدَةُ الِاسْتِثْنَاءِ تَقْتَضِي الْعَكْسَ؟ وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَثْنَيْنَ مِمَّا وَقَعَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْوُجُودِ، وَالْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ مُسْتَثْنَيْنَ مِنْهُ، بَلْ هُمُ الْمُخْرَجُونَ النَّاجُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم**﴾ [**الذاريات:٣٧**]. فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ آيَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَجَائِبَهُ الَّتِي فَعَلَهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَأَبْقَىٰ آثَارَهَا الدَّالَّةَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ، إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهَا مَنْ يُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ وَيَخْشَىٰ عَذَابَ اللهِ تَعَالَىٰ.

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿**إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾ [**هود:١٠٣**].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**سيذكر من يخشىٰ**﴾ [**الأعلىٰ:١٠**].

فَإِنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ غَايَتُهُ أَنْ يَقُولَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَصَابَهُمُ الدَّهْرُ، كَمَا أَصَابَ غَيْرَهُمْ، وَمَا زَالَ الدَّهْرُ فِيهِ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ.

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِالْآخِرَةِ وَأَشْفَقَ مِنْهَا فَهُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظِ.

وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّنْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ، عَلَىٰ تَفَاوُتِ الْأَفْهَامِ فِي مَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ، وَاسْتِنْبَاطِ أَسْرَارِهِ وَآثَارِ كُنُوزِهِ.

وَيُعْتَبَرُ بِهَذَا سِوَاهُ، وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

ذَكَرَ هَذَا الْمَثَلَ فِي التَّدَبُّرِ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي «الرِّسَالَةِ التَّبُوكِيَّةِ»، وَهِيَ الْمَعْرُوفَةِ بِـ «زَادُ الْمُهَاجِرِ إِلَىٰ رَبِّهِ». -رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً-.

فَهَذَا مِثَالٌ ضَرَبَهُ هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ.

وَقَالَ لَكَ مَا سَتَقُولُهُ إِنْ سُئِلْتَ عَنِ الْآيَاتِ، وَأَنَّكَ سَتَقُولُ كَذَا وَكَذَا، كَمَا فِي صَدْرِ كَلَامِهِ بِضَرْبِ مِثَالِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثُمَّ شَرَعَ وَهُوَ يُبَيِّنُ لَكَ مَا فَتَحَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْكُنُوزِ عِنْدَ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَظَرْتَ -أَنْتَ- فِيهَا، وَتَعَامَلْتَ مَعَهَا، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ مِنْ فَهْمِكَ وَتَدَبُّرِكَ لَهَا.

وَشَتَّانَ بَيْنَ مَا نَسْتَخْرِجُهُ نَحْنُ وَمَا يَسْتَخْرِجُهُ مِثْلُ هَذَا الرَّاسِخِ الَّذِي عَلَّمَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذِهِ الْأَسْرَارَ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكُنُوزَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ [**البقرة:١٨٦**].

مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ وَجَدَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ لِنَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْ: إِنِّي قَرِيبٌ، بَلْ قَالَ: ﴿**فإني قريب**﴾؛ لِيَدُلَّ عَلَىٰ تَعْظِيمِ حَالِ الدُّعَاءِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: عَبْدِي! أَنْتَ لَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ الْوَاسِطَةِ إِلَّا فِي طَرِيقِ تَحْصِيلِ الْهِدَايَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِي، وَأَمَّا فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ فَلَا وَاسِطَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

وَهَذَا أَعْظَمُ رَدٍّ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ قَلَّدَهُمْ مِنَ الْقَبْرِيِّينَ.

ثَانِيهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني**﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فإني قريب**﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ لِلْعَبْدِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَقُلْ: فَالْعَبْدُ مِنِّي قَرِيبٌ، بَلْ قَالَ: أَنَا مِنْهُ قَرِيب، وَفِيهِ سِرٌّ نَفِيسٌ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ مَخْلُوق مُمْكِنُ الْوُجُودِ، وَمَحْتُومٌ عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ، فَلَا يُمْكِنُهُ الْقُرْبُ مِنَ الرَّبِّ، أَمَّا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْقَادِرُ مِنْ أَنْ يُقَرِّبَ مِنَ الْعَبْدِ كَمَا هُوَ قَرِيبٌ مِنْهُ بِعِلْمِهِ، بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ، فَالْقُرْبُ مِنَ اللهِ لَا مِنَ الْعَبْدِ، فَيَحْصُلُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ قُرْبُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، إِذَا دَعَاهُ بَعْدَ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَالِاسْتِجَابَةِ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، فَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: «**فَإِنِّي قَرِيبٌ**».

رَابِعُهَا: أَنَّ الدَّاعِيَ مَا دَامَ خَاطِرُهُ مُنْشَغِلًا بِغَيْرِ اللهِ، مِنَ الْمَحْبُوبَاتِ وَالْمَعْشُوقَاتِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي دُعَائِهِ عَلَىٰ الْحَالِ الَّتِي يَرْضَاهَا اللهُ، وَيَطْلُبُهَا مِنَ الْعَبْدِ، فَلَا يَحْظَىٰ بِالْقُرْبِ حَتَّىٰ يَسْتَفْرِغَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ، وَيَكُونَ اللهُ غَايَةَ قَصْدِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ لَا تَحْجُبَهُ الْأَعْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ عَنِ اللهِ.

فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع**﴾ مِنْ رَكَائِزِ التَّوْحِيدِ وَدَعَائِمِهِ؛ إِذْ فِيهَا تَوْجِيهٌ لِلسَّائِلِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِالِاسْتِجَابَةِ لِلَّهِ، إِذَا حَصَلَ هَذَا اكْتَسَبَ الْعَبْدُ فِي دُعَائِهِ سَكِينَةً فِي نَفْسِهِ،

وَانْشِرَاحًا فِي صَدْرِهِ، وَصَبْرًا يُسَهِّلُ عَلَيْهِ مَا يُلَاقِيهِ، إِذَا لَمْ يَحْظَ بِسُرْعَةِ الِاسْتِجَابَةِ؛ فَكَيْفَ إِذَا حَظِيَ بِهَا؟!

وَهَذَا نَمُوذَجٌ آخَرُ: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فِي السماوات وما فِي الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**﴾ [البقرة:٢٥٥].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَة تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَكَانَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ أَفْضَلَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهَا خَبَرٌ عَنِ اللهِ، فَمَا كَانَ مِنَ الذِّكْرِ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهَذِهِ الْآيَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْوَاعِ».

فِي «صَحِيح مُسْلِمٍ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَا أُبَيُّ! أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمَ؟ قَالَ: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ!**».

فَأَخْبَرَ بِهَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهَا أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي ذَاكَ أَنَّهَا أَعْلَىٰ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَهَذَا غَايَةُ الْفَضْلِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ مُجْتَمِعٌ فِي الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، فَإِذَا كَانَتْ أَعْظَمَ الْقُرْآنِ وَأَعْلَىٰ الْإِيمَانِ ثَبَتَ لَهَا غَايَةُ الرُّجْحَانِ.

وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ -كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ- أَعْظَمُ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ بِآيَاتِهِ وَسُوَرِهِ مِنْ حَيْثُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ، وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا؛ لَا يَتَفَاضَلُ، فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ كَلَامُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ؛ فَآيَةُ الْكُرْسِيِّ أَعْظَمُ آيِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ؛ لِأَنَّهَا تَتَكَلَّمُ عَنِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ وَصِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَكَذَلِكَ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ، فَإِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، هَذَا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ، وَهِيَ:

-تَوْحِيدُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

-وَبَيَانُ مَطْلُوبِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ خَلْقِهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

- وَمَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْ قَصَصِ السَّابِقِينَ مِنَ النَّاجِينَ وَالْهَالِكِينَ، مِنَ الْمَرْحُومِينَ وَالْمُعَذَّبِينَ.

فَثُلُثُ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ حَوَتْهَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا، فَحِينَئِذٍ صَارَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا فَلَا يَتَفَاضَلُ مِنْ حَيْثُ هَذِهِ النَّظْرَةِ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ وَالسُّوَرُ فَيَقَعُ التَّفَاضُلُ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

* نَمُوذَجٌ آخَرُ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ [الإسراء:٣٢]. وَقَوْلَهُ فِي اللِّوَاطِ: ﴿أتأتون الفاحشة﴾؛ تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَّرَ الْفَاحِشَةَ بِالزِّنَا، أَيْ: هِيَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَّفَهَا فِي اللِّوَاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدٌ الرَّجُلُ، وَنِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ.

أَيْ: أَتَأْتُونَ الْخَصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ؟! فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنْ ذِكْرِهَا، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الِاسْمُ إِلَىٰ غَيْرِهَا.

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَىٰ: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ [الشعراء:١٩]. أَيْ: الْفِعْلَةَ الشَّنْعَاءَ الظَّاهِرَةَ الْمَعْلُومَةَ لِكُلِّ أَحَدٍ.

كَذَلِكَ فِي تَصْدِيرِ الْمُعَاتَبَةِ بِالْعَفْوِ، فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتىٰ يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة:٤٣].

فَتَصْدِيرُ الْمُعَاتَبَةِ بِالْعَفْوِ: ﴿عفا الله عنك﴾ تَخْفِيفٌ مِنْ وَطْأَةِ الْعِتَابِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ عَاتَبَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ.

رَوَىٰ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَوْنٍ قَالَ: سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ، فَقَالَ: ﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾.

كَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**هو الذي يسيركم فِي البر والبحر حتىٰ إذا كنتم فِي الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾ [**يونس:٢٢**].

الْمُتَدَبِّرُ لِكِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا يَجِدُ أَنَّ لَفْظَ الرِّيَاحِ بِالْجَمْعِ يَرِدُ فِي مَقَامِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالرِّزْقِ وَالْخَيْرِ، وَلَفْظُ الرِّيحِ بِالْإِفْرَادِ يَأْتِي فِي مَقَامِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ وَالْهَلَاكِ.

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتىٰ إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتىٰ لعلكم تذكرون**﴾ [**الأعراف:٥٧**].

وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بإذن ربها فأصبحوا لا يرىٰ إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين**﴾ [**الأحقاف:٢٤-٢٥**].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَأَمَّلْ كَيْفَ اطَّرَدَ هَذَا إِلَّا فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿**هو الذي يسيركم فِي البر والبحر حتىٰ إذا كنتم فِي الفلك وجرين بهم**

بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ [يونس:٢٢].

فَذَكَرَ رِيحَ الرَّحْمَةِ الطَّيِّبَةِ بِلَفْظِ الْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّ تَمَامَ الرَّحْمَةِ هُنَاكَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِوَحْدَةِ الرِّيحِ لَا بِاخْتِلَافِهَا، فَإِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَسِيرُ إِلَّا بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ تُسَيِّرُهَا، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ عَلَيْهَا الرِّيَاحُ وَتَصَادَمَتْ وَتَقَابَلَتْ فَهُوَ سَبَبُ الْهَلَاكِ، فَالْمَطْلُوبُ هُنَاكَ رِيحٌ وَاحِدَةٌ لَا رِيَاحٌ.

وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِوَصْفِهَا بِالطَّيِّبِ؛ دَفْعًا لِتَوَهُّمِ أَنْ تَكُونَ رِيحًا عَاصِفًا، بَلْ هِيَ مِمَّا يُفْرَحُ بِهَا لِطِيبِهَا؛ فَلْيُنَزِّهِ الْفَطِنُ بَصِيرَتَهُ فِي هَذِهِ الرِّيَاضِ الْمُونِقَةِ الْمُعْجِبَةِ الَّتِي تَرْقُصُ الْقُلُوبُ لَهَا فَرَحًا، وَيُغْتَنَىٰ بِهَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ.

فَمِثْلُ هَذَا الْفَصْلِ يُعَضُّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَتُثْنَىٰ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ، فَإِنَّهُ يُشْرِفُ بِكَ عَلَىٰ عَجَائِبِ أَسْرَارٍ تَجْتَنِيهَا مِنْ كَلَامِ اللهِ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ».

وَالْفَصْلُ مَذْكُورٌ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» لِلْإِمَامِ الْعَلَمِ الْعَلَّامَةِ الْهُمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ.

* نَمُوذَجٌ آخَرُ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان:١].**

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَفْظُ الْعَبْدِ فِي الْقُرْآنِ يَتَنَاوَلُ مَنْ عَبَدَ اللهَ، فَأَمَّا عَبْدٌ لَا يَعْبُدُهُ فَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ عَبْدِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ [**الحجر**:٤٢].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**إلا من اتبعك من الغاوين**﴾ [**الحجر**:٤٢]. فَالِاسْتِثْنَاءُ فِيهِ مُنْقَطِعٌ كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَالْعُلَمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**عينا يشرب بها عباد الله**﴾ [**الإنسان**:٦].

﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هونا**﴾ [**الفرقان**:٦٣].

﴿**واذكر عبدنا داود**﴾ [**ص**:١٧].

﴿**نعم العبد إنه أواب**﴾ [**ص**:٣٠].

﴿**واذكر عبدنا أيوب**﴾ [**ص**:٤١].

﴿**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب**﴾ [**ص**:٤٥].

﴿**فوجدا عبدا من عبادنا**﴾ [**الكهف**:٦٥].

﴿**سبحان الذي أسرىٰ بعبده**﴾ [**الإسراء**:١].

﴿**إنه كان عبدا شكورًا**﴾ [**الإسراء**:٣].

﴿**وإن كنتم فِي ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا**﴾ [**البقرة**:٢٣].

﴿**فأوحىٰ إلىٰ عبده ما أوحىٰ**﴾ [**النجم**:١٠].

﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن:١٩].

﴿تبارك الذي نزل الفرقان علىٰ عبده﴾ [الفرقان:١]. وَنَحْوُ هَذَا كَثِيرٌ.

*** نَمُوذَجٌ آخَرُ:**

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ [الحديد:١٦-١٧].

أَشَارَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ سِرِّ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ فَقَالَ: «فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسَاوَتِهَا، وَيَهْدِي الْحَيَارَىٰ بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيُفَرِّجُ الْكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الْهَتَّانِ الْوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ.

فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلُّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ».

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِسَنَدِهِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم علىٰ قلوب أقفالها﴾**

[**محمد:٢٤**]، فَقَالَ شَابٌّ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ: بَلْ عَلَيْهَا أَقْفَالُهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ ﷻ يَفْتَحُهَا أَوْ يُفَرِّجُهَا، فَمَا زَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّىٰ وَلِيَ فَاسْتَعَانَ بِهِ لِمَا كَانَ مِنْ سَالِفِ فِقْهِهِ وَفَهْمِهِ، وَجَوْدَةِ تَدَبُّرِهِ لِكَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا).

النَّمَاذِجُ كَثِيرَةٌ عِنْدَ تَطَلُّبِهَا، مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالسِّرِّ فِي تَكْرَارِ الْأَفْعَالِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ: ﴿**قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين**﴾ [**سورة الكافرون**].

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ: فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْأَفْعَالِ، فَقِيلَ: فِيه وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**لا أعبد ما تعبدون**﴾ نَفْيٌ لِلْحَالِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ مُقَابِلُهُ؛ أَيْ لَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ أَيْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي ذَلِكَ قَطُّ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ؛ وَلِهَذَا أَتَىٰ فِي عِبَادَتِهِمْ بِلَفْظِ الْمَاضِي، قَالَ: ﴿**ما عبدتم**﴾؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: لَمْ أَعْبُدْ قَطُّ مَا عَبَدْتُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**ولا أنتم عابدون ما أعبد**﴾ مُقَابِلُهُ، أَيْ: لَمْ تَعْبُدُوا قَطُّ فِي الْمَاضِي مَا أَعْبُدُهُ أَنَا دَائِمًا، وَعَلَىٰ هَذَا فَلَا تَكْرَارَ أَصْلًا.

وَقَدِ اسْتَوْفَتِ الْآيَاتُ أَقْسَامَ النَّفْيِ مَاضِيًا وَحَالًا وَمُسْتَقْبَلًا، عَنْ عِبَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِمْ، بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ وَأَبْيَنِهِ، وَهَذَا -إِنْ شَاءَ اللهُ- أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهَا، فَلْنَقْتَصِرْ عَلَيْهِ، وَلَا نَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

وَأَمَّا الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ هِيَ اشْتِمَالُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَىٰ النَّفْيِ الْمَحْضِ فَهَذَا خَاصَّةُ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، فَإِنَّهَا سُورَةُ بَرَاءَةٍ مِنَ الشِّرْكِ، كَمَا جَاءَ فِي وَصْفِهَا: إِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي فَرْوَةَ الْأَشْجَعِيِّ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

فَمَقْصُودُ السُّورَةِ الْأَعْظَمُ الْبَرَاءَةُ الْمَطْلُوبَةُ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، لِهَذَا أَتَي بِالنَّفْيِ فِي الْجَانِبَيْنِ تَحْقِيقًا لِلْبَرَاءَةِ الْمَطْلُوبَةِ، هَذَا مَعَ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِثْبَاتِ صَرِيحًا.

فَقَوْلُهُ: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ بَرَاءَةٌ مَحْضَةٌ.

﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ إِثْبَاتُ أَنَّ لَهُ مَعْبُودًا يَعْبُدُهُ، أَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ عِبَادَتِهِ؛ فَتَضَمَّنَتِ النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ، وَطَابَقَتْ قَوْلَ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ: **﴿إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]**.

وَطَابَقَتْ قَوْلَ الْفِتْيَةِ الْمُوَحِّدِينَ: **﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾ [الكهف:١٦]**؛ فَانْتَظَمَتْ حَقِيقَةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

لِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا وَبِـ ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ وَسُنَّةِ الْمَغْرِبِ، فَإِنَّ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، قَدِ اشْتَمَلَتَا عَلَىٰ نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ الَّذِي لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ وَلَا فَلَاحَ لَهُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا: تَوْحِيدُ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ الْمُتَضَمِّنُ تَنْزِيهَ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، ﴿**لم يلد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ فَرْعٌ، ﴿**ولم يولد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ أَصْلٌ، ﴿**ولم يكن له كفوا أحد**﴾ فَيَكُونَ لَهُ نَظِيرٌ.

وَمَعَ هَذَا فَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي اجْتَمَعَتْ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ كُلُّهَا، فَتَضَمَّنَتِ السُّورَةُ إِثْبَاتَ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَنَفْيِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الشَّرِيكِ أَصْلًا وَفَرْعًا وَنَظِيرًا، فَهَذَا تَوْحِيدُ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَهُوَ أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَا يُشْرَكُ بِهِ فِي عِبَادَتِهِ سِوَاهُ، بَلْ يَكُونُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ.

وَسُورَةُ ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ هَذَا التَّوْحِيدِ، فَانْتَظَمَتِ السُّورَتَانِ نَوْعَيِ التَّوْحِيدِ وَأَخْلَصَتَا لَهُ، فَكَانَ ﷺ يَفْتَتِحُ بِهِمَا النَّهَارَ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ، وَيَخْتِمُ بِهِمَا فِي سُورَةِ الْمَغْرِبِ، وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ كَانَ يُوتِرُ بِهِمَا، فَيَكُونَا خَاتِمَةَ عَمَلِ اللَّيْلِ كَمَا كَانَتَا خَاتِمَةَ عَمَلِ النَّهَارِ.

يَالَلَّهِ الْعَجَبُ! مَا أَعْظَمَ التَّدَبُّرَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَمَا أَعْظَمَ الْفَتْحَ الَّذِي يُؤْتِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْمَانُّ وَحْدَهُ بِمَا شَاءَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْجُودِ، عَلَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْفَهْمِ وَالْفِقْهِ وَالتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ إِنَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

● ● ●

حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ

وَهَذَا أَيْضًا نَمُوذَجٌ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ، وَلِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامٌ نَفِيسٌ جِدًّا حَوْلَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَهَذَا هُوَ لِأَهَمِيَّتِهِ، وَفَائِدَتِهِ، كَمَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ «التِّبْيَانُ فِي أَقْسَامِ -أَوْ أَيْمَانِ- الْقُرْآنِ».

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّحِيحُ أَنَّ ﴿**ن**﴾ وَ﴿**ق**﴾ وَ ﴿**ص**﴾، مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ الَّتِي يَفْتَتِحُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ بِهَا بَعْضَ السُّوَرِ، وَهِيَ أُحَادِيَّةٌ وَثُنَائِيَّةٌ وَثُلَاثِيَّةٌ وَرُبَاعِيَّةٌ وَخُمَاسِيَّةٌ، وَلَمْ تُجَاوِزِ الْخَمْسَةَ، وَلَمْ تُذْكَرْ قَطُّ فِي أَوَّلِ سُورَةٍ إِلَّا وَعَقِبَهَا يَذْكُرُ الْقُرْآنَ، إِمَّا مُقْسِمًا بِهِ، وَإِمَّا مُخْبِرًا عَنْهُ، مَا خَلَا سُورَتَيْنِ، سُورَةَ ﴿**كهيعص**﴾ وَ﴿**ن**﴾؛ كَقَوْلِهِ: ﴿**الم ذلك الكتاب**﴾ فِي الْبَقَرَةِ.

﴿**الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب**﴾. فِي آلِ عِمْرَانَ.

﴿**المص كتاب أنزل إليك**﴾ فِي الْأَعْرَافِ.

﴿**المر تلك آيات الكتاب**﴾ كَمَا فِي الرَّعْدِ.

وَهَكَذَا إِلَىٰ آخِرِهِ.

فَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ شَرَفِ هَذِهِ الْحُرُوفِ، وَعِظَمِ قَدْرِهَا وَجَلَالَتِهَا، إِذْ هِيَ مَبَانِي كَلَامِهِ وَكُتُبِهِ الَّتِي تَكَلَّمَ سُبْحَانَهُ بِهَا، وَأَنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ، وَهَدَىٰ بِهَا عِبَادَهُ، وَعَرَّفَهُمْ بِوَاسِطَتِهَا نَفْسَهُ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَأَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَعَرَّفَهُمْ بِهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالْحَسَنَ وَالْقَبِيحَ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ التَّكَلُّمِ بِهَا بِحَيْثُ يَبْلُغُونَ بِهَا أَقْصَىٰ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَسْهَلِ طَرِيقٍ، وَأَقَلِّهِ كَلَفَةً وَمَشَقَّةً، وَأَوْصَلِهِ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ، وَأَدَلِّهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، كَمَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِهِ.

لِهَذَا عَابَ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَنْ عَبَدَ إِلَهًا لَا يَتَكَلَّمُ، وَامْتَنَّ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِأَنْ أَقْدَرَهُمْ عَلَىٰ الْبَيَانِ بِهَا بِالْكَلَامِ، أَيْ بِتِلْكَ الْأَحْرُفِ، فَكَانَ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْحُرُوفِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ كَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكَمَالِ إِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَهِيَ أَوْلَىٰ أَنْ يُقْسِمَ بِهَا مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالسَّمَاءِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهِيَ دَالَّةٌ أَظْهَرَ دَلَالَةٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَكَلَامِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ.

وَقَدْ جَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ -يَعْنِي الْقُرْآنَ وَنُطْقَ اللِّسَانِ-، وَجَعَلَ تَعْلِيمَهُمَا مِنْ تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ كَمَا قَالَ: ﴿**الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان**﴾ [**الرحمن:١-٤**].

فَبِهَذِهِ الْحُرُوفِ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَبِهَا عَلَّمَ الْبَيَانَ، وَبِهَا فَضَّلَ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ، وَبِهَا أَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَبِهَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ، وَبِهَا جُمِعَتِ الْعُلُومُ

وَحُفِظَتْ، وَبِهَا انْتَظَمَتْ مَصَالِحُ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَبِهَا تَمَيَّزَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ، وَبِهَا جُمِعَتْ أَشْتَاتُ الْعُلُومِ، وَبِهَا أَمْكَنَ تَنَقُّلُهَا فِي الْأَذْهَانِ.

وَكَمْ جُلِبَ بِهَا مِنْ نِعْمَةٍ، وَدُفِعَ بِهَا مِنْ نِقْمَةٍ، وَأُقِيلَتْ بِهَا مِنْ عَثْرَةٍ، وَأُقِيمَتْ بِهَا مِنْ حُرْمَةٍ، وَهُدِيَ بِهَا مِنْ ضَلَالٍ، وَأُقِيمَ بِهَا مِنْ حَقٍّ، وَهُدِمَ بِهَا مِنْ بَاطِلٍ.

فَآيَاتُهُ سُبْحَانَهُ فِي تَعْلِيمِ الْبَيَانِ كَآيَاتِهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَسُبْحَانَ مَنْ هَذَا صُنْعُهُ فِي هَوَاءٍ يَخْرُجُ مِنْ قَصَبَةِ الرِّئَةِ، فَيَنْضَمُّ فِي الْحُلْقُومِ، ثُمَّ يَنْفَرِشُ فِي أَقْصَىٰ الْحَلْقِ وَوَسَطِهِ وَآخِرِهِ، وَأَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ، وَعَلَىٰ وَسَطِ اللِّسَانِ وَأَطْرَافِهِ، وَبَيْنَ الثَّنَايَا، وَفِي الشَّفَتَيْنِ وَالْخَيْشُومِ، فَيُسْمَعُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ مَقْطَعٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَاطِعِ صَوْتٌ سِوَىٰ صَوْتِ الْمَقْطَعِ الْمُجَاوِرِ لَهُ، فَإِذَا هُوَ حُرُوفٌ.

فَأَلْهَمَ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ نَظْمَ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فَإِذَا هِيَ كَلِمَاتٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا، ثُمَّ أَلْهَمَهُ تَأْلِيفَ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ فَإِذَا هِيَ كَلَامٌ دَالٌّ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الْمَعَانِي أَمْرًا وَنَهْيًا، وَخَبَرًا وَاسْتِخْبَارًا، وَنَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَإِقْرَارًا وَإِنْكَارًا، وَتَصْدِيقًا وَتَكْذِيبًا، وَإِيجَابًا وَاسْتِحْبَابًا، سُؤَالًا وَجَوَابًا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخِطَابِ نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ، وَوَجِيزِهِ وَمُطَوَّلِهِ، عَلَىٰ اخْتِلَافِ لُغَاتِ الْخَلَائِقِ، كُلُّ ذَلِكَ صَنْعَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَوَاءٍ مُجَرَّدٍ خَارِجٍ مِنْ بَاطِنِ الْإِنْسَانِ إِلَىٰ ظَاهِرِهِ، جَارٍ فِي مَجَارٍ قَدْ هُيِّئَتْ وَأُعِدَّتْ لِتَقْطِيعِهِ وَتَفْصِيلِهِ، ثُمَّ لِتَأْلِيفِهِ وَتَوْصِيلِهِ؛ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، فَهَذَا شَأْنُ الْحَرْفِ الْمَخْلُوقِ.

وَأَمَّا الْحَرْفُ الَّذِي تَكُونُ بِهِ الْمَخْلُوقَاتُ؛ فَشَأْنُهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ، وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الْحُرُوفِ فَحَقِيقٌ أَنْ تُفْتَتَحَ بِهَا الصُّوَرُ، كَمَا افْتُتِحَتْ بِالْأَقْسَامِ لِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَدِلَّةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ.

وَإِذَا أَعْطَيْتَ الِاسْتِدْلَالَ بِهَا حَقَّهُ اسْتَدْلَلْتَ بِهَا عَلَىٰ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ، فَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ أَدِلَّةِ شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَكَلَّمَ بِهِ حَقًّا، وَأَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَحْيًا، وَبَلَّغَهُ كَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ صِدْقًا.

وَلَا تُهْمِلِ الْفِكْرَةَ فِي كُلِّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بِهَا هَذِهِ الْحُرُوفُ، وَاشْتِمَالَهَا عَلَىٰ آيَاتِ هَذِهِ الْمَطَالِبِ وَتَقْرِيرِهَا.

وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يُوَفِّقُكَ.

مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْبَغِي أَنْ تُنْفَقَ فِيهِ الْأَعْمَارُ وَيُحْرَصَ عَلَيْهِ، مَا يَتَعَلَّقُ بِكِتَابِ اللهِ.

مِنَ الْآنَ! فَلْنَنْظُرْ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا نَظْرَةً جَدِيدَةً، مُشْتَمِلَةً عَلَىٰ التَّدَبُّرِ فِي الْآيَاتِ، وَلَا يَكُنْ مِنْ هَمِّنَا أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ آخِرِ السُّورَةِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَمُّنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ فِي خِطَابِ رَبِّنَا لَنَا، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ الْقُرْآنَ وَهُوَ كَلَامُهُ، مُوَجَّهًا إِلَىٰ خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، لِهِدَايَتِهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْعَقِيمِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ذَلِكَ أَتَمَّ بَيَانٍ وَأَحْسَنَهُ، وَوَضَّحَهُ رَبُّنَا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وَأَجْمَلَهُ وَفَصَّلَهُ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ فَقَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَىٰ خَلْقِ اللهِ فِي أَرْضِهِ.

فَلَا يَنْبَغِي، وَالْقُرْآنُ خِطَابٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ إِلَيْكَ، بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ ﷺ، أَنْ تُهْمِلَ فَهْمَ خِطَابِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا أَرْسَلَ إِلَىٰ آحَادِ الرَّعِيَّةِ كِتَابًا فَأَخَذُوا يَتَأَمَّلُونَ فِي ظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ نَفَاذٍ إِلَىٰ حَقِيقَةِ مَعَانِيهِ فِي بَاطِنِهِ، فَلَمْ يَمْتَثِلُوا أَمْرًا أَمَرَ بِهِ الْمَلِكُ، وَلَمْ يَنْتَهُوا عَنْ نَهْيٍ نَهَىٰ عَنْهُ الْمَلِكُ، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا فِي إِرْشَادَاتِهِ وَآدَابِهِ وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا دَارُوا حَوْلَ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَنْفُذُوا إِلَىٰ مَعَانِيهَا، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلِكَ يُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ عِقَابٍ وَأَمَرَّهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا مَقْصُودَهُ مِنْ خِطَابِهِ إِلَيْهِمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْخِطَابُ لَنَا مِنْ كَلَامِ رَبِّنَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ؟!

وَالْقُرْآنُ هِدَايَةُ الْعَالَمِ، وَهُوَ الْمُخَلِّصُ مِنَ الْمَأْزِقِ الَّذِي فِيهِ الْخَلْقُ فِي الْأَرْضِ، لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَإِذَا كَانَ النَّاسُ لَا يَفْهَمُونَ كِتَابَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا لَهُ يَتَدَبَّرُونَ، وَلَا عَلَيْهِ بِالنَّظَرِ وَالْفِقْهِ وَالْفَهْمِ يَعْكُفُونَ؛ فَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْعَالَمُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْبُؤْسِ، وَمَا هُوَ فِيهِ وَمُقْدِمٌ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَرِ؟!

وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِهِدَايَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَيُضَمُّ إِلَيْهَا هِدَايَةُ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ السُّنَّةِ، فَهِيَ كَالْمُذَكِّرَةِ التَّوْضِيحِيَّةِ الْمُفَسِّرَةِ، وَهِيَ الَّتِي تُبَيِّنُ مَا أُجْمِلَ، وَهِيَ الَّتِي تُفَصِّلُ مَا جُمِعَ، وَهِيَ الَّتِي تُخَصِّصُ مَا عُمِّمَ، وَهِيَ الَّتِي تُقَيِّدُ مَا أُطْلِقَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَلَاقَةِ السُّنَّةِ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

فَعلَيْنَا أَنْ نُولِيَ ذَلِكَ أَعْظَمَ اهْتِمَامٍ، وَأَنْ نَتَوَفَّرَ عَلَيْهِ تَوفُّرًا يُؤَدِّي بِنَا إِلَىٰ فَهْمِ كَلَامِ رَبِّنَا، بَعْدَ تَدَبُّرِهِ تَدَبُّرًا صَحِيحًا.

وَكَمَا رَأَيْتُ مِنْ حَالِ الْأَئِمَّةِ، وَهُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ، قَطْرَةٌ فِي بَحْرٍ مِمَّا أَتَوْا بِهِ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عِنْدَ نَظَرِهِمْ وَتَدَبُّرِهِمْ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا، وَمَا فَتَحَ اللهُ لَهُمْ مِنْ آفَاقِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ عِنْدَ إِخْلَاصِ قُلُوبِهِمْ، وَانْطِلَاقِ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ بِالشَّوْقِ وَالْمَحَبَّةِ لِتَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَلَا.

فَهَذَا الَّذِي فَتَحَ لَهُمْ فِيهِ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذَلِكَ الْفَتْحَ الْعَظِيمَ مَسْطُورٌ مَزْبُورٌ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ.

وَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَبْحَثَ وَأَنْ يَتَأَمَّلَ وَأَنْ يَتَدَبَّرَ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ مَعْنَىٰ الْقُرْآنِ الَّذِي أَرَادَهُ الرَّحْمَنُ تَوْصِيلًا لِلْإِنْسَانِ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَىٰ، أَنْ يَفْتَحَ بِنَا فِي الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ فَتْحًا مُبَارَكًا؛ إِنَّهُ هُوَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ، وَالْبَرُّ الرَّحِيمُ، وَهُوَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَبَعْدُ: فَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنْ جَمْعٍ وَإِعْدَادٍ وَتَرْتِيبٍ وَقِرَاءَةٍ فِي بَعْضِ مَوَادِّ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْكَبِيرِ وَهُوَ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْمَجِيدُ.

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ وَنِعْمَتِهِ، فِي مَجَالِسَ أَوَّلُهَا فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعمِئَةٍ وَأَلْفٍ، مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

الْمُوَافِقَ لِلسَّابعِ مِنْ شَهرِ يُونْيَه، سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَآخِرُهَا فِي لَيْلَةِ السَّبْتِ، الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، سَنَةَ ثَمانٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ، مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْمُوَافِقَ لِلسَّابعَ عَشَرَ مِنْ شَهرِ يُونْيَه، سَنَة سَبْعَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَكَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ، وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَعَطَائِهِ تَعالَىٰ وَرَحْمَتِهِ، فِي الْمَسْجِدِ الشَّرْقِيِّ بِسُبْكِ الْأَحَدِ، مِنْ أَعْمَالِ مُحَافَظَةِ الْمُنُوفِيَّةِ، بِمِصْرَ حَفِظَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ وَتآمُرٍ وَخِيانَةٍ وَغَدْرٍ.

وَصَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ أَبَوَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْآلِ وَالصَّحْبِ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

